

الفصل الأول

استدلالهم بأحاديث الآحاد في

باب الإيمان بالله وموقف المخالفين منها والرد عليهم

وفيه :

- تمهيد
- طرق إثبات العقائد .
- التوحيد الذي دعت إليه الرسل .
- الإيمان هو حق الله على العباد .
- شعب الإيمان .
- الاستدلال على وجود الله سبحانه
- طريقة المخالفين في الاستدلال على وجود الله .
- أول واجب في الإسلام على المكلف .
- الإيمان بالله عند المتكلمين .
- الإيمان عند السلف وموقفهم من المتكلمين .
- حقيقة التوحيد عند المتكلمين .
- حقيقة التوحيد عند السلف وموقفهم من المتكلمين .



تمهيد :

أرسل الله سبحانه إلى هذه الأمة رسولاً مبشراً ونذيراً ، وأنزل عليه الكتاب هادياً ومنيراً ، فكانت دعوته ﷺ مؤيدة بالوحي الإلهي ، قرآناً وسنة ، فاستجابت الأمة إلى الهدى ، ولقي رسول الله ﷺ ربه بعد أن ترك أمته على المحجة البيضاء . ((فيا عجباً ممن يزعم أن الهداية والسعادة لا تحصل بالقرآن ولا بالسنة ، مع أن النبي ﷺ لم يهتد إلا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (١) . ثم بعد ذلك يحيلها على قول فلان وفلان . وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٢) . والآيات في هذا المعنى كثيرة ، فوجب على كل من عقل عن الله أن يكون على بصيرة ويقين في دينه . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) ومحال أن يحصل اليقين والبصيرة إلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكيف ينال الهدى والإيمان من زعم أن ذلك لا يحصل من القرآن إنما يحصل من الآراء الفاسدة التي هي زبالة الأذهان .. وهذه المتابعة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هي حقيقة دين الإسلام ، الذي افترضه الله على الخاص والعام ، وهو حقيقة الشهادتين الفارقتين بين المؤمنين والكفار ، والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار ، إذ معنى الإله : هو المعبود المطاع ، وذلك هو دين الله الذي ارتضاه لنفسه وملائكته ورسله وأنبيائه ، فيه اهتدى المهتدون وإليه دعا المرسلون)) (٤) .

وكان ذلك حال سلف الأمة متابعة واقتداء بمن سبقهم من صحابة رسول

(١) سورة سبأ آية : ٥١ .

(٢) سورة الحشر : ٧ .

(٣) سورة يوسف آية : ١٩ .

(٤) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، المكتب الإسلامي ، ط ٥ ، ١٤٠٢ هـ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

الله ﷻ وتابعيهم ، حتى نبتت نابتة الفرق وأهل الزيغ والضلال من الخوارج والشيعة وأهل الاعتزال والكلام ((وتجد المصنّفين في الكلام يبدعون بمقدماته في الكلام : في النظر والعلم والدليل ، وهو من جنس المنطق ، ثم ينتقلون إلى حدوث العالم وإثبات محدثه ، ومنهم من ينتقل من تقسيم المعلومات إلى الموجود والمعدوم وأقسامه ، كما يفعل الفيلسوف في أول العلم الإلهي ..

وأما الغاية التي يرمي إليها المتكلمون الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر هي إثبات وحدانية الخالق ، وإنه لا شريك له ، ويظنون أن هذا هو المراد بـ (لا إله إلا الله) . هذا المنهج الفلسفي الكلامي يشغل الباحث والناظر فيه في قضايا ينقضي العمر ، ولا ينتهي من بعضها ، بل إن الذي يحصله منها ينطوي على شبهات تجعل اليقين غير موجود ، فيصاب الباحث بالحيرة والشك .

أما المنهج القرآني ، فإنه يجعل فاتحة دعوته ودعوة الرسل جميعاً : الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) وكل رسول كان يطالب قومه في أول الأمر بأن يعبدوا الله وحده ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) يطالبهم بعبادته بالقلب ، وعبادته باللسان ، وعبادته بالجوارح ، وعبادة الله متضمنة لمعرفته وذكره . وأصل العلم عندهم هو العلم بالله سبحانه ، لا الحس ولا البدهيات ، فالله هو الأول الذي خلق الكائنات ، والآخر الذي إليه تصير الحادثات ، فهو الأصل الجامع ، والعلم به أصل كل علم وجامعة ، وذكره أصل كل ذكر وجامعه ، والعمل له أصل كل عمل وجامعه (٣) .

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٥ .

(٢) سورة المؤمنون : ٢٣ .

(٣) العقيدة في الله ، د . عمر الأشقر ، دار النفائس ط ١٢ عمّان ١٤١٩ هـ ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

طرق إثبات العقائد

والناس في طرق إثبات العقائد على خمس فرق : -

١ - المعتمدون على العقل المكذبون للرسل - الفلاسفة - :

وهم الذي يستكفون عن اتباع الرسل الذين جاءوا بالخبر الصادق ، ويحاولون أن يعرفوا الحقيقة عما وراء الكون المشهود بعقولهم .. وزعم هؤلاء أن ما جاءت به الرسل لا يفيد اليقين .

٢ - منهج فلاسفة الإسلام :

وهم الذين رضوا بما جاءت به الرسل ولكنهم لم يتخلصوا من تلك النزعة الاستقلالية التي يحاولون بها الاعتماد على أنفسهم في مجال لم يعطهم الله القدرة على الخوض فيه ، ومن هؤلاء من رفض الاحتجاج على العقيدة بالقرآن والحديث المتواتر ما لم تكن دلالتها قطعية ، أما أحاديث الآحاد فهي مرفوضة رفضاً كلياً ، فلا يجيزون الاحتجاج بها لا في العقيدة ولا في الأحكام ، ومن هؤلاء المعتزلة والخوارج .

٣ - منهج أصحاب الكشف والتجليات :

وهم الصوفية الذي يزعمون أن لهم طريقاً خاصاً يعرفون به ربهم وعوالم الغيب والأحكام ، وهي طريق الكشف والتجليات المزعومة ، فيقول أحدهم : ((حدثني قلبي عن ربي)) ويزعم قائلهم أن طريقهم هذا أقوم لأن طريق العلماء حديث فلان عن فلان عن رسول الله عن جبريل وطريقهم حديث القلب عن الرب .

٤ - منهج الذين يرفضون الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد :

وهم الذي يرفضون الاحتجاج بأحاديث الآحاد في مسائل الاعتقاد ، فلا يحتجون إلا بالقرآن أو المتواتر من الأحاديث ، ولا يثبتون العقيدة بالقرآن والحديث المتواتر إلا إذا كان النص قطعي الدلالة ، وإذا لم يكن النص قطعي الدلالة فإنه لا يجوز الاحتجاج به عندهم . قال بذلك علماء الكلام قديماً ،

وتابعهم بعض علماء الأصول ، وقد انتشر هذا القول في أيامنا ، حتى كاد ينسى القول الحق ، ويستغرب من قائله . والعلماء قديماً وحديثاً كانوا ولا زالوا يبينون فساد هذا القول وخطورته ، ويكشفون شبه القائلين به .

٥ - منهج السلف الصالح :

يرى علماء السلف الصالح أن كل ما أخبرنا الله به ، أو أخبرنا به رسوله ﷺ ، ووصل إلينا بطريق صحيح ، يجب الإيمان به وتصديقه ، وهم لا يفرقون بين الخبر المتواتر وخبر الأحاد ، إذا كان صحيحاً ، بل يثبتون العقائد بهما من غير تفريق .

ويستدلون على ذلك بالأدلة العامة التي تأمرنا بتصديق الله ورسوله فيما أخبرنا به ، وطاعتهما فيما أمرا به مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) . وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ (٢) ، (٣) .

وبهذا فإن مصدري العقيدة عند أهل السنة والجماعة هما الكتاب والسنة . قال شيخ الإسلام رحمه الله " واعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة ، أهل السنة والجماعة ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره .. فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون ، فإنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. وهذا الباب في كتاب الله تعالى كثير ، من تدبر القرآن طالب الهدى تبين له طريق الحق ، ثم سنة رسول الله ﷺ تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه ، وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التي

(١) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران : ٣٢ .

(٣) انظر العقيدة في الله ، د. عمر الأشقر ، ص ٥١ - ٥٣ ؛ أصل الاعتقاد ، د. عمر الأشقر ص ٧ - ١٤ .

تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها)) (١).

وإذا كان هذا حال عقيدة السلف ، فإن عقيدة أهل الكلام تبدأ بالكلام في النظر والمنطق وحدوث العالم والجواهر والأعراض والكيفيات والصوت والصدى والذوق واللمس والأفلاك والأجرام ، وفي نهاية المطاف وآخر الأبواب يثبتون ذاتاً وصانعاً ثم يصفونه بصفات السلوب ، ليس في جهة ولا مكان ، وليس بجسم ، وليس جوهرأً ، وممتنع أن يقوم بذاته حادث ، وهم يقصدون بهذا نفي علوه واستوائه على عرشه ، ونفي صفاته كالوجه واليد وغيرهما ، وصفة النزول والمجيء .. (٢) .

ثم يثبتون توحيداً ناقصاً يعترف به مشركوا الجاهلية ، وهو أن الله خالق كل شيء . معرضين عن توحيد الألوهية الذي من أجله أرسل الرسل وخلق الخلق ، ويحيلون هذا التوحيد العظيم إلى أبواب الفقه ، ثم يجيزون الاستدلال عليه بأخبار الأحاد الظنية عندهم ! .

((لقد ابتعد علم الكلام على مرّ الزمن عن القرآن مقترباً من الفلسفة ، حتى ليوشك أن يصير فلسفة عقلية بحته وقد عمل رسول الله ﷺ جاهداً في أن يوطد أركان هذه العقيدة في نفوس الذين اتبعوه ، ولم يفعل ذلك عن أمره ، وإنما فعله منفذاً للوحي المعصوم ؛ ذلك أن القرآن في جميع أجزائه قد جعل هذه العقيدة ، أولى العقائد الجوهرية: لا إله إلا الله : إنها كلمة التوحيد ، وهي كلمة الإخلاص ، وهي أول ما ينطق به الشخص حينما يعتنق الإسلام ، وتوحيد الله هو جوهر وحدة الدين... وكذلك الأحاديث الشريفة التي ترسم للمؤمنين الطريق الذي يجب أن يتبعوه احتفاظاً بالوحدة ، واتباعاً للنهج الصحيح ، وابتغاءً للطمأنينة القلبية.. وليس بعسير تبیین هذه العوامل وتوضيحها ، فإن القرآن الكريم والسنة الشريفة قد بيّنا ذلك في وضوح ، وفي أسلوب لا لبس فيه ، وبيّنا أيضاً العلاج الذي ينجع ، وقد وضّح سلفنا الصالح نهج الكتاب والسنة في أمر العقائد)) (٣) .

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ، ابن تيمية ، ج ١ ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ .

(٢) انظر المواقف في علم الكلام ، عبد الرحمن الإيجي ، مكتبة المتنبي ، القاهرة وغيره (من كتب أهل الكلام) الفهرس ص ٣ - ٢٠ .

(٣) التوحيد الخالص ، الدكتور عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة ، مصر ١٣٩٣هـ ، ص ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

التوحيد الذي دعت إليه الرسل

أرسل الله رسله وأنزل كتبه ، لدعوة الناس إلى التوحيد الذي هو حق الله سبحانه على العبيد ، فكان القرآن العظيم آخر ما أنزل من الكتب على آخر الرسل وخاتمهم محمد ﷺ ، وكان " التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ، ليس كمثله شيء في ذلك كله ، كما أخبر عن نفسه ، وكما أخبر رسوله ﷺ . وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح كما في أول سورة آل عمران والحديد والسجدة وسورة الإخلاص وغير ذلك .

والثاني : هو توحيد الطلب والقصد ، مثل ما تضمنته سورة الكافرون وجملة سورة الأنعام وغيرها وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد ، بل كل سورة في القرآن . فالقرآن أما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري . وأما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي .

وأما أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته .

وأما خبر عن إكرامه لأهل توحيده ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وأما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبي من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم^(١) .

ثم كانت سنة المصطفى ﷺ صريحة في الدعوة إلى التوحيد ، ويتجلى هذه في

(١) العقيدة الطحاوية لابن أبي العز تعليق الشيخ الألباني ، ص ٨٩ .

حديث معاذ رضي الله عنه عندما أرسله ﷺ إلى اليمن مبلغاً وداعياً إلى الإيمان بالله وبرسوله فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : ((إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)) (١) .

ثم قال النووي وابن حجر : وفي هذه الحديث قبول خبر الواحد. (٢) .

وفي كتاب أخبار الأحاد من صحيح البخاري الذي ترجم باباً في وصاة النبي ﷺ وفود العرب بأن يبلغوا من وراءهم . قال ابن حجر في شرحه لقوله ﷺ : ((أحفظوهم وأبلغوهم من وراءكم)) فإن الأمر بذلك يتناول كل فرد ، فلو أن الحجة تقوم بتبليغ الواحد ما حضهم عليه .

أخرج البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن وفد عبد القيس لما أتوا رسول الله ﷺ قال : من الوفد ؟ قالوا ربعة ، قال : مرحباً بالوفد والقوم غير خزايا ولا ندامى ، قالوا : يا رسول الله ، إن بيننا وبينك كفار مضر ، فمرنا بأمر ندخل به الجنة ونخبر به من وراءنا . فسألوا عن الأشرية ، فنهاهم عن أربع ، وأمرهم بأربع ، وأمرهم بالإيمان بالله ، هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وتؤتوا من المغنم

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، باب أخذ الصدقة من الأغنياء ، ج ٣ ، ص ٣٥٧

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، باب أخذ الصدقة ، ج ٣ ، ص ٣٦٠ .

الخمس .. قال احفظوهن وأبلغوهن من وراءكم)) (١) .

وهذا الحديث الصحيح ردّ على أولئك الذين يقولون إن الإيمان هو القول والتصديق ويؤخرون الأعمال كالأحناف والأشاعرة والجهمية وكذلك المرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان معصية . وهنا يبين الرسول ﷺ ركائز الإيمان التي يقوم عليها وذلك في مقام التعليم والتوجيه لأولئك الذين جاءوا يسألون عن الأمر الذي يدخلهم به الجنة : فكان جواب المصطفى ﷺ موضحاً لهم أن الإيمان هو سبب دخول الجنة ، ثم بين ﷺ أن أركان الإيمان هي أركان الإسلام من الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام ، ولم يذكر الحج لتأخر فرضه أو لكونه معلوماً عند العرب ، أو لأنه ليس بفرض عين إلا على المستطيع خاصة وأنهم يشكون عدم الأمان في طريقهم إلى النبي ﷺ (٢) .

وبهذا يتضح أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، وأن الإيمان والإسلام مترادفان متحدان إذا تفرقا كما في هذا الحديث فكلاهما بمعنى واحد ، وأنهما يختلفان إذا اجتمعا اختلاف تفصيل وبيان ، كما في حديث جبريل في سؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان . فالإيمان بالله يقتضي الإسلام كله ، وكذلك شهادة أن لا إله إلا الله بشروطها التي استقرأها علماء أهل السنة والجماعة من القرآن والسنة ، فقال الناظم :

((وبشروط سبعة قد قيدت وفي نصوص الوحي حقاً وردت

العلم واليقين والقبول والانقياد فادر ما أقول

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أخبار الآحاد ، باب وصاة النبي وفود العرب أن يبلغوا أمرهم ج ١٣ ، ص ٢٤٢ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

(٢) فتح الباري ، كتاب الإيمان ، باب أداء الخمس من الإيمان ، ج ١ ، ص ١٣٤ .

والصدق وإخلاص والمحبة وفقك الله لما أحببته (١)

وكذلك حديث ضمام بن ثعلبة عندما وفد على رسول الله ﷺ يسأله عن أمور الإسلام ، ثم عاد يخبر ويبلغ قومه شرائع الإسلام ، وقد أدرجه البخاري رحمه الله في كتاب العلم ثم ترجم له باباً ، فيما جاء في العلم ، وقوله تعالى ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٢) .

فعن شريك بن عبد الله بن أبي نمر أنه سمع أنس بن مالك يقول : بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم أيكم محمد - والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم - فقلنا هذا الرجل الأبيض المتكئ ، فقال له الرجل : ابن عبد المطلب . فقال له النبي ﷺ : ((قد أجبتك : فقال الرجل للنبي ﷺ : إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد علي في نفسك . فقال : سل عما بدا لك . فقال . أسألك بربك ورب من قبلك ، الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : اللهم نعم .. قال : أنشدك بالله ، الله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال : اللهم نعم . قال : أنشدك بالله . الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ فقال ﷺ : اللهم نعم . فقال الرجل آمنت بما جئت به . وأنا رسول من ورائي من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر .

وزاد مسلم : قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها ولا أنقص . فقال النبي ﷺ : لئن صدق ليدخلن الجنة (٣) .

بل إن هذا الحديث مشتمل على رحلة الإيمان الخالد ، والمتجدد من الله

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول ، الشيخ حافظ الحكمي ، تعليق عمر بن محمود ، دار القيم ، الدمام ١٤١٠هـ ، ج ٢ ، ص ٤١٨

(٢) سورة طه : ١١٤ .

(٣) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب ما جاء في العلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ج ١ ، ص ١٤٨ . صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب في الإيمان بالله وشرائع الدين ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

سبحانه حين يرسل رسله إلى الخلق أجمعين يدعونهم إلى التوحيد وعبادة الله سبحانه، فما لبث ضمام بعد ما سمع رسالة التوحيد والإيمان إلا أن هداه الله وآمن ، وشعر بمسئولية وثقل تلك الأمانة فألزم نفسه تبليغ قومه نعمة هدي الإسلام لما أحس به من ثبات الاعتقاد ، وسلامة المنهج ، وصدق الرسول ، وصحة الرسالة .

وهذا رجل من أهل نجد جاء من البادية لا يفقه شيئاً عن دين الإسلام ، جاء بغرض معرفة هذا الدين والسؤال عنه وكيفية ، فهو في موقف المتعلم الجاهل لهذا الأمر .

فعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يقول : جاء رجل من أهل نجد إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس نسمع دوي صوته ، ولا نفقه ما يقول حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : ((خمس صلوات في اليوم والليلة ، فقال : هل علي غيرها ؟ قال لا ، إلا أن تطوع ، قال رسول الله ﷺ : وصيام رمضان ، قال : هل علي غيره ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع ، قال رسول الله ﷺ : والزكاة ، قال : هل علي غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع ، قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص ، قال رسول الله ﷺ ، أفلح إن صدق)) (١) .

((ولم يذكر الشهادتين : لأنه علم أنه يعلمها أو علم أنه إنما يسأل عن الشرائع الفعلية ، أو ذكرها ولم ينقلها الراوي لشهرتها ، وإنما لم يذكر الحج إما لأنه لم يكن فرض بعد أو الراوي اختصره ، ويؤيد هذا الثاني ما أخرجه المصنف في الصيام من طريق آخر ... قال : فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام)) (٢) .

ويشهد لهذا الحديث ما أورده مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب الزكاة من الإسلام ، ج ١ ، ص ١٠٦ . صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٢) فتح الباري ج ١ ، ص ١٠٧ .

الجنة قال تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال والذي نفسي بيده لا أزيد على هذه شيئاً ولا أنقص منه فلما ولى قال النبي ﷺ من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ^(١) .

وبهذا فإن الأمة قد تلقت أمر هذا الدين عبر أفراد أو طوائف لم يبلغوا في الغالب حد التواتر ، وشهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة إن هم أقاموا ما أمروا به وبلغهم ، وهذا مجمل الرسالة ، قبول وعمل في الدنيا ابتغاء وجه الله وجنته في الدار الآخرة .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان الذي يدخل الجنة ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

الإيمان هو حق الله على العباد

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ثم قال تعالى مبيناً الغاية من خلق الإنسان والجان : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعَمُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢) .

ثم يبين رسول الله ﷺ حق الله على عباده وحقهم إن هم آمنوا به وعبدوه ، ولم يشركوا به شيئاً وماتوا على ذلك .

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : ((كنت ردِّف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال يا معاذ ابن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك . قال هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ، قال قلت الله ورسوله أعلم ؟ قال أن لا يعذبهم - ثم قال في رواية أخرى : قال قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال لا تبشرهم فيتكلموا)) (٣) .

فالإيمان بالله تعالى له ((شطران : عقيدة نقية راسخة تستكن في القلب ، وعمل يظهر على الجوارح ، فإذا فقد أحد الركنين ، فإن الإيمان يزول أو يختل ؛ إذ الاتصال بين الطرفين وثيق جداً . ومثل الإيمان كشجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة ، وباسقة بسوقها في السماء ، مزهرة مثمرة معطاءة ، تعطي أكلها

(١) سورة البقرة آية : ٣٠ .

(٢) سورة الذاريات آية : ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ن كتاب الإيمان ، باب حق الله على العباد ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري : كتاب الاستئذان ، باب من أجاب بلبيك وسعديك ، ج ١١ ، ص ٦٠ .

كل حين بإذن ربها ، فالإيمان هو الشجرة ، وجذورها العقيدة التي تغلغت في قلب صاحبها ، والسوق والفروع والثمار هي العمل . ولذلك قال علماء السلف ، الإيمان : اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان وعمل بالأركان ، وهذا قول عامة السلف ومنهم الأئمة الثلاثة أحمد ومالك والشافعي ، وخالف الإمام أبو حنيفة فقال الإيمان ، الاعتقاد والنطق ، والعمل من لوازم الإيمان ولا يدخل في مسماه . وذهب فريق آخر إلى أن الإيمان مجرد التصديق فقط ، ولو لم يكن معه قول ولا عمل ، هذا مذهب الجهمية والأشاعرة . وذهبت الكرامية إلى أن الإيمان هو القول فقط)) (١) .

ولا شك أن كل من فرق بين مقتضيات الإيمان الثلاثة قد جانب الصواب وشطح عن الحق ، فالأحناف الذين هم الأقرب إلى قول أهل السنة، ولكن الدليل يعارض ما ذهبوا إليه ، وكان ذلك دهليزاً مرقت منه تلك الفرق المبتدعة كالجهمية والكرامية والصوفية وغيرها . وأما الخوارج والمعتزلة الذين جعلوا العمل شرطاً في صحة الإيمان فيزول بزوال العمل، ثم اختلفوا في إطلاق المسمى في الحياة الدنيا، واتفقوا على خاتمة من مات ولم يتب إلى الله من كبريته فهو في النار خالداً فيها .

وهذا مخالف لمذهب أهل السنة الذين يعتقدون أن العمل مكمل للإيمان وليس شرطاً في صحة الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، فتارك العمل مؤمن بإيمانه فاسق بكبريته ، وأمره إلى الله إن مات ولم يتب، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ثم يدخله الله الجنة ما لم يشرك بالله (٢) .

ويدل على هذا الأمر العظيم ما ورد في الصحيحين وغيرهما من حديث الشفاعة المتواتر مطوّلاً والذي اختص الله سبحانه لنفسه بالشفاعة فيمن قال لا إله إلا الله بعد أن دخل النار وعذب فيها ، كما تشهد بذلك الأحاديث الصحيحة .

(١) العقيدة في الله ، د . عمر الأشقر ، ص ٢٠ .

(٢) معارج القبول ، للشيخ حافظ الحكمي ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

فعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إذا كان يوم القيامة شفعت ... فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله . فيقول : وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله)) (١) .

وهذا حديث متواتر جامع معتمد لعقيدة أهل السنة ، وصحة اعتقادهم وفساد ما ذهب إليه مخالفوهم الذين قالوا إن الإيمان هو التصديق من غير عمل ، وعكسهم الذين قالوا إن العمل شرطاً في صحة الإيمان وإذا سقط الشرط سقط المشروط . فلا إيمان .

وهدى الله أهل السنة والجماعة ، أهل الوسط الذين قالوا إن الإيمان يزيد وينقص وإن شهادة لا إله إلا الله تنفع قائلها ، وهذا ما دلّ عليه الحديث الصحيح ، وخروج قائلها من النار بعد دخوله وعذابه فيها لمن يشاء ، وذلك بعزة الله وعظّمته وجلاله وكبريائه .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة لأتبيائه ج ١٣ ، ص ٤٧٣ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الشفاعة ج ٣ ، ص ٦٤ ؛ كطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق خليل الميس ، المكتب الإسلامي ١٤٠٥ هـ ، ص ٣٠٣ .

شعب الإيمان

وصف الله المؤمنين في كتابه بالفلاح والفوز في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) وحيث إن الإيمان الذي ((أثنى الله على أهله ليس هو العقيدة فحسب ، ولكن العقيدة تمثل قاعدة الإيمان وأصله ، فالإيمان عقيدة تستقر في القلب استقراراً يلزمه ، ولا ينفك عنه ، ويعلن صاحبها بلسانه عن العقيدة المستكنة في قلبه ، ويصدق الاعتقاد والقول بالعمل وفق مقتضى هذه العقيدة .

إن العقيدة التي تستكن في القلب ، ولا يكون لها وجود في العلانية عقيدة خاوية باردة ، لا تستحق أن تسمى عقيدة ، وقد نرى كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة على وجهها ، ولكنهم لا ينصاعون لها ، ولا يصوغون حياتهم وفقها ، بل قد يعارضون الحق الذي استيقنوه ويحاربونه ، فهذا إبليس يعرف الحقائق الكبرى معرفة يقينية، يعرف الله ، ويعرف صدق الرسل والكتب ، ولكنه نذر نفسه لمحاربة الحق الذي يعرفه)) (٣) .

ويقرر ابن تيمية أن الإيمان ليس مجرد التصديق فقط ، بل لابد من أمر آخر ، وهو عمل القلب الذي يتضمن الحب والانقياد والقبول والعمل فيقول رحمه الله : ((إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق ، وإنما هو الإقرار والطمأنينة ، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط ، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر ، وكلام الله خبر وأمر . فالخبر يستوجب تصديق المخبر ، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام ، وهو عمل القلب ، وجماعه الخضوع والانقياد للأمر ، وإن لم يفعل الأمور به ، فإذا قوبل الخبر والتصديق . والأمر بالانقياد ، فقد حصل أصل الإيمان في القلب ، وهو الطمأنينة والإقرار ، فإن اشتقاقه

(١) سورة المؤمنون آية : ١ .

(٢) سورة البقرة آية : ٥ .

(٣) العقيدة في الله . د . د . عمر الأشقر ، ص ١٩ .

من الأمر الذي هو القرار والطمأنينة ، وذلك يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد)) (١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان)) (٢) .

قال ابن القيم رحمه الله : ((أعمال القلوب هي الأصل المراد المقصود ، وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة ، وأن النية بمنزلة الروح ، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء ، الذي إذا فارق الروح فموات ، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث ، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح ، إذ هي أصلها ، وأحكام الجوارح متفرعة عليها ..

ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها ، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب ، وأنها لا تتفع بدونها ، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح فعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح ، وأكثر وأدوم ، فهي واجبة في كل وقت)) (٣) .

وقال القاضي عياض رحمه الله في شعب الإيمان : ((وقد تقدم أن أصل الإيمان في اللغة التصديق وفي الشرع تصديق القلب واللسان وظواهر الشرع تطلقه على الأعمال كما وقع هنا أفضلها لا إله إلا الله وآخرها إمطة الأذى عن الطريق ، وقد قدمنا أن كمال الإيمان بالأعمال وتمامه بالطاعات وأن التزام الطاعات وضم هذه الشعب من جملة التصديق ودلائل عليه . وأنها خلق أهل التصديق فليست خارجة عن اسم الإيمان الشرعي ولا اللغوي ، وقد نبه ﷺ على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته وأدائها ما

(١) الصارم المسلول لابن تيمية تحقيق . محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٥١٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان ، ج ١ ، ص ٥١ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان ، ج ٢ ، ص ٣ .

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم ، مكتبة القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، ٢٣٠ .

يتوقع ضرره بالمسلمين من إمطة الأذى عن طريقهم ، وبقي بين هذين الطرفين أعداد لو تكلف المجتهد تحصيلها بغلبة الظن وشدة التتبع لأمكنة ، وقد فعل ذلك بعض من تقدم ، وفي الحكم بأن ذلك مراد النبي ﷺ صعوبة ، ثم أنه لا يلزم معرفة أعيانها ، ولا يقدر جهل ذلك في الإيمان ، إذ أصول الإيمان وفروعه معلومة محققة، والإيمان بأنها هذا العدد واجب في الجملة)) (١) .

(١) شرح الإمام النووي لصحيح مسلم ، ج ٢ ، ص ٤ .

الاستدلال على وجود الله سبحانه

لم يكن الاستدلال على وجود الله مطلباً عند السلف الكرام ، ((وذلك نتيجة حقيقة علمهم بأن الخالق سبحانه لا يحتاج في معرفته إلى برهان ولا إلى قياس اليونان .

وقالوا اثنتا ببرهان فقلت لهم أنى يقوم على البرهان برهان وذلك أن الأنبياء عليهم السلام : دعوا الناس إلى عبادة الله أولاً بالقلب واللسان ، وعبادته متضمنة معرفته وذكره ، فأصل علمهم وعملهم ، هو العلم بالله ، والعمل لله ، وذلك فطري)) (١) .

((وتأمل حال العالم كله . علوية وسفلية ، بجميع أجزائه ، نجده شاهداً بإثبات صانعه ، وفطره ومليكه ، فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده ، لا فرق بينهما ، بل دلالة الخالق على المخلوق ، والفعال على الفعل ، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية والفطر الصحيحة؛ أظهر من العكس . فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه ، إذا استدل الناس بصنعه ، وأفعاله عليه ، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان كل منهما حق ، والقرآن مشتمل عليهما . فأما الاستدلال بالصنعة فكثير . وأما الاستدلال بالصانع فله شأن . وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم ((أفي الله شك)) أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟! وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول ؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى ؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) .. سمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - قدس الله روحه - يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل كل شيء؟ وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ١٩ .

(٢) سورة إبراهيم ١٠ .

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتّهما ((^(١)).

إن الفطر السليمة تشهد بوجود الله سبحانه من غير دليل ، بل إن توحيده سبحانه أمر فطري ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾^(٢) . وقد نص الرسول ﷺ على دليل الفطرة، ففي الصحيحين ، عن أبي هريرة قال ، قال ﷺ : ((كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه))^(٣) ولم يقل يسلمانه ، لأن الإسلام موافق للفطرة ، ((وقد أغلق الله جميع الطرق إلا طريقاً واحداً هو الموصل إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٤) . والرسول ﷺ هو الدليل الهادي إلى هذا الصراط وقد ألزم الله العباد بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر ، والانتفاء عما عنه نهى وزجر و ألا يعبد الله إلا بما شرع على لسانه ﷺ))^(٥) .

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : ((دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب ، فأتاه ناس من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم . قالوا : بشرتنا فأعطنا (مرتين) . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم . قالوا قد قبلنا يا رسول الله . قالو جئناك نسألك عن هذا الأمر قال : كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء . وكتب في الذكر كل شيء . وخلق السموات والأرض))^(٦) . وحيث إن معرفة الله

(١) مدارج السالكين لابن القيم ، مراجعة لجنة من العلماء، دار الحديث، القاهرة ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢١٩ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب القدر ، باب كل مولود يولد على الفطرة ، ج ١٦ ، ص ٢٠٩ .

(٥) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

(٦) مجموع فتاوي ابن تيمية ص ٤ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ج ٦ ، ص ٢٨٦ . مسند الإمام أحمد ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، ج ٤ ، ص ٤٢١ .

فطرة وجبلة فطر الله الناس عليها ، وقد كان هذا حال السلف ، فإذا كان السلف قد
اعتمدوا كلام الله وسنة رسول الله ﷺ في جميع المطالب ، وكافة المقاصد ، فإنه من
الواجب بيان مخالفة منهج المتكلمين فإن ((طريقة القرآن جاءت في أصول الدين
وفروعه في الدلائل والمسائل بأكمل وجه)) (١) .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨ .

طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود الله بالنظر

والمقدمات المنطقية والرد عليهم

ذهب المتكلمون إلى القول بوجوب النظر في الاستدلال على الله ، وعدّوا ذلك أول واجب على المكلف ، فقال البغدادي في أصول الدين : ((الصحيح عندنا قول من يقول إن أول الواجبات على المكلف النظر والاستدلال المؤدي إلى المعرفة بالله تعالى وبصفاته وتوحيده وعدله وحكمته ، ثم النظر والاستدلال المؤدي إلى جواز إرسال الرسل منه وجواز تكليف العباد ما شاء ، ثم النظر المؤدي إلى وجوب الإرسال والتكليف منه ، ثم النظر المؤدي إلى تفصيل أركان الشريعة ثم العمل بما يلزم منها)) (١) .

وقال صاحب المواقف : ((النظر في معرفة الله واجب إجماعاً وهي لا تتم إلا بالنظر وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .. وقد اختلف في أول واجب على المكلف فالأكثر على أنه معرفة الله تعالى إذ هو أصل المعارف الدينية وعليه يتفرع وجوب كل واجب ، وقيل هو النظر فيها لأنه واجب وهو قبلها ، وقيل أول جزء من النظر ، وقال القاضي ابن الطيب الباقلاني واختاره ابن فورك : القصد إلى النظر .. وقال أبو هاشم من المعتزلة : هو الشك)) (٢) . وقال الجبائي من المعتزلة : ((من لا يعرف الله بالدليل فهو كافر ، لأن ضد المعرفة نكره والنكرة كفر)) (٣) .

وذهب النظام من المعتزلة أيضاً ((إلى أن المتمكن من المعرفة إن كان عاقلاً فإنه يجب عليه تحصيل معرفة الباري تعالى بالنظر والاستدلال)) (٤) .

ويجاب على هؤلاء المتكلمين بأن قولهم إن أول الواجبات على المكلف النظر والاستدلال المؤدي إلى المعرفة بالله ، أو القصد أو الشك ، وحيث إن هذا الواجب غير معلوم من الدين بالضرورة فقد اعتبره علماء أهل السنة والجماعة بدعة في

(١) أصول الدين ، لعبد القاهر البغدادي ، مدرسة الإلهيات باسطنبول ١٣٤٦هـ ، ص ٢١٠ .

(٢) المواقف لعصّد الدين الإيجي ، مكتبة المتنبّي ، القاهرة ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ .

(٣) فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني ، ج ١٧ ، ص ١١٨ .

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، دار المعرفة ببيروت ١٤٠٤هـ ، ج ١ ، ص ٥٨ .

الدين مبتكرة ليس لها أصل في الشرع ولم يأمر بها الشارع فقال شيخ الإسلام : ((ولما كان الكلام في هذه الأبواب المبتدعة ، مأخوذاً في الأصل عن المعتزلة والجهمية ونحوهم : وقد تكلم هؤلاء في أول الواجبات هل هو النظر أو القصد ، أو الشك ، أو المعرفة ؟ صار كثير من المنتسبين إلى السنة المخالفين للمعتزلة في جمل أصولهم يوافقونهم على ذلك ثم الواحد من هؤلاء إذا انتسب إلى إمام من أئمة العلم.. وصنف كتاباً في هذا الباب يقول فيه : قال أصحابنا واختلف أصحابنا فإنما يعني بذلك أصحابه الخائضين في هذا الكلام ، وليسوا من هذا الوجه من أصحاب ذلك الإمام)) (١) .

ثم يقول رحمه الله : ((والقرآن العزيز ليس فيه أن النظر أول الواجبات ، ولا فيه إيجاب النظر على كل أحد .. ونحن نعلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ وسلف الأمة بطلان قول هؤلاء ، وأن الرسول ﷺ لم يأمر أحداً بهذه الطرق ، ولا علق إيمانه ومعرفته بالله بهذه الطرق ، بل القرآن وصف بالعلم والإيمان من لم يسلك هذه الطرق .. ثم القول بأن أول الواجبات هو المعرفة أو النظر لا يمشي على قول من يقول : لا واجب إلا بالشرع كما هو قول الأشعرية)) (٢) .

وإذا كان النظر والاستدلال هو أول واجب عند هؤلاء فما هو قول أهل السنة والجماعة في هذا ؟ .

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ج ٨ ، ص ٣ ، ٤ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٨ ، ص ٨ ، ١٢ ، ١٣ .

أول واجب في الإسلام على المكلف عند أهل السنة والجماعة

حيث إن هذا الأمر الجلل لا يصح أن يخفى على الأمة منه شيء ، كيف وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون نبيهم ﷺ وهو بين ظهرانيهم ، والوحي يأتيه من السماء . فكل أمر بدليل وكل حجة ببرهان ((ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف ، شهادة أن لا إله إلا الله ، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك ، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان)) (١) .

((والمقصود هنا أن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان، والشهادة تتضمن الإقرار بالصانع تعالى وبرسوله ، ولكن مجرد المعرفة بالصانع لا يصير به الرجل مؤمناً ، بل ولا يصير مؤمناً حتى يشهد أن لا إله إلا الله، ولا يصير مؤمناً بذلك حتى يشهد أن محمداً رسول الله ﷺ)) (٢) .

((وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف ، لا النظر ولا القصد إلى النظر، ولا الشك في الله ، كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسول الله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة ، فهو أول واجب وآخر واجب ، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به)) (٣) .

ثم يرد شيخ الإسلام على من أنكر الفطرة واستدل بالأدلة العقلية على المطالب الإلهية ((فإن قيل : إذا كانت معرفته تعالى فطرية ضرورية وهي ثابتة في فطرة كل أحد ، فكيف ينكر ذلك كثير النظار وفي زعمهم أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية ؟ فيقال لهم : أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة ، هم أهل الكلام الذين اتفق السلف على ذمهم من الجهمية والقدرية ، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم ...

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز تعلق الشيخ الألباني ص ٧٧ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ، ج ٨ ، ص ١١ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ، سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب ، المكتب الإسلامي ، ص ٣٧ .

ومن بيان ذلك ما أركزه الله في فطرة كل أحد أنه إذا دعا لم يلتفت يمناً ولا يسرة ، بل يجد في قلبه ضرورة تطلب العلو ، ولهذا قال إمام الحرمين لما أُورِد عليه معنى هذا : قال حيرني الهمداني ! .

وشيخ الإسلام لا ينكر النظر الشرعي في مجاله الخاص فقال : ((وأما العلم الذي لا يحصل إلا بالنظر ، فيجب لأجله النظر لفهم القرآن الذي لا يحصل إلا بتدبره والنظر فيه ، وكذلك يجب النظر في مسائل النزاع التي لا يعلم الحق فيها إلا بالنظر فإذا أراد معرفة الحق فيها وجب عليه النظر ، فإذا اجتهد غاية الاجتهاد وبذل وسعه وأداه النظر إلى غير الحق فيها ، فخطؤه مغفور له وله أجر اجتهاده ، وإن أصاب الحق فله أجران)) (١) .

ثم يبين رحمه الله أساس هذا الدين العظيم وأصله المتين ودعامته العظمي فيقول : ((ودين الإسلام مبني على أصليين وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله : وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلهاً آخر فلا تحب مخلوقاً كما تحب الله ، ولا ترجوه كما ترجو الله ، ولا تخشاه كما تخشى الله ، ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله وهو من الذين بربهم يعدلون ، وقد جعل مع الله إلهاً آخر ، وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض .

[الأصل الثاني] أن نعبد بما شرع على ألسن رسله ، لا نعبد إلا بواجب أو مستحب ، والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك . والدعاء من جملة العبادات فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم ، كان مبتدعاً في الدين ، مشركاً برب العالمين)) (٢) .

فكيف وهذا حال كثير من المسلمين في شتى أقطارهم ، وما ذاك إلا نتيجة

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ، لابن تيمية ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١ ، ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ .

انحراف المعتقد ، وإنكار المعلوم بالضرورة وهو معرفة الله بالفطرة ، وتحويل مسار مباحث التوحيد إلى مناهج كلامية وفلسفية لا تغني من الحق شيئاً ، بعيداً عن النص الذي جاء بإخلاص التوحيد وعبادة الخالق . في حين أن تلك المناهج تنتهي إلى إثبات وجود الخالق المعلوم في فطرة المخلوق بالضرورة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ^(١) وبشهادة أهل الكفر أنفسهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ^(٢) .

إن تلك المباحث التي درج عليها المتكلمون لإثبات وجود الله ، ودونوا بها أسفارهم ، واستفروا جهدهم فيها ، قد آلت بهم إلى تشويه حقائق الإيمان بالله وكلمة التوحيد ، بل إن هذين الأمرين الجليلين قد حُصِرا في آخر تلك المباحث عندهم ثم فرَّغا من المضامين اللازمة والتوجيه الراشد ، ويتضح هذا من تعريف الإيمان عند المتكلمين .

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٢ .

(٢) سورة لقمان : ٢٥ .

الإيمان بالله عند المتكلمين

قال الباقلاني : ((واعلم أن حقيقة الإيمان هو التصديق . والدليل قوله تعالى إخباراً عن أخوة يوسف عليه السلام ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ ^(١) أي بمصدق)) ^(٢) .
وقال القاضي الإيجي : ((اعلم أن حقيقة الإيمان في اللغة التصديق . قال تعالى حكاية عن أخوة يوسف ((وما أنت بمؤمن لنا)) أي بمصدق . وقال عليه السلام الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، أي تصدق . وأما في الشرع فهو عندنا وعليه أكثر الأئمة كالقاضي والأستاذ ابن فورك ، التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة)) ^(٣) .

بل قالوا إن صحة هذا الإيمان عندهم قائم على المعرفة بالأصول العقلية . يقول البغدادي ((من شرط صحة الإيمان عندنا تقدم المعرفة بالأصول العقلية في التوحيد والحكمة والعدل وثبوت النبوة والرسالة واعتقاد أركان الشريعة ومن شرطه معرفة صحة ذلك كله بأدلتها المشهورة)) ^(٤) .

ثم عدّوا من اعتقد الإيمان من دون الاستدلال والنظر ، مقلداً في دينه ثم قالوا: ((قال أصحابنا كل من اعتقد أركان الدين تقليداً من غير معرفة بأدلتها ننظر فيه ، فإن اعتقد مع ذلك جواز ورود الشبهة عليها وقال لا آمن من أن يرد عليها من الشبه ما يفسدها فهذا غير مؤمن بالله ولا مطيع له بل هو كافر . وإن اعتقد الحق ولم يعرف دليله واعتقد مع ذلك أنه ليس في الشبه ما يفسد اعتقاده فهو الذي اختلف فيه أصحابنا . فمنهم من قال هو مؤمن وحكم الإسلام له لازم .. وإن كان عاصياً بتركه النظر والاستدلال .. ومنهم من قال إن معتقد الحق قد خرج باعتقاده عن الكفر .. غير أنه لا يستحق اسم المؤمن إلا إذا عرف الحق في حدوث العالم وتوحيد

(١) سورة يوسف : ١٧ .

(٢) الإنصاف للقاضي الباقلاني ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٣٦٩هـ ، ص ٤٨ .

(٣) المواقف ، للقاضي الإيجي ، ص ٣٨٤ .

(٤) أصول الدين للبغدادي ، ص ٢٦٩ .

صانعه... وهذا اختيار الأشعري ((^(١)).

((فأما الرافضة من الشيعة فقالوا : الإيمان هو الإقرار بالله وبرسوله وبالإمام
أما المعرفة فضرورة عندهم . وأما المعتزلة : فقالوا : الإيمان هو جميع الطاعات
فرضها ونفلها وصاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا وفي الآخرة مخلد
في النار إن لم يتب . وقد وافقهم الشيعة في العموم على هذا وكذلك الزيدية منهم .
وأما الخوارج الأباضية فقالوا : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه
إيمان وإن كل كبيرة فهي كفر نعمة لا كفر شرك وإن مرتكبي الكبائر في النار
خالدون مخلدون فيها . وأجمع عامة الخوارج : على أن الله سبحانه يعذب أصحاب
الكبائر عذاباً دائماً .

وأما المرجئة : فقالوا إن الإيمان هو المعرفة بالله وبرسوله وما جاء عنهما
ومنهم من قال المعرفة فقط .

وأما الكرامية : فيزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون
القلب ((^(٢)).

(١) أصول الدين للبغدادي ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ . وقد عاد الأشعري رحمه الله إلى مذهب أهل السنة . ويشهد له
رحمه الله كتاباه ، الإبانة عن أصول الديانة ، ورسائل إلى أهل الثغر .

(٢) مقالات الإسلاميين للأبي الحسن الأشعري . صححه هيلموت ريتز ، فرانز شتاينر فيسبادن ، ألمانيا ، ط ٢ ،
سنة ١٤٠٠ هـ . ص ٥٣ ، ٧٣ ، ١١٠ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ٢٦٦

الإيمان عند السلف والردّ على المتكلمين

تابع السلف أصحاب رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالإيمان وأنه قول واعتقاد وعمل وردّوا أقوال المبتدعة في الإيمان بأنه التصديق فقالوا : ((إن الإيمان وإن كان هو التصديق ، فالتصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح ، فإن هذه لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم))^(١). فيلزم ((التصديق الجازم من صميم القلب لوجود ذاته تعالى ، الذي لم يسبق بضد ، ولم يعقب به وهو الأول فليس قبله شيء ، والآخر فليس بعده شيء ، والظاهر فليس فوقه شيء ، والباطن فليس دونه شيء ، حي قيوم أحد صمد لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد، وتوحيده بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته))^(٢).

قال شيخ الإسلام ، ((قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ والنقل المتواتر أنه دعا الخلق إلى الإيمان بالله ورسوله ، ولم يدع الناس بهذه الطريقة التي قلتم إنكم أثبتم بها حدوث العالم ونفي كونه جسماً ، وآمن بالرسول من آمن به من المهاجرين والأنصار ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ولم يدع أحداً منهم بهذه الطريقة ، ولا ذكرها أحد منهم ، ولا ذكرت في القرآن ولا حديث الرسول ﷺ ، ولا دعا بها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، الذين هم خير هذه الأمة وأفضلها علماً وإيماناً، وإنما ابتدعت هذه الطريق في الإسلام بعد المائة الأولى وانقراض عصر أكابر التابعين بل وأوساطهم ، فكيف يجوز أن يقال : إن تصديق الرسول موقوف عليها ، وأعلم الذين صدقوه وأفضلهم لم يدعوا بها ، ولا ذكروها ، ولا ذكرت لهم ، ولا نقلها أحد عنهم، ولا تكلم بها أحد في عصرهم))^(٣).

وقد تجلّى هذا في منهج رسول الله ﷺ وسيرته وطريقته في الدعوة ، فقد تبين

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ، تحقيق الشيخ حسن الغزال ، دار إحياء العلوم ببيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ ، ص ١٠٧ .

(٢) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة ، الشيخ حافظ الحكمي ، تحقيق أحمد مدخلي، مكتبة دار الرشد ، الرياض ١٤١٨هـ ، ص ٤٩ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، ج ١ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

أنه لم يكن لديه أكثر من منهج ، بل أنه أرسل رسلاً إلى القبائل والأمصار والقرى بنفس دعوة معاذ رضي الله عنه إلى اليمن ، حين أرشده إلى دعوتهم إلى التوحيد بإعلان الشهادتين وإقام الصلاة وأداء الفروض ، ثم أرسل للملوك والأمراء من العرب والعجم رسائل تحمل نفس المنهج ، وهذا دليل على وحدة أسلوب الدعوة وسلامة المنهج واستقامته وثباته .

بل إن الإيمان بالله يمثل أكرم صلة بين الإنسان وخالقه ، ذلك أن أشرف ما في الأرض الإنسان ، وأشرف ما في الإنسان قلبه ، وأشرف ما في القلب الإيمان ، ومن ثم كانت الهداية إلى الإيمان أجل نعمة ، وأفضل آلاء الله على الإطلاق .

وليس الإيمان مجرد النطق باللسان ، واعتقاد بالجنان ، إنما هو عقيدة تملأ القلب ، والعمل الصالح الذي تزكو به النفس ؛ ويطهر به القلب وتعمر به الحياة أثر من آثار الإيمان . ولهذا يأتي الإيمان في الآيات القرآنية مقروناً بالعمل الصالح ؛ لأن الإيمان إذا تجرد عن العمل كان إيماناً عقيماً ، .. والعمل إذا خلا عن الإيمان ، كان رياء ونفاقاً .. إن الإيمان بهذا المعنى هو الإيمان القرآني ، وهو الإيمان الذي أراده الله لعباده . وإقامة الدين ، وعبادة الله ، تنتظم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما تنتظم الأعمال الصالحة التي تزكي النفس الإنسانية .

وهذه التعاليم العالية لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها بعقولهم ، وإنما يتعلمونها بوحى الله^(١) . و((المتتبع لكل الآيات التي جاء فيها الأمر بالإخلاص يجد أنها متعلقة بتوجيه العبادة لله وحده دون شريك ، فهي إذن ليست متعلقة بالاعتقاد وحده ، وإنما هي متعلقة كذلك بسلوك معين مرتبط بالاعتقاد ، فالعبادة سلوك واقعي وليست مجرد مشاعر واعتقادات ، سلوك مبني على المشاعر ومنبثق عن الاعتقاد .. فما العبادة وما كيفية البراءة من الشرك ؟ .

(١) العقائد الإسلامية ، الشيخ السيد سابق ، انظر ص ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٧٨ .

العبادة كما بينها الله في كتابه المنزل تشمل أموراً ثلاثة :

- الاعتقاد الجازم بأن الله واحد في ذاته وفي أسمائه وصفاته .

- والتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية التي افترضها على عباده .

- والالتزام بما أنزل الله من التحليل والتحرير والإباحة والمنع... ((^(١)).

مما تقدم يتبين أن الإيمان قول واعتقاد وعمل وهذا ما ذهب إليه السلف ، ((ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل ، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ، ولأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين : ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه ، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا من جمع ذلك كله ، ولم ينقص منه شيئاً . ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة في مسمى الإيمان؛ كان الإيمان قابلاً للزيادة والنقصان ، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة ... فمذهب أهل السنة والجماعة وسط هذين المذهبين ، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الإيمان ، قد نقص إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية ، فلا ينفون عنه الإيمان أصلاً ؛ كالأخوارج والمعتزلة . ولا يقولون بأنه كامل الإيمان ؛ كالمرجئة والجهمية . وحكمه في الآخرة عندهم أنه قد يعفوا الله عز وجل عنه فيدخل الجنة ابتداءً ، أو يعذبه بقدر معصيته ، ثم يخرج به ويدخله الجنة، وهذا الحكم أيضاً وسط بين من يقول بخلوده في النار ، وبين من يقول أنه لا يستحق على المعصية عقاباً))^(٢) .

ولقد غلط المتكلمون في فهم حديث افتراق الأمة ، حيث ظنوا أن تلك الفرق التي أخبر عنها رسول الله ﷺ ، مخلدة في النار لكفر أصحابها وهذا ناتج عن تأصيلهم الخاطيء وحصرهم الإيمان بالتصديق ((والحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد ، كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم ولفظه : افتترقت

(١) واقعنا المعاصر ، للأستاذ الشيخ محمد قطب ، مؤسسة المدينة ، الطبعة الثانية : ص ٣٤ .

(٢) شرح العقيدة الواسطة للشيخ العلامة محمد خليل الهراس ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣١ .

اليهود على إحدى وسبعين فرقه كلها في النار إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعون فرقه كلها في النار إلا واحدة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة .. قالوا : يا رسول الله من الفرقة الناجية ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي ((^(١)).

وفي رواية قال : ((هي الجماعة يد الله على الجماعة)) ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة ، وهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم.

وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة ؛ الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ ، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها : تصديقاً وعملاً . حباً وموالة لمن والاه ومعاداة لمن عاداه الذين يردون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة ((^(٢)).

إن حديث افتراق الأمة لا يدل على ما ذهب إليه من كفر تلك الفرق ، بل لقد فهمه علماء الأمة كما أراد ﷺ الذي قال : " ستفترق أمتي " ويستحيل أن ينسبها إليه ﷺ وقد خرجت إحداها بالكفر . وفي هذا يقول الإمام الخطابي صاحب كتاب معالم السنن رحمه الله : ((قوله ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين ، إذ قد جعلهم النبي ﷺ كلهم أمة ، وفيه أن المتأول لا يخرج من الملة وإن أخطأ في تأويله)) (^(٣)).

فهم أصحاب بدع عظمى كما قال الإمام الشاطبي رحمه الله : ((وقد اختلفت الأمة في تكفير هؤلاء أصحاب البدع العظمى ، ولكن الذي يقوى في النظر ،

(١) سنن أبي داود ، دار الحديث ، كتاب السنة ، باب شرح السنة ، ج ٥ ، ص ٤ ، ٥ .
؛ الجامع الصحيح لسنن الترمذي ، مصطفى الحلبي ، ج ٥ ، ص ٢٥ . قال أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح .

، شرح سنن ابن ماجه ، دار الجيل بيروت ، ج ٢ ، ص ٤٧٩ .
؛ مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامي ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ .
، المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ج ١ ، ص ٢١٧ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

(٣) شرح سنن أبي داود ، للخطابي ، ج ٥ ، ص ٥ .

وبحسب الأثر عدم القطع بتكفيرهم . والدليل عليه عمل السلف الصالح فيهم ، ألا ترى إلى ما صنع علي رضي الله عنه في الخوارج ؟ وكونه عاملهم في قتالهم معاملة أهل الإسلام)) (١).

قال شيخ الإسلام : ((ومن قال إن الأثنتين وسبعين فرقه كل واحد منها يكفر كفراً ينتقل عن الملة ، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة)) (٢) .

وبهذا فإن تلك الفرق المتوعدة بالنار من أمة محمد ﷺ إنما هي ((الفرق الضالة المبتدعة التي لم تصل بها بدعتها إلى الكفر ، بل هي فرق من الأمة لكنها متوعدة بالنار لا على جهة التكفير ولا التخليد، بل وعيد كسائر ما يرد من نصوص الوعيد ، ومما يدل على أن المراد بهذا الحديث الفرق المبتدعة الضالة وليست الكافرة نفس الحديث ، فقد ذكر فيه أن اليهود افترقوا على إحدى وسبعين فرقه ، ولم يخرجهم ذلك كونهم يهوداً .. فكذاك الفرق في هذه الأمة لا تخرجهم بدعتهم عن أن يكونوا من الأمة وأهل القبلة وإن كانوا من أهل التفرق والبدعة)) (٣).

قال شيخ الإسلام : ((وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يُكفروا مع أمر الله ورسوله ﷺ بقتالهم ، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم)) (٤).

((فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم ، وإن كان ذلك المخالف يكفرهم ، لأن الكفر حكم شرعي ، فليس للإنسان أن يعاقب عليه)) (٥) .

(١) الاعتصام للشاطبي ، دار المعرفة تعليق محمد رشيد رضا - بيروت ١٤٠٢هـ ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، ١٨٦ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٧ ، ص ٢١٨ .

(٣) ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة ، د . عبد الله القرني ، مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ ، ص ٢٥٢ .

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(٥) الرد على البكري ، لابن تيمية ، الدار العلمية ، دلهي الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ، ص ٢٥٨ .

حقيقة التوحيد عند المتكلمين

قال الشهرستاني : ((قال أصحابنا الواحد هو الشيء الذي لا يصح انقسامه إذ لا تقبل ذاته القسمة بوجه ولا تقبل الشركة بوجه ، فالباري تعالى واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له .

فدليلنا على استحالة وجود إلهين ، أننا لو فرضنا الكلام في جسم وقدرنا في أحدهما إرادة تحريكه ومن الثاني إرادة تسكينه في وقت واحد ، لم يخل الحال من أحد ثلاثة أمور إما أن تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى اجتماع الحركة والسكون في محل واحد في حالة واحدة وذلك بين الاستحالة ، وأما أن لا ينفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجز وقصور في إلهية كل واحد منهما وخلو المحل عن الضدين وذلك أيضا بين الاستحالة . وأما أن تنفرد إرادة أحدهما دون الثاني فيصير الثاني مغلوباً على إرادته ممنوعاً من فعله مضطراً في إمساكه وذلك ينافي الإلهية . قال الله تعالى ﴿ وَكَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ^(١) . ^(٢)

وقال الإيجي في المواقف : ((المرصد الثالث في توحيده تعالى وهو مقصد واحد . وهو أنه يمتنع وجود إلهين .. وأما المتكلمون : فقالوا يمتنع وجود إلهين مستجمعين لشرائط الإلهية)) ^(٣) . بل إنهم فسروا اسم الله بقولهم : ((إذا كان الخالق على الحقيقة هو الباري تعالى لا يشاركه في الخلق غيره ، فأخص وصفه تعالى هو : القدرة على الاختراع . وهذا هو تفسير اسمه تعالى ، الله)) ^(٤) .

إن هؤلاء المتكلمين قد انتهى بهم استدلالهم بالحوادث والأعراض إلى ما استقر في فطر الخلق من قبل ، وهو وجود الرب سبحانه ، ثم ما لبثوا أن التزموا بموانع ذلك الاستدلال فمنهم من نفى صفات الله اللاتئة بجلاله ، ومنهم من أثبت

(١) سورة المؤمنون : ٩١ .

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام ، للشهرستاني ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .

(٣) المواقف في علم الكلام للإيجي ، ص ٢٧٨ .

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

سبعاً منها ثم اتفقوا على نفي صفة العلو والاستواء على العرش ، وقالوا : ((كان الله ولا مكان ، ثم خلق المكان ، وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان .. - أين معبود هؤلاء ؟! - بل الحق أن يقال : كان الله ولم يكن شيء قبله ، ثم خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ثم استوى على العرش))^(١) وإذا كان أولئك قد أثبتوا توحيدي ربوبية وأسماء وصفات لا يرقيان إلى ما أثبت الله لنفسه سبحانه وأنزل في محكم بيانه ، وفيما صح عن أشرف وخاتم أنبيائه فلم يكن توحيد الألوهية بمنأى عن تخرصات القوم واجتهاداتهم بعيداً عن الوحي ، وما ذاك إلا بإعراضهم عما أسموه خبر الأحاد وعدم قبولهم به في الاعتقاد؛ فنتج عن هذا أن حملوا الأشياء غير مقتضياتها ، وسموها بغير مسمياتها ، فكان هذا خلل ظاهر في توحيد الألوهية الذي عدّوه أنه قدرة الله على الاختراع واستدلوا على ذلك بدليل التمانع ، ظانين أن ما ذهبوا إليه هو مقتضى الألوهية وأن ذلك معنى اسم الله ومقتضاه ، وتلك نتيجة مباحث علم الكلام ، والتي لم يرقبوا فيها كلام الرب الرحمن ، ولا الخبر الصحيح عن سيد الأنام .

(١) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد خليل الهراس ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ؛ وانظر فتح الباري ج ٦ ، ص

حقيقة التوحيد عند السلف وموقفهم من المتكلمين

حيث أن المتكلمين قد جانبوا الصواب في توحيد رب العالمين ، فمنهم من عدّه القدرة على الخلق ، ومنهم من نفى الصفات وسمى ذلك توحيداً . ((وبهذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسمى التوحيد ، فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع فيقولون : هو واحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له ، واشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث : وهو توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد ، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها ، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب وأن هذا هو معنى قولنا لا إله إلا الله ، حتى أنهم قد يجعلون معنى الإلهية القدرة على الاختراع . ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولاً لم يكونوا يخالفونه في هذا ، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء ، حتى أنهم كانوا مقرين بالقدر أيضاً وهم مع هذا مشركون)) (١) . ((والمقصود هنا : أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين ، مع أن كثيراً من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره ، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل ، وزعم أنه يتلقى من السمع ..

وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (٢) لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الألوهية الذي بينه القرآن ، ودعت إليه الرسل عليهم السلام ، وليس الأمر كذلك ، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، ونزلت به الكتب ، هو توحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن المشركين من

(١) الرسالة التدمرية لابن تيمية ، تحقيق محمد السعوي ١٤٠٥هـ ، ص ١٧٩ .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٢ .

العرب كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية ، وأن خالق السموات والأرض واحد)) (١) .

((والمتأمل في مناهج المتكلمين عموماً يجد أن التوحيد عندهم اعتقادي فقط ، وأن الشرك في الإرادة إذا لم يتضمن الشرك في الاعتقاد لا يكون شركاً عندهم ، فاتخاذ الوسائط بالسؤال والطلب عندهم ليس شركاً بمجرد طلب غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله مثلاً ، بل لابد أن يتضمن ذلك اعتقاد استقلالية المطلوب وقدرته على الاختراع الذي هو حقيقة الألوهية عندهم. وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ليس شركاً لذاته عندهم إلا إذا تضمن اعتقاد استحقاق العبادة لمن صرفت له)) (٢) .

قال شيخ الإسلام : ((والإله هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة ، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق ، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القدرة على الاختراع ، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله ، وجعل إثبات هذا التوحيد الغاية في التوحيد ، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية ، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن الأشعري وأتباعه ، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ ..

ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ، ويدعوها كما يدعو الله تعالى ، ويصوم لها ، وينسك لها ، ويتقرب إليها ، ثم يقول : إن هذا ليس بشرك ، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي ، فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك ، فهذا ونحوه من التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وهم لا يدخلونه في مسمى التوحيد الذي اصطلحوا عليه)) (٣) .

أما التوحيد الحق فهو الاعتقاد بوحداية الله سبحانه في ذاته وصفاته ثم عبادته وحده لا شريك له ، وعلى هذا فإن التوحيد نوعان :

الأول : التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي المتضمن إثبات صفات الكمال لله عز

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة ، د . عبد الله القرني ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) درء تعارض النقل والنقل لابن تيمية ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

وجل وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص وهو
توحيد الربوبية والأسماء والصفات .

الثاني: التوحيد الطلبى القصدى الإرادى وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له
وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضا به رباً
وإلهاً وولياً وأن لا يجعل له عدلاً فى شىء من الأشياء ، وهو توحيد
الإلهية)) (١) .

وبهذا يتحقق أن ((التوحيد العلمى لا يكفى كى يكون المرء مؤمناً ، بل لابد
من اتخاذه وحده إلهاً معبوداً بالتوجه إليه بالعبادة دون سواه .
وأن لا إله إلا الله كلمة التوحيد ، جمعت الإيمان واحتوته ، وهذه الكلمة عنوان
الإسلام وأساسه .

ومعناها لا معبود يستحق العبادة إلا الله سبحانه)) (٢) .

وهذا هو اعتقاد السلف فى الإيمان بالله ، والاستدلال عليه بكتاب الله وبما
صح عن رسول الله ﷺ من الأخبار ، فى حين تبين خطأ المتكلمين الذين اعتمدوا
مقدماتهم ونظرهم فى إثبات ما يستحق الله من الصفات والتوحيد والإيمان وعولوا
على عقولهم ووصفوا النقل بالظنّ وعدم الدلالة وخبر الآحاد . فكان ناقض الإيمان
الوحيد عندهم هو عدم التصديق بالله ، فكان من نتائج هذا وغيره القبول أو الموافقة
على الحكم بغير ما أنزل الله فى معظم البلاد الإسلامية •

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول للشيخ حافظ الحكيم ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٢) العقيدة فى الله ، د . عمر الأشقر ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

• وانظر البحث ص ١٨٣ وما بعدها وص ٨٣٦ وما بعدها .

الفصل الثاني

استدلالهم بأحاديث الآحاد في

باب الأسماء والصفات وموقف المخالفين منها والرد عليهم

وفيه :

- تمهيد
- أسماء الله سبحانه الحسنى .
- موقف المخالفين في أسماء الله تعالى .
- الاسم عين المسمى أو غيره .
- صفات الله تعالى في مفهوم السلف .
- موقف المخالفين من صفات رب العالمين .
- إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة عند السلف .
- الأشاعرة وأصحابهم وموقفهم من الصفات والرد عليهم .
- رؤية الله في الآخرة وموقف الأشاعرة وأصحابهم منها .
- صفة الاستواء على العرش وعلوه سبحانه على خلقه .
- صفة العلو لله سبحانه والمجئ والإتيان .
- الصفات الذاتية الخبرية - صفة الوجه واليدين والعين ..



تمهيد :

كان لاعتقاد السلف رحمهم الله في تعظيم النصوص وإثباتها والعلم والعمل بها في الأمر والنهي والاعتقاد ، مردود تحقق منه تعظيم الله وإجلاله واتباع أمره واجتناب نهيه واتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

فكان غاية مرادهم هو توحيد الله المتضمن توحيده بأسمائه وصفاته وأفعاله وإخلاص العبادة له في توحيده بألوهيته ، وهما توحيدا الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد الإلوهية .

((وتوحيد الأسماء والصفات هو الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه ، ووصفه به رسول الله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وامرارها كما جاءت بلا كيف ، كما جمع الله بين إثباتها ونفي التكيف عنها في غير موضع كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ^(١))) ^(٢).

وأسماء الله تبارك وتعالى ((دالة على صفات كماله فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي صفات ، وبذلك كانت حسنى ، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى ، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال)) ^(٣).

وقال البيهقي رحمه الله : ((فله عز وجل أسماء وصفات وأسماءه صفاته ، وصفاته أوصافه)) ^(٤). ويعني بذلك أن أسماء الله تعالى متضمنة لصفاته .

ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله ((البيان التام هو ما بينه الرسول ﷺ فإنه أعلم الخلق بالحق ، وأنصح الخلق للخلق ، وأفصح الخلق في بيان الحق ، فما بينه من أسماء

(١) سورة الشورى : ١١ .

(٢) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة ، للشيخ حافظ الحكمي ، تحقيق أحمد مدخلي ، مكتبة الرشد، ص ٥٧ .

(٣) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة ، محمد الجامي ، الطبعة الثانية ١٤١١هـ ، ص ١٥٧ .

(٤) الإعتقاد للبيهقي ، تحقيق أحمد عصام الطالب ، دار الأوقاف الجديدة ، بيروت ، ص ٧٠ .

الله وصفاته وعلوه ورؤيته ، هو الغاية في هذا الباب)) (١).

((ثم القول الشامل في جميع هذا الباب : أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، وبما وصفه به السابقون ؛ الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث . قال الإمام أحمد رحمه الله : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث .

ومذهب السلف : أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ؛ بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصوده المتكلم بكلامه؛ لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول ، وأفصح الخلق في بيان العلم ، وأفصح الخلق في البيان والتعريف، والدلالة والإرشاد. وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء ، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة، وله أفعال حقيقة ؛ فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله . وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزّه عنه حقيقة . فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه)) (٢).

((وقد كان السلف الصالح من الصحابة ومن نهج منهجهم على هذا المنهج لم يحصل بينهم نزاع في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات بل اتفقوا كلهم جميعاً على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم)) (٣).

وقال الإمام ابن خزيمة رحمه الله : في كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٥ ، ص ٢٦ .

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

عز وجل التي وصف بها نفسه في تنزيله الذي أنزله على نبيه المصطفى ﷺ وعلى لسان نبيه نقل الأخبار الثابتة الصحيحة نقل العدول من غير قطع في إسناد ولا جرح في ناقلي الأخبار الثقات : ((والإيمان بجميع صفات الرحمن الخالق جل وعلا بما وصف الله به نفسه في محكم تنزيله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وبما صح وثبت عن نبينا ﷺ بالأسانيد الثابتة الصحيحة بنقل أهل العدالة موصولاً إليه ﷺ ، فيعلم الناظر في كتابنا هذا ممن وفقه الله تعالى لإدراك الحق والصواب ومنّ عليه بالتوفيق لما يحب ويرضى صحة مذهب أهل الآثار في هذين الجنسيتين من العلم وبطلان مذاهب أهل الأهواء والبدع والذين هم في ريبهم وضلالتهم يعمهون)) (١).

وحيث إن الخلاف قائم مع المتكلمين وهم الذين يثبتون السنة ثم يردّون خبر الآحاد مطلقاً كالمعتزلة ، أو يثبتونه في الأعمال ويردّونه في العقائد كالأشاعرة والكلابية ؛ فقد تبين أنهم يعملون العقل في فهم أسماء الله ومعانيها التي تقتضى صفات الكمال للواحد القهار ، على خلاف ما اقتضته الأدلة وما تعبدنا الله به ، ويتضح ذلك في لفظ الجلالة اسم الله ، وسيتبين هذا مع إيراد النصوص من السنة الصحيحة في حالتها الأسماء ثم الصفات وبيان أقوال المخالفين .

(١) كتاب التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل ، لابن خزيمة ، تحقيق محمد خليل الهراس ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ ، ص ٥ .

أسماء الله سبحانه الحسنی

أثبت الله سبحانه لنفسه أسماءً ووصفها بالحسنی في أكثر من موضع في كتابه تعالى ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ ﴾ (١) . وقال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ۚ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (٢) . وقال تعالى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (٣) .

وكتاب الله مشتمل على أسمائه سبحانه وأوصافه اللائقة بجلاله والدالة على عظمته وكبريائه ..

أما سنة المصطفى ﷺ فكما هي في كتاب الله تذكيراً وحكمة وتبيناً ، فقد اشتملت على بيان لأسماء الله تعالى . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)) (٤) .

قال ابن حجر رحمه الله : ((الإحصاء يقع بالقول ويقع بالعمل ، فالذي بالعمل أن لله أسماء يختص بها كالأحد والمتعال والتقدير ونحوها ، فيجب الإقرار بها والخضوع عندها ؛ وله أسماء يستحب الإقتداء بها في معانيها : كالرحيم والكريم والعفو ونحوها ، فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها فبهذا يحصل الإحصاء العملي ، وأما الإحصاء القولي فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها .. ونقل عن اسحق بن راهويه عن الجهمية أن جهماً قال : لو قلت إن لله تسعة وتسعين اسماً لعبدت تسعة وتسعين إلهاً ، قال فقلنا لهم : إن الله أمر عباده أن يدعوه بأسمائه فقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ والأسماء جمع أقله ثلاثة ولا فرق

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

(٢) سورة الإسراء : ١١٠ .

(٣) سورة طه آية : ٨ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب إن لله مائة اسم إلا واحداً ، ج ١٣ ، ص ٣٧٧ . صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر والدعاء ، باب أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ج ١٧ ، ص ٥ .

في الزيادة على الواحد بين الثلاثة وبين التسعة والتسعين)) (١) .

والحديث يتضمن مسألتين :

((أولاهما : إن الله تعالى أسماء حسنى ، بلغت الغاية من الحسن والكمال ، وأن من أحصى منها تسعة وتسعين اسماً دخل الجنة . وليس المراد بالحديث حصر الأسماء الحسنى في هذا العدد ، وليس فيه نفي ما عداها من الزيادة عليها ..

والمسألة الثانية : هي إحصاء هذه الأسماء ، وفي معنى الإحصاء المراد أوجه .. ولعل هذه الوجوه كلها مجتمعة هي المراد بالإحصاء ، فكانت مراتب :

المرتبة الأولى : إحصاء ألفاظها وعددها ، والمرتبة الثانية ، فهم معانيها ومدلولها ، والمرتبة الثالثة : دعاؤه سبحانه وتعالى بها كما قال : ((۞ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا)) وهو مرتبتان : إحداهما : دعاء ثناء وعبادة ، والثاني : دعاء طلب ومسألة)) (٢) .

وقد جاءت السنة مؤكدة على أن أسماءه سبحانه لا تحصى وأنه قد استأثر ببعضها في علم الغيب ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : ((ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ أو حزن: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدل في قضاؤك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً فقيل يا رسول الله ألا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ج ١٣ ، ص ٣٧٨ .

(٢) شرح كتاب التوحيد ، مكتبة الدار بالمدينة النبوية ١٤٠٥هـ ، عبد الله الغنيمان ج ١ ، ص ٢١٨ - ٢٢٠ ؛ انظر بدائع الفوائد لابن القيم ج ١ ، ص ١٦٤ .

؛ انظر مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ، عثمان ضميرية ، مكتبة السوادي بجدة ، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٦ .

نتعلمها فقال بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها ((^(١)) بل قد ناداه رسوله ﷺ بأسماء علمه بها وفتح الله عليه فيها ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب ، ((لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم))^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف : ((لا ومقلب القلوب))^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل قال .. أذهبوا إلى محمد ﷺ ، فيأتوني ، فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، غفر الله لك ذنبك ، ما تقدم منه وما تأخر ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما بلغنا ؟ فأقوم ، فأتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ..))^(٤).

وكان يقرر ﷺ عقيدة أهل السنة والجماعة في أثناء دعائه ومناجاته ربه وخالقه ومرسله رسولاً للخلق أجمعين ، وذلك بأسماء اختص الله بها وبمعانيها على ما يليق بجلاله وعظمته فكانت تفسيراً من المعصوم ﷺ لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾^(٥) وذلك كما في الحديث الذي رواه

(١) مسند الإمام أحمد ، ج ١ ، ص ٣٩١ ، ٤٥٢ ؛ المستدرک علی الصحیحین للحاکم ، دار المعرفة بیروت ، ج ١ ، ص ٥٠٩ ، صحیح الوابل الصیب من الکلم الطیب لابن القيم تحقیق سلیم الهلالي دار ابن الجوزي ١٤٠٩هـ ، الدمام ص ٢٠٤ ، وقال المحقق : وهو حديث صحيح

؛ موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ، للهيثمي ، تحقيق محمد حمزة دار الكتب العلمية ، ج ١ ، ص ٥٨٩ .
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب دعاء المكروب ، ج ١١ ، ص ١٤٥ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الدعاء والذكر ، باب دعاء الكرب ، ج ١٧ ، ص ٤٧ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب مقلب القلوب . ج ١٣ ، ص ٣٧٧ . مسند الإمام أحمد ، ج ٦ ، ص ٣١٥ عن أم سلمة ، ج ٦ ، ص ٩١ عن عائشة ، ج ٤ ، ص ١٨٢ عن النواس بن سمعان .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ، ج ٦ ، ص ٣٧١ ج ٨ ، ص ٣٩٥

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في عصمة الأنبياء ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

؛ مسند الإمام أحمد ج ٥ ، ص ١٣٦ .

(٥) سورة الحديد ٣ .

أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه ((اللهم رب السموات السبع ، ورب الأرض ، رب كل شيء ، فالحق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين وأغنني من الفقر)) (١).

((فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمتة سبحانه ، وأنه محيط بالأشياء من كل وجه . فالأول والآخر : بيان لإحاطته الزمانية. والظاهر والباطن : بيان لإحاطته المكانية .

كما إن اسمه الظاهر يدل على أنه العالي فوق جميع خلقه ، فلا شيء منها فوقه . فمدار هذه الأسماء الأربعة على الاحاطة ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن)) (٢).

وهذا اسم الله الأعظم حيث أخبرنا المصطفى ﷺ أنه إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، فعن عبد الله ابن بريدة الأسلمي عن أبيه قال ((سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم إنني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قال : فقال ﷺ : والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ..)) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب (٣).

وقال ابن حجر في الفتح : ((وإن قد جرى ذكر الاسم الأعظم في هذه المباحث

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر والدعاء ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، ج ١١ ، ص ٣٥ .

(٢) شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ الهراس ، ص ٨٩ .

(٣) الجامع الصحيح لسنن الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ج ٥ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦ .

؛ سنن النسائي ، كتاب السهو ، باب الدعاء بعد الذكر . ج ٣ ، ص ٥٢ .

؛ مسند الإمام أحمد ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ ، عن محجن بن الأبرع .

؛ المستدرک للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ج ١ ، ص ٦٣٨ .

فليقع الإمام بشيء من الكلام عليه ... التاسع قيل هو : ((الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث بريدة ، وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك))^(١).

وحيث قد تبين اعتقاد السلف في إثبات أسماء الله تعالى وأنها توقيفية بل ((إن الله قد استأثر ببعضها في علم الغيب عنده وأخبر بعض عباده بما أراده ، فإنهم قد علموا المراد منها وأن أسماء صفاته وصفاته أوصاف له، وأن دلالة أسماء الله الحسنى على ثلاثة أنواع ، دلالتها على الذات مطابقة، ودلالاتها على الصفات المشتقة منها تضمناً ، ودلالاتها على الصفات التي ما اشتقت منها إلزاماً . ومثال ذلك : اسمه تعالى الرحمن الرحيم ، يدل على ذات المسمى وهو الله عز وجل مطابقة ، وعلى الصفة المشتقة منها وهي الرحمة تضمناً ، وعلى غيرها من الصفات التي لم تشتق منها كالحياة والقدرة إلزاماً ، وهكذا سائر أسمائه ، وذلك بخلاف المخلوق فقد يسمى حكيماً وهو جاهل ، وحكماً وهو ظالم ، وعزيزاً وهو ذليل ..))^(٢).

وبهذا يظهر اعتقاد السلف في أسمائه تعالى واستدلّاهم عليها بأحاديث الآحاد الصحيحة ، فماذا كان حال المخالفين؟! .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب لله مائه اسم غير واحد ، ج ١١ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥.

(٢) أعلام السنة المنشورة للحافظ الحكمي ، ص ٦٣ ، ٦٤ . وانظر : عقائد السلف ، رد الإمام الدرامي على بشر المريسي ، تحقيق علي النشار وعمار الطالبي ، منشأة المعارف ١٣٩١ هـ ، ص ٣٦٥ .

موقف المخالفين في أسماء الله تعالى والرد عليهم

إن الله تعالى بعث رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ، وأكمل له الدين ، وأتم نعمته عليه فترك أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، وبين لهم جميع ما يحتاجون إليه ، ((وكان أعظم ما يحتاجون إليه معرفتهم ربهم بما يستحقه من أسمائه الحسنی ، وصفاته العلی ، وما يجب له وما يجوز عليه ، وما يمجده به وما يتمتع عليه ، فينزه عنه ويقدس . ثم أحدث بعد المائة الأولى الجهم بن صفوان^(١) وأتباعه ، الذين عطلوا حقيقة أسمائه الحسنی ، وصفاته العلا ، وسلكوا مسلك أخوانهم المعطلة الجاحدين للصانع ، وصار أغلب ما يصفون به الرب هو الصفات السلبية العدمية ، ولا يقرون إلا بوجود مجمل ، ثم يقرنونه بسلب ينفي الوجود))^(٢).

((ولما كان في حدود المائة الثالثة ، انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية .. فإذا كان أصل هذه المقالة - مقالة التعطيل والتأويل - مأخوذاً عن تلامذة المشركين والصابئين واليهود ، فكيف تطيب نفس مؤمن - بل نفس عاقل - أن يأخذ سبيل هؤلاء المغضوب عليهم أو الضالين ، ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟!))^(٣).

قال ابن القيم رحمه الله في نونيته :

((وقضى على أسمائه بحدوثها وبخلقها من جملة الأكوان

فانظر إلى تعطيله الأوصاف والأفعال والأسماء للرحمن

(١) أبو محرز الراسبي المتكلم أسّ الضلالة ورأس الجهمية - ينكر الصفات ويقول بخلق القرآن والإيمان عقد القلب ، قتله سلم بن أحوز لإنكاره أن الله كلم موسى . سير أعلام النبلاء ، ج ٦ ، ص ٢٦ .

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ، ج ٥ ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ج ٥ ، ص ٢٢ ، ٢٥ .

ولذا تقسمت الطوائف قوله وتوارثوه إرث ذي السهمان^(١)

وعلى هذا أصبح لقب الجهمية علماً متعارفاً عليه عند العلماء من أهل السنة ، على تلك الفرق الكلامية التي تعارض النصوص بمجرد العقل والهوى وتصف الله بصفات التعطيل التي لم تثبت في محكم الآيات والتنازل .

ثم يبين شيخ الإسلام درجات هؤلاء الجهمية في إقرار أسماء الله وصفاته ونفيها ، فيقول : ((وكذلك الجهمية على ثلاث درجات : -

الدرجة الأولى : فشرّها الغالية الذين ينفون أسماء الله وصفاته ، وإن سمّوه بشيء من أسمائه الحسنى قالوا : هو مجاز فهو في الحقيقة عندهم ليس بحي ولا عالم ولا قادر ولا سميع ولا بصير ولا متكلم ولا يتكلم ، وكذلك وصف العلماء حقيقة قولهم ، كما ذكره الإمام أحمد في رده على الزنادقة والجهمية قال : فعند ذلك تبين للناس أنهم لا يثبتون شيئاً ..

والدرجة الثانية من التجهم: هو تجهم المعتزلة ونحوهم ، الذين يقرون بأسماء الله الحسنى في الجملة ، لكن ينفون صفاته . وهم أيضاً لا يقرون بأسماء الله الحسنى كلها على الحقيقة ، بل يجعلون كثيراً منها على المجاز .

وأما الدرجة الثالثة : فهم الصفاتية المثبتون المخالفون للجهمية ، لكن فيهم نوع من التجهم ، كالذين يقرون بأسماء الله وصفاته في الجملة ، لكن يردون طائفة من أسمائه وصفاته الخبرية ، ويتأولونها كما تأول الأولون صفاته كلها ، ومن هؤلاء من يقر بصفاته الخبرية الواردة في القرآن دون الحديث .. ومنهم من يقر بالصفات الواردة في الأخبار أيضاً في الجملة ، لكن مع نفي

(١) شرح القصيدة النونية لابن القيم ، لأحمد بن إبراهيم العيسى ، تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ط ٣ ، ١٤٠٦ هـ - ج ١ ، ص ١١٩ .

وتعطيل لبعض ما ثبت بالنصوص^(١).

وحيث إن جمهور المتكلمين وهم المعتزلة والأشاعرة والكلابية والماتريدية ، ممن يثبتون أسماء الله توقيفاً ، لكنهم مخالفون للمنهج الحق في أسماء الله ، فمنهم من توسع في إطلاق أسماء ليست من الشرع لله سبحانه وهم المعتزلة ، ومنهم من أول بعض تلك الأسماء الواردة بالشرع حتى توافق مذهبهم الكلامي .

فالمعتزلة يجوزون تسمية الله بأسماء وإن لم ترد في النقل حيث أعطوا العقل فرصة الاختيار والتصرف كما يشاء قال القاضي عبد الجبار في المغني : ((إن إجراء الأسماء على القديم كإجرائها على غيره في أنه يحسن من غير سمع وتوقف... وإذا علمناه بالعقل لم يمتنع أن يجري عليه من الأسماء ما يفيد ما هو عليه في ذاته))^(٢). ويقصد بالإضافة إلى جواز تسمية الله بأسماء من العقل ، فإن عموم أسمائه لا تدل على معنى قائم بنفسه سبحانه .

قال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة : ((إنه سبحانه له الأسماء الحسنی ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر لابد من ترتبه عليه كترتب المرزوق والرزق على الرازق ، وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير ، ونظائر ذلك في جميع الأسماء ، فلو لم يكن في عباده من يخطئ ويذنب ليتوب إليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب ، وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها في الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنی .. وهذا باب أوسع من أن يدرك واللبيب يكتفي منه باليسير ، وغليظ الحجاب في واد ونحن في واد :

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ، ج ٥ ، ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار ، ج ٥ ، ٨٨ ، ١٧٩ . وانظر : منهج السلف والمتكلمين لجابر أدریس ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

وإن كان أثل الواد يجمع بيننا
فغير خفي شيحه من خزامه^(١)

ثم إن هؤلاء نفاة الصفات ((يلزمهم نفي الأسماء من جهة أخرى ، فإن العليم والقدير والسميع والبصير ، أسماء تتضمن ثبوت الصفات في اللغة فيمن وصف بها ، فاستعمالها لغير من وصف بها استعمال للاسم في غير ما وضع له ؛ فكما انتفت عنه حقائقها فإنه تنتفي عنه أسماؤها ، فإن الاسم المشتق تابع للمشتق منه في النفي والإثبات .

ثم يبين ابن القيم مذهب الصفاتية من أهل التجهم فيقول :

((وبعض الجهمية يرى على أن الاسم يستلزم الصفة ، ثم ينفي الصفة وينفي حقيقة الاسم ويقول هذا مجاز ؛ فهو شر من المعتزلة من هذا الوجه ، وهم خير منهم من وجه آخر ، وهو أنه يتناقض فيثبت بعض الصفات وحقائق الأسماء وينفي نظيرها وما يدل عليها من حقيقة الاسم .

ثم يوضح حقيقة مذهب أهل السنة فيقول :

وأهل السنة يثبتون الصفات وحقائق الأسماء ؛ فالأسماء عندهم حقائق وهي متضمنة للصفات))^(٢).

بل إن معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى على هذه المنهج السني يقتضي ((إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وهذه الأنواع الثلاثة هي رُوح الإيمان وروحه ، وغايته ، فكلما ازداد العبد معرفةً بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه))^(٣).

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ، ج ١ ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة لابن القيم ، ص ٣١١

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٦ هـ ، ص ٤١ .

الاسم عين المسمى أو غيره

وهذه مسألة ابتدعها أهل الكلام الذين عارضوا صحيح المنقول بشبهاتهم ، فقالت الجهمية والمعتزلة : ((إن الاسم غير المسمى ومرادهم من هذا الكلام المجمل أن أسماء الله مخلوقة ، وما دامت كذلك فهي غيره ، لأن غير الله مخلوق))^(١).

وللرد على هؤلاء يقول الإمام الدارمي رحمه الله : ((ومن ادعى التأويل في أسماء الله فقد نسب الله تعالى إلى العجز والوهن ، والضرورة والحاجة إلى الخلق . لأن المستعير محتاج مضطر ، والمعير أبداً أعلى منه وأغنى ، ففي هذا استجهال للخالق إذا كان بزعمه هملاً لا يدري ما اسمه هو وما صفته . والله المتعالي عن هذا الوصف المنزه عنه . لأن أسماء الله هي تحقيق صفاته . سواء عليك قلت : عبدت الله ، أو عبدت الرحمن ، أو الرحيم .. وسواء قلت ربي الله ، أو ربي الرحمن .. ولو كان الاسم مخلوقاً مستعاراً ، غير الله ، لم يأمر الله أن يسبح مخلوقاً غيره .

ولا تقاس أسماء الله بأسماء الخلق ، لأن أسماء الخلق مخلوقة مستعارة ، وليست أسماؤهم نفس صفاتهم ، بل مخالفة لصفاتهم ، وأسماء الله صفاته ليس شيء منها مخالفاً لصفاته ، ولا شيء من صفاته مخالفاً لأسمائه وقد يسمى الرجل حكيماً وهو جاهل ، وحكماً وهو ظالم ، وعزيزاً وهو حقير ..))^(٢).

وقالت الأشاعرة والماتريدية : إن الإسم هو المسمى : ومرادهم بهذا القول إن اسم الله غير مخلوق رداً على المعتزلة ((ويجب أن يعلم أن الاسم هو المسمى بعينه وذاته ، والتسمية الدالة عليه تسمى اسماً على سبيل المجاز))^(٣).

قال شيخ الإسلام : ((أما الأسماء الحسنى التي أطلقوا عليها تسميات فهي

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) عقائد السلف ، رد الإمام الدارمي على المريسي ، منشأة المعارف ، ١٣٩١هـ ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٣) الإنصاف للباقلاني ، تحقيق زاهد الكوثري ، مؤسسة الخانجي للطباعة ، ط ٢ ، ١٣٨٢هـ ، ص ٦٠ .

عندهم إما مجازاً غير حقيقة ، وإما مخلوقة وبهذا اتفقوا مع المعتزلة في المعنى وإن كان يظن أنهم خالفوهم بقولهم الاسم هو المسمى)) (١).

قال ابن القيم رحمه الله : ((طالما غلط الناس في ذلك وجهلوا الصواب فيه . فالاسم يراد به المسمى تارة . ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى ، فإذا قلت : قال الله كذا ، واستوى الله على عرشه ، وسمع الله ورأى وخلق ، فهذا المراد به المسمى نفسه . وإذا قلت : الله اسم عربي والرحمن اسم عربي من أسماء الله .. فالاسم هنا للمسمى ، ولا يقال غيره لما في لفظ الغير من الإجمال . فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق ، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا أسم له حتى خلق لنفسه أسماء ، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى)) (٢).

وقال الدكتور المحمود : ((يلاحظ على كتب الأشاعرة التي شرحت أسماء الله تعالى أنها مع أنها تثبت هذه الأسماء وما دلت عليه من الصفات ، إلا أنها عند تفصيل القول في هذه الصفات تشرحها بما يوافق معتقدها ، فإذا كان الاسم دالاً على صفة يؤولونها نفوا دلالة الاسم على هذا المعنى الذي ينفونه وإن كان موافقاً لمذهب السلف ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومن أبرزها اسم الله تعالى " العلي " فكل من شرح هذا الاسم من الأشاعرة المتأخرين فسروه بعلو الشرف والمكانة وغيرها ونفوا دلالته على إثبات علو الله على خلقه ، ونصوا على نفي هذا المعنى عند شرحهم له)) (٣).

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام انظر ، ج ٦ ، ص ١٩٢ .

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٤٠٧ هـ ، ص ٤٥٧ .

(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة د . عبد الرحمن المحمود ، مكتبة الرشد الرياض ، ج ٣ ، ص ١٠٣٥ .

قال الباحث : بل من أعظم غلط هؤلاء المتكلمين في أسماء رب العالمين مفهومهم للفظ الجلالة وهو الله حيث قالوا : ((والله علمٌ مرتجل على ذات واجب الوجود))^(١).

قال الإيجي : ((الله أسم خاص بذاته لا يوصف به غيره فقليل علم جامد...))^(٢) . ومقصودهم من هذا أن لفظ الجلالة ((الله)) غير مشتق ، وأنه يدل على القدرة والخلق والاختراع^(٣) . ولا شك أن هذا القول وهمٌ منهم بل مخالف للنص الصحيح والمفهوم الصريح .

قال صاحب لسان لعرب : ((الإله : هو الله عز وجل ، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إله عند متخذه ، والجمع آلهة ، والآلهة الأصنام سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحق لها . فالله أصله إله ولا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً .. فإذا قيل الإله انطلق على الله سبحانه وعلى ما يعبد من الأصنام ، وإذا قلت الله لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى ..

وقيل في اسم الباري سبحانه أنه مأخوذ من أله إذا تحير ، لأن العقول تأله في عظمتها))^(٤).

فاللسان العربي يدل على أن اسم الله مشتق وأنه يدل على أعظم أمر خلق الله العباد من أجله وهو توحيده وعبادته وإخلاص القول والعمل في توحيده سبحانه . وهكذا يقول ابن القيم رحمه الله في بيان ((أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنی كالعليم والقدير والغفور والسميع والبصير فإن هذه الأسماء

(١) شرح العقيدة الطحاوية لعبد الغني الغنيمي ، تحقيق محمد الحافظ ومحمد المالح ، دار الفكر دمشق ، ص ٣٩ .

(٢) المواقف لعبد الدين الإيجي ، ص ٣٣٣ .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٤) لسان العرب لابن منظور ، ج ١٣ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٩ .

مشتقة من مصادرها بلا ريب ((^(١)).

أما مخالفة قولهم ، للنص : فإن الله سبحانه قد أخبرنا بالوصف المشتق من اسمه ((الله)) فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير القرآن العظيم : ((أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبداه أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه))^(٢).

ثم إن ((تعطيل اسمه تعالى عن معناه تعطيل لجميع معاني الأسماء الحسنى ، لأنه دال عليها بالإجمال والأسماء الحسنى تفصيل وبيان للصفات الإلهية ، التي اشتق منها اسم الله .. واسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً ، تأله الخلائق محبة ، وتعظيماً ، وخضوعاً ، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب ، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله))^(٣).

إن إعراض هؤلاء المتكلمين عن ما صح عن رسول الله ﷺ وعدم إعمال تلك الأخبار الصادقة في مسائل العقيدة ، قد أدى بهم ذلك إلى تخطئ عجيب في أمر كان من الواضح والظهور الجلي بما يقيم الحجة ويظهر المحجة .

أما أسماء الله الحسنى والتي وهم المتكلمون في أن إثباتها على ظاهرها يقتضي التشبيه بالمخلوق ، وذلك بسبب أنهم أعملوا عقولهم قبل أن تؤمن قلوبهم بقدسية النص وأن الذي بلغهم هو الذي أنزل عليه أمر التبليغ بالرسالة والوحي ، وكان المؤمنون بين يديه ﷺ وهو يتلقى الوحي ويبلغ الرسالة ؛ فما كان من المتكلمين إلا أن شبّهوا ثم أولّوا .

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء ابن كثير ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ، ج ١ ، ص ٤١ ، ٥٦ .

وكونهم فروا من التشبيه في زعمهم فإن تأويلهم تلك الأسماء قد نتج عنه تعطيلاً لمدلولات تلك الأسماء كما أراد الله وأخبر به الرسول ﷺ ومثال ذلك : ((اسمه سبحانه الودود ، الرحيم ، الظاهر ، والباطن .. فإنهم فسروا تلك الأسماء بالإرادة في إكرام عباده ، ورضاه عنهم ، وأنه الغالب على خلقه ، والعارف ببواطن الأمور والمحتجب بموانع أبدعها في أبصارهم . وودّه إرادته الكرامة والنعمة وإحسانه وإنعامه وهو منزّه عن ميل المودة)) (١).

وهذا القول وغيره مما تقدم منافٍ للحقيقة كما أرادها الله وفهمها أصحاب رسول الله ﷺ حيث قال ابن كثير في تفسيره : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان، والودود قال ابن عباس وغيره : هو الحبيب)) (٢).

ولا شك أن ما طال الأسماء من التشبيه ثم التعطيل وارد على الصفات من باب أولى واجتهادهم هذا ليس من باب اجتهد الخطأ المأجور ، ذلك كونهم اعتمدوا فيه العقل ولم يراعوا الأدلة من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ . فإن الاجتهاد هو بذل الوسع والطاقة في أمر له أصل من الشرع ، وقولهم وتنظيرهم لا دليل عليه من الشرع بل هو الهوى والرأي ومقدمات الدليل التي ألزمتهم تأويل النصوص ، والله المستعان .

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، لأبي حامد الغزالي ، الجبائي للطباعة والنشر، قبرص ، ١٤٠٧هـ ، ص ١٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٣٤ .

صفات الله تعالى في مفهوم السلف

أنعم الله على سلف هذه الأمة بمتابعتهم لمن سبقهم في الفضل والفهم والإتباع، قولاً وعملاً ، ونحسب هذا لمن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين بمشيئة ورحمة رب العالمين . وصفات الله سبحانه هو الذي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ كما أخبرنا هو عن نفسه سبحانه فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) فنفى عن نفسه المثل وأثبت لنفسه الكمال كما يريد سبحانه وقد بين ذلك رسول الله ﷺ في سنته بما يليق بجلال الله سبحانه من الأسماء والصفات .

وهذه الآية العظيمة قاعدة كبرى في مذهب أهل السنة والجماعة ، فلا تمثيل ولا تشبيه ، وفيها الرد على المعطلة الذين ينفون ويعطلون صفات الكمال للرب المتعال . وقد ذكر علماء أهل السنة قواعد في فهم صفات الله سبحانه .

القاعدة الأولى : إن الاتفاق في الأسم لا في المسمى

فقد سمى الله تعالى نفسه : عليماً بصيراً سميعاً رازقاً حكيماً رؤوفاً رحيماً ملكاً جباراً .. وقد سمى بعض عباده بمثل تلك الأسماء بل ومدحهم بها كمحمد ﷺ وكونه رؤوفاً رحيماً . وسمى الحي من عباده ، والله هو الحي القيوم سبحانه .

وحيث إن أسماء الله التي تدل على تلك الصفات متفقة بين الخالق والمخلوق، فإن إطلاقها على الله يقتضي كمال الصفات وأحسن الأوصاف ، فلا تشبه صفات المخلوقين التي يعثرها النقص والفقر والحاجة إلى بارئها سبحانه .

وما أصدق ما قال الإمام مالك رحمه الله : ((الاستواء معلوم ، والكيف

(١) سورة الشورى ١١ .

مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)) .^(١)

فأين العلم والحكمة في مخالفة هذا القول وأمثاله ؛ بل العلم والحكمة والسلامة في اتباع السلف الذي امتثلوا أمر الله وعملوا بما جاء عن الله على مراده ، وآمنوا برسول الله ﷺ وعملوا بما جاء به عن ربه على مراد رسوله ﷺ .

القاعد الثانية : إن القول في الصفات كالقول في الذات .

إن الله سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . وكون الله ذاتاً حقيقية لا تماثل ذوات المخلوقين ؛ فإن ذات الله متصفة بصفات حقيقية لا تماثل صفات المخلوقين .

القاعدة الثالثة : إن القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر .

وحيث وجب الإيمان بصفة العلم والحياة والقدرة لله سبحانه .. وأنها حقيقية في صفات الله تعالى وغيرها من الصفات الثابتة ، فإنه يجب الإيمان بالبعض الآخر كالمحبة والرضا والغضب والنزول والمجيء والوجه واليدين .. وغيرها ، فإن المفرق بينهما قد جاوز الحق والعدل^(٢) .

وقد أثبت السلف لله سبحانه ما أثبت لنفسه من عظيم الصفات الدالة على كمال التوحيد لله سبحانه ؛ ومن ذلك سورة الإخلاص .

ففي مسند الإمام أحمد وصحيح الترمذي عن أبي بن كعب رضي الله عنه في سبب نزولها : أن المشركين قالوا : يا محمد أنسب لنا ربك . فأنزل الله تبارك

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ج ٢ ، ١٥٠ - ١٥١ ؛ وانظر : أصل الاعتقاد للآل كاي ج ٢ ، ص ٣٩٨ .

(٢) انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ٢٠ ، ٣١ ، ٤٣ . بتحقيق محمد السعوي .

وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ^(١) وفي صحيح البخاري في كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى التوحيد قوله : ((والذي نفسي بيده؛ إنها لتعدل ثلث القرآن)) ^(٢) . ((معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام : ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعد ، وثلث منها الأسماء والصفات . وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات)) ^(٣) .

وقوله : ((الله الصمد . قد فسرهما ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: " السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله عز وجل ، هذه صفته ، لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثل شيء)) ^(٤) .

قال الشيخ محمد الهراس شارحاً الواسطية : ((وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنی والصفات العلی . وهذا توحيد الإثبات .

وأما النوع الثاني : وهو توحيد التنزيه ، فيؤخذ من قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .. فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق

(١) سورة الإخلاص آية ١ ، ٢ مسند الإمام أحمد ج ٥ ، ص ١٣٤ ؛ سنن الترمذي كتاب التفسير ، ج ٥ ، ص ٤٥٢ وقال : حديث صحيح .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ج ١٣ ، ص ٣٤٧ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٧ ، ص ١٠٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٤٩٨ .

المشاركة ، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته ، ثم نفي الكفاء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والنظير .

فحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن ((^(١)).

ثم يستدل السلف بآية الكرسي وهي أعظم آية في كتاب الله تعالى فقد تضمنت أسماء وصفات عظمى أخبر الله بها عن نفسه ابتداء بالتوحيد وكمال الحياة والقيومية المتضمنة اسم الله الأعظم والذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب .

وقد ((ذكر ما يدل على عظيم ملكه ، وواسع سلطانه ، فأخبر أن كرسيه قد وسع السموات والأرض جميعاً . والصحيح في الكرسي أنه غير العرش ، وأنه موضع القدمين ، وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاة .. ثم وصف نفسه سبحانه في ختام تلك الآية الكريمة بهذين الوصفين الجليلين وهما: العلي والعظيم .

فالعلي : هو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه :

علو الذات : وكونه فوق جميع المخلوقات مستوياً على عرشه .

وعلو القدر : إذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها.

وعلو القهر : إذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

وأما العظيم : فمعناه الموصوف بالعظمة ، الذي لا شيء أعظم منه، ولا أجل، ولا أكبر ، وله سبحانه التعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفياه((^(٢)).

(١) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد الهراس ، ص ٨٣ .

(٢) شرح العقيدة الواسطية للشيخ الهراس ، ص ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ .

وبهذا وغيره يتضح مذهب السلف في إثبات صفات الله سبحانه كما أنزل في كتابه وكما جاء عن نبيه ﷺ فيما وصف به ربه بالأحاديث الصحاح ، فهو أعلم بما يستحقه ربه من الصفات العلى والأوصاف العظمى ، ولا عبرة بقول المخالف في هذا ﴿ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة ١٤٠ .

موقف المخالفين في صفات رب العالمين

كان إعراض المتكلمين عن دليل الفطرة والخلق والعناية الدالة على وجود الله سبحانه ؛ واعتمادهم على أدلة الحدوث والافتقار والتمانع والإمكان ؛ كل ذلك قد أدى بهم إلى الالتزام بمقتضيات الدليل فحجّروا صفات العظيم الجليل وظنّوها حدوثاً وتركيباً و أبعاضاً ، تعالى الله عن قولهم وظنونهم.. ((والمخالف في هذا الأصل فريقان :

أولاً : الجهمية الغالية : وينفون الأسماء والصفات جميعاً .

ثانياً: المعتزلة : فإنهم ينفون جميع الصفات ، ويثبتون الأسماء والأحكام ، فيقولون : عليم بلا علم ، وقدير بلا قدرة ، وحي بلا حياة .

وهذا القول في غاية الفساد ؛ فإن إثبات موصوف بلا صفة ، وإثبات ما للصفة للذات المجردة : محال في العقل ؛ كما هو باطل في الشرع .

أمّا الأشعرية ومن تبعهم : فإنهم يوافقون أهل السنة في إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعاني ، ويدّعون ثبوتها بالعقل ، وهي : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

ولكنهم وافقوا المعتزلة في نفي ما عدا هذه السبع من الصفات الخيرية التي صح بها الخبر . والكل محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة))^(١).

أمّا الجهمية الغالية وهم أتباع الجهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم الذي زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى ، وابتدع القول بخلق القرآن ، فكان زنديقاً قتله عبد الله القسري يوم النحر ، وقال للناس بعد خطبة العيد ضحوا

(١) شرح العقيدة الواسطية للشيخ الهراس ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

تقبل الله منكم ضحاياكم أما أنا فإني مضح بالجعد بن درهم.

وأما الجهم بن صفوان فقد قتله سلم بن أحوز لزندقته وإنكاره صفات الله تعالى .^(١) وهؤلاء هم منكروا الأسماء والصفات لله تعالى .

أما المعتزلة : وهم الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات ، والذي دفعهم إلى نفي صفات الله تعالى ، الخوض في ذلك بعقولهم والاعتماد عليها في معرفة الله سبحانه وصفاته . ولذا اشترطوا في إثبات الصفة لله تعالى ((أن تكون معقولة ليصح إثباتها لله تعالى ، لأن إيراد الدلالة على إثبات الشيء فرع على كونه معقولاً في نفسه .. والاستدلال بالسمع على ذلك غير ممكن))^(٢).

وقالوا : ((إن من أثبت لله صفة قديمة فقد قال بتعدد القدماء لأن صفاته لو شاركته في القدم لشاركته في الألوهية ، وأدى ذلك إلى تعدد القديم سبحانه))^(٣).

((وأهل السنة المثبتون لصفات الله تعالى مشبهة ، غير موحدين لله ، ولا يعرفون ربهم ، لأنهم وصفوه بالأعضاء والزوال والاستواء ويلزم من ذلك أن يكون جسماً))^(٤).

وأما آيات القرآن الكريم التي تثبت صفات الله تعالى فهي آيات متشابهة كما يزعمون ، ((فيجب أن تؤول لموافقة الأدلة القاطعة وهي أدلة العقول ، لأنها موهمة للتشبيه ، ولأنها محتملة الدلالة ، وأما العقل فلا احتمال في دلالاته . وما وقع التشبيه في الأمة إلا بسبب التعلق بالآيات المتشابهة وترك تأولها على ما يوافق دليل

(١) الملل والنحل للشهرستاني انظر ج ١ ، ص ٨٦ ؛ انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٥ ، ص ٤٣٣ ، ج ٦ ، ص ٢٦-٢٧ .

(٢) المحيط بالتكليف : للقاضي عبد الجبار الهمداني ، جمع الحسن بن أحمد ، ت عمر عزمي ، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة . ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ١١٠ . انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار الهمداني ، مكتبة وهبة سنة ١٣٨٤ ، مصر ، ص ٢٠١ .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٦ .

(٤) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار ، الدار التونسية للنشر ص ١٩٦ - ١٩٧ .

العقل))^(١) .

((وبالتالي لا يجوز عندهم الاحتجاج بأحاديث الآحاد في هذا الباب لأنه لا اعتماد عليها هاهنا ، وإنما فارس الميدان في هذا المقام هو العقل .. ولازم ذلك أن يرد كل حديث مهما كانت صحته .. في إثبات صفات الله تعالى))^(٢) ثم أصّل المعتزلة لأنفسهم أصولاً خمسة فكان أولها التوحيد ((فإنهم فسروا التوحيد بتفسير لم يدل عليه الكتاب والسنة ، ولا قاله أحد من سلف الأمة وأئمتها .. وادعوا أن من أثبت الصفات لم يكن موحداً .. وثبوت الصفات يقتضي الكثرة .

وهذا بخلاف ما كان من أهل الإثبات المقرين بالتوحيد والتنزيه الذي جاءت به الرسل عليهم السلام ونزلت به الكتب ((التوحيد العلمي القولي)) كالتوحيد الذي دلت عليه السورة التي هي صفة الرحمن وهي تعدل ثلث القرآن .

و((التوحيد العملي الإرادي)) الذي دلت عليه السورة التي هي براءة من الشرك ، وهما سورتا الإخلاص ، فإن هؤلاء الموحدين كلما حققوا هذا التوحيد بعدوا عن أهل الشرك والتعطيل وتبرؤوا منهم... وأما تفسير التوحيد بما يستلزم نفي الصفات أو نفي علوه على العرش ؛ بل بما يستلزم نفي ما هو أعم من ذلك فهو شيء ابتدعته الجهمية لم ينطق به كتاب ولا سنة ولا إمام، وكذلك جعل التشبيه ضد التوحيد ، وتفسير التشبيه بما فيه إثبات الصفات . هو أيضاً باطل ، فإن التوحيد نقيضه الإشراك بالله تعالى والتمثيل له بخلقه وإن كان ينافي التوحيد فليس المراد بذلك ما يسمونه هم تشبيهاً ؛ فإنهم يسمون المعاني بأسماء سموها هم ما أنزل الله بها

(١) نفس المصدر ص ١٤٩ ، وانظر موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية ، الأمين الصادق، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٢) موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية ، الأمين الصادق الأمين، مكتبة الرشد ، الرياض ١٤١٨هـ، ج ١ ، ص ١٧٢

من سلطان)) (١).

بل إن هؤلاء المعتزلة ومن وافقهم قد وقعوا في محاذير عقدية نتيجة تأصيلهم هذا ، ومن ذلك : القول بخلق القرآن لأنهم ينفون أن الله قد تكلم وإنما خلق القرآن كسائر الخلق . ((والقرآن كلام الله ، منه بدأ وإليه يعود بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية... - قال الشارح رحمه الله - ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء - أحد القراء السبعة - أريد أن تقرأ ((وكلم الله موسى)) بنصب اسم الله ، ليكون موسى هو المتكلم لا الله ! فقال أبو عمرو : هب أني قرأت هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (٢) فبُهِتَ المعتزلي)) (٣).

كيف وقد أنزله الله تعالى في أعظم ليلة وهي ليلة القدر وشهد بذلك سورة منه وكذلك غيرها من آيات الله التي تثبت التنزيل والوحي والتكليم من رب العالمين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)) (٤).

وإذا كان هذا القرآن العظيم قد أنزله الله تعالى على خير خلقه وخاتم أنبيائه ، فإنه قد أخبرنا الصادق المصدوق أنه سيرفع في آخر الزمان من المصاحف وأن

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع محمد بن قاسم ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

(٢) سورة الأعراف ١٤٣ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٦٨ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ج ٩ ، ص ٣ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ ج ٢ ، ص ١٨٦ ؛ مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٣٤١ ، ٤٥١ .

ذلك من أشرط الساعة ، فقد روى ابن ماجة في سننه في باب ذهاب القرآن والعلم ، عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : ((يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة وليسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها فقال له صلة : ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة فأعرض عنه حذيفة ثم ردها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة ثم أقبل عليه في الثالثة فقال يا صلة تتجيه من النار ثلاثاً))^(١).

((وخلاصة القول : إن القرآن العربي كلام الله ، منزل ، غير مخلوق ، منه بدأ ، وإليه يعود ، والله تكلم به على الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره ، وإذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج ذلك عن أن يكون كلام الله ؛ فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً ، لا إلى من بلغه مؤدياً ، والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ، ليس شيء منه كلاماً لغيره ، ولا لجبريل ، ولا لمحمد ، ولا لغيرهما ، والله تكلم به أيضاً بصوت نفسه ، فإذا قرأه العباد قرؤوه بصوت أنفسهم وكما أن القرآن كلام الله ، فكذلك هو كتابه ، لأنه كتبه في اللوح المحفوظ ، ولأنه مكتوب في المصاحف قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾^(٢)))^(٣).

((والنزاع بين أهل القبلة إنما هو في كونه مخلوقاً خلقه الله ، أو هو كلام الله الذي تكلم به وقام بذاته ؟ وأهل السنة إنما سئلوا عن هذا ، وإلا فكونه مكذوباً مفترى مما لا ينزع مسلم في بطلانه . ولا شك أن مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع

(١) شرح سنن ابن ماجة ، باب ذهاب القرآن والعلم ، ج ٢ ، ص ٤٩٨ ؛ المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ج ٤ ، ص ٥٨٧ .

(٢) سورة الواقعة آية ٧٧-٧٨ .

(٣) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد الهراس ، ص ١٥٤ .

معترفون بأن اعتقادهم في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة ، ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وإنما يزعمون أن عقلهم دلهم عليه^(١).

((وأما أحمد بن حنبل فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر ، وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية ، فإنهم أظهروا القول بإنكار صفات الله تعالى ، وحقائق أسمائه ، وأن القرآن مخلوق ، حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ، ودعوا الناس إلى ذلك ، وعاقبوا من لم يجبههم إما بالقتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية ، وإما بالحبس أو بالضرب ، وكفروا من خالفهم ، فثبت الله تعالى الإمام أحمد حتى أحمده الله باطلهم ، ونصر أهل الإيمان والسنة عليهم ، وأذلهم بعد العز ، وأخملهم بعد الشهرة ، واشتهر عند خواص الأمة وعوامها أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وإطلاق القول أن من قال إنه مخلوق فقد كفر))^(٢).

إنكار المعتزلة رؤية الله في الجنة :

وذلك أن التوحيد عندهم يقتضي نفي صفات الله ، لأنهم قالوا إن إثباتها يلزم تعدد القدماء ، وقد أخطأوا في هذا وخالفوا اعتقاد الأمة وأعرضوا عن الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة . فقالوا بخلق القرآن ونفي رؤية وجه الرحمن ، في دار الجنان ((والمعتزلة حين ينفون الرؤية يزعمون أن كل شيء يرى بالعين يجب أن يكون في مقابلة العين ، أي ينبغي أن يكون جسماً يحتل حيزاً))^(٣).

وقال الشهرستاني : ((واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار))^(٤). وقال عبد الجبار : ((لا أحد يدعي أنه يرى الله سبحانه إلا من اعتقده

(١) شرح العقيدة الطحاوية خرج أحاديثها الشيخ محمد الألباني ، ص ١٧٦ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ١٢ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

(٣) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٢هـ ، ص ٢٣ .

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٤٥ .

جسماً مصوراً بصورة مخصوصة ، أو يعتقد فيه أن يحل في الأجسام)) (١).

ثم يقول : ((إن من شأن أحدنا أن لا يرى إلا إذا كانت له حاسة صحيحة ، ولا يكفي ذلك دون أن يكون المرئي مقابلاً لحاسته ، إن كان إنما يراه بلا واسطة ، أو يقابل ما قابل حاسته إن كان يرى بواسطة هي المرآة ، وكانت هذه القضية لازمة وواجبة في الرائي بحاسة ، لأنه مهما حصل الشرطان صح كونه رائياً ، ومهما فقد أو فقد أحدهما امتنعت الرؤية. ومعلوم أن القديم يرى الجوهر ولا يقابله ، فإذا ثبتت هذه الجملة ، وكان من حق الرائي هنا أن لا يرى إلا ما هو مقابل لنا ، وكانت هذه القضية فيه تعالى ممتنعة ، فيجب أن تمتنع الرؤية)) (٢).

ثم استدلل المعتزلة بأدلة من القرآن والسنة وقاموا بتوجيه مرادهم منها ليظهروا حجتهم ، وعند النظر في أقوال الأئمة المفسرين يكون الأمر بخلاف ما قالوا ، لأنهم ينطقون بهواهم وينطلقون من مقدماتهم ويقولون في القرآن والسنة برأيهم ((ولقد تبين مع كثرة الخلاف أن الله تعالى لم يُر ولا يُرى في الدنيا بالأبصار الجارحة مع جواز ذلك، وأنه لم يره موسى عليه السلام ولا محمد ﷺ . وإن رؤيته تقع في الدنيا بالقلب كما وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم والنام وتتغير تبعاً لإيمان الرائي قوة وضعفاً ، وليس الرب تبارك وتعالى كما يرى في هاتين الحالتين.

ثم إنه تعالى يُرى يوم القيامة رؤية عامة بأعين الرؤوس يراه أهل الموقف وليست رؤية حقيقية للذات المقدسة التي رؤيتها أعلى نعيم أهل الجنة ، فلا يقال إن غير المؤمنين يرى ذات الباري تعالى وتقدس ، إذ الرؤية الحقيقية التي فيها النعيم

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ، عبد الجبار الهمداني ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

(٢) المحيط بالتكليف ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

خاصة بالمؤمنين بعد دخولهم الجنة)) (١).

((ورؤية الله تبارك وتعالى رب العالمين أعظم وأجل وأشرف وأنعم نعيم الجنة قدراً وأعلاه وأغلاه خطراً وأمراً ، وهي الغاية القصوى والنهاية العظمى التي شمر إليها السابقون وتتافس فيها المتنافسون واتفق الأنبياء والمرسلون والصحابه والتابعون وأئمة السلف والدين على ثبوتها في دار القرار من غير شك ولا إنكار وإنما أنكرها أهل البدع والضلال والتجهم والإعتزال.

وقال الأوزاعي رحمه الله - عبد الرحمن بن عمرو - : إني لأرجو أن يحجب الله عز وجل جهماً وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعد أوليائه حين يقول : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٢) فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعد أوليائه)) (٣).

((وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً . ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول ﷺ قالها ، ولو لا أنني التزمت الاختصار لسقت ما في الباب من الأحاديث . ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النبوية ، فإن فيها مع إثبات الرؤية أنه يكلم من شاء إذا شاء ، وأنه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة ، وأنه فوق العالم ، وأنه يناديهم بصوت يسمعه من قُرب ، وأنه يتجلى لعباده ، وأنه يضحك ، إلى غير ذلك من الصفات التي سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق ، وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟! وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسر به رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ، الذي نزل

(١) رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها . د. أحمد بن ناصر الحمد - جامعة أم القرى - مركز بحوث الدراسات الإسلامية ، ص ٢٤٠ .

(٢) سورة القيامة آية ٢٢-٢٣ .

(٣) لوامع الأنوار للسفاريني ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

القرآن بلغتهم ؟!) ((^(١).

وإذا كان المعتزلة قد ردّوا آيات إثبات رؤية الله تعالى لأنها تقتضي التشبيه ؛ فإن موقفهم من السنة لم يكن أحسن حالاً ، كيف وقد علم تواتر خبر الرؤية كما سبق بيانه ، غير أن أهل الضلال قد سولت لهم أنفسهم وعقولهم بالقول على الله وعلى رسوله بغير علم والعياذ بالله ! فقال كبيرهم القاضي عبد الجبار : ((ومما يتعلقون به أخبار مروية عن النبي ﷺ ، وأكثرها يتضمن الجبر والتشبيه ، فيجب القطع على أنه ﷺ لم يقله ، وإن قاله فإنه قاله حكاية عن قوم ، والراوي حذف الحكاية ونقل الخبر ... - ثم تكلم في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه عن الرؤية الصحيح - ثم قال : لو صح وسلم فهو خبر آحاد ، وخبر الواحد لا يقتضي العلم ، ومسألة الرؤية طريقها القطع والثبات))^(٢).

إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة عند السلف :

وقد أثبتها الله سبحانه في كتابه العظيم لعباده المؤمنين ، فكانت المزيد والحسنى والزيادة ، حيث قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ هُمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾^(٥).

((و لهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله يرى في الآخرة ، وأنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه))^(٦).

((وقد تضافرت على إثباتها أدلة الكتاب ولسنة ، وأجمع على ذلك سلف

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٩٤ .

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار . ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ وانظر الحديث ص ٢٢٦ من البحث.

(٣) سورة يونس ٢٦

(٤) سورة ق آية ٣٥ .

(٥) سورة القيامة آية ٢٢-٢٣ .

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

الأمة)) (١) .

وحيث أن رؤية الله تعالى في جنته خاصة بعباده المؤمنين ، فإن الله حرم رؤيته وحجبها عن الكافرين والضالين ، فقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴾ (٢) . ((فدل حجب هؤلاء على أن أوليائه يرونه ، وأحاديث الرؤية متواترة في هذا المعنى عند أهل العلم بالحديث ، لا ينكرها إلا ملحد زنديق)) (٣) .

فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : : ((كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة - يعني البدر - فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ...)) (٤) .

((وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : ((قال رسول الله ﷺ ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه)) (٥) .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ((جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)) (٦) . قال الطحاوي رحمه الله : ((والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به ربنا ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه ،

(١) لوامع الأنوار للسفاريني ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

(٢) سورة المطففين آية ١٥ .

(٣) شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ محمد الهراس ، ص ٥٧ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر ، ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ صحيح مسلم النووي ، كتاب المساجد ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر ج ٥ ، ص ١٣٤ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، ج ١٣ ، ص ٤٢٣ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ج ٧ ، ص ١٠١ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، ج ١٣ ، ص ٤٢٣ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ، ج ٣ ، ص ١٦ .

وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال . ومعناه على ما أراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا فإنه ما سلم في دينه إلا من سلمَ لله عز وجل ولرسوله ﷺ . وردّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه .

ثم قال الشارح رحمه الله : المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة . وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون . وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين ، وأهل الحديث .. وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون ، وتنافس المتنافسون ، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون وعن بابه مردودون))^(١).

ويقول شيخ الإسلام : ((إنه قد ثبت بالسنة المتواترة وباتفاق سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة أهل الإسلام الذين أنتموا بهم في دينهم أن الله سبحانه وتعالى يرى في الدار الآخرة بالأبصار عياناً ، وقد دل على ذلك القرآن في مواضع ، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة متواترة في الصحاح والسنن والمسانيد .. ومسألة الرؤية كانت من أكبر المسائل الفارقة بين السنة المثبتة وبين الجهمية حتى كان علماء أهل الحديث والسنة يصنفون الكتب في الإثبات ويقولون " كتاب الرؤية " و"الرد على الجهمية " وكذلك الأحاديث التي تنكرها الجهمية من أحاديث الرؤية وما يتبعها ، ويعدون من أنكر الرؤية معطلاً))^(٢).

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ج ١ ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

الأشاعرة وأصحابهم وموقفهم من الصفات والرد عليهم

استدل الأشاعرة والماتريدية بالأدلة العقلية على أن الله سبحانه سبعاً أو ثمان من الصفات ونفوا ما عداها مما يليق بالله تعالى مما ورد بالنص فقالوا : ((الباري تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حي بحياة ، مريد بإرادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع، بصير ببصر والباقي .. وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى . لا يقال : هي هو ، ولا هي غيره . ولا : لا هو ولا غيره .

والدليل على أنه متكلم بكلام قديم ، ومريد بإرادته قديمة ، أنه قد قام الدليل على أنه تعالى ملك ، والملك من له الأمر والنهي ، فهو أمر ناه ، فلا يخلو أن يكون أمراً بأمر قديم ، أو بأمر محدث ، وإن كان محدثاً فلا يخلو: إما أن يحدث في ذاته أو في محل أو لا في محل ، ويستحيل أن يحدثه في ذاته ، لأنه يؤدي إلى أن يكون محلاً للحوادث ، وذلك محال ، ويستحيل أن يحدثه في محل ، لأنه يوجب أن يكون المحل به موصوفاً ، ويستحيل أنه يحدثه لا في محل ، لأن ذلك غير معقول ، فتعين أنه قديم ، قائم به صفة له ، وكذلك التقسيم في الإرادة والسمع والبصر .. (١) .

ولا شك أن إثباتهم هذا ونفي صفات الله الأخرى الواردة في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ ، كان نتيجة اعتمادهم على منهجهم العقلي في إثبات وجود الله وما يستحق أن يطلق على الله من الصفات ، متأثرين بأصحاب أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، معرضين عن اعتقاد السلف وما أثبت الله لنفسه وأخبرنا به رسوله ﷺ .

وإذا كان هؤلاء موافقون للسلف في إثبات تلك الصفات ، وسموها صفات المعاني وأنها قديمة أزلية ؛ فإنهم مخالفون لما أثبتته الله أيضاً لنفسه من تجدد تلك

(١) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٩٥ .

؛ انظر المواقف في علم الكلام للإيجي ، ص ٢٧٩ ، وما بعدها ؛ وانظر أصول الدين للبغدادي ص ٢٤ ، ٧٨ ، وكذلك كتب أهل الكلام .

الصفات وأن الله يتكلم متى شاء وكيف شاء ويبصر ويسمع وهذا بخلاف معتقدهم حيث قالوا : ((هو متصف بالصفات التي ليست له عليها قدرة ولا تكون بمشيئته ، فأما ما يكون بمشيئته فهو حادث ، والرب لا تقوم به الحوادث .. ولو قامت به الحوادث لا يخلو منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث)) (١).

((ومسألة حلول الحوادث من المسائل التي ابتدئها المتكلمون وعارضوا به صحيح المنقول وأوهموا بها على الناس لأنها من الألفاظ المجملة التي تحتل حقاً وباطلاً ، فإذا قالوا إن الله لا تحله الحوادث أوهموا الناس أنه تعالى لا يكون محلاً للتغيرات والاستحالات ونحو ذلك من الأمور ... وهذا معنى صحيحاً ، لكنهم أرادوا نفي أفعال الله الاختيارية المتعلقة بمشيئته وقدرته من نحو استوائه على عرشه ، وضحه ومحبه وغيرها من الصفات التي يفعلها الله متى شاء وكيف شاء.

- ومن المعلوم في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ أن تلك الصفات التي أثبتوها ووافقوا فيها أهل السنة وسلف الأمة ، أن نوعها قديم وآحادها حادث - قال شيخ الإسلام : وكذلك صفة الإرادة نوعها قديم وآحادها حادث فالله تعالى له الإرادة أزلاً ويريد متى شاء، وكيف شاء يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على استمرار إرادة الله تعالى وأنه تعالى كما هو متصف بصفة الإرادة قبل وجود المراد فهو كذلك متصف بها مستقبلاً وعند حدوث المراد وليست إرادته فقط قديمة متعلقة بذاته كما توهم المتكلمون بل الله له الإرادة التامة الصالحة للماضي والمستقبل)) (٢).

وكذلك صفة العلم لله فهو قديم متجدد فيعلم الأشياء قبل حدوثها ووقت حدوثها وبعد

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٢٢٠.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، ج ٢ ، ص ١١ ، ١٢ .

ذلك وكذلك قدرته سبحانه ، وكلامه ، وسمعه وبصره . فقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(٤) .

قال الإمام الطحاوي : ((ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه ، لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً)) ^(٥) .

قال شيخ الإسلام : ((وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه ، ولا قال أحد منهم إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلاً وأبداً وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته ، بل قالوا لم يزل الله تعالى متكلماً إذا شاء)) ^(٦) .

((وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعاً كبيراً :

فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقاً منفصلاً عنه وقال : إن معنى متكلم : خالق للكلام في غيره . وهم المعتزلة .

ومنهم من جعله لازماً لذاته أزلاً وأبداً ، لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، ونفى عنه الحرف والصوت وقال : إنه معنى واحد في الأزل . وهم الكلابية والأشعرية)) ^(٧) .

وقال الشهرستاني : ((والكلام عند الأشعري معنى قائم بالنفس سوى العبارة ،

(١) سورة طه ١١٠ .

(٢) سورة فاطر آية : ٤٤ .

(٣) سورة النساء ١٦٤ .

(٤) سورة الشورى آية : ١١ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٢٤ .

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ .

(٧) شرح العقيدة الواسطية ص ١٤٩ .

والعبارة دلالة عليه من الإنسان ، فالمتكلم عنده من قام به الكلام، وعند المعتزلة من فعل الكلام . غير إن العبارة تسمى كلاماً إما بالمجاز ، وإما باشتراك اللفظ^(١) . ويؤكد هذا القول ما ذهب إليه أبو الطيب الباقلاني أحد مؤسسي المذهب حيث قال : ((فصَحَّ أن الكلام الحقيقي هو المعنى القائم بالنفس دون غيره ، وإنما الغير دليل عليه بحكم التواضع والاصطلاح ويجوز أن يسمى كلاماً إذ هو دليل على الكلام ، لا أنه نفس الكلام الحقيقي . فأخبر تعالى أنه أرسل موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بلسان عبراني ، فأفهم كلام الله القديم القائم بالنفس بالعبرانية . وبعث عيسى عليه السلام بلسان سرياني ، فأفهم قومه كلام الله القديم القائم بالنفس بكلامهم ، وبعث نبينا ﷺ بلسان عربي ، فأفهم قومه كلام الله القديم القائم بالنفس بكلامهم .

فلغة العرب غير اللغة العبرانية ، واللغة السريانية غيرهما ، لكن الكلام القديم القائم بالنفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغير ، ويدل على الكلام القائم بالنفس الخطوط المصطلح عليها بين كل أهل خط فيقوم الخط في الدلالة مقام النطق باللسان^(٢) .

وقد غلط هؤلاء في فهم كلام رب العالمين المنزل باللسان العربي المبين ، وذلك بإعراضهم عن النقل الصحيح عن سيد المرسلين ﷺ وفهم السلف الصالح وعلماء أهل السنة والجماعة ((وأما من قال إنه معنى واحد ، واستدل عليه بقول الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فاستدلال فاسد . ولو استدلل مستدل بحديث في ((الصحيحين)) لقالوا هذا خبر واحد ! ويكون مما أئفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به ! فكيف وهذا البيت

(١) الملل والنحل للشهرستاني ، ص ١٠٨ .

(٢) الإنصاف لأبي الطيب الباقلاني ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

قد قيل إنه موضوع منسوب إلى الأخطل النصراني ..

ولا شك أن من قال : إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله وهو مخلوق: فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر فإن الله يقول : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ ^(١) . افتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما في نفسه أو إلى المتلو المسموع ؟ ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع ، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه ، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع . وقوله : ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ افتراه سبحانه يقول : لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لا يسمعه ولم يعرفوه ، ومافي نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه ولا إلى الوقوف عليه.

فإن قالوا : إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا - فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق .. وهذا تصريح بأن صفات الله محكية ، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله فأين عجزهم ؟! ويكون التالي - في زعمهم - قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف)) ^(٢) . بل إن إعجاز القرآن المتحدى به جميع الخلق سيسقط وإن ادعوا أن جبريلاً قد حكاه عن ربه . ((ومن قال إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما هو كلام جبريل أو غيره عبر به عن المعنى القائم بذات الله ، كما يقول ذلك ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما فهو قول باطل من وجوه كثيرة .. والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه ، ونادى موسى بصوت نفسه ، كما ثبت

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٨٤ ، ١٨٦ .

بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل
صوته ؛ فإن الله ليس كمثله شيء : لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله . وقد
نص أئمة الإسلام أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نص به الكتاب والسنة من أن
الله ينادي بصوت ، وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت ليس منه شيء كلاماً
لغيره ، لا جبريل ولا غيره ، وأن العباد يقرءونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم ،
فالصوت المسموع من العبد صوت القارئ والكلام كلام البارئ)) (١) .

ومما يدل على تجدد كلام الله ما أورده البخاري رحمه الله في باب ((كلام
الرب مع أهل الجنة)). فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال ﷺ : ((إن
الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في
يديك، فيقول تعالى هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما
لم تعط أحداً من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي
شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول تعالى : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده
أبداً)) (٢) .

فأهل الجنة يسمعون كلام الله مباشرة ويجيبون عليه ويبشرونهم برضوانه
الأبدي وهذا من أجل نعم الله سبحانه على عباده المؤمنين ، فمن أنكر كلام الله
المتجدد المسموع فأنى يحصل له هذا الرضى والخلود ؟! . فأين قولهم إنه كلام
نفسى أو أنه عبارة عنه أو حكاية عنه ؟! . فقط إنه الإعراض عن أخبار المصطفى
ﷺ وقولهم إنها آحاد ، فكيف وقد أوردها أصحاب الصحيحين وغيرهم وتلقاها الأمة
بالقبول والتسليم ، بل ويحمدون الله على هذه النعمة والرضوان من الرحيم الرحمن .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ١٢ ، ص ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع أهل الجنة ج ١٣ ، ص ٤٨٧ ؛
صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب رؤية الله سبحانه في الجنة ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

وسيكلم الله آدم عليه السلام يوم القيامة . فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك . قال : أخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فاشتد ذلك عليهم فقالوا : يا رسول الله أينما ذلك الرجل ؟ قال : أبشروا ، فإن من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم رجل ، ثم قال ﷺ والذي نفسي بيده ، إنني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة . قال فحمدنا الله وكبرنا . ثم قال : والذي نفسي بيده إنني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة...))^(١).

وكذلك علم الله وقدرته وسمعه وبصره المحيطة بالمؤمن كما أخبرنا المصطفى ﷺ ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : ((كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ..))^(٢) .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : ((كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا ، فقال : اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً تدعون سمعياً بصيراً قريباً ..))^(٣) .

وبهذا يتبين أن المتكلمين الأشاعرة والماتريدية وإن أصابوا ووافقوا صحيح المنقول في إثبات صفات المعاني لكنهم غلطوا وخالفوا صحيح المنقول في

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق ، باب إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، ج ١١ ، ص ٣٨٨ ؛ مصحيح مسلم شرح النووي كتاب الإيمان ، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الاستخارة ، ج ١١ ، ص ١٨٣ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب وكان الله سمعياً بصيراً ، ج ١٣ ، ص ٣٧٢ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر ، باب خفض الصوت بالدعاء ، ج ١٧ ، ص ٢٥ . ومعنى اربعوا: أي ارفقوا بأنفسكم واخفضوا اصواتكم شرح النووي ج ١٧ ، ص ٢٦

((اعتبارهم صفات المعاني قديمة أزلية لازمة للذات أزلاً ليس منها ما يتعلق بمشيئته واختياره تعالى وأنه يفعلها متى شاء وكيف شاء . وقد وقعوا في إشكالات نتيجة سلوكهم هذا المسلك وذلك لأنه لا يعقل أن يكون الله تعالى له إرادة واحدة قديمة وقد تعلقت في الأزل بإيجاد العالم فيما لا يزال ، فإن هذا قول بتأخر المراد عن الإرادة التامة من غير عائق!، فإنه متى تمت القدرة والإرادة وارتفعت العوائق عنهما وجب حصول المراد لا محالة ... فكيف قال الله تعالى في الأزل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ^(١) ولم يكن خلق نوحاً بعد !! وكيف قال الله تعالى في الأزل لموسى : ﴿ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ ^(٢) ، ولم يخلق بعد موسى ؟ وكيف أمر ونهى من غير مأمور ولا منهي)) ^(٣) . ((والمعقول الصريح يدل على ذلك ، فإن المعدوم لا يرى ولا يسمع بصريح العقل واتفاق العقلاء .. فإذا خلق العباد ، وعملوا ، وقالوا ؛ فأما أن نقول إنه يسمع أقوالهم ويرى أعمالهم ؛ وأما لا يرى ولا يسمع . فإن نفى ذلك فهو تعطيل لهاتين الصفتين ، وتكذيب للقرآن ، وهما صفتا كمال لا نقص فيه ، فمن يسمع ويبصر أكمل ممن لا يسمع ولا يبصر . والمخلوق يتصف بأنه يسمع ويبصر ، فيمتنع اتصاف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق سبحانه وتعالى ، وقد عاب الله تعالى من يعبد من لا يسمع ولا يبصر في غير موضع . ولأنه حي ، والحي إذا لم يتصف بالسمع والبصر اتصف بضد ذلك وهو العمى والصمم وذلك ممتنع .. وإنما المقصود هنا أنه إذا كان يسمع ويبصر الأقوال والأعمال بعد أن وجدت ؛ فأما أن يقال : إنه تجدد ، أو كان لا يسمعها ولا يبصرها ، فهو بعد أن خلقها لا يسمعها ولا يبصرها . وإن تجدد شيء : فأما أن يكون وجوداً أو عدماً ؛ فإن كان عدماً لم يتجدد

(١) سورة نوح ١ .

(٢) سورة طه : ١٢ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٢٢٣ ؛ وانظر ابن تيمية السلفي للدكتور/ محمد خليل الهراس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤ هـ ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

شيء ، وإن كان وجوداً ؛ فأما أن يكون قائماً بذات الله ، أو قائماً بذات غيره ، والثاني يستلزم أن يكون ذلك الغير هو الذي يسمع ويرى ، فيتعين أن ذلك السمع والرؤية الموجودين قائم بذات الله ، وهذا لا حيلة فيه .. فالسلف يقولون : لم يزل متكلماً إذا شاء ؛ وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (١) . فكلمات الله لا نهاية لها ، وهذا تسلسل جائز كالتسلسل في المستقبل فإن نعيم الجنة دائم لا نفاد له ، فما من شيء إلا وبعده شيء لا نهاية له . (((٢) .

رؤية الله في الآخرة وموقف الأشاعرة وأصحابهم منه:

قال الأشاعرة والماتريدية برؤية الله في الآخرة وأنها جائزة وأن المؤمنين سوف يرون ربهم رؤية بصرية .

قال الشهرستاني : ((ذهب الأشاعرة إلى جواز رؤية الله تعالى ، وأن المؤمنين سوف يرونه في الآخرة رؤية بصرية ، مع نفي الجهة والمقابلة ! وقالوا : إنه إدراك وراء العلم لا يقتضي تأثيراً في المدرك ولا تأثراً عنه)) (٣) .

وقال صاحب شرح المقاصد : ((ولا نزاع للمخالفين في جواز الإنكشاف التام العلمي ولا لنا في امتناع ارتسام صورة من المرئي في العين ، أو اتصال الشعاع الخارجي من العين بالمرئي ، حالة إدراكية مستلزمة لذلك . وإنما محل النزاع أننا إذا عرفنا الشمس مثلاً بحد أو رسم كان نوعاً من المعرفة ، ثم إذا أبصرنا وأغمضنا العين كان نوعاً آخر فوق الأول ، ثم إذا فتحنا العين حصل نوع آخر من الإدراك فوق الأولين نسميها الرؤية لا تعلق لها في الدنيا إلا بما هو في جهة ومكان فمثل

(١) سورة الكهف آية ١٠٩ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

هذه الحالة الإدراكية هل تصح أن تقع بدون المقابلة والجهة ، وأن تتعلق بذات الله تعالى منزهاً عن الجهة والمكان ؟ ((^(١)).

((وهكذا اقتربوا من المعتزلة عند ما قالوا : من الممكن أن يخلق الله لعباده انكشافاً تاماً لا يتوقف على شروط الرؤية العادية فالخلاف إذن لفظي ؛ إذ تنتهي الرؤية بعد حذف شروطها المادية بأن تكون علماً))^(٢).

ويقول ابن رشد في مناهج الأدلة : ((وأما الأشعرية فراموا الجمع بين الاعتقادين أعني بين انتفاء الجسمية وبين جواز الرؤية لما ليس بجسم بالحس ، ففسر ذلك عليهم ، ولجأوا في ذلك إلى حجج سفسطائية مموهة...))^(٣).

إن مصدر غلط الأشاعرة ومن تبعهم ؛ كان اعتمادهم على العقل وحده في إثبات وجود الله سبحانه معرضين عن دليل الفطرة والكتاب والسنة ، فما كان منهم إلا أن شبهوا الخالق عز وجل بالمخلوق ، ثم ظنوا أن ما أثبتته الخالق لنفسه وأثبتته له رسوله ﷺ في الصحيح من سنته من كمال الصفات والأوصاف مماثل للمخلوق ، فما كان منهم إلا أن أولوا وأعرضوا عن الحديث الصحيح وقالوا أخبار آحاد لا تقبل في العقيدة . ثم نفوا لوازم الرؤية الصحيحة وهي علو الله الثابت لجلاله بالقرآن والسنة وإجماع سلف الأمة ، ونفوا استواءه على عرشه وأولوا آيات الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء عليه في مغالطة لغوية لا تقر لهم بها لغة القرآن العظيم ، بل تعدوا على الثابت من صفاته العظمى وهو وجهه فقالوا ذاته . وهنا كانت الرؤية عندهم انكشافاً وإدراكاً وعلماً وتخبيلاً!! .

(١) شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني ، تحقيق د / عبد الرحمن عميره ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٩هـ - ج٤ ، ص ١٨١ .

(٢) مقدمة في نقد مدارس الكلام على مناهج الأدلة لابن رشد ، للدكتور محمود قاسم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٣ ، سنة ١٣٨٩ ، ص ٨٤ .

(٣) مناهج الأدلة لابن رشد تحقيق د . محمود قاسم ، ص ١٨٦ .

وقد ذهب إلى هذا أساطين علمائهم وذكروا أنها علم أو أنها حالة نسبية أو مجاز أو تخيلاً أو انكشاف : فقال الرازي : ((إننا قد ذكرنا مرادنا من الرؤية ، وهي : أنها حاله نسبتها إلى معرفة ذات الله ، كنسبة إِبصار اللون المعين إلى العلم بذلك اللون المعين . وإذا ثبت هذا فلم قلتم : إن حصول ذلك الانكشاف مشروط بحصول المقابلة ؟ بل حصول انكشاف ماهية الشيء المختص بالمكان والحيز مشروط بحصول المقابلة ، فأما حصول انكشاف ماهية الشيء المنزه عن المكان والحيز فلم قلتم إنه مشروط بحصول المقابلة ؟ وهذا لا يمكن إثباته بحال مناسب ، فضلاً عن ادعاء العلم الضروري فيه)) (١) .

وقد ذهب الغزالي أبعد من هذا واصفاً الرؤية بالإنكشاف والتخييل ((وتحصيله أن الرؤية تدل على معنى له محل وهو العين وله متعلق وهو اللون والقدر والجسم وسائر المرئيات ، فلننظر إلى حقيقة معناه ومحلّه وإلى متعلّقه ولنتأمّل أن الركن من جملة ما في إطلاق هذا الاسم فنقول : أما المحل فليس بركن في صحة هذه التسمية فإن الحالة التي تدركها بالعين من المرئي لو أدركناها بالقلب ، أو الجهة مثلاً لكننا نقول قد رأينا الشيء وأبصرناه وصدق كلامنا ، فإن العين محل آلة لا تراد لعينها بل لتحل فيه هذه الحالة ، فحيث حلت الحالة تمت الحقيقة وصح الاسم ، فإذا الركن الذي الاسم مطلق عليه هو الأمر الثالث وهو حقيقة المعنى من غير التفات إلى محله ومتعلّقه ، فلنبحث عن الحقيقة ما هي ولا حقيقة لها إلا أنها نوع إدراك هو كمال ومزيد كشف بالإضافة إلى التخييل)) (٢) .

وقد جاء المستشرق جولدتسيهر فأثنى على الأشاعرة والمعتزلة لقولهم إن

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي للرازي ، دار الكتاب العربي ، تحقيق أحمد السقا ، سنة ١٤٠٧هـ ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٤٠٣هـ ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

البرهان المؤسس على النص لا يفيد اليقين ((ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقدياً موحداً متجانساً وخالياً من التناقضات ، ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطراً إلا آثاراً عامة نجد فيها إذا بحثناها في تفاصيلها أحياناً تعاليم متناقضة .. إذاً كان لزاماً على علم الكلام المنسق أن يتولى منذ أول الأمر حل الصعوبات النظرية الناشئة عن مثل هذه التناقضات . لأن المبدأ المشترك بين المعتزلة والأشاعرة هو أن البرهان المؤسس على العناصر النقلية لا يعطينا أي يقين .. فجاء اليقين المتنوع الذي استخدمه الأشاعرة في تأويل هذا النص المضايق للفهم أو التصور المنزه لله ، يرينا معرضاً كاملاً للحيل التفسيرية في صالح المدرسة الأشعرية))^(١) .

إنه لا يستغرب حقد هذا اليهودي وأمثاله وافترائه على الإسلام وأهله ومعتقداته ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۚ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ أَهْدَىٰ ۖ ﴾^(٢) . لكن رضائه وموافقته لما ذهب إليه المتكلمون من التأويل في كتاب الله والإعراض عن الصحيح فيما ثبت من سنة رسول الله ﷺ وتسميته آحاداً فلا يقبل في أمور العقيدة ، ثم القول في دين الله بدون هدى من الله وسنة رسول الله ﷺ لهو من أكبر أدلة غلط هؤلاء المتكلمين ، وإن مخالفتهم معلومة بأمور أكبر وضوحاً من هذا. ففي كتاب الله تعالى الحجة والبرهان والدليل والبيان ، وفي سنة المصطفى ﷺ الوضوح كبارقة الشمس في وضوح النهار ، وسطوع القمر في ليلة البدر فقد أخبرنا رسول الله ﷺ فيما صح عنه أن الله يتجلى لعباده وأنهم يرونه في الجنة عياناً ومثل تلك الرؤية برؤية البدر والشمس ليس دونهما حجاب ((وليس تشبيه

(١) العقيدة والشرعية في الإسلام ، لجولد تسيهر ، عربه وعلق عليه محمد يوسف وآخرون ، دار الكتب المصرية ، ١٣٦٦هـ ، ص ٦٨ ، ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٠ .

رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئي بالمرئي ، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه ، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟ ومن قال : يرى لا في جهة - فليراجع عقله !! فإما أن يكون مكابراً لعقله أو في عقله شيء ، وإلا فإذا قال يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته ، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة . ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفي الرؤية ، وقالوا كيف تعقل رؤية بلا مقابلة بغير جهة . وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا ، لا لامتناع الرؤية ، فهذه الشمس إذا حذق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها ، لا لامتناع في ذات المرئي ، بل لعجز الرائي ، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته .. وما ألزمهم المعتزلة هذا لإلزام - وهو نفى الرؤية - إلا لما وافقوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه ((^(١)).

قال شيخ الإسلام : ((فإذا قال قوم : إن الله في جهة أو حيز . وقال قوم : إن الله ليس في جهة ولا حيز ، استفهموا كل واحد من القائلين عن مراده فإن لفظ الجهة والحيز فيه إجمال واشتراك . فيقول : ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق ، والله تعالى منزّه بآئن عن مخلوقاته ، فإنه سبحانه خلق المخلوقات بآئنة عنه ، متميزة عنه خارجة عن ذاته ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، ولو لم يكن مباحيناً لكان إما مداخلًا حالاً فيها ، أو محلاً لها ، والله تعالى منزّه عن ذلك . وأما أن لا يكون مباحيناً لها ، ولا مداخلًا لها فيكون معدوماً والله تعالى منزّه عن ذلك))^(٢).

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٩٥ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٣٩ .

ثم يقول في درء تعارض العقل والنقل : ((وهذا هو البحث المشهور بين المعتزلة والأشعرية ، فلهذا صار الحذاق من متأخري الأشعرية على نفي الرؤية وموافقة المعتزلة . فإذا أطلقوها موافقة لأهل السنة فسروها بما تفسرها به المعتزلة، وقالوا النزاع بيننا وبين المعتزلة لفظي))^(١).

قال ابن القيم رحمه الله : ((إن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وجميع أهل السنة والحديث والأئمة الأربعة ، وأهل الاستقامة من أتباعهم متفقون على أن المؤمنين يرون وجه ربهم في الجنة ، وهو الزيادة التي فسر بها النبي ﷺ والصحابة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(٢) ذلك ما رواه مسلم في صحيحه بإسناده عن النبي ﷺ في قوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي النظر إلى وجه الله تعالى فمن أنكر حقيقة الوجه لم يكن للنظر عنده حقيقة ، ولا سيما إذا أنكر الوجه والعلو ، فيعود النظر عنده إلى خيال مجرد ، وإن أحسن العبارة قال: هو معنى يقوم بالقلب نسبته إليه كنسبة النظر إلى العين ، وليس في الحقيقة عنده نظر ولا وجه ولا لذة تحصل للناظر))^(٣).

وقد وردت أحاديث صحيحة رداً على المعتزلة في ثنايا البحث إثباتاً للرؤية وأنها عياناً كحديث جرير البجلي وحديث أبي هريرة وحديث أبي موسى الأشعري وحديث عدي بن حاتم رضي الله عنهم^(٤) .

وروى مسلم عن صهيب رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو؟

(١) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

(٢) سورة يونس : ٢٦ .

(٣) الصواعق المرسله لابن القيم ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٤) انظر : البحث ص ٢٢٦ .

فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم))^(١).

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول : اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، اللهم واسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، واسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرضا ، واسألك القصد في الفقر والغنى ، واسألك نعيماً لا يبيد ، واسألك قرّة عين لا تنقطع ، ولأسألك الرضا بعد القضاء ، واسألك برد العيش بعد الموت ، واسألك لذة النظر إلى وجهك ، واسأل الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين))^(٢).

قال ابن خزيمة رحمه الله - أحد رواة الحديث - : ((ألا يعقل ذو الحجا أن النبي ﷺ لا يسأل ربه ما لا يجوز كونه؟! وفي مسألة النبي ﷺ ربه لذة النظر إلى وجهه أبين البيان وأوضح الوضوح أن الله عز وجل وجهاً يتلذذ بالنظر إليه من مَنْ الله عليه وتفضل بالنظر إلى وجهه))^(٣).

وبعد هذا أفلا نطمع في رؤية ربنا ومولانا؟! وفي هذا أورد ابن القيم أبياتاً ، صور فيها يوم اللقاء أروع تصوير وأصدق استنتاجاً من نصوص الكتاب والسنة إذ يقول رحمه الله :

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٢) كتاب التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل ، لإمام الأئمة محمد بن خزيمة ، ص ١٢ ؛ سنن النسائي ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٥ من طريقين أحدهما عن عمار بن ياسر رضي الله عنه . مسند الإمام أحمد ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

؛ وانظر صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم تحقيق سليم بن عيد الهلالي ، دار ابن الجوزي ، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ ، ص ٢٨٧ وقال المحقق : إسناده صحيح .

؛ المستدرك للحاكم ، ج ١ ، ص ٥٢٤ وصححه ووافقه الذهبي . (٣) كتاب التوحيد لابن خزيمة ، ص ١٣ .

((والله أفراح المحبين عندما يخطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة فلا الضيم يغشاها ولاهي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نظرة أمن بعدها يسلو المحب المتيم
فحيّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم
وحيّ على يوم المزيد الذي به زيارة رب العرش واليوم موسم))^(١)

الصفات الخبرية وموقف المتكلمين منها :

سبق عرض موقف المعتزلة من الصفات عموماً حيث اعتقدوا أن إثباتها لله سبحانه يقتضي تعدد القدماء فنفوا الصفات وعدوا ذلك توحيداً لله ! فسبحانه عما يقولون ! .

أما الأشاعرة والماتريدية والكلابية فقد قسموا الصفات إلى صفات المعاني وهي التي يثبتها العقل والشرع وقد تقدم البحث في ذلك .

وأما الصفات الخبرية وهي التي لا سبيل إلى إثباتها إلا بطريق النص عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ في الكتاب والسنة . وهي الصفات الفعلية الاختيارية لله والصفات الذاتية لله تعالى .

((وأهل السنة لا يلتزمون هذا الاصطلاح فلا يسمون هذه بالصفات الخبرية لأن من الصفات المعنوية ما لا يعلم إلا بالخبر))^(٢) .

الصفات الفعلية الاختيارية :

ومن أظهرها علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه، وكذلك صفة النزول والمجيء والغضب والرضا والفرح والتعجب والضحك والكلام ..

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم حققه علي الشوربجي وقاسم النوري ، مؤسسة الرسالة ، ط ٣ ، سنة ١٤١٨هـ ، ص ٣٦٠ .

(٢) تلبيس الجهمية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ج ١ ، ص ٧٦ .

وهذه الصفات العظيمة التي أثبتتها الله لنفسه سبحانه وأخبرنا الصادق المصدوق عن ربه تعالى بما يستحقه من عظيم الصفات اللائقة بجلاله ، ثم أجمع عليها سلف الأمة . بل إنها من الدين ثابتة بالضرورة ، فكيف وقد أقر توحيد الصفات قسيما لتوحيد الألوهية والربوبية عقيدة لأهل السنة والجماعة .

أما الأشاعرة ومن وافقهم من المتكلمين فقد كان موقفهم من أدلة السمع المثبتة للصفات مبني على ((أدلتهم العقلية السابقة ، حيث إنهم قالوا بتقديم العقل على النقل عند التعارض ، ومن ثم كان خلاصة موقفهم من الأدلة السمعية التي جاءت بإثبات الصفات التي نفوها أو أولوها :

أ - من ناحية الثبوت - قالوا عن أخبار الآحاد إنها لا يحتج بها في العقيدة.

ب - من ناحية الدلالة - وذلك في مثل دلالة القرآن - الذي لا يشك أحد في ثبوته - أو الحديث المتواتر والصحيح عند من يرى الاحتجاج به في العقائد - فقد قالوا فيها إنها من المتشابهة وحينئذ فسبيلها أحد أمرين :

- أما التفويض .

- أو التأويل عن طريق المجاز وغيره .

هذه هو خلاصة موقفهم في باب الصفات ، وهو كما يلاحظ بني على أدلة العقول ، وتشبيه الله بخلقه ، حيث صاروا يحكمون عليه تعالى وعلى صفاته بما يحكمون به على مخلوقاته ، فأدى بهم هذا التشبيه إلى التعطيل ((^(١)).

صفة الاستواء على العرش وعلوه سبحانه على خلقه :

وهما صفتان ثابتتان لله تعالى بنص الكتاب والسنة ، لكن المتكلمين وعلى الرغم من كثرة أدلة الإثبات لها وتنوعها سلكوا منهجاً أدى بهم إلى تعطيل صفتي العلو والاستواء حيث عرضوا النصوص الواردة في ذلك على عقولهم وشبهاتهم

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبد الرحمن المحمود ، مكتبة الرشد ١٤١٥هـ ، ج ٣ ، ص ١٠٩٧ .

التي عارضوا بها صحيح المنقول فتصوروا بعقولهم أن إثبات صفتي العلو والاستواء يؤدي إلى أن يكون الله تعالى محصوراً ومتحيزاً في جهة ومكان معين وما كان كذلك لا يكون إلا جسماً مماثلاً للمخلوقات (١) .

بل قال الجويني في المواقف : ((احتج الخصم بوجوه : .. الخامس منها . الاستدلال بالظواهر الموهمة بالتجسيم من الآيات والأحاديث نحو قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٢) . ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٣) . وحديث النزول وسؤال الجارية .. والجواب : أنها ظواهر ظنية لا تعارض اليقينيات ، ومهما تعارض دليلان وجب العمل بهما ما أمكن ؛ فتؤول الظواهر أما إجمالاً أو يفوض تفصيلها إلى الله .. فنقول : الاستواء الاستيلاء نحو : قد استوى بشر على العراق ، والعندية بمعنى الإصطفاء والإكرام . وجاء ربك أي أمره ، وإليه يصعد الكلم الطيب أي يرتضيه ، ومن في السماء أي حكمه أو سلطانه ، أو ملك موكل بالعذاب وعليه فقس...) (٤) .

قال ابن القيم رحمه الله : ((وقول المعطلة والجهمية الذين يقولون : ليس على العرش شيء سوى العدم ، وإن الله ليس مستوياً على عرشه ، ولا ترفع إليه الأيدي ، ولا يصعد إليه الكلم الطيب ، ولا رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه ، ولا عرج برسوله محمد ﷺ ولا تعرج الملائكة والروح إليه ، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره .

ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ، ص ١٢٦ . وانظر التوحيد لأبي منصور الماتريدي تحقيق د . فتح الله خليف ، دار الشروق ، بيروت ، ص ٧٠ ؛ وانظر نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ، ص ١١٠ . وغيرها من كتب أهل الكلام .

(٢) سورة طه : ٥ .

(٣) سورة الفجر آية : ٢٢ .

(٤) المواقف في علم الكلام للأيجي ، انظر : ص ٢٧٢ .

من فوقهم ، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عياناً بأبصارهم من فوقهم ، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس ويقول ((اللهم اشهد))^(١) - ثم يقول ابن القيم - قال شيخ الإسلام : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والتابعين وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستوٍ على عرشه))^(٢) .

ويقول ابن قدامة المقدسي رحمه الله : ((إن الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء ووصفه بذلك محمد خاتم الأنبياء وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء والأئمة من الفقهاء ، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين ، وجمع الله تعالى عليه قلوب المسلمين ، وجعله مغروراً في طباع الخلق أجمعين))^(٣) .

بل إن ((القبول والتصديق بكل ما رواه العلماء ونقله الثقات أهل الآثار عن رسول الله ﷺ وتلقوه بالقبول لا ترد بالمعاريض ولا يقال لم وكيف ولا تحمل على المعقول ولا تضرب لها المقاييس ولا يعمل لها التفاسير إلا ما فسرهُ رسول الله ﷺ أو رجل من علماء الأمة ممن قوله شفاء وحجة مثل أحاديث الصفات والرؤية))^(٤) .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : لا ترجعوا بعدي كفاراً ، ج ١٣ ، ص ٢٦ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ، ج ٨ ، ص ١٨٤ .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم تحقيق فواز زمرلي ، دار الكتاب العربي ١٤٠٨ هـ ، ص ٨٦ .

(٣) إثبات صفة العلو لابن قدامة المقدسي تحقيق د . أحمد عطية الغامدي ، موسوعة علوم القرآن ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ ، ص ٦٣ .

(٤) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة للإمام عبد الله بن بطة ، تحقيق رضا نعلان ، مكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ١٤٠٤ هـ ، ص ٢١٣ .

ثم نقف مع هذا التوجيه المشرق من شمس الدين الذهبي حيث قال : ((فإن أحببت يا عبد الله الإنصاف فقف مع نصوص القرآن والسنة ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات ، وما حكوه من مذاهب السلف ، فإما أن تنطق بعلم ، وإما أن تسكت بحلم ، ودع المراء والجدال ، فإن المراء في القرآن كفر ، كما نطق بذلك الحديث الصحيح ، وسترى أقوال الأئمة في ذلك على طبقاتهم بعد سرد الأحاديث النبوية .

جمع الله قلوبنا على التقوى ، وجنبنا المراء والهوى ، فإننا على أصل صحيح وعقد متين ، من الله تقدس اسمه لا مثل له ، وأن إيماننا بما ثبت من نعوته كإيماننا بذاته المقدسة)) (١) .

وقد أورد المتكلمون شبهاً ظنوها ، ليتقوى احتجاجهم على نفي هاتين الصفتين لله تعالى وحسبوا ذلك تنزيهاً وقد غلطوا ، فلقد ((اشتهر عند الخلف نسبة كل من يثبت الفوقية لله تعالى إلى أنه مشبه أو مجسم ، أو إلى أنه ينسب لله الجهة والمكان .. ولو كان إثبات الفوقية لله تعالى معناه التشبيه ، لكان كل من أثبت الصفات الأخرى لله تعالى ككونه حياً قديراً سميعاً بصيراً مشبهاً أيضاً ، وهذا ما لا يقول به مسلم ... خلافاً لنفات الصفات المعتزلة وغيرهم)) (٢) .

قال شيخ الإسلام : ((وما تنازع فيه المتأخرون نفيًا وإثباتًا ، فليس على أحد بل ولا له أن يوافق أحداً على إثبات لفظ أو نفيه ، حتى يعرف مراده ، فإن أراد حقاً قبل ، وإن أراد باطلاً رد ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ولم يرد جميع معناه ، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ، كما تنازع الناس في الجهة

(١) مختصر العلو للعلو للغفار للحافظ الذهبي ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، إشراف زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ ، ص ٨٦ .

(٢) مقدمة مختصر العلو للعلو للغفار للشيخ محمد ناصر الدين الألباني - نفس المصدر السابق - ص ٦٧ .

والتحيز وغير ذلك . فلفظ ((الجهة)) قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقاً ، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السماوات . وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله ، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم .

ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ ((الجهة)) ولا نفيه كما فيه إثبات العلو والإستواء والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك .

وقد علم أنه ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق ، والخالق مبين للمخلوق سبحانه وتعالى ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته . فيقال لمن نفى الجهة : أتريد بالجهة شيء موجود مخلوق ؟ فالله ليس داخلياً في المخلوقات ؛ أم تريد بالجهة ما وراء العالم ؟ فلا ريب أن الله فوق العالم ، بائن من المخلوقات وكذلك يقال لمن قال : إن الله في جهة : أتريد بذلك إن الله فوق العالم ، أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات ، فإن أردت الأول فهو حق ، وإن أردت الثاني فهو باطل . وكذلك ((المتحيز)) إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر .. وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات ، أي مبين لها ، منفصل عنها ، ليس حالاً فيها . فهو سبحانه كما قال أئمة السنة : فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ((١)) .

أما صفة الاستواء لله تعالى فقد وردت في كتاب الله في سبع آيات منها قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (٢) .

وكذلك في سورة يونس والرعد وطه والفرقان والسجدة والحديد (٣) . وجميع

(١) الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٣) سورة يونس والرعد وطه والفرقان والسجدة والحديد آيات ٣ ، ٢ ، ٥ ، ٥٩ ، ٤ ، ٤ .

هذه الآيات بلفظ استوى التي تعني علا وارتفع وصعد ((فإن لفظ استوى في اللغة إذا عُدِّي بـ على لا يمكن أن يفهم منه إلا العلو والارتفاع والصعود والاستقرار ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن هذه العبارات الأربع .. فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستوٍ على عرشه ، بائن من خلقه بالكيفية التي يعلمها هو جل شأنه كما قال مالك وغيره : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)) (١) .

أما قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴾ (٢) .

فقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية : ((ثم استوى بعد ذلك على العرش الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها . الرحمن استوى على عرشه الذي وسع السموات والأرض باسمه الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات وأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات وإطلاعه على ظاهريهم وباطنهم وعلوه فوق العرش ومباينته إياهم ، ﴿ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴾)) يعني بذلك نفسه الكريمة ، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله ، وقد أخبركم بذلك وأبان لكم من عظمته ما تسعدون به من معرفته فعرفه أصحاب الفطر السليمة ، وخضعوا لجلاله)) (٣) .

قال الإمام البخاري رحمه الله ((باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم)) : قال أبو العالية : استوى إلى السماء : ارتفع . فسواهن خلقهن

(١) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد خليل الهراس ، ص ١٣٩

؛ انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٧هـ ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٢) سورة الفرقان آية : ٥٩ .

(٣) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، مطبوعات الجامعة الإسلامية ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ .

وقال مجاهد : استوى علا على العرش .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ((من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، قالوا يا رسول الله أفلا ننبيئ الناس بذلك ؛ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة)) (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه أن رحمتي سبقت غضبي)) (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((كان النبي ﷺ يقول عند الكرب ، لا إله إلا الله العليم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم)) (٣) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ رضي الله عنه)) (٤) . إنها أخبار غيب نؤمن بها لصحة أخبارها وعلم كفيّتها موكل إلى الله سبحانه وتعالى ، وقد تخبط منكروها لدفعهم الأحاديث الصحيحة فيها فضلوا الطريق .

وإن المرء ليعجب من قول هؤلاء الذين يفسرون الاستواء بالاستيلاء بل ونستغفر الله من قولهم هذا! فمن يعادي الله سبحانه ليقهره ثم يستولي على ما خلقه سبحانه؟! ثم لماذا يستوي على العرش وحده في سبعة مواضع بنفس صيغة الفعل ((استوى)) وما حال المخلوقات الأخرى التي لم يذكر استوائه عليها!؟

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ج ١٣ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٤٠٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٤٠٥ .

(٤) نفس المصدر ، كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب سعد بن معاذ ، ج ٧ ، ص ١٢٢ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل سعد بن معاذ ج ١٦ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

أورد البيهقي رحمه الله بإسناده في كتاب الأسماء والصفات عن أبي سليمان قال : ((كنا عند ابن الإعرابي فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله ما معنى قوله ((الرحمن على العرش استوى)) فقال : إنه مستوي على عرشه كما أخبر ، فقال الرجل : إنما معنى قوله استوى أي استولى ، فقال له ابن الإعرابي : ما يدريك ؟ العرب لا تقول استولى على العرش فلان ؟ حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب قيل : قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر)) (١) .

أما صفة العلو :

فقد جاءت الأدلة الصريحة في كتاب الله تعالى مثبتة علو الله على سائر مخلوقاته فمنها قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٢) في سبعة مواضع من القرآن . وقوله تعالى : ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٥) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((الملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم - فيقول كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون)) (٦) .

(١) الأسماء والصفات للإمام أبي بكر أحمد ابن حسين البيهقي ، تحقيق عماد الدين حيدر ، دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٤٠٥هـ ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(٢) سورة طه آية : ٥ .

(٣) سورة الملك آية : ١٦ .

(٤) سورة فاطر : ١٠ .

(٥) سورة المعارج آية : ٤ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ج ١٣ ، ص ٤٦١ ؛ وكتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ج ٦ ، ص ٣٠٦ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليها ، ج ٥ ، ص ١٣٣ .

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال : .. وكانت لي غنم بين أحد والجوانية فيها جارية لي ، فاطلعتها ذات يوم فاذا الذئب قد ذهب منها بشاة - وأنا رجل من بني آدم - فأسفت فصككتها ^(١) ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له ، فعظم ذلك علي ، فقلت : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال : ادعها فدعوتها ، فقال لها أين الله ؟ قالت : في السماء قال : ومن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ﷺ ، قال : أعتقها فإنها مؤمنة ^(٢) .

قال الذهبي رحمه الله : ((هذا حديث صحيح أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وغير واحد من الأئمة في تصانيفهم ، يمرونه كما جاء ولا يتعرضون له بتأويل ولا تحريف . وهكذا رأينا كل من يسأل : أين الله ؟ يبادر بفطرته ويقول في السماء ففي الخبر مسألتان : احدهما شرعية : قول المسلم : أين الله ؟ . وثانيهما : قول المسلم : في السماء . فمن أنكر هاتين المسألتين فإنما ينكر على المصطفى ﷺ ^(٣) . وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : ((أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة : (ألا هل بلغت) فقالوا : نعم فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إليهم ويقول اللهم اشهد ^(٤))).

وعن عمران بن حصين قال : ((إني عند النبي ﷺ إذ جاء قوم من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، قالوا : بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا قبلنا ، جئناك لننطقه في الدين . ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء ثم

(١) الصك : هو الضرب الشديد بالشيء العريض / لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ٤٥٦ . .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد ومواقع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

(٣) مختصر العلو للعلي الغفار للذهبي تحقيق الألباني ، ص ٨١ .

(٤) سبق تخريجه ، انظر البحث ص ٢٤٦ .

أتاني رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها، وأيمُ الله لو ددت أنها قد ذهبت ولم أقم)) (١).

وبهذا تتظاهر الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على علو الله سبحانه وتعالى واستوائه على عرشه استواءاً يليق بجلاله ((وهذه المسألة من كبار مسائل العقيدة الإسلامية ، ومع ظهورها ، وكثرة الأدلة عليها وتنوعها ، واتفاق الرسل ، والكتب وأتباع الرسل عليها ، ضل فيها طوائف كثيرة كالجهمية ، والمعتزلة ، وأكثر الأشعرية ولا يزال على الضلال فيها خلق كثير ممن يتبنى مذهب الأشعرية والماتريدية ، معتقدين أن ذلك الضلال هو الحق وأنه مذهب أهل السنة ، وأن أدلة كتب الله ، ووحيه إلى رسله ، ظواهر تدل على التشبيه بظواهرها ، فلهذا يجب صرفها عن ذلك الظاهر .

ويرى هؤلاء أن من اعتقد ما دل عليه القرآن ، والسنة بظاهرهما ، أنه مشبه ومجسم ، مع أن العقل والفطر السالمة من الانحراف ، يتفقان على ما دل عليه وحي الله تعالى ، ولهذا ترمي الأشعرية كل من اعتقد علو الله ، واستواءه على عرشه على الحقيقة ، بالتشبيه ، والتجسيم .. ومن المؤسف أن بعض ضلالات الجهمية ، قد ورثها كثير من علماء المسلمين كالأشعرية ، الذين يزعمون أنهم أعداء لهم وخصوم ، مع أنهم يتفقون معهم على إنكار علو الله تعالى ، واستوائه على عرشه ، ومجيئه لفصل القضاء بين عباده ، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة ، كما أخبر به رسول الله ﷺ .

كما أنهم يؤولون الصفات إلا قليلاً ، تأويلاً يؤول إلى الإنكار ، مثل اليدين ،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم ، ج ١٣ ، ص ٤٠٣ . وأيمُ الله معناه يمين الله . فتح الباري ج ١١ ، ص ٥٢٢ .

والرجل والقدم ، والوجه ، والرحمة ، والمحبة ، والضحك ، والرضا ، والغضب ،
والسخط ، والمقت وغير ذلك . ويوافقون الجهمية في كون القرآن مخلوقاً ، فإنهم
يجعلون الكلام قسمين : نفسي ، وهو المعنى القائم بالنفس وهذا هو الذي يصفون الله
به ، ولفظي حرفي ، وهو المكتوب في المصاحف ، وهو ليس كلاماً لله عندهم ، بل
هو عبارة عن كلام الله وهو مخلوق ، وهذا قول الجهمية)) (١) .

قال شيخ الإسلام : ((افترق الناس ، في علو الله واستوائه أربع فرق :

الأولى : الجهمية ، النفاة ، يقولون : ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوق ولا
تحت ، وجميع الطوائف من أهل البدع يتمسكون بنصوص ، إلا الجهمية .
الثانية : وهم الذين يقولون : إنه بذاته في كل مكان ويدخل فيهم الأشاعرة .
الثالثة : من يقول : أنه فوق العرش ، وهو في كل مكان ويزعم أنه بذلك يجمع بين
النصوص .

الرابعة : المتبعون للكتاب والسنة ، والذين أثبتوا ما أثبته الله ورسوله ﷺ من غير
تحريف ، فأمنوا بأن الله فوق سماواته ، مستوٍ على عرشه)) (٢) .

((وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ، ثابت بالعقل والفطرة ، أما
ثبوته بالعقل فمن وجوه : أحدها : العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين ، أما أن
يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات ، وأما أن يكون قائماً بنفسه بائناً
من الآخر والثاني : أنه لما خلق العالم فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجاً عن
ذاته ، والأول باطل .. والثاني يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته ، فيكون
منفصلاً ، فتعينت المباينة ، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ، تأليف عبد الله بن محمد الغنيمان ، مكتبة المدني ، ١٤٠٥هـ — ،
ج ١ ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٥ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ .

معقول ... وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال، لا نقص فيه ، ولا يستلزم نقصاً ، ولا يوجب محذوراً ، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ، فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً . فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله ، والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله : إلا بذلك ؟ فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة ، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه ، وكونه فوق عباده ، وأما ثبوته بالفطرة، فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى)) (١).

صفاتا المجيء والإتيان :

وهما صفتان ثابتتان لله سبحانه وتعالى : وتتجلى حين يأتي سبحانه لفصل القضاء بين عباده يوم القيامة : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٢). وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (٣). قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لسورة البقرة : ((إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإذا جاءوا إليه قال : (أنا لها) فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتي في ظل من الغمام بعدما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة .. وينزل الجبار عز وجل في ظل الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم)) (٤) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق الألباني ، ص ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢١٠ .

(٣) سورة لفجر آية : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٢١٧ .

ثم يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يقوم به من الدعاء والسجود والشفاعة حتى ينزل الله ويجيء لفصل القضاء فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ((قال رسول الله ﷺ : يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، قال فيأتون آدم ﷺ .. قال رسول الله ﷺ فيأتوني فاستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله فيقال يا محمد ارفع رأسك قل تسمع سل تعط اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي تحميد يعلمنيه ربي ..))^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((قال النبي ﷺ : يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة))^(٢) .

قال شيخ الإسلام : ((أما كون إتيانه ومجيئه ونزوله ليس مثل إتيان المخلوق ومجيئه ونزوله ، فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة ومن له عقل فإن الصفات والأفعال تتبع الذات المتصفة الفاعلة . فإذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها لزم ضرورة أن تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها ، ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفة كل موصوف إلى ذاته ، ولا ريب أنه العلي العظيم ، فهو أعلى من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، فلا يكون نزوله وإتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به أو تكون أعظم منه أو أكبر ، هذا ممتنع))^(٣) .

((وقربه من العباد بتقربهم إليه مما يقر به جميع من يقول : إنه فوق العرش .. وأما من ينكر ذلك : فمنهم من يفسر قرب العباد بكونهم يقاربونه ويشابهونه من بعض

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾ ج ١٣ ، ص ٣٩٢

؛ صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب ما جاء في عصمة الأنبياء والشفاعة ، ج ٣ ، ص ٥٣ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ، ج ١٣ ، ص ٣٨٤ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ١٦ ، ص ٤٢٢ .

الوجوه فيكونون قريبين منه .

ومنهم من يفسر قربهم بطاعتهم ، ويفسر قربهم بإثابته وهذا تفسير جمهور الجهمية ؛ فإنهم ليس عندهم قرب ولا تقرب أصلاً ..

وأما دنوه نفسه وتقربه من بعض عباده ؛ فهذا يثبت من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، ومجيئه يوم القيامة ، ونزوله واستوائه على العرش . وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر ((^(١))) . .

((على أن الآيات صريحة في بابها ، لا تقبل شيئاً من تلك التأويلات: فالآية الأولى تنوع هؤلاء المصرين على كفرهم وعنادهم واتباعهم للشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم الله عز وجل في ظلل من الغمام لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة ، ولهذا قال بعد ذلك : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ . وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ لا يمكن حملها على مجيء العذاب ؛ لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء . والملائكة صفوف ؛ إجلالاً وتعظيماً له ، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام.. وهو سبحانه يجيء ويأتي وينزل ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه .

فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة ، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله، واعتقاد أن ذلك المجيء والإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضي إلى الإنكار والتعطيل ((^(٢))).

صفة الرحمة والغضب والمحبة والرضا :

وهذه الصفات الاختيارية من فعله سبحانه ثابتة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٥ ، ص ٤٦٥ .

(٢) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد الهراس ، ص ١١٣ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ (١). ﴿وَإِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (٣). ﴿وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ (٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥). ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٦). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (٧). ﴿وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ (٨).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((لما خلق الله الخلق كتب كتاباً ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت أو تسبق غضبي)) (٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ((فقدت رسول الله ﷺ ، ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)) (١٠).

وفي حديث الشفاعة عن أبي هريرة رضي الله عنه : ((قال أتى رسول الله ﷺ يوماً .. فيأتون آدم فيقول يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول آدم ، إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب

(١) سورة الأنعام : ١٣٣ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٣) سورة البقرة : ٦١ .

(٤) سورة النساء : ٩٣ .

(٥) سورة البقرة : ١٩٥ .

(٦) سورة آل عمران : ٣١ .

(٧) سورة الفتح : ١٨ .

(٨) سورة المجادلة : ٢٢ .

(٩) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ، ج ١٣ ، ص ٣٨٤ .

(١٠) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب التوبة باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ج ١٧ ، ص ٦٧ .

بعده مثله ..))^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه قال : فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول في الأرض . وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه قال : فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض))^(٢) .

وهذه الصفات الثابتة لله سبحانه وتعالى بما يليق بجلاله قد أولها الأشاعرة بمعنى الإرادة فقالوا : ((والرحمة عندنا إرادة الإنعام . والغضب إرادة العقاب . والمحبة والرضا إرادة الخير بالمحبوب والمرضي فهذا كله داخل في معنى الإرادة))^(٣) .

((وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة ؛ بدعوى أنها توهم نقصاً ، إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه .

فأما الأشاعرة ؛ فيرجعونها إلى صفة الإرادة ، فيقولون : إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته .

وكذلك يقولون في صفات الرضى والغضب والكرهية والسخط ؛ كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب .. وأما أهل الحق ؛ فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به ، فلا يقتضي عندهم نقصاً ولا تشبيهاً^(٤) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب التوبة ، كتاب الإيمان باب الشفاعة ، ج ٣ ، ص ٦٧ .

(٢) نفس المصدر كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله عبداً وضع له القبول في الأرض ، ج ١٦ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) أصول الدين للبغدادي ، ص ٤٦ .

(٤) شرح العقيدة الواسطية ، ص ١٠٢ .

قال شيخ الإسلام : ((وإن الذين قالوا يريد جميع المرادات بإرادة واحدة إنما أخذوه عن ابن كلاب ، وجمهور العقلاء قالوا : هذا معلوم الفساد بالضرورة حتى أن من فضلاء النظار من ينكر أن يذهب إلى هذا عاقل من الناس ، لأنه يراه ظاهر الفساد في العقل ، ولم يعلم أنه قاله طائفة من النظار .

وكذلك من جعل نفس إرادته هي رحمته وهي غضبه يكون قوله ﷺ ((أعوذ برضاك من سخطك)) معناه يكون مستعيذاً عنده بنفس الإرادة من نفس الإرادة ، وهذا ممتنع ، فإنه ليس عنده للإرادة صفة ثبوتيه يستعاذ بها من أحد الوجهين .. بل الإرادة عنده لهل مجرد تعلق بالمخلوقات والتعلق أمر عديم . وهذا بخلاف الاستعاذة به منه ، لأن له سبحانه صفات متنوعة فيستعاذ به باعتبار ، ومنه باعتبار)) (١) .

((والأشاعرة يتأولون هذا الصفات : أما بالإرادة ، أو لقولهم إنها أزلية ، وكل ذلك بناء على أصولهم في مسألة حلول الحوادث ، ومذهب السلف أن هذه الصفات كغيرها من الصفات يثبت ما ورد منها ، ولا يجوز تأويل شيء منها ، وأهل السنة يثبتونها كما يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه بصفات المخلوقين ومن غير تكيف ولا تحريف ولا تعطيل)) (٢) .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ص ١٥٨ .

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة . د . عبد الرحمن الحمود ، ج ٣ ، ص ١٢٢٣ .

الصفات الذاتية الخيرية :

وهي صفات الكمال التي أثبتتها الله لنفسه في كتابه وثبتت في سنة نبيه ﷺ مخبراً بها أمته فيما صح عنه من هدية ﷺ كالوجه واليدين والعين والساق وإثبات النفس لله تعالى وأن نفسه ذاته .

صفة الوجه :

قال تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ^(١) . وقال ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) .

وعن عتيان بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قد حرم الله على النار أن تأكل من قال لا إله إلا الله يبتغي به وجه الله)) ^(٤) .

وعن جابر بن عبد الله قال : ((لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ ^(٥) . قال : أعوذ بوجهك ، أو من تحت أرجلكم ، قال : أعوذ بوجهك ، أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، قال : هاتان أهون وأيسر)) ^(٦) .

وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ((جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)) ^(٧) .

(١) سورة الرحمن آية : ٢٧ .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .

(٣) سورة الإنسان : ٩ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب المساجد في البيوت ، ج ١ ، ص ٥١٩ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب قصة عتيان رضي الله عنه ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٥) سورة الأنعام : ٦٥ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب قوله تعالى ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥ .

(٧) نفس المصدر ، كتاب التوحيد ، باب وجوه يومئذ ناضره ، ج ١٣ ، ص ٤٢٣ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة ، ج ٣ ، ص ١٦ .

((والنصوص في إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة ، وكلها تنفي تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات، والذي عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ، ولا يقتضي إثبات كونه تعالى مركباً من أعضاء ؛ كما يقوله المجسمة ، بل هو صفة لله على ما يليق به ، فلا يشبه وجهاً ولا يشبهه وجه . واستدلّت المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات ، إذ لا خصوص للوجه في البقاء وعدم الهلاك .

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن لله عز وجل وجه على الحقيقة لما جاء استعمال هذا اللفظ في معنى الذات ؛ فإن اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن أن يستعمل في معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلي ثابتاً للموصوف ، حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه)) (١) .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابهُ النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)) (٢) .

قال ابن القيم رحمه الله : ((وجه الرب جل جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة فليس بمجاز بل على الحقيقة ؛ واختلف المعطلون في جهة التجوز في هذا ؛ فقالت طائفة : لفظ الوجه زائد ؛ والتقدير ويبقى ربك . وقالت فرقة أخرى منهم : الوجه بمعنى الذات ؛ وهذا قول أولئك وإن اختلفوا في التعبير عنه . وقالت فرقة : ثوابه وجزاؤه ؛ فجعله هؤلاء مخلوقاً منفصلاً ؛ قالوا لأن الذي يراد هو الثواب .

(١) شرح العقيدة الواسطية للشيخ الهراس ، ص ١١٤ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في رؤية وجه الله عز وجل ، ج ٣ ، ص ١٣ .

وهذه أقوال نعوذ بوجه الله العظيم أن يجعلنا من أهلها..

إن من تدبر سياق الآيات والأحاديث والآثار التي فيها ذكر وجه الله الأعلى ذي الجلال والإكرام قطع ببطلان قول من حملها على المجاز ، وأنه الثواب والجزاء لو كان اللفظ صالحاً وذلك في اللغة .. وإن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وجميع أهل السنة والحديث والأئمة الأربعة ؛ وأهل الاستقامة من أتباعهم متفقون على أن المؤمنين يرون وجه ربهم في الجنة .. فمن أنكر حقيقة الوجه لم يكن للنظر عنده حقيقة ، ولا سيما إذا أنكر الوجه والعلو ، فيعود النظر عنده إلى خيال مجرد : وإن أحسن العبارة قال : هو معنى يقوم بالقلب نسبته إليه كنسبة النظر إلى العين ، وليس في الحقيقة عنده نظر ولا وجه ولا لذة تحصل للناظر)) (١) .

قال البيهقي : ((فاستعاذ رسول الله ﷺ في الخبر بكلمات الله كما استعاذ بوجهه الكريم ، فكما أن وجهه الذي استعاذ به غير مخلوق فكذلك كلماته التي استعاذ بها غير مخلوقة)) (٢) .

قال ابن القيم :

((والله لولا رؤية الرحمن في الجنات ما طابت لذي العرفان
أعلى النعيم نعيم رؤية وجهه وخطابه في جنة الحيوان)) (٣)

إثبات النفس لله سبحانه وتعالى :

قال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ (٥) . وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (٦) وقال

(١) الصواعق المرسله ، لابن القيم ، ص ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج ١ ، ص ٣٠٥ ؛ وانظر مشكاة المصابيح ((أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم)) وصححه الألباني ط ١ ، ص ٢٣٤ ..

(٣) توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، أحمد بن عيسى المكتب الإسلامي ، ط ٣ ، ١٤٠٦ ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ .

(٤) سورة آل عمران : ٢٨ .

(٥) سورة المائدة : ١١٦ .

(٦) سورة الأنعام : ٥٤ .

تعالى: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(١).

قال ابن خزيمة رحمه الله : ((ذكر نفسه عز وجل ربنا عن أن تكون نفسه كنفس خلقه وعز عن أن يكون عدماً لا نفس له .. فأعلمنا ربنا أن له نفساً كتب عليها الرحمة أي ليرحم بها من عمل سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده على ما دل عليه سياق الآية))^(٢) . وقال الراغب الاصفهاني في المفردات : ((نفسه ، ذاته ، وهذا إن كان قد حصل من حيث اللفظ مضاف ومضاف إليه يقتضي المغايرة وإثبات شيئين من حيث العبارة ، فلا شيء من حيث المعنى سواء سبحانه عن الأثنوية من كل وجه))^(٣) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : ((التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم : أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة ؟ قال : فقال آدم لموسى: أنت موسى الذي أصطفاك الله برسالته وأصطفاك لنفسه ، وأنزل عليك التوراة ؟ قال: نعم قال : فهل وجدته كتب علي قبل أن يخلقني ؟ قال : نعم ، قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى))^(٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ...))^(٥) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن جويرية رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ مرّ بها حين صلى الغداة - أو بعدما صلى الغداة - وهي تذكر الله ثم مرّ بها

(١) سورة طه آية : ٤١ .

(٢) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، إمام الأئمة محمد بن خزيمة ، تحقيق الشيخ محمد الهراس ، ص ٥ ، ٦ .

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، مطبعة الحلبي ، ص ٥١١ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ ج ٨ ، ص ٤٣٤ .

(٥) نفس المصدر كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى ﴿ويحذرکم الله نفسه﴾ ج ١٣ ، ص ٣٨٣ .

بعدما ارتفع النهار أو بعدما انتصف النهار، وهي كذلك فقال لها : ((لقد قلت منذ وقفت عليك كلمات ثلاث مرات هي أكثر وأرجح وأوزن مما كنت فيه منذ الغداة ، سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته))^(١).

وعن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: قال الله تعالى : ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا))^(٢) . قال ابن بطل رحمه الله في الفتح : ((في هذه الآيات والأحاديث ، إثبات النفس لله تعالى . وللنفس معانٍ ، والمراد بنفس الله تعالى ذاته ، وليس بأمر مزيد عليه فوجب أن يكون هو))^(٣).

وقال شيخ الإسلام : ((ونفسه هي ذاته المقدسة))^(٤) . ((ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه ، كما يقال : رأيت زيداً نفسه ، وعينه .. فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء ، فالله نفسه التي هي ذاته ، المتصفة بصفاته ، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات . وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات . كما يظن طائفة، أنها الذات المجردة عن الصفات ، وكلا القولين خطأ))^(٥) .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان : ((ولا يخفى على كل عالم بالقوانين الكلامية والمنطقية أن إطلاق النفسية على شيء من صفاته جل وعلا أنه لا يجوز وأن فيه من الجرأة على الله عز وجل ما الله به عليم ، وإن

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الدعاء ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ، ج ١٧ ، ص ٤٤ .

(٢) نفس المصدر . كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، ج ١٦ ، ص ١٣٣ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ج ١٣ ، ص ٣٨٤ .

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٤ ، ص ١٩٦ .

(٥) نفس المصدر ج ٩ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

كان قصدهم بال نفسية في حق الله تعالى الوجود فقط وهو صحيح ، إلا أن إطلاق الموهم المحذور في حقه تعالى لا يجوز وإن كان المقصود صحيحاً ، لأن الصفة النفسية في الاصطلاح لا تكون إلا جنساً أو فصلاً كالحيوان بالنسبة إلى الإنسان ، والفصل كالنطق بالنسبة إلى الإنسان . ولا يخفى أن الجنس في الاصطلاح قدر مشترك بين افراد مختلفة الحقائق كالحيوان بالنسبة إلى الإنسان والفرس ، وأن الفصل صفة نفسية لبعض أفراد الجنس ينفصل بها عن غيره من الأفراد المشاركة له في الجنس ، كالنطق بالنسبة للإنسان ، فإن صفته النفسية التي تفصلها عن الفرس مثلاً المشارك له في الجوهرية والجسمية والنمائية والحساسية .

ووصف الله جل وعلا بشيء يراد به اصطلاحاً ما بينا من أعظم الجراءة على الله تعالى كما ترى ، لأنه جل وعلا واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، فليس بينه وبين غيره اشتراك في شيء من ذاته ولا في صفاته حتى يطلق عليه ما يطلق على الجنس والفصل سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً^(١).

صفة الـيدين :

وهي صفة كمال لا تـئة بجلال الله تعالى كما أخبرنا سبحانه في كتابه وبينها رسوله ﷺ أكمل بيان في سنته وفقها أصحابه رضي الله عنهم ثم تابعوهم بحق إلى يوم الدين ، وأعرض عن القول الحق أهل البدع والرأي والجدل . وتلك سنة الله في خلقه .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، ج٢، ص٦٠٣ .

يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ قَالَ يَتْلُو آيَاتِهِ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ﴾ (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يد الله ملاء لا يغيضها نفقه ، سحاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغيض ما في يده . وقال عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع)) (٤) .

وعن المغيرة بن شعبة قال : سأل موسى ربه عز وجل ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعدما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي ربي وكيف أدخل وقد نزل الناس منازلهم ، وقد أخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ما كان يكون لملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب . فيقال : ولك مثل هذا ومثله ومثله ومثله - حتى عقد خمساً - فيقول رضيت ، فيقول : لك هذا وعشرة أمثاله : فيقول رب رضيت ، فيقال : لك هذا وما اشتيت نفسك ولذت عينك ، قال : يا رب أخبرني بأعلاهم منزلة قال : أولئك الذين أردت وسوف أخبرك : غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر - قال - ومصادقه في كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلُمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (٥) (((٦) .

(١) سورة المائدة : ٦٤ .

(٢) سورة الزمر : آية : ٦٧ .

(٣) سورة ص : ٧٥ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب لما خلقت بيدي . ج ١٣ ، ص ٣٩٣ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزكاة ، باب الحث على النفقة ، ج ٧ ، ص ٨٠ .

(٥) سورة السجدة : ١٧ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجاً ، ج ٣ ، ص ٤٤ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المؤمنين ما قعدت خلف سرية تغزوا في سبيل الله تعالى ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة فيتبعوني ، ولا تطيب أنفسهم أن يقعدوا بعدي)) (١) .

قال شيخ الإسلام : ((فهل يجوز أن يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد، وأن الله تعالى خلق بيده ، وأن يده مبسوطتان ، وأن الملك بيده ، وفي الحديث ما لا يحصى، ثم أن رسول الله ﷺ ، وأولي الأمر : لا يبينون للناس أن هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره .. وكيف يجوز للسلف أن يقولوا : أمروها كما جاءت مع إن معناها المجازي هو المراد وهو شيء لا يفهمه العرب ، حتى يكون أبناء الفرس والروم أعلم بلغة العرب من أبناء المهاجرين والأنصار ؟!) .

ومن ذلك أنهم إذا قالوا : بيده الملك ، أو عملته يداك . فهما شيئان : أحدهما : إثبات اليد ، والثاني : إضافة الملك والعمل إليها ، والثاني يقع فيه التجوز كثيراً ، أما الأول فإنهم لا يطلقون هذا الكلام إلا لجنس له يد حقيقة ، ولا يقولون يد الهوى ولا يد الماء . فهب أن قوله : بيده الملك ، قد علم منه أن المراد بقدرته ، لكن لا تجوز بذلك إلا لمن له يد حقيقة ..

فهل تقبل هذه الأحاديث تأويلاً ؛ أم هي نصوص قاطعة ؟ وهذه أحاديث تلقنتها الأمة بالقبول والتصديق)) (٢) . ((ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة فإن الأشياء جميعاً - حتى إبليس - خلقها الله بقدرته ، فلا يبقى لأدم خصوصية يتميز بها .. وأيضاً ؛ فلفظ اليدين التثنية لم يعرف استعماله إلا في اليد الحقيقية ، ولم يرد

(١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الأمارة ، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ، ج ١٣ ، ص ٢٢ .

(٢) فتاوى ابن تيمية ، ج ٦ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ .

قط بمعنى القدرة أو النعمة ؛ فإنه لا يسوغ أن يقال : خلقه الله بقدرتين أو بنعمتين .
على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما إلا في حق من
اتصف باليدين على الحقيقة .. وأما احتجاج المعطلة بأن اليد قد أفردت في بعض
الآيات ، وجاءت بلفظ الجمع في بعضها ، فلا دليل فيه ، فإن ما يصنع بالاثنتين قد
ينسب إلى الواحد .. ترى لو لم يكن لله يدان على الحقيقة ؛ هل كان يحسن هذا
التعبير ببسط اليدين ؟!)) (١) .

صفة العين :

وهي صفة لله تعالى أثبتها الله سبحانه لنفسه في كتابه وأثبتها رسول الله ﷺ
في سنته ، وآمن بها أهل السنة والجماعة بلا تكيف ولا تمثيل امتثالاً لقوله تعالى :
﴿ وَالْقِيَتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْنَعِ
الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبَنَّ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَهُمْ مَغْرُقُونَ ﴾ (٣) . وقوله تعالى :
﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٤) . وقوله تعالى : ﴿ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن
كَانَ كُفِرًا ﴾ (٥) .

وعن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : ((ذكر الدجال عند
النبي ﷺ فقال : إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور - وأشار بيده إلى عينه
- وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبه طافية)) (٦) .

وعن قتادة قال : سمعت أنساً رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((ما بعث الله

(١) شرح العقيدة الواسطية محمد خليل الهراس ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) سورة طه : ٣٩ .

(٣) سورة هود آية : ٣٧ .

(٤) سورة الطور : ٤٨ .

(٥) سورة القمر آية : ١٤ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد باب قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ج ١٣ ، ص ٢٨٩ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ج ١٨ ، ص ٥٨ .

من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب ، إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر)) (١) .

وذكر البيهقي رحمه الله في كتاب الأسماء والصفات بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَّكِ بِأَعْيُنِنَا ﴾ قال: بعين الله تبارك وتعالى - قال البيهقي - قلت ومن أصحابنا من حمل العين المذكورة في الكتاب على الرؤية ، وقال : قوله ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ معناه بمرأى مني . وقوله ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ إي بمرأى منا وكذلك قوله ﴿ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا)) (٢) .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَّكِ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا .. ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي أصبر على أذاهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاًتنا والله يعصمك من الناس .. ؛ وقوله تعالى ﴿ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاًتنا)) (٣) . قال ابن حجر في الفتح : ((قال الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له : أخبر الله في كتابه ونسبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، الاستواء والنزول والنفس واليد والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى ، قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح . وقال غيره لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ولا المنع من ذكره ، ومن

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد باب قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ج ١٣ ، ص ٢٨٩ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ج ١٨ ، ص ٥٩ .

(٢) كتاب الأسماء والصفات للبيهقي تحقيق عماد الدين حيدر ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٢٩ ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، ص ٢٣٢ .

المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه وينزل عليه ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز مع حضه على التبليغ عنه بقوله ((ليبلغ الشاهد الغائب)) حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته وما فعل بحضرته ، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراده الله منها ، ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم وبالله التوفيق . وقد سئلت هل يجوز لقارئ هذا الحديث أن يصنع كما صنع رسول الله ﷺ فأجبت وبالله التوفيق ، أنه إن حضر عنده من يوافقه على معتقده وكان يعتقد تنزيه الله تعالى عن صفات الحدوث وأراد التأسى محضاً جاز ...)) (١) .

بل إن تنزيه الله تعالى يتطلب إثبات ما أثبتته لنفسه في محكم كتابه وأخبرنا به نبينا محمد ﷺ في الصحيح من سنته ، وهذا ما ذكره الحافظ إمام الأئمة محمد بن خزيمة رحمه الله في كتابه التوحيد وإثبات صفات الرب في باب ذكر إثبات العين لله جل جلاله وعلا حيث يقول: ((بيان النبي ﷺ الذي جعله الله مبيناً عنه عز وجل.. أن الله عيني فكان بيانه موافقاً لبيان محكم التنزيل الذي هو مسطور بين الدفتين مقروء في المحاريب والكتاتيب ... ثم ذكر بسنده حديث أبي هريرة - وقرأ قوله تعالى : ﴿ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٢) رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه وأصبعه التي تليها على عينه)) (٣) .

((واعلم أن المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة ونحوهم ، يزعمون أن من أثبت لله عيني ويدين ووجه ونحو ذلك مما جاءت بن النصوص ، من أثبت ذلك

(١) فتح الباري شرح ابن حجر ، ج ١٣ ، ص ٣٩٠ وانظر البحث ص ١٢٩ .

(٢) سورة النساء : ٥٨ .

(٣) كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ٤٢ ، ٤٣ ؛ وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ، ص ٤٤٣ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

على ظاهر اللفظ . إنه أثبت جوارح تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم ، تعالى الله وتقدس عن زعمهم وظنهم السيئ في الله ورسوله ، حيث ظنوا أن ظاهر وصف الله نفسه ، وظاهر وصف رسوله إياه يقتضي التشبيه ، ولهذا تجد الذين تلقوا هذا الفكر ، وتأثروا به ، من الذين يشتغلون بالحديث إذا جاء ذكر ذلك قالوا : مثلاً إثبات صفة اليد لا من حيث الجارحة ...))^(١) .

قال أبو سعيد الدارمي رحمه الله : ((قال بعض زعمائهم : زعم قوم أن الله عيناً ، يريد كجارحة العين من الإنسان ، وأرادوا التركيب واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾^(٢) ، ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾^(٣) ، ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾^(٤) .

قال أبو سعيد : أما ما ادعيت أن قوماً يزعمون أن الله عيناً فإننا نقوله لأن الله تعالى قاله ورسوله . وأما زعمك أنهم يثبتون جارحة كجارحة العين من الإنسان ، على التركيب ، فهذا كذب ادعيته علينا عمداً ، وأنت تعلم أن أحداً لم يقله ، ولكنك تريد التشنيع ، ليكون هنالك قبولاً لدى الجاهل ، فمن الذي قال إنها جارح مركب ؟ اذكره فإن قائله كافر . وكما تشنع بما تقرر من قولك : جسم مركب ، وجوارح ، وأجزاء وأبعض تريد أن يكف المؤمنون عن وصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رسوله .

ونحن لم نصف الله بجسم كأجسام المخلوقين ولا بعضو ولا بجارحة؛ لكننا نصفه بما يغيظك من هذه الصفات ، التي أنت ودعاتك لها منكرون ، فنقول : إنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ذو الوجه

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ، عبد الله الغنيمان ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

(٢) سورة طه آية : ٣٩ .

(٣) سورة هو : ٣٧ .

(٤) سورة الطور : ٤٨ .

الكريم ، والسمع السميع ، والبصر البصير))^(١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((إنه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الرسول ﷺ إذا أخبر بشيء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا ، ومن لم يقر بما جاء به رسول الله ﷺ حتى يعلمه بعقله فقد أشبهه : الذين قال الله عنهم : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾ ^(٢) .

ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمناً بالرسول ولا متلقياً عنه الأخبار بشأن الربوبية ، ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك ، أو لم يخبر به ، فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به ، بل يتأوله أو يفوضه ، وما لم يخبر به إن علمه بعقله آمن به وإلا فلا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود الرسول وأخباره ، وبين عدم الرسول وعدم أخباره ..

والقول الحق هو ما اعتقده السلف رحمهم الله من التصديق والإيمان بما جاء عن الله ورسوله واعتقادهم أن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ^(٣) ((^(٤) .

(١) عقائد السلف . نقض عثمان بن سعيد الدارمي على بشر المريسي ، ص ٥٤٥ ، ٥٤٦ .

(٢) سورة الأنعام : ١٢٤ .

(٣) سور الشورى : ١١ .

(٤) شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ، ص ١٢ .

الفصل الثالث

استدلالهم بأحاديث الآحاد في

باب القدر وموقف المخالفين منها والرد عليهم

وفيه :

- تمهيد
- مذهب أهل السنة والجماعة في باب القدر .
- أدلة الإيمان بالقدر .
- أدلة مراتب القدر من السنة .
- الرد على المخالفين في باب القدر .
- غلاة الإثبات للقدر .
- الرد على الجهمية والجبرية .
- الرد على الأشاعرة والماتريدية في القدر .
- نفاة القدر والرد عليهم .
- غلط المعتزلة في استطاعة العبد .
- منشأ الضلال في القدر .
- حكم من أنكر القدر .



تمهيد :

إن تقدير الله لما كان وما هو كائن وما سيكون في هذا الكون ((من الموضوعات الكبرى التي خاض فيها جميع الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، على مر العصور والأزمان وقد تكلم فيها الجميع ، وشغلت أذهان الفلاسفة والمتكلمين وأتباع الطوائف من أهل الملل والنحل وغيرهم . والسبب واضح وهو ارتباط القدر بحياة الناس وأحوالهم اليومية وما فيها من أحداث وتقلبات ليس لهم في كثير منها إرادة أو تأثير ، ويكفي النظر في مسألة الحياة والموت ومسألة الغنى والفقر والصحة والمرض وتفاوت الناس فيها..

والأقوال في القدر ترجع دائماً إلى ثلاثة أقوال :

١ - قول أهل الجبر ، الذين يقولون إن الإنسان مجبور على أفعاله وليس له إرادة ولا قدرة ، ويمثل هذا في الفرق الإسلامية مذهب الجهمية ومن وافقهم ، وهو ما يسمى في العصور المتأخرة بالمذهب الحتمي .

٢ - ويقابلهم قول أهل حرية الإرادة واستقلال الإنسان في أفعاله عن خالقه ، وأن الإنسان له إرادة مستقلة عن إرادة الله ، كما أنه هو الذي يخلق أفعاله ، ويمثل هذا المذهب المعتزلة القدرية ، ومن وافقهم .

٣ - قول أهل الوسط بين هؤلاء وهؤلاء ، الذي يثبتون القدر ، وأن الله خالق كل شيء ، ويقولون أيضاً أن للإنسان إرادة ومشئئة ولكنها خاضعة لمشئئة الله ، كما أن له قدرة يفعل بها فعله ، لكنه هو الفاعل وأفعاله مخلوقة لله تعالى وهذا مذهب السلف واتباع الأنبياء .

وقد نشأ بين هذه الطوائف فرق أخرى ، تميل في بعض المسائل إلى طائفة ، وفي المسائل الأخرى إلى طائفة ثانية ، ويكون الحكم عليها حسب ما يغلب على مذهبها ، فقد يقال إنها مائلة إلى مذهب الجبر ، أو إلى مذهب القدرية ، أو إلى مذهب السلف .

ومن أشهر هذه الطوائف طائفة الأشعرية ، حيث يغلب عليها مخالفة المعتزلة والميل إلى مذهب الجبرية ، وإن لم يصلوا إلى حدّ موافقة الجهم في أقواله وفي غلوه)) .^(١) ((ولما كان الكلام في هذا الباب نفيّاً أو إثباتاً موقوفاً على الخبر عن أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وأمره ، فأسعد الناس بالصواب فيه من تلقى ذلك من مشكاة الوحي المبين ، ورغب بعقله ونظرته وإيمانه عن آراء المتهوكين^(٢) .. واستمطر ديمّ الهداية من كلمات أعلم الخلق برب العالمين))^(٣) . ((والقدر سر من أسرار الله تعالى لم يُطلع عليه ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلأ ، ولا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل ، بل يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق .. فجعلهم فريقين : أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً ، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً . قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾^(٤) . وقد سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر قال : طريق مظلّم ، فلا تسلكه ، فأعاد السؤال فقال : بحر عميق لا تلجه ، فأعاد السؤال فقال : سر الله خفي عليك فلا تقشه))^(٥) .

مذهب أهل السنة والجماعة في باب القدر :

لقد توسط أهل السنة والجماعة ((السلف)) في اعتقادهم أن القدر أمر اختص الله به في سابق علمه ، وسجله في كتابه وشاء ما يريد ، وأنه تعالى ((خالق كل شيء ، وربّه ومليكه لا رب غيره ولا خالق سواه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، د. عبد الرحمن المحمود مكتبة الراشد ، الرياض ١٤١٥هـ - ج ٣ ، ص ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ .

(٢) الأهوك الأحق ، ومتهوك متحير ، قال ﷺ : أمتهوكون أنتم .. قال أبو عبيدة معناه أمتهوكون . لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ٥٠٨ .

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٤ .

(٤) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٥) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب ، المكتب الإسلامي ، ص ٦٨٥ .

يكن، وهو على كل شيء قدير . وبكل شيء عليم، والعبد مأمور بطاعة الله ، وطاعة رسوله ، منهي عن معصية الله ، ومعصية رسوله ، فإن أطاع كان ذلك نعمة ، وإن عصى كان مستحقاً للذم والعقاب ، وكان الله عليه الحجة البالغة ، ولا حجة لأحد على الله تعالى ، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته ، لكن يحب الطاعة ويأمر بها ، ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم ، ويبغض المعصية وينهى عنها ويعاقب أهلها ويهينهم . وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم بها عليه، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٢) .

أي ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم به عليك ، وما أصابك من حزن وذل وشر فبذنوبك وخطاياك ، وكل الأشياء كائنة بمشيئة الله وقدرته وخلقه ، فلا بد أن يؤمن بقضاء الله وقدره ، وأن يؤمن العبد بشرع الله وأمره (((٣) .

ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله : ((وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره .

والإيمان بالقدر على درجتين ، كل درجة تتضمن شيئين :

فالدرجة الأولى : الإيمان بأن الله تعالى عليم بالخلق وهم عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق .

فـ ((أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه . وما أخطأه لم يكن

(١) سورة الشورى : ٣٠ :

(٢) سورة النساء : ٧٩ .

(٣) القضاء والقدر لابن تيمية ، ضبط د . أحمد السائح ، د . السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، ١٤٢٢ هـ ط ٣ ، ص ٨٧ .

ليصبيه ، جفت الأقلام وطويت الصحف)) (١) .

وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع أخرى جملة وتفصيلاً :
فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء . وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه ؛
بعث إليه ملكاً ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال له : اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم
سعيد . (٢) فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ومنكروه اليوم قليل.

وأما الدرجة الثانية : فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو : الإيمان بأن
ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .. والعباد فاعلون حقيقة والله خلق أفعالهم .
والعبد هو : المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم . وللعباد قدرة
على أعمالهم ، ولهم إرادة والله خالقهم وقدرتهم وإرادتهم .. وهذه الدرجة من القدر
يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة (٣) ، ويغلو فيها قوم
من أهل الإثبات ، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ، ويخرجون عن أفعال الله
وأحكامه حكمها ومصالحها)) (٤) .

أدلة الإيمان بالقدر من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ :

وحيث إن الإيمان بالقدر خيره وشره أحد أركان الإيمان الستة بالله تعالى ،
وذلك لعلو منزلته وعظيم قدره في حياة المؤمن وآخرته ؛ فقد جمع علماء أهل السنة
والجماعة أدلة جلية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لبيانه وإثبات وجوبه والردّ على
منكرية والغالين فيه ..

(١) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في القدر ، ج ٥ ، ص ٧٦ .

؛ الجامع الصحيح لسنن الترمذي ، كتاب القدر ، ج ٤ ، ص ٤٥٧ ، وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب
من هذا الوجه .

؛ شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٦٤ ، وصححه الألباني في التعليق .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب ، القدر ، ج ١١ ، ص ٤٧٧ .

؛ صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه ، ج ١٦ ، ص ١٩٠ .

(٣) سنن أبي داود باب القدر ، ج ٥ ، ص ٦٧ ، وحسنه الألباني بجميع طرقه ، شرح الطحاوية ، ص ٢٧٣ .

؛ وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ج ٦ ، ق ١ ، ص ٥٦٤ .

(٤) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية - العقيدة الواسطية ج ٢ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

فمن القرآن الكريم :

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ^(٢) .

فمن هذه الآيات يتبين أركان الإيمان الستة التي ألزم الله بها عباده المؤمنين فلا يقبل إيمان من لم يؤمن بها مجتمعة . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ^(٣) .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ((يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه بالأشياء قبل كونها وكتابتها قبل برئها)) ^(٤) . وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ ^(٥) . وقال تعالى : ﴿ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ^(٦) . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصْبَحُكُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ أَجْمَعِينَ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٧) .

ومن السنة :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٢) سورة الفرقان آية : ١ ، ٢ .

(٣) سورة القمر آية : ٤٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

(٥) سورة الأحزاب : ٣٨ .

(٦) سور الأنفال : ٤٢ .

(٧) سورة آل عمران : ١٦٦ .

ألف سنة قال: وعرشه على الماء)) (١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ((بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقته قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت .)) (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان)) (٣) . وقد ذكر العلماء أن للقدر مراتب فصلوها بأدلتها فيما يلي :

أدلة مراتب القدر من السنة :

المرتبة الأولى : مرتبة العلم :

وهي مرتبة يجب الإيمان بها وأن علم الله عز وجل محيط بكل شيء ((وأنه علم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم ، وعلم أرزاقهم وآجالهم ، وحركاتهم ، وسكناتهم ، وأعمالهم ، ومن منهم من أهل الجنة ، ومن منهم من أهل النار وأنه يعلم كل شيء بعلمه القديم

(١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب الإيمان بالقدر والإذعان له ، ج ١٦ ، ص ٢١٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تعريف الإسلام والإيمان ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

؛ صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، ج ١ ، ص ١١٤ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب الإيمان بالقدر والإذعان له ، ج ١٦ ، ص ٢١٥ .

المتصف به أزلاً وأبداً ((^(١)).

فعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : ((قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : فقال : نعم . قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له))^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، كما تتجوز البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدونها ، قالوا يا رسول الله : أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال الله أعلم بما كانوا عاملين))^(٣).

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : ((دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، قال أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم))^(٤).

والآيات والأحاديث تثبت علم الله الكامل المحيط بكل مخلوقاته ((ولهذا كان علم الله عز وجل غير مسبوق بجهل ولا ملحق بالنسيان ؛ كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون: ﴿ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾^(٥) بخلاف علم المخلوق المسبوق بالجهل والملحق بالنسيان .. فالله عالم بذلك قبل أن يخلق الإنسان فطاعتنا معلومة لله ، ومعاصينا معلومة لله ، وأرزاقنا معلومة له بخلاف علم الإنسان))^(٦).

(١) القضاء والقدر ، د . عبد الرحمن المحمود ، دار الوطن ، ١٤١٨ هـ ، ط ٢ ، ص ٥٥ .

(٢) صحيح مسلم شرح كتاب القدر ، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه ، ج ١٦ ، ص ١٩٨ .

(٣) صحيح مسلم شرح كتاب القدر ، باب كل مولود يولد على الفطرة ، ج ١٦ ، ص ٢١٠ .

؛ صحيح البخاري ، كتاب القدر ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ج ١١ ، ص ٤٩٣ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب حكم موتى أطفال الكفار والمسلمين ، ج ١٦ ، ص ٢١٢ .

(٥) سورة طه : ٥٢ .

(٦) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن عثيمين ج ٢ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

المرتبة الثانية : مرتبة الكتابة :

وهي أن الله تعالى كتب مقادير وآجال المخلوقات في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها بخمسين ألف سنة كما ورد في الحديث السابق . قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١) . وهذه الآية من أوضح الأدلة على علمه المحيط بكل شيء ، وأنه علم الكائنات كلها قبل وجودها ثم كتب الله ذلك في كتابه اللوح المحفوظ ، فالآية جمعت المرتبتين العلم والكتابة .

وعن علي رضي الله عنه قال : ((كنا جلوساً مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت به في الأرض فقال : ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة . فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟ قال : لا ، أعملوا فكل ميسر ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ (٢) ((٣) .

والحديث رواه مسلم بلفظ : عن علي رضي الله عنه قال : ((كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله ومعه مخرصة ، فنكس فجعل ينكت بمخرصته ثم قال : ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا قد كتب الله تعالى مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة . قال : فقال رجل : يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : من كان من أهل السعادة فيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فيصير إلى عمل أهل الشقاوة . ثم قال : اعملوا فكل ميسر . أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فسييسرون لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى

(١) سورة الحج آية : ٧٠ .

(٢) سورة الليل آية : ٥ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدراً مقثوراً ، ج ١١ ، ص ٤٩٤ .

* فَسَيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١﴾ (٢).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ يا غلام إني معلمك كلمات ينفعك الله بهن : ((احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) (٣). ورواه الترمذي بنحوه وقال حديث حسن صحيح .

المرتبة الثالثة : مرتبة الإرادة والمشئنة :

وهو أن كل ما يجري في هذا الكون بمشيئة الله سبحانه وإرادته ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهذا دليل عظيم على سعة ملكه وعظيم سلطانه فلا يحدث شيء في ملكه إلا بأمره وتدبيره ومشئنته . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ((إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء . ثم قال رسول الله ﷺ اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)) (٦) . قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث : ((هذا من أحاديث

(١) سورة الليل الآيات : ٥ - ١٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه ، ج ١٦ ، ١٩٥ .

(٣) الجامع الصحيح لسنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، ج ٤ ، ص ٦٦٧ ؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ، واللفظ له .

(٤) سورة الأنعام : ١٢٥ .

(٥) سورة الأنعام : ٣٩ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ، ج ١٦ ، ص ٢٠٤ .

الصفات نؤمن بها من غير تعرض لتأويل ولا لمعرفة المعنى وأن ظاهرها غير مراد ، والثاني يتأول بحسب ما يليق بها مجازاً فيقال فلان بين أصبعي أظفري كيف شئت أي أنه مني على قهره والتصرف فيه كيف شئت ، فإن قيل ففقدرة الله تعالى واحدة والأصبعان للتثنية فالجواب أنه قد سبق أن هذا مجاز واستعارة .. ((^(١)).

وحيث أن الإمام النووي رحمه الله عاش في عصر طغى المذهب الأشعري على فكر الأمة ، مما جعله سائراً على ما درج عليه علماء عصره ، ويظهر ذلك في عدم إثبات صفة أصابع الرحمن كما هو مذهب الأشاعرة وحتى اليوم وتأويلهم الأصابع بالقوة والقهر والقدرة . ولكن الأصل في هذا ما ذهب إليه أهل السنة من إثبات ما يستحقه سبحانه من صفات أثبتها الله في كتابه أو أخبرنا بها نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته الصحيحة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تأويل فليس كمثله شيء سبحانه وتعالى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، ارحمني إن شئت ، ارزقني إن شئت ، وليعزم المسألة ، إنه يفعل ما يشاء لا مكره له))^(٢) .

قال النووي : ((وفيه إثبات المشيئة لله تعالى ، فهو الغفور الرحيم ، والرزاق إذا شاء ، وهو سبحانه يفعل ما شاء لا مكره له ، والحديث فيه الحث على العزم في المسألة والجزم فيها دون ضعف أو تعليق على المشيئة ، وإنما نهى عن التعليق على المشيئة لأنه لا يتحقق استعمال المشيئة في حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله سبحانه وتعالى لا مكره له ، كما نص عليه الرسول ﷺ هنا))^(٣) .

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ، ج ١٦ ، ص ٢٠٤ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب في المشيئة والإرادة ، ج ١٣ ، ص ٤٤٨ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب العزم في الدعاء ج ١٧ ، ص ٦ .

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ، ج ١٧ ، انظر ص ٦ ، ٧ .

المرتبة الرابعة : مرتبة الخلق :

إن الله سبحانه خالق كل شيء في هذا الكون ، بل الكون كله مخلوق لله ومن ذلك أعمال العباد ، فאלله خالق أعمالهم والعباد فاعلون بإرادتهم ومشيتهم التي خلقها الله فيهم وخلق قدراتهم وحواسهم ، فيؤول الأمر إلى خلق الله وحده لا شريك له . قال الله تعالى في قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) . قال ابن كثير رحمه الله : ((أي خلقكم وعملكم ، فتكون ما مصدرية وقيل : إنها بمعنى الذي ، فيكون المعنى : والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم وهو الأصنام وكلا القولين متلازم والأول أظهر لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد)) ^(٢) .

حيث قال أبو عبد الله : ((فأما أفعال العباد فقد حدثنا .. عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : ((إن الله يصنع كل صانع وصنعتة)) وتلا بعضهم عند ذلك ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة)) ^(٣) .
وعن أبي موسى قال : ((كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي ﷺ أيها الناس اربعوا على أنفسكم أنكم ليس تدعون أصماً ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم قال وأنا خلفه وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله فقال يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة فقلت بلى يا رسول الله قال : قل لا حول ولا قوة إلا بالله)) ^(٤) .

وقال النووي رحمه الله : ((قال العلماء سبب ذلك أنها كلمة استسلام

(١) الصافات آية : ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ١٥ .

(٣) المستدرک للحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، ج ١ ، ص ٨٥ ؛ خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، مؤسسة الرسالة ، ط ٣ ، سنة ١٤١١ هـ ، ص ٢٥ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، باب استحباب الإكثار من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ج ١٧ ، ص ٢٦ .

وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئاً من الأمر ومعنى الكنز هنا أنه ثواب مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم ، قال أهل اللغة : الحول الحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى وقيل معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله وقيل لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعاونته^(١) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : ((رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب ، وهو يقول :

والله لو الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا - وفي رواية ولا صمنا -
فأنزل سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا^(٢)

وحيث إن الإمام البخاري قد أورد هذا النص في كتاب القدر وباب ((وما كنا لنتهدي لو أن هدانا الله))؛ فإن هذا دليل على أن المقصود بأن الله سبحانه خالق هداية العباد وأفعالهم من الصدقة والصلاة والصيام وغيرها .

((فאלله خالق كل شيء ، فهو خالق كل عامل وعمله ، وكل متحرك وحركته ، وكل ساكن وسكونه ، وما من ذرة في السموات ولا في الأرض إلا الله سبحانه وتعالى خالقها وحركتها وسكونها ، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه .. وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم مشيئة ، والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم ومشيتهم وأقوالهم وأعمالهم ، وهو تعالى الذي منحهم إياها وأقدرهم عليها وجعلها قائمة بهم مضافة إليهم حقيقة ، وبحسبها كلفوا عليها يثابون ويعاقبون ، ولم يكلفهم الله تعالى إلا

(١) شرح مسلم للنووي ، ج ١٧ ، ص ٢٦ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب القدر ، باب وما كنا لنتهدي لولا أن هدانا الله ، ج ١١ ، ص ٥٢٥ . صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجهاد ، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق ، ج ١٢ ، ص

وسعهم ولم يحملهم إلا طاقتهم ، وقد أثبت الله تعالى ذلك لهم في الكتاب والسنة ، ووصفهم به ، ثم أخبر تعالى أنهم لا يقدرّون إلا على ما أقدرهم الله تعالى عليه ولا يشاؤون إلا أن يشاء الله عز وجل ، ولا يفعلون إلا بجعله إياهم فاعلين .. فكما لم يوجد العباد أنفسهم لم يوجدوا أفعالهم . فقدرتهم وإرادتهم ومشيتهم وأفعالهم ، تبع لقدرة الله سبحانه وإرادته ومشيتته وأفعاله ، إذ هو خالقهم وخالق قدرتهم ومشيتهم وإرادتهم وأفعالهم .

والمقصود أن الله سبحانه في جميع تصرفاته في عباده فاعل حقيقة والعبد منفعل حقيقة .. ولهذا أضاف تعالى كلاً من الفعلين إلى من قام به فقال عز وجل ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ ^(١) فإضافة الهداية إلى الله تعالى حقيقة ، وإضافة الاهتداء إلى العبد حقيقة ، وكما أن الهادي تعالى ليس هو عين المهتدي ، فكذلك ليست الهداية هي عين الاهتداء)) ^(٢) . ((ولهذا أتى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) . ففي الآية أربعة أدلة ، أحدها قولهم : ((أفرغ علينا صبراً)) والصبر فعلهم الاختياري فسأله ممن هو بيده ومشيتته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه ، الثاني قولهم : ((وثبت أقدامنا)) وثبات الأقدام فعل اختياري ، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم ، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله. الثالث : قولهم ((وانصرنا على القوم الكافرين)) فسأله النصر وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب فيحصل النصر ، وأيضاً فإن كون الإنسان منصوراً على غيره أما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره ، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضاً فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن

(١) سورة الإسراء ٩٧ .

(٢) معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي ، ج ٣ ، ص ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٠ ، ٢٥١ .

النصر بجملته من عنده ، وأثنى على من طلبه منه ... فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلى مشيئة الرب وعلمه، ولهذا أمر الله رسوله أن لا يقول لشيء إني فاعله حتى يستثني بمشيئة الله فإنه إن شاء فعله وإن شاء لم يفعله .. وبالجملية فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد . قال ابن عباس : الإيمان بالقدر نظام التوحيد من كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده))^(١).

وبهذا تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات القدر وأنه من أركان الإيمان الستة وأن أهل السنة والجماعة يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات ويثبتون المشيئة لله تعالى ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وهكذا مضى السلف الصالح وعلمائهم على إثبات القدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بمراتبه :

فقال الإمام أحمد رحمه الله : ((ونؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله .. وأجمع سبعون رجلاً من التابعين ، وأئمة السلف ، وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولها الرضاء بقضاء الله ، والتسليم لأمر الله ، والصبر تحت حكمه، والأخذ بما أمر الله به ، والنهي عما نهى عنه ، وإخلاص العمل لله، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين))^(٢) ويقول الإمام ابن قتيبة^(٣) رحمه الله :

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ١١٦ .

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي تحقيق د . عبد الله التركي صححه علي محمد عمر ، سنة ١٣٩٩هـ ، مكتبة الخانجي ، ص ٢١٩ ، ٢٢٨ .

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المروزي الدينوري ولد سنة ٢١٣هـ في بغداد وقيل ولد بمرور ولي قضاء مصر رحل إلى نيسابور ألف تأويل مشكل القرآن ، وغريب القرآن ، وغريب الحديث ، وتأويل مختلف الحديث .. والرد على الجهمية والمشبهة وغيرها. توفي ببغداد وقيل بالكوفة سنة ٢٧٦هـ. عقيده الإمام ابن قتيبة د . علي العلياني، مكتبة الصديق - الطائف سنة ١٤١٢هـ ، انظر ص ٤٥ وما بعدها.

((وعدل القول في القدر أن تعلم أن الله عدل لا يجور ، كيف خلق ، وكيف قدر ، وكيف أعطى ، وكيف منع ، وأنه لا يخرج من قدرته شيء ، ولا يكون في ملكوته من السموات والأرض إلا ما أراد ، وأنه لا دين لأحد عليه ، ولا حق لأحد قبله ، فإن أعطى بفضله ، وإن منع فبعدل ، وإن العباد يستطيعون ويعملون ، ويجزون بما يكسبون ، وإن الله لطيفه يبتديء بها من أراد ، ويفضل بها على من يحب ، ويوقعها في القلوب فيعود بها إلى طاعته ، ويمنعها من حقت عليه كلمته ، فهذه جملة ما ينتهي إليه علم ابن آدم من قدر الله عز وجل ، وما سوى ذلك مخزون عنده)) (١) .

وقال الإمام البغوي (٢) رحمه الله في شرح السنة : ((الإيمان بالقدر فرض لازم ، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد ، خيرها وشرها ، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن خلقهم ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) . وقال الله عز وجل : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٤) . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٥) فالإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، كلها بقضاء الله وقدره ، وإرادته ومشئته ، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة ، ووعد عليهما الثواب ، ولا يرضى الكفر والمعصية ، وأوعد عليهما العقاب ، والقدر سر من أسرار الله لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلأ ، لا يجوز الخوض فيه ، والبحث عنه بطريق العقل ، بل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين : أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً ، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً)) (٦) .

-
- (١) عقائد السلف جمع على سامي النشار وعمار الطالبي . منشأة المعارف ، مصر ١٣٩١هـ ، ص ٢٣٢ .
 - (٢) شيخ الإسلام محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن الفراء البغوي ، صاحب التصانيف شرح السنة ومعالم التنزيل والمصابيح وكتاب التهذيب ، توفي بمرورالروز وقد ولد في بغشور ومات سنة ٥١٦هـ بخراسان ، سير أعلام النبلاء ج ١٩ ، ص ٤٣٩ ، ٤٤٢ .
 - (٣) سورة الصافات آية : ٩٦ .
 - (٤) سورة الرعدة : ١٦ .
 - (٥) سورة القمر آية : ٤٩ .
 - (٦) شرح السنة للإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ١٣٩٠هـ ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : ((من أصول الإيمان الإيمانُ بالقدر خيره وشره وحلوه ومره.. وأن القدر لا شر فيه بوجه من الوجوه ، فإنه علم الله وقدرته وكتابه ومشيتته . وذلك خير محض وكمال من كل وجه . فالشر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه ، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله . وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدر ويكون شراً بالنسبة إلى محل وخيراً بالنسبة إلى محل آخر .

وقد يكون خيراً بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه ، كما هو شر له من وجه ، بل هذا هو الغالب . وهذا كالقصاص وإقامة الحدود وقتل الكفار . فإنه شر بالنسبة إليهم لا من كل وجه بل من وجه دون وجه . وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه مصلحة الزجر والنكال ودفع الناس بعضهم ببعض ..

والحكم والقضاء نوعان : ديني وكوني . فالديني : يجب الرضا به . وهو من لوازم الإسلام . والكوني : منه ما يجب الرضا به ، كالنعم التي يجب شكرها ومن تمام شكرها الرضا بها ، ومنه ما لا يجوز الرضا به كالمعائب والذنوب التي يسخطها الله وإن كانت بقضائه وقدره ، ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب . وفي وجوبه قولان . هذا كله في الرضا بالقضاء الذي هو المقضي . وأما القضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله ، كعلمه وكتابه وتقديره ومشيتته ، فالرضا به من تمام الرضا بالله رباً وإلهاً ومالكاً ومديراً .

فبهذا التفصيل يتبين الصواب ويزول اللبس في هذه المسألة العظيمة ((^(١)) ويتبين مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان بالقدر خيره وشره وأن ذلك من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وإثبات قدرة وإرادة المكلف واختياره ، وإن ذلك لا يتعارض مع الإيمان بالقدر . فما أراد الله كائن ، ولا يكون في ملكه سبحانه إلا ما

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٤٤٣ ، ٣٦١ .

يريد . وأن الله خالق كل شيء وأن العبد فاعل لعمله حقيقة وأن الله خالق المخلوق وفعله . وأنه محاسب على عمله خيراً وشرأ .

أما المخالفون لمذهب أهل السنة والجماعة فلم أقوال سيتم إيرادها والرد عليها فيما يأتي مع بيان أمور تلحق بالقدر كالإستطاعة ، والكسب والتعليل لأفعال الله ، وغيرها .. مع الرد على أقوال المخالف للحق فيها .

الرد على المخالفين في باب القدر

اختلف الناس في مسألة القدر إلى غلاة في الإثبات وهم الجبرية ، وإلى غلاة في النفي وهم القدرية ، وتوسط أهل السنة والجماعة فهداهم الله إلى الحق ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

قال ابن تيمية رحمه الله وهو يتكلم عن وسطية أهل السنة والجماعة بين الفرق : ((.. وهم في باب خلق الله وأمره وسط بين المكذبين بقدر الله الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيتته الشاملة وخلق له كل شيء وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل ، فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب فيصирون بمنزلة المشركين الذين قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٢) . فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير ، يقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون في ملكه ما لا يريد ، ولا يعجز عن إنفاذ مراده وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات ، ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل وأنه مختار ولا يسمونه مجبوراً لما يفعله فهو مختار مريد ، والله خالقه وخالق اختياره وهذا ليس له نظير ، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله)) (٣) .

(١) سورة البقرة : ٢١٣ .

(٢) سور الأنعام : ١٤٨ .

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

غلاة الإثبات للقدر :

وهم الذي تسمّوا بالجبرية : والجبر لغة : ((هو القهر والإكراه ، والجبرية الذين يقولون أجبر الله العباد على الذنوب أي أكرههم ، ومعاذ الله أن يكره أحداً على معصيته ! ولكنه علم ما العباد عاملون)) (١) .

والجبرية : هم الذين قالوا : ((إن الإنسان لا يقدر على شيء ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله ؛ لا قدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيار . وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات .. والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال كلها جبر .. وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً . - ثم قالوا - إن حركات أهل الخلد تنقطع . والجنة والنار تفتيان بعد دخول أهلها فيهما .. وحملوا قوله تعالى : ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا ﴾ على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة في التخليد)) (٢) .

قال الإمام ابن حزم : ((ذهب طائفة إلى أن الإنسان مجبر على أفعاله وأنه لا استطاعة له أصلاً .. ثم احتجوا فقالوا لما كان الله تعالى فعالاً وكان لا يشبهه شيء من خلقه وجب أن لا يكون أحد فعالاً غيره ، وقالوا معنى إضافة الفعل إلى الإنسان إنما هو كما تقول مات زيد وإنما أماته الله تعالى وقام البناء وإنما أقامه الله تعالى)) (٣) .

وقال شارح الطحاوية رحمه الله : ((اختلف الناس في أفعال العباد

(١) لسان العرب لابن منظور ، ج ٤ ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٨٧ ، ٨٨ وقوله والثواب والعقاب جبر أي أن العبد لم يصنع ولم يصدر من جهته ما يستأهل بسببه أحدهما .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج ٣ ، ص ١٤ .

الاختيارية. فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي ^(١) : إن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى ، وهي كلها اضطرارية ، كحركات المرتعش ، والعروق النابضة ، وحركات الأشجار ، وإضافتها إلى الخلق مجاز ! وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله ! ^(٢) .

وإذا علم أن غلاة الجبرية ينفون الاختيار والإرادة عند المكلف فإن هناك ؛ من قال بأن للمكلف قدرة وإرادة وذلك عند اقتران القدرة المحدثّة والفعل وهو ما أسموه كسباً .

قال ابن القيم رحمه الله : ((إذا عرف هذا فلفظ الكسب تطلقه القدرية على معنى ، والجبرية على معنى ، وأهل السنة على معنى . فكسب القدرية هو وقوع الفعل عندهم بإيجاد العبد وإحداثه ومشيتته من غير أن يكون الله شاءه أو أوجده .

وكسب الجبرية لفظ لا معنى له ولا حاصل تحته ، وقد اختلفت عباراتهم فيه ، وضربوا له الأمثال وأطالوا في المقال ، فقال القاضي : الكسب ما وجد عليه قدرة مُحدثّة ، وقال الاسفراييني ^(٣) : حقيقة الخلق من الخالق وقوعه بقدرته من حيث صح انفراده به ، وحقيقة الفعل وقوعه بقدرته ، وحقيقة الكسب من المكتسب وقوعه بقدرته مع عدم انفراده به . ويختص القديم تعالى بالخلق ، ويشترك القديم والمحدث في الفعل ، ويختص المحدث بالكسب ..

ثم قال ابن القيم : ولخص بعض متأخريهم هذه العبارات بأن قال : الكسب عبارة عن الاقتران العادي بين القدرة المحدثّة والفعل ، فإن الله سبحانه أجرى العادة

(١) هو أبو محرز ، الكاتب المتكلم ، الضال المبتدع ، رأس الجهمية ، يقول بخلق القرآن ، وأن الله في الأمكنة كلها ، وينكر الصفات ، والإيمان عقد القلب ، قتل بمرور عام ١٢٨ هـ . سير أعلام النبلاء ، ج ٦ ، ص ٢٦ - ٢٧ ، الإعلام ج ٢ ، ص ١٤١ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية تحقيق ناصر الدين الألباني ، ص ٤٣٦ .

(٣) أبو إسحاق الاسفراييني ، إبراهيم بن محمد بن مهران الأصولي الشافعي المتكلم صنف الجامع في أصول الدين ورسالة في أصول الفقه . مات سنة ٤١٨ هـ ، سير أعلام النبلاء ٣٥٣/١٧ .

بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بهما . فهذا الاقتران هو الكسب ، ولهذا قال كثير من العقلاء إن هذا من محالات الكلام... (((١).

((وذلك كقول من زعم : أن العبد كاسب ليس بفاعل حقيقة ، وجعل الكسب مقدوراً للعبد ، وأثبت له قدرة لا تأثير لها في المقدور ، ولهذا قال جمهور العقلاء : إن هذا كلام متناقض غير معقول ، فإن القدرة إذا لم يكن لها تأثير أصلاً في الفعل كان وجودها كعدمها ، ولم تكن قدرة .. وهؤلاء المتبعون لجهم يقولون : إن العبد ليس بفاعل حقيقة ؛ وإنما هو كاسب حقيقة ، ويثبتون مع الكسب قدرة لا تأثير لها في الكسب ، بل وجودها وعدمها بالنسبة إليه سواء ، ولكن اقترنت من غير تأثير فيه ، وزعموا أن كل ما في الوجود من القوى والطبائع والأسباب العلوية والسفلية كقدرة العبد لا تأثير لشيء منها فيما اقترنت به من الحوادث والأفعال والمسببات بل قرن الخالق هذا بهذا لا لسبب ولا لحكمة أصلاً)) (٢).

قال البغدادي (٣) : ((وقد ضرب بعض أصحابنا للإكتساب مثلاً في الحجر الكبير قد يعجز عن حمله رجل ويقدر آخر على حمله منفرداً به ، إذا اجتمعا جميعاً على حمله كان حصول الحمل بأقواهما ولا خرج أضعفهما بذلك عن كونه حاملاً . كذلك العبد لا يقدر على الانفراد بفعله ولو أراد الله الانفراد بإحداث ما هو كسب للعبد قدر عليه ووجد مقدوره ، فوجوده على الحقيقة بقدرة الله تعالى ، ولا يخرج مع ذلك المكتسب من كونه فاعلاً)) (٤).

وبهذا اختص الأشاعرة بقولهم إن العبد مكتسب لفعله ، وفسروا الكسب بقدرة لا تأثير لها في الفعل . ((فإنهم راموا أن يأتوا بقول وسط بين القولين ، فقالوا إن

(١) شفاء العليل لابن القيم ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، ج ٨ ، ص ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٣) عبد القاهر بن طاهر أبو منصور البغدادي نزيل خراسان صاحب التصانيف البديعة من أئمة الأصول له كتاب التكملة في الحساب وأصول الدين والفرق بين الفرق مات بإسفرائين سنة ٤٢٩ هـ ، سير أعلام النبلاء ج ١٧ ، ص ٥٧٢ ، ٥٧٣ .

(٤) أصول الدين للبغدادي ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

للإنسان كسباً ، وإن المكتسب والكسب مخلوقان لله تعالى . وهذا لا معنى له . فإنه إذا كان الاكتساب والمكتسب مخلوقان لله سبحانه ، فالعبد ولا بد مجبور على اكتسابه)) (١) .

وقد تبعهم الماتريدية^(٢) في هذا ((وقالوا بقدرة للعبد يخلقها الله فيه عند قصده الفعل فكان هذا نوعاً آخر من الجبر وهو أنهم يثبتون للعباد إرادة جزئية ، وهي غير مخلوقة ، وأمرها بأيديهم .. ثم قالوا : إن هذه الإرادة الجزئية الصادرة من العباد ، وهي لا موجودة ولا معدومة ، إنما من قبيل الحال المتوسط بينهما أو من الأمور الاعتبارية ، فلا يتضمن صدورها منهم معنى الخلق؛ إذ الخلق يتعلق بالموجود)) (٣) .
((فالعبد عند الماتريدية له قدرة يخلقها الله فيه عند قصده الفعل قصداً مصمماً، طاعة كان أو معصية ، وإن لم تؤثر قدرته في وجود الفعل لمانع، هو تعلق قدرة الله التي لا يقاومها شيء في إيجاد ذلك)) (٤) .

وبهذا يتبين أقوال من ذهب إلى الجبر في أفعال العباد مثل أهل الغلو وهم الجهمية ومن تبعهم ممن لم يصرح بالجبر ولكن أتى بما يؤول إليه وهم الأشاعرة والماتريدية.

الرد على الجهمية الجبرية :

إن الله خالق العباد وأعمالهم ، وهم فاعلون أعمالهم حقيقة : ((وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهي مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات ، لا خالق لها سواه . فالجبرية غلو في إثبات القدر ، فنفوا صنع العبد أصلاً .. وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من

(١) مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد تقديم . د . محمود قاسم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٣٨٩هـ ، ط ٣ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) نسبة إلى زعيم طائفة الماتريدية الكلامية ، أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي السمرقندي له كتاب التوحيد ، وتأويلات أهل السنة . كشف الظنون ج ١ ، ص ٢٦٢ . الأعلام ، ج ٧ ، ص ١٩ .

(٣) موقف البشر تحت سلطان القدر ، مصطفى صبري ، سنة ١٣٥٢هـ ، المطبعة السلفية القاهرة ، ص ٦٩ .

(٤) شرح الفقه الأكبر : علي قاري ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، سنة ١٣٩٩هـ ، ص ٤٦ .

الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . فكل دليل صحيح يقيمه الجبري ، فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل حقيقة ولا مريد ولا مختار .. وهذا هو الواقع في نفس الأمر ، فإن أدلة الحق لا تتعارض ، والحق يصدق بعضه بعضاً .. فما استدلت به الجبرية ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ^(١) . فنفي الله عن نبيه الرمي ، وأثبتته لنفسه سبحانه ، فدل على أنه لا صنع للعبد . قالوا والجزاء غير مرتب على الأعمال ، بدليل قوله ﷺ : ((لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)) ^(٢) .

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ فهو دليل عليهم ، لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رمياً ، بقوله ((إذ رميت)) فعلم أن المثبت غير المنفي ، وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء : فابتدأه الحذف ، وانتهأه الإصابة ، وكل منهما يسمى رمياً ، فالمعنى والله أعلم : وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب . وإلا فطرد قولهم : وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى ! وما صمت إذ صمت .. وفساد هذا ظاهر .

وأما ترتب الجزاء على الأعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية ، وهدى الله أهل السنة ، وله الحمد والمنة ، فإن الباء التي في الإثبات غير الباء التي في النفي . فالمعنى في قوله ﷺ : ((لن يدخل الجنة أحد بعمله)) باء العوض ، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل الجنة .. والباء التي في قوله تعالى ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا

(١) سورة الأنفال : ١٧ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الممنافقين باب لن يخل أحد الجنة بعمله ، ج ١٧ ، ص ١٦٠ .

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، ج ١١ ، ص

٢٩٤ .

يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وغيرها ، باء السبب ، أي بسبب عملكم ، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات ، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته ((٢) .

وقال ابن القيم وهو يبين ما اشتملت عليه الفاتحة من الرد على جميع المبطلين في تضمنها الرد على الجبرية وذلك من وجوه :

الأول : إثبات عموم حمده سبحانه ، فإنه يقتضي ألا يعاقب عبده على ما لا قدرة لهم عليه ولا هو من فعلهم ، بل هو بمنزلة ألوانهم وطولهم وقصرهم بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم فهو الفاعل لقبائحهم في الحقيقة ، وهو المعاقب لهم عليها ، فحمده عليها يأبى ذلك أشد الإباء ، وينفيه أعظم النفي فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التي فعلوها حقيقة ، فهي أفعالهم لا أفعاله وإنما أفعاله العدل والإحسان والخيرات .

الثاني : إثبات رحمته ورحمانيته ينفي ذلك إذ لا يمكن مع اجتماع هذين الأمرين قط: أن يكون رحماناً رحيماً ، ويعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه ولا هو من فعله بل يكلفه ما لا يطيقه ولا له قدرة البتة ثم يعاقبه عليه، وهل هذا إلا ضد الرحمة ونقض لها وإبطال؟! وهل يصح في معقول أحد اجتماع ذلك والرحمة التامة الكاملة في ذات واحدة ؟ .

الثالث : إثبات العبادة والاستعانة لهم ونسبتها إليهم بقولهم : ((نعبد ونستعين)) وهي نسبة حقيقية لا مجازية والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده ، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين ، والله هو المقصود والمستعان به)) (٣) .

قال الدكتور عواد المعترك : ((إنه يترتب على القول بهذه البدعة لوازم باطلة

(١) سورة السجدة : ١٧ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

(٣) مدارج السالكين ، ابن القيم ، دار الحديث ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

منها : القول بإبطال التكليف والثواب والعقاب ، وإرسال الرسل وذلك أنه إذا كان العبد مجبوراً على عمله فكيف يثاب ويعاقب على ما لم يفعل ؟ وكيف يكلف بعمل غيره ؟ أليس هذا محض الظلم تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ولم أرسل الله الرسل ما دام العبد كالريشة في مهب الريح ؟!)) (١) .

قال شيخ الإسلام : ((وأما قول القائل : ما لنا في جميع أفعالنا مقدرة ، فقد كذب فإن الله تعالى فرق بين المستطيع القادر ، وغير المستطيع وقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (٣) والله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة وفعل كما قال تعالى ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) لكن الله سبحانه خالقه وخالق كل ما فيه من قدرة ومشيئة وعمل، فإنه لا رب غيره ولا إله سواه ، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه)) (٦) .

((وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة فيقولون : إن فعل العبد فعل له حقيقة ، ولكنه مخلوق لله ومفعول لله ، لا يقولون هو نفس فعل الله ، ويفرقون بين الخلق والمخلوق ، والفعل والمفعول ، وهذا الفرق حكاه الإمام البخاري في كتابه خلق أفعال العباد عن العلماء قاطبة)) (٧) .

((والعبد بجملته مخلوق لله : جسمه ، وروحه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأحواله، فهو مخلوق من جميع الوجوه ، وخلق على نشأة وصفة يتمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله ، وتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته وتكوينه ، وهو لم يجعل نفسه

(١) وسطية السنة في القدر ، د . عواد المعنق ، مجلة البحوث الإسلامية عدد ٣٤ سنة ١٤١٢ هـ ، ص ٢٣٤ .

(٢) سورة التغابن ١٦ .

(٣) سورة آل عمران ٩٧ .

(٤) سورة التكويد آية : ٢٨ - ٢٩ .

(٥) سورة السجدة ١٧ .

(٦) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ، دار الباز ، مكة المكرمة ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٧) منهاج السنة لابن تيمية ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

كذلك ، بل خالقه وباريه جعله محدثاً لإرادته وأفعاله ، وبذلك أمره ونهاه ، وأقام عليه حجتَه وعرضه للثواب والعقاب ، فأمره بما هو متمكن من إحداثه ، ونهاه عما هو متمكن من تركه ، ورتب ثوابه وعقابه على هذه الأفعال والتروك التي مكنه منها ، وأقدره عليها وناطها به ، فالرب أعطاه مشيئة وقدرة وإرادة ، وعرفه ما ينفعه وما يضره ، وأمره أن يجري مشيئته وإرادته وقدرته في الطريق التي يصل بها إلى غاية صلاحه ((^(١)).

((نعم يعلم الله - بشمول علمه - ما سيكون عليه الإنسان باختياره من هدى أو ضلال ، وخير أو شر ، وليس في علم الله بذلك شيء من معاني القهر والإلزام ، وإنما هو مجرد انكشاف ما وقع وسيقع على السنة الدائمة التي رسم ، وهي سنة الاختيار ، التي بنى عليها التكليف والثواب والعقاب.

وإذاً فلا يسمح الإسلام أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أمر الله في عقائده ودينه ، ثم يعتذر بالقضاء والقدر . ولو صح ذلك لبطلت التكاليف ، وكان بعث الرسل وإنزال الكتب ، ودعوة الإنسان إلى دين الله وما يجب ، ووعده بالثواب لأهل الخير ، وبالعقاب لأهل الشر - باطلاً عبثاً - لا يتفق وحكمة الخالق الحكيم في تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده . وهذا رأي الإسلام بالنسبة إلى اختيار الإنسان وجبره))^(٢) .

قال شيخ الإسلام ، : ((ولم يُعرف أحد من السلف قال : إن الله أكره أحداً على معصية ، بل أبلغ من ذلك أن لفظ الجبر منعوا من إطلاقه.. ونهوا عن أن يقال: إن الله جبر العباد ، وقالوا : هذا بدعة في الشرع))^(٣) .

وبهذا يعلم مخالفة الجهمية لأهل الحق في قولهم بأن العباد مجبورون في

(١) شفاء العليل لابن القيم ، مكتبة الرياض الحديثة ، ص ١٣٧ .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ، د . محمود شلتوت ، ص ٥١ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٦ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

أفعالهم ((وكذلك نهجت الفرق الكلامية الأشعرية والماتريدية منهج الجهمية في كثير من أصولهم مثل الإرجاء والجبر والتأويل ، وتقديم العقل على النقل ، والقول بالمجاز ...))^(١).

الرد على الأشاعرة والماتريدية في القدر:

إن كلا الفريقين قد خالفا أهل السنة في إثبات قدرة العبد وفعله وأنه مريد مختار لأفعاله وحركاته ، وذلك بقولهم إن العبد له قدرة غير مؤثرة في الفعل ثم سميا ذلك كسباً عند الأشاعرة ، وإرادة جزئية لا موجودة ولا معدومة من قبيل الأمور الاعتبارية فلا تأثير لقدرة العبد في إيجاد فعله وذلك عند الماتريدية .

((والتحقيق الذي عليه أئمة السنة وجمهور الأمة من الفرق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق . فأفعال العباد هي كغيرها من المحدثات مخلوقة مفعولة لله ، كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة مفعولة لله ، وليس ذلك نفس خلقه وفعله ، بل هي مخلوقة ومفعولة ، وهذه الأفعال هي فعل العبد القائم به ، ليست قائمة بالله ولا يتصف بها ، فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته ، وإنما يتصف بخلق وفعله كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته ، والعبد فاعل لهذه الأفعال وهو المتصف بها ، وله عليها قدرة ، وهو فاعلها باختياره ومشيئته ، وذلك كله مخلوق لله ، فهي فعل العبد ، وهي مفعول الرب))^(٢) .

((والمقصود هنا أن جمهور المسلمين يقولون بالحق الذي دل عليه المنقول، والمعقول فيقولون : إن أفعال العباد مخلوقة لله مفعولة له ، وهي فعل للعباد حقيقة لا مجازاً ، وهم يثبتون ما لله في خلقه وأمره من الأسباب والحكم ، وما جعله الله في الأجسام من القوى والطبائع في الحيوان وفي الجماد))^(٣) .

(١) الجهمية والمعتزلة وموقف السلف منهما ، د. ناصر عبد الكريم العقل ، دار الوطن ، ١٤٢١هـ ، ص ١٢٣ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) الصنفية لشيخ الإسلام تحقيق . د. محمد رشاد سالم ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

((ولهذا قال أهل السنة وأهل الإثبات من سائر الطوائف : إن العبد فاعل لفعله حقيقة ، بخلاف جمهور الأشعرية ومن وافقهم فإنهم يقولون : إنه فاعل مجازاً وليس حقيقة ، ويقولون : إن فعل العبد فعل الله لا للعبد لأنهم مع سائر أهل السنة المثبتين للقدر يقولون : إن الله تعالى خالق أفعال العباد ، وهم يقولون : إن فعل الله هو مفعوله ، والخلق هو المخلوق .

فلما كان هؤلاء يقولون إن فعل الله هو مفعوله والخلق هو المخلوق ، ويقولون : إن فعل العبد مخلوق لله لزمهم أن يقولوا إن فعل العبد فعل الله ، وإذا كان فعله فعلاً لله لم يكن فعلاً له ، لأن الفعل الواحد لا يكون فعلاً لفاعلين ولهذا قامت الشناعة عليهم من جماهير الناس المثبتين للقدر والنافين له)) (١) .

((بل أصل هذا القول هو قول الجهم بن صفوان ، فإنه كان يثبت مشيئة الله تعالى ، وينكر أن يكون له حكمة أو رحمة ، وينكر أن يكون للعبد فعل أو قدرة مؤثرة ، وحكي عنه أنه كان يخرج إلى الجذمي ويقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟ انكاراً لأن تكون له رحمة يتصف بها ، وزعماً منه أنه ليس له إلا مشيئة محضة لا اختصاص لها بالحكمة ، بل يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح)) (٢) .

((فهم ينكرون حكمته ورحمته ، ويقولون ليس في أفعاله وأوامره لام كي ، لا يفعل شيء لشيء ، ولا يأمر بشيء لشيء ، وكثير من المتأخرين المثبتين للقدر من أهل الكلام ومن وافقهم سلكوا مسلك جهم في كثير من مسائل هذا الباب ، وإن خالفوه في بعض ذلك ، إما نزاعاً لفظياً ، وإما نزاعاً لا يعقل ، وإما نزاعاً معنوياً ، وذلك كقول من زعم : إن العبد كاسب ليس بفاعل حقيقة ، وجعل الكسب مقدوراً للعبد ، وأثبت له قدرة لا تأثير لها في المقدور ، ولهذا قال جمهور العقلاء : إن هذا

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) منهاج السنة ، ج ٣ ، ص ٣١ ، ٣٢ .

كلام متناقض غير معقول)) (١) .

بل إنهم ((يقولون : إن الله قد يأمر بما ليس فيه منفعة ولا مصلحة البتة ، بل يكون ضرراً محضاً إذا فعله المأمور به ، وقد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة ممن سلك مسلك المتكلمين - أبي الحسن الأشعري وغيره - في مسائل القدر)) (٢) .

((واستطال عليه المنازعون في مسألة القدر واضطّروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلاً لله رب العالمين دون العبد ، ثم أثبتوا كسباً لا حقيقة له ؛ فإنه لا يعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل ؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ..

واضطّروهم إلى أن فسروا تأثير القدرة في المقدور بمجرد الاقتران العادي ، والاقتران العادي يقع بين كل ملزوم ولازمه ، ويقع بين المقدور والقدرة ، فليس جعل هذا مؤثراً في هذا بأولى من العكس .. ولهذا فرّ القاضي أبو بكر إلى قول ، وأبو إسحق الاسفرائيني إلى قول ، وأبو المعالي الجويني إلى قول ؛ لما رأوا ما في هذا القول من التناقض)) (٣) .

قال شيخ الإسلام : ((إن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل وجودها ولا يكون شيء من مقدورها خارجاً عن محلها ..

فإذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين أن يكون المقدور في المحل أو خارجاً عن المحل . وأيضاً قال لهم المنازعون: من المستقر في فطر الناس أن من فعل العدل فهو عادل، ومن فعل الظلم فهو ظالم ، ومن فعل الكذب فهو كاذب ، فإذا لم يكن العبد فاعلاً لكذبه وظلمه وعدله ، بل الله فاعل ذلك لزم أن يكون هو المتصف بالكذب والظلم - وهذا من أعظم الباطل - .

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ج ٨ ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١٦ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٨ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

ويقال للأشاعرة أيضاً : يقال لكم هنا ما تقولونه أنتم للمعتزلة في مسألة الكلام وأن من قام به الكلام فهو المتكلم ، وأن الكلام إذا كان مخلوقاً كان كلاماً للمحل الذي خلقه فيه ، فكذلك إرادة العبد وقدرته^(١) .

وقد أدى بهم هذا التناقض إلى أن نفوا استطاعة المكلف قبل الفعل ؛ فأجازوا أن يأمر الله سبحانه بما لا يطاق ، ثم قالوا إن الله لا يأمر ولا يخلق لحكمة ثم نفوا التعليل والأسباب ثم أنكروا التحسين والتقبيح بالعقل الذاتيين .

((ولما أنكرت الجبرية الحكمة والتعليل والأسباب ، وأبطلت هذا الأصل بعقولها وآرائها عجزوا عن جواب أسئلته ، وسدوا على نفوسهم باب استماعها والجواب عنها ، وفتحوا باب مكابرة العقول الصريحة ، وإنكار تحسين العقل وتقبيحه ، وإنكار الأسباب والقوى والطبائع والحكم والغايات المحمودة التي لأجلها يفعل الرب ما يفعله ، ويأمر بما يأمر به ، وجوزوا عليه أن يفعل كل شيء ، وأن يأمر بجميع ما نهى عنه ، وينهى عن كل ما أمر به ، لا فرق عنده البتة بين المأمور والمحذور ، والكل سواء في نفس الأمر ، ولكن هذا صار حسناً بأمره لا أنه في نفسه وذاته حسن ، وهذا صار قبيحاً بنهيه لا أنه في نفسه وذاته قبيح))^(٢) .

((والجهمية الجبرية يقولون : ليس للأمر حكمة تنشأ ، لا من نفس الأمر ، ولا من نفس المأمور به ، ولا يخلق الله شيئاً لحكمة ، ولكن نفس المشيئة أوجبت وقوع ما وقع ، وتخصيص أحد المتماثلين بلا مخصص ، وليست الحسنات سبباً للثواب ولا السيئات سبباً للعقاب ، ولا لواحد منهما صفة صار بها حسنة أو سيئة ، بل لا معنى للحسنة إلا مجرد تعلق الأمر بها ، ولا معنى للسيئة إلا مجرد تعلق النهي بها ، فيجوز أن يأمر بكل أمر حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ويجوز أن ينهى عن كل أمر حتى عن التوحيد والصدق والعدل ، وهو لو فعل لكان كما لو أمر بالتوحيد والصدق والعدل ، ونهى عن الشرك والكذب والظلم ، هكذا يقول

(١) فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٨ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) الصواعق المرسلة ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

بعضهم...)) (١) .

ولهذا قال شيخ الإسلام : ((وقد تدبرت عامة ما رأيته من كلام السلف - مع كثرة البحث عنه ، وكثرة ما رأيته من ذلك - هل كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان على ما ذكرته من هذه الأقوال التي وجدت في كتب أهل الكلام من الجهمية والقدرية ، ومن تلقى ذلك عنهم . مثل دعوى الجهمية أن الأمور المتماثلة يأمر الله بأحدهما وينهى عن الآخر ، لا لسبب ولا لحكمة ، أو أن الأقوال المتماثلة والأعمال المتماثلة من كل وجه يجعل الله ثواب بعضها أكثر من الآخر بلا سبب ولا حكمة ، ونحو ذلك مما يقولونه كقولهم : إن كلام الله كله متماثل ، وإن كان الأجر في بعضه أعظم ، فما وجدت في كلام السلف ما يوافق ذلك ، بل يصرحون بالحكم والأسباب ، وبيان ما في الأمور به من الصفات الحسنة المناسبة وما في المنهي عنه من الصفات السيئة المناسبة للنهي عنه ، ومن تفضيل بعض الأقوال والأعمال في نفسها على بعض ، ولم أر عن أحد منهم قط أنه خالف النصوص الدالة على ذلك ، ولا استشكل ذلك ، ولا تأوله على مفهومه ، مع أنه يوجد عنهم في كثير من الآيات والأحاديث استشكال واشتباه ، وتفسيرها على أقوال مختلفة قد يكون بعضها خطأ . والصواب هو القول الآخر)) (٢) .

ولقد رفض ابن القيم قول الأشاعرة : بجواز التكليف بما لا يطاق ، وأنكره بل وعده من الظن الكاذب ، والالتهام الباطل تعالى الله عنه علواً كبيراً ؛ إذ هو يتعارض مع عدله عز وجل وكمال غناه وشكره ، فقال : ((وتأمل قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (٣) كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم كما يأبى

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٧ ، ص ١٩٩ .

(٢) نفس المصدر ج ١٧ ، ص ١٨٢ .

(٣) سورة النساء آية : ١٤٧ .

إضاعة سعيهم باطلاً ؛ فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء ، وفي هذا رد لقول من زعم : إنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه ، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته ، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً ، فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ، ولا يضيع عمله ، وذلك من لوازم هذه الصفة ؛ فهو منزّه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله ، وغناه وحمده ((١) .

أما الحسن والقبح للأشياء فلا يثبتان عند الأشاعرة إلا بالشرع ؛ وذلك ((لأنهم يميلون إلى الجبر في القدر ، فقالوا بالتحسين والتقبيح الشرعي فقط.. والجمهور من السلف على أن ما كانوا فيه قبل مجيء الرسول من الشرك والجاهلية شيئاً قبيحاً ، وكان شراً . لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول ؛ ولهذا كان للناس في الشرك والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك ثلاثة أقوال : -

قيل : إن قبحها معلوم بالعقل ، وأنهم يستحقون العذاب على ذلك في الآخرة، وإن لم يأتهم الرسول كما يقوله المعتزلة .

وقيل : لا قبح ولا حسن ، ولا شر فيهما قبل الخطاب ، وإنما القبيح ما قيل فيه لا تفعل ؛ والحسن ما قيل فيه افعل ، أو ما أذن في فعله كما تقوله الأشعرية ومن وافقهم .

وقيل : إن ذلك سيء وشر وقبيح قبل مجيء الرسول ؛ لكن العقوبة إنما تستحق بمجيء الرسول . وعلى هذا عامة السلف ، وأكثر المسلمين، وعليه يدل الكتاب والسنة ((٢) .

((أما مذهب الماتريدية ، فهو باطل ؛ لأن ادعاءهم أن الإرادة الجزئية غير

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، ابن القيم تعليق وضبط سليم الهلالي ، دار ابن الجوزي، ط الثانية ١٤٢١هـ ، ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١١ ، ص ٦٧٧ .

مخلوقة لله تعالى لأنها منزلة ما بين الموجود والمعدوم ، وادعاء أن العباد يملكون إرادتهم الجزئية ، لكونها غير مخلوقة لله تعالى ، هذه الادعاءات كلها باطلة ؛ لأنه قد ثبت أن الله خالق كل شيء ، لا يستثنى من ذلك شيء ، والقول باستقلال العبد في إرادته ليس بعيداً عن قول المعتزلة ((^(١)).

أما الصوفية : وهم قوم جانبوا الصواب في القول والعمل ؛ بل هم بلا نقل ولا عقل ((وقالوا : حقيقة وشريعة ! وهذا قبيح ؛ لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق ، فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين ، وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة ؛ فمغرور مخدوع .

وإن سمعوا أحداً يروي حديثاً ؛ قالوا : مساكين ، أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، فمن قال حدثني أبي عن جدي ؛ قلت : حدثني قلبي عن ربي .. فإذا قالوا عن أصحاب الحديث أخذوا علمهم ميتاً عن ميت فقد طعنوا في النبوة ، وعولوا على الواقع ، ومتى أزرى عن طريق سقط الأخذ به . ومن قال : حدثني قلبي عن ربي ، فقد صرح أنه غني عن الرسول))^(٢) .

((فهؤلاء لا يستحسنون حسنة ولا يستقبحون سيئة ؛ فإنهم لا يرون لمخلوق فعلاً ؛ بل لا يرون فاعلاً إلا الله ، بخلاف من شهد لنفسه فعلاً فإنه يذم ويعاقب ، وهذا قول كثير من متأخري الصوفية المدعين للحقيقة ، وقد يجعلون هذا نهاية التحقيق وغاية العرفان والتوحيد . وأما شهود القدر فيقال : لا ريب أن الله تعالى خالق كل شيء ومليكه ، والقدر هو قدرة الله - كما قال الإمام أحمد - وهو المقدر لكل ما هو كائن ، لكن هذا لا ينفي حقيقة الأمر والنهي والوعد والوعيد وأن من الأفعال ما ينفع صاحبه ، فيحصل له به نعيم ، ومنها ما يضر صاحبه فيجعل له به

(١) مختصر لوامع الأنوار البهية للشيخ محمد بن علي بن سلوم ، تعليق الشيخ عبد الرحمن السعدي ، سنة ١٣٨٦هـ ، ص ١٩٧ .

(٢) المنتقى النفيس من تلبيس إبليس ، لابن الجوزي ، تعليق علي حسن عبد الحميد ، دار الجوزي ١٤١٠هـ ، ص ٥٠٩ - ٥١١ .

عذاب فنحن لا ننكر اشتراك الجميع من جهة المشيئة والربوبية وابتداء الأمور .
لكن نشبت فرقاً آخر من جهة الحكمة والأوامر الإلهية ونهاية الأمور ، فإن العاقبة
للتقوى؛ لا لغير المتقين .

وقد قال الله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي
الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١) ((٢) .

((ولهذا نجد المحتجين والمستندين إلى القدر - من النساك ، والصوفية
والفقراء والعامة والجند وغيرهم يفرون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، فلو
كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلاً ، بل يعتمدون عليه لعدم الهدى والعلم،
وهذا أصل شريف من اعتنى به علم منشأ الضلال والغي لكثير من الناس)) (٣) .

((ومعلوم أن الصوفية هم شر من ابتلي في هذا الباب حين اعتقدوا أن ما
وقع فالله يحبه ويرضاه ، وما لم يقع فالله لا يحبه ولا يرضاه ، والواقع هو تبع القدر
لمشيئة الله وقدرته ، فالمقدور هو محبوب الله تعالى مهما كان على حد زعمهم)) (٤) .

وعند الاستقراء تجد أن هؤلاء يحتجون بالقدر في ترك حق ربهم ، ومخالفة
أمره ، لا في ترك ما يروونه حقاً لهم ، ولا مخالفة أمرهم ... بل - إنه يلزم على
الاحتجاج بالقدر لازم باطل ألا وهو تعطيل الشرائع ويلزم عليها أن يكون إبليس ،
وفرعون ، وقوم نوح ، وعاد ، وكل من عذبه الله بسبب مخالفته أمره ، معذوراً ،
ويلزم أيضاً ألا يفرق بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الله وأولياء الشيطان ،
وهذه كلها لوازم معلوم بطلانها بالضرورة ((٥) .

(١) آية ٢٨ سورة ص .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٨ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٨ .

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ، مكتبة الرياض الحديثة ، ج ٢ ، ص ٣ ، ٤ .

(٤) رسالة الاحتجاج بالقدر ، لابن تيمية ، المكتب الإسلامي ، ص ٨٠ ، ٨١ .

(٥) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ، د . عبد الرحمن المحمود ، دار الوطن ، ط الثانية ، ١٤١٨ هـ ،

انظر ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

وإذا كان هؤلاء وغيرهم قد ضلوا في إثبات القدر وغلوا في نسبته إلى قدرة الله مع تعطيل فعل العبد ؛ فإن هناك من أنكر القدر وغلوا في الأمر والنهي .

نفاه القدر والرد عليهم

وقد تزعم القول بنفي القدر المعتزلة ((ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية ، والعدلية . وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً ، وقالوا : لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، احترازاً عن وصمة اللقب ، إذ كان الذم به متفقاً عليه لقول النبي عليه الصلاة والسلام ((القدرية مجوس هذه الأمة))^(١) وانتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيراً وشرها . مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة . والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلاً))^(٢) .

((وقد افترقت فيما بينها عشرين فرقة ، يجمعها في بدعتها أمور : منها قولهم جميعاً بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ولا لشيء من أعمال الحيوانات ، وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون على أكسابهم ، وأنه ليس لله عز وجل في أكسابهم صنع وتقدير ، ولأجل هذا سماهم المسلمون قدرية))^(٣) .

وسمّوا معتزلة عندما ((خرج واصل بن عطاء عن قول جميع الفرق المتقدمة ، وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، وجعل الفسق منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان ، فلما سمع الحسن البصري من واصل بدعته هذه التي خالف بها أقوال الفرق قبله طرده عن مجلسه ، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وانضم إليه قرينه في الضلالة عمرو بن عبيد^(٤) . فقال الناس يومئذ فيهما : إنهما قد اعتزلا قول الأمة ، وسمي اتباعهما من يومئذ معتزلة))^(٥) .

(١) تقدم تخريجه ص ٢٧٧ .

(٢) المال والنحل للشهرستاني ج ، ١ ، ص ٤٣ ، ٤٥ .

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادي ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) أبو عثمان عمرو ابن عبيد البصري الزاهد المعتزلي القدري صاحب الحسن ثم خالفه واعتزل حلقة له

كتاب العدل والتوحيد مات سنة ١٤٢هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي ، ج ٦ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٥) الفرق بين الفرق للبغدادي ، ص ١١٨ .

((وذهب سائر المعتزلة ومن وافقهم على ذلك إلى أن أفعال العباد محدثة فعلها فاعلوها ولم يخلقها الله عز وجل .

بل إن الشيعة في الغالب متابعون للمعتزلة في نفي القدر ، فإنه من تمام قول الإمامية - وهو قول من وافق المعتزلة في توحيدهم وعدلهم من متأخري الشيعة - إن الله لم يخلق شيئاً من أفعال الحيوان : لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم ، بل هذه الحوادث تحدث بغير قدرته ولا خلقه . ومن قولهم أيضاً : إن الله تعالى لا يقدر أن يهدي ضالاً ، ولا يقدر أن يضل مهتدياً .. وفي الجملة فالقوم لا يثبتون لله مشيئة عامة ، ولا قدرة تامة ، ولا خلقاً متناولاً لكل حادث . وهذا القول أخذوه عن المعتزلة ، هم أئمتهم فيه))^(١) . وأما الزيدية ((وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذين ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها ، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم ... وعاصر زيد بن علي واصل بن عطاء المعتزلي فاقتبس منه الاعتزال وصار أصحابه كلهم معتزلة .. وأكثرهم في زماننا مقلدون لا يرجعون إلى رأي واجتهاد . أما في الأصول فيرون رأي المعتزلة حذو القذة بالقذة . ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت))^(٢) . ((وعلى الجملة فهذا أمر أوضح من أن يشرح حتى قال بعض الأشاعرة وقد عدد الفرق : وأما الزيدية فلا ينبغي أن يعدوا فرقة مستقلة وإنما هم مقلدون للمعتزلة في الأصول والحنفية في الفروع .. وقد قيل فيهم انتتي بزيدي صغير أخرج لك منه رافضياً كبيراً ، وانتتي برافضي صغير أخرج لك من زنديقاً كبيراً ، يريد أن مذهب الزيدية يجر إلى الرفض والرفض يجر إلى الزندقة^(٣)))^(٤) .

(١) منهاج السنة ، لابن تيمية ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) المال والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ .

(٣) الزندقة : هي من الوثنية أو القائل بالنور والظلمة أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان . معجم ألفاظ العقيدة ، تصنيف عامر عبد الله فالح ، تقديم الشيخ عبد الله الجبرين ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ، ص ٢١٧ .

(٤) العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ للعلامة صالح المقبلي ، مكتبة دار البيان ، دمشق ١٤٠١هـ ، ص ١٢ ، ٢١ .

وحيث إن المعتزلة قد اشتهر قولهم بالأصول الخمسة في عقيدتهم وهو التوحيد المتضمن لنفي الصفات لأن تعدادها يعني تعدد القدماء عندهم، وأصل العدل المتضمن نفي خلق الله لأفعال العباد لما يستلزم ذلك من وصف الله بأفعال عباده ، وكذلك قولهم بنفي القدر لئلا يحاسب الله من قدر عليه ذلك ! وأصل الوعد والوعيد وهو أن ((الله وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة ، ولا يجوز عليه الخلف والكذب)) (١) ؟!

الأصل الرابع : المنزل بين المنزلتين وهو أن ((صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان ، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن ، بل له منزلة بينهما)) (٢) .

وعند أهل السنة أن صاحب الكبيرة هو ((مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، ولم تخرجه النصوص عن الإيمان لا في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ ولا في إجماع الأمة . وفي هذا يقول الطحاوي :)) ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلّه)) (٣) .

الأصل الخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وقد خالفوا أهل السنة في :

١ - طريقة تغيير المنكر إذ أن تغيير المنكر عندهم يبدأ بالحسنى ثم باللسان ثم باليد ثم بالسيف بينما حديث تغيير المنكر يرشد إلى العكس ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان)) (٤) .

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٩٧ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣١٦ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

٢ - أوجبوا الخروج على السلطان . وعند أهل السنة أن ذلك يترتب عليه مفساد من سفك الدماء وتفريق كلمة الأمة ، والإسلام لا يبيح الخروج على السلطان إلا عندما يظهر كفراً بواحاً ليس عنده فيه من الله برهان .

٣ - حمل السلاح في وجوه المخالفين من أصحاب المعاصي من أهل القبلة وعند أهل السنة أن صاحب الكبيرة ليس بكافر يستحل دمه^(١).

ويتبين بعد هذا اعتقاد المعتزلة ومن تابعهم وهم الشيعة والزيدية في القدر المتعلق بأفعال العباد وتقديرها ؛ وحيث إنهم لا يثبتون تقدير الله لأفعال العباد، وقولهم إن عدل الله سبحانه يقتضي أن لا يقدر مقادير العباد ثم يحاسبهم على ما ليس لهم فيه إرادة ولا قدرة وأنهم مجبورون على ما قدر عليهم . ثم سموا ذلك عدلاً ! .

والرد عليهم :

أنكر المعتزلة صفات الله تعالى ، ثم أنكروا خلقه لأفعال عباده ظناً منهم أنه يتصف بما يخلقه فيهم ((والمعتزلة مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات ، ومن أصولهم الفاسدة أنهم يصفون الله بما يخلقه في العالم ، إذ ليس عندهم صفة لله قائمة به ولا فعل قائم به فيسمونه به ، ويصفونه بما يخلقه في العالم .. وقولهم إنه لو كان خالقاً لظلم العبد وكذبه لكان هو الظالم الكاذب .. وقد علم بصريح المعقول أن الله تعالى إذا خلق صفة في محل كانت صفة لذلك المحل .. والله تعالى لا يوصف بشيء من مخلوقاته، بل صفاته قائمة بذاته ، وهذا مطرد على أصول السلف وجمهور المسلمين من أهل السنة وغيرهم ، ويقولون إن خلق الله للسموات والأرض ليس هو نفس السموات والأرض ؛ بل الخلق غير المخلوق ، لاسيما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة الذين وافقوهم على إثبات صفات الله وأفعاله))^(٢).

(١) فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام ، د . غالب عواجي ، المكتبة العصرية ، جدة ، ط الرابعة ١٤٢٢ هـ ، ص ١٢٠٠ ، ١٢٠١ .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ، ج ٨ ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

((وأما من قال : خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته قال : إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ، ومفعولة للرب كسائر المفعولات ، ولم يقل إنها نفس فعل الرب وخلقها . بل قال إنها نفس فعل العبد ، وعلى هذا تزول الشبهة ؛ فإنه يقال الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلاً له ، كما يفعلها العبد ، وتقوم به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره ، كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه في غيره من الطعوم والألوان...))^(١).

غلط المعتزلة في استطاعة العبد :

وذلك حين اعتقدوا وجوب أن تتقدم استطاعة العبد على الفعل ولا تقارنه ، وأنكروا تقدير الله للأشياء قبل وقوعها ، فأثبتوا الاستطاعة الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي ونفوا الاستطاعة المقارنة للفعل الكونية التي هي مناط القضاء والقدر والتي يتحقق بها أن الأفعال مخلوقة لله مفعولة له وأن العبد هو الفاعل حقيقة ومسؤول ومحاسب عنها .

قال شيخ الإسلام : ((قد تكلم الناس .. في استطاعة العبد هل هي مع فعله أم قبله ؟ وجعلوها قولين متناقضين ، فقوم جعلوا الاستطاعة مع الفعل فقط وهذا هو الغالب على مثبتة القدر من المتكلمين .

وقوم جعلوا الاستطاعة قبل الفعل ، وهو الغالب على النفاة من المعتزلة والشيعة .. والصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة : أن الاستطاعة متقدمة على الفعل ومقارنة له أيضاً . وتقارنه أيضاً استطاعة أخرى لا تصلح لغيره . قال الله تعالى في الأولى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ^(٢) . ولو كانت هذه الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حج ، ولما

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٨ ، ص ١٢٣ .

(٢) سورة آل عمران ٩٧ .

عصى أحد بترك الحج ، ولا كان واجباً على أحد قبل الإحرام .

قال ﷺ لعمران بن حصين : ((صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب)) (١) .

فإن كل أمر علق في الكتاب والسنة وجوبه بالاستطاعة وعدمه بعدمها لم يرد به المقارنة ، وإلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها وقد أسقطها عن من لم يفعلها فلا يآثم أحد بترك الواجب المذكور .

وقال الله تعالى في الثانية وهي : ((الاستطاعة المقارنة الموجبة)) : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) فهذه هي الاستطاعة المقارنة الموجبة ، إذ الأخرى لا بد منها في التكليف .

فالأولى : هي الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي والثواب والعقاب .

والثانية : هي الكونية التي هي مناط القضاء والقدر ، وبها يتحقق وجود الفعل (٣) .

منشأ الضلال في القدر :

حين ضل القدرية النفاة والقدرية الجبرية ؛ كان ذلك الضلال ناتج عن إعراضهم عن الحق وما جاء من الحق فكان مثلهما ((مثل الأعور الذي يرى أحد جانبي الشيء ، ولا يرى الجانب الآخر ، فالقدرية النفاة قالوا : إن الله لا يريد الكفر والذنوب والمعاصي ولا يحبها ولا يرضاها ، فكيف نقول إنه خلق أفعال العباد وفيها الكفر والذنوب والمعاصي .

والقدرية الجبرية آمنوا بأن الله خالق كل شيء وزعموا أن كل شيء خلقه وأوجبه فقد أحبه ورضيه .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب تقصير الصلاة ، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٢) سورة هود ٢٠

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٨ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

وأهل السنة والجماعة أبصروا الحقيقة كلها .. فهم يقولون : إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً ، فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها بل يبغضها وينهى عنها .

وهذا قول السلف قاطبة ، فيقولون : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن^(١) .

والمحققون من أهل السنة يقولون : ((الإرادة في كتاب الله نوعان : أحدهما : الإرادة الكونية : وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وأما النوع الثاني : فهو الإرادة الدينية الشرعية ، وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى .. فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ولهذا كانت الأقسام أربعة : أحدها : ما تعلقت به الإرادتان ، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة ، فإن الله أراده إرادة دين وشرع ؛ فأمر به وأحبه ورضيه . وأراده إرادة كون فوقه ؛ ولولا ذلك لما كان .

الثاني : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط . وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة ، فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار .

والثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها : كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها ولم يرضاها ولم يحبها .
الرابع : ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه ، فهذا ما لم يكن من المباحات والمعاصي^(٢) .

(١) القضاء والقدر د . عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس ، الكويت ، ط الثالثة ١٤١١ هـ ، ص ١٠٣ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٨ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

حكم من أنكر القدر :

لقد رفض أهل السنة والجماعة هذه البدعة وأنكروها بالدليل والبرهان لكن اختلف حكمهم باختلاف هؤلاء القدرية :

فأما القدرية الأول القائلون بإنكار العلم المتقدم وأن الأمر أنف أي مستأنف فقد حكموا بكفرهم وقد ((قيل لأبي عبد الرحمن إنه ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتفقرون العلم - وذكر من شأنهم - وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف ، فقال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنني بريء منهم وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم ساق حديث جبريل وفيه .. وتؤمن بالقدر خيره وشره)) (١) .

وقال الشافعي : ((ناظروا القدرية بالعلم فإن أقرؤا به خصموا وإن أنكروه كفروا)) (٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ((وقد نص الأئمة كمالك والشافعي وأحمد على كفر هؤلاء الذين ينكرون علم الله القديم وأما القدرية المثبتون للعلم والكتابة المتأخرون فإنهم يقولون إن العبد يخلق فعل نفسه فقد حكموا عليهم بأنهم مبتدعة ضالون)) (٣) .

ويقول شيخ الإسلام : ((وأما جمهور القدرية فهم يقررون بالعلم والكتاب المتقدم لكن ينكرون أن الله خلق أفعال العباد ، وكل هؤلاء مبتدعة ضالون)) (٤) . ثم يقول في موضع آخر ((وأما هؤلاء فإنهم مبتدعون ضالون لكن ليسوا بمنزلة أولئك)) (٥) ويقول شارح الطحاوية الإمام ابن أبي العز : ((والقدرية نفاة القدر

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب كفر من نفي القدر ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(٢) شرح العقيدة الواسطية لعبد العزيز الرشيد ، ص ٢٩٦ ، ٢٧٠ ؛ وانظر مجلة البحوث الإسلامية عدد ٣٤ سنة ١٤١٢ هـ . ص ٢٤٢ ؛ شرح الطحاوية ص ٢٧١ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٨ ، ص ٢٢٨ ، وانظر ج ٧ ، ص ٣٨٥ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٨ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٤٩٣ .

جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة ، بل أردأ من المجوس من حيث أن المجوس أثبتوا خالقين وهم أثبتوا خالقين (((١) .

ولا زال مذهب الاعتزال باقياً ومؤثراً في هذا العصر متمثلاً في أصول بعض الفرق ((كالزيدية أو فرق دخلها الاعتزال في مرحلة من مراحل تطورها كالرافضة والخوارج والأباضية .. وظهور مذهب المعتزلة من خلال أحزاب وجماعات جديدة اعتنقت مذهب الاعتزال..

وظهور اتجاهات عقلانية وعصرانية حديثة ، وتوجد هذه الاتجاهات لدى كثير من المفكرين والأدباء والمتقنين والدعاة والحزبيين وغيرهم .. وقد تعارف كثير من الباحثين في العصر الحديث على تسمية الأحزاب والجماعات والاتجاهات الاعتزالية بالمدرسة العقلانية الحديثة أو العصرانية ، وقد يصفون أنفسهم ويصفهم غيرهم بأصحاب التجديد)) (٢) .

بل يسمون أنفسهم أهل التنوير أو الحداثيين أو التقدميين ، وهذه وتلك قد اعتمدت العقل وحده لفهم الإسلام والتمسك به فكانت عاملاً قوياً في ضعف الكيان الإسلامي والبعد عن منهج التلقي الإلهي والنهج النبوي.

وإن إعراض فرق أهل الكلام عن نصوص الوحي قرآن وسنة قد أدى بهم إلى مخالفة الحق في باب القدر وغيره من أبواب العقيدة فأدى بهم إلى القول بالكسب والقول بخلق أفعال العباد وإنكار القدر عند الغلاة السابقين وإنكار مسائل متعلقة بالقدر كالقول بتكليف ما لا يطاق وتجويز كل شيء وإن خالف العقل أو القول بالأصلح والوجوب على الله ما لم يوجب على نفسه سبحانه .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٩٣ .

(٢) الجهمية والمعتزلة ، نشأتها وأصولها ومناهجها وموقف السلف منها . د . ناصر العقل ، الرياض ، دار الوطن سنة ١٤٢١هـ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

الفضل الرابع

استدلال السلف بأحاديث الأحاد في باب النبوات وموقف المخالفين منها والرد عليهم

وفيه :

- تمهيد .
- تعريف النبي .
- الفرق بين النبي والرسول .
- الوحي
- الرد على المخالفين في باب النبوات .
- النبوة عند الجهمية والأشاعرة .
- النبوة عند السلف .
- صفات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .
- الرد على المخالفين في صفات الرسل .
- خطأ من قال بنبوة النساء .
- عصمة الأنبياء .
- دلائل النبوة .
- المعجزات : القرآن - الانشقاق - الإسراء والمعراج .
- إجابة دعوة الرسل .
- أحوال الأنبياء وأصحابهم .
- بشارات الأنبياء .



تمهيد :

حين أهبط الله تعالى آدم عليه السلام من الجنة وقد تاب عليه ، أخبر سبحانه أنه سيتولاه وذريته بهداه وذلك عن طريق إرسال أنبيائه ، فقال تعالى : ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (١) .

فكانت نعمة الله الكبرى على عباده وحي من الله فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝ (٢) .

فأساس علم الأنبياء والمرسلين إنما كان وحيًا من رب العالمين ((فكانت نعمة الله تعالى أنه أنزل الصحف والكتب هداية للعقل وإرشاداً للفكر وسلامة للجسم وموافقة للفطرة ووقوفاً بالإنسان عند حدود الإنسانية وإيثاراً لصبغ الحياة بما يأمر به من الإيمان به وطاعته .

وقد جعل الله تعالى حملة تلك الكتب أفضل الناس في أقوالهم ، وأشرفهم في أهليهم ، وهم رسل الله تعالى وأنبيأؤه من البشر إلى البشر)) (٣) .

تعريف النبي :

ويأتي في اللغة مشتقاً :

أ - إما مشتق من ((النبأ وهو الخبر والجمع أنباء ، وإن لفلان نبأ أي خبراً . وقوله عز وجل : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ۝ (٤) قيل عن البعث . وقيل عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم .)) فإنه إذا أنبأه الله فهو نبي الله

(١) آية ٣٨ ، ٣٩ سورة البقرة .

(٢) آية ١٦٣ ، ١٦٤ سورة النساء .

(٣) أركان الإيمان ، وهبي سليمان غاوجي الألباني ، مؤسسة الرسالة ، ط الثالثة ١٤٠٤هـ ، ص ١٣٨ .

(٤) سورة النبأ آية ١ ، ٣ .

سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه (((١) .

ب - وإن أخذ من النبوة والنبأوة ، وهي الارتفاع عن الأرض ، أي أنه الأشرف على سائر الخلق . فمن أنبأه الله وجعله منبئاً عنه فلا يكون إلا رفيع القدر علياً .

ج - وإن أخذ من النبي : فهو الطريق الواضح الجلي (٢) . ولا شك أن الأنبياء يدلون ويرشدون إلى طريق الهدى الموصل إلى جنة المأوى .

قال شيخ الإسلام ((ونبي الله من كان الله هو الذي ينبئه ، ووحيه من الله .. والنبي يأتيه ملك كريم من عند الله ينبئه الله)) (٣) .

أما الرسول فقد ورد في اللغة قولهم :

والإرسال: التوجيه ، وقد أرسل إليه فهو مُرسلٌ ورسول .

وقال أبو بكر الأنباري في قول المؤذن : ((أشهد أن محمداً رسول الله ، أعلم وأبين أن محمداً رسول الله متابع للإخبار عن الله عز وجل . والرسول معناه في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بعثه أخذاً من قولهم جاءت الإبل رسلاً أي متتابعة)) (٤) .

وقال ابن الجرجاني في التعريفات : ((الرسول في اللغة : هو الذي أمره المرسلُ بأداء الرسالة بالتسليم والقبض)) (٥) .

الفرق بين النبي والرسول :

وهنا مسألة تحتاج إلى بيان وهي الفرق بين النبي والرسول ، فالفرق بين

النبي والرسول على المشهور :

((إن الرسول : إنسان ذكر أو حي إليه بشرع وأمر بتبليغه .

(١) النبوات لابن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٥ هـ ، ص ٢٤٥ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) النبوات لابن تيمية ، ص ٢٥١ .

(٤) لسان العرب لابن منظور ، ج ١١ ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٥) التعريفات للجرجاني ، ص ١١٠ .

والنبي : إنسان ذكر أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه .

وكل من النبي والرسول يوحى إليه ، لكن النبي قد يبعث في قوم مؤمنين بشرائع سابقة كأنبيا بني إسرائيل يأمرهم بشريعة التوراة ، وقد يوحى إلى أحدهم وحي خاص في قضية معينة ، وأما الرسل فإنهم يبعثون في قوم كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته ، فهم يرسلون إلى مخالفين فيكذبهم بعضهم . والرسول أفضل من النبي، والرسل يتفاضلون ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أَلْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ ^ط وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) .

وأفضل الرسل أولو العزم وهم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى، وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ^ط وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (٢) . وأفضل أول العزم الخليلان : إبراهيم ومحمد عليهما وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، وأفضل الخليلين محمد صلى الله عليه وسلم (((٣) .

قال شيخ الإسلام : ((والمقصود هنا : الكلام على النبوة فالنبي هو الذي ينبئه الله . وهو ينبئ بما أنبأه الله به . فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبيلغه رسالة من الله إليه ، فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يرسل هو إلى أحد يبيلغه عن الله رسالة ، فهو نبي وليس برسول)) (٤) .

(١) سورة البقرة : ٢٥٣ .

(٢) سورة الأحزاب : ٧ .

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك ، د . صالح بن فوزان الفوزان ، البحوث العلمية - الرياض ١٤١٠هـ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٨ .

(٤) النبوات لابن تيمية ، ص ٢٥٥ .

الإيمان بجميع الرسل :

لقد فرض الله على المسلمين الإيمان بجميع رسل الله ، دون تفريق بينهم فقال سبحانه : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٢).

((وإذا آمن الإنسان ببعض الرسل ، ولم يؤمن بالبعض الآخر ، وفرق بينهم في الإيمان فهو كافر)) ^(٣) قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ^(٤) .

فكيف بأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين أنزلت عليهم كتب سماوية وأرسل إليهم رسل تترى ، ثم هم اليوم يكفرون بنبي الهدى محمد ﷺ ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، بل يكفرون بالكتاب المبين والقرآن العظيم ؛ نعم إنهم كفار ومن شك في كفرهم بعد هذا البيان من الله فليراجع عقيدته ويتوب إلى الله .

(١) سورة البقرة آية : ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

(٣) العقائد الإسلامية ، السيد سابق ، ص ١٧٣ .

(٤) سورة النساء آية : ١٥٠ ، ١٥١ .

عدد الرسل الذين ذكرهم الله في القرآن :

ورد في كتاب الله تعالى ذكر خمسة وعشرين رسولاً ((ولم يرسل رسولاً للبشرية كلها إلا محمد ﷺ ، واقتضى عدله ألا يعذب أحداً من الخلق إلا بعد أن تقوم عليه الحجة)) (١) ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (٢) .

وقد ذكر الله ثمانية عشر منهم في موضع واحد وسورة واحدة فقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۚ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وقد ورد ذكر سبعة منهم في عدة آيات من القرآن وهم آدم ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإدريس ، ونوح الكفل ومحمد عليهم الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ (٦) . وقال تعالى ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (٧) . وقال تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨) وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٩) .

ثم ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أن من الرسل من لم يرد ذكره في القرآن الكريم ، فقال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ

(١) الرسل والرسالات ، د . عمر الأشقر ، دار النفائس ، الأردن الطبعة العاشرة ١٤٢١هـ ، ص ١٧ .

(٢) سورة الإسراء : ١٥ .

(٣) سورة الأنعام آية : ٨٣ - ٨٦ .

(٤) سورة آل عمران آية : ٣٣ .

(٥) سورة الأعراف : ٦٥ .

(٦) سورة هود : ٦١ .

(٧) سورة هود : ٨٤ .

(٨) سورة الأنبياء آية : ٦٥ .

(٩) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

نَقْصُصُهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١﴾ .

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ كما في مسند الإمام أحمد رحمه الله أن عدد المرسلين ٣١٥ رسولاً وعدد الأنبياء ١٢٤٠٠٠ نبياً ، فعن أبي زر رضي الله عنه قال : ((أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست . قال : يا أبا زر هل صليت ؟ قلت : لا ، قال : قم فصل.. قلت يا رسول الله : أي الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم . قلت : يا رسول أونيبي كان ؟ قال : نعم نبي مكرم . قال قلت يا رسول كم كان المرسلون؟ قال ثلاثمائة وبضعة عشر جمّاً غفيراً وقال مرة خمسة عشر)) (٢) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : كان رسول الله في المسجد جالساً وكانوا يظنون أنه أنزل عليه فاقصروا عنه حتى جاء أبو زر فاقترح فأتى فجلس إليه فأقبل عليه النبي ﷺ فقال : ((يا أبا زر هل صليت ؟ ... قال قلت يا نبي الله فأني الأنبياء كان أول؟ قال : آدم عليه السلام . قال قلت يا نبي الله أو نبي كان آدم ؟ قال : نعم مكرم خلقه الله ثم نفخ فيه روحه.. قال: قلت يا رسول الله كم وفي عدة الأنبياء ؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيراً)) (٣) .

إن هذا الكم العظيم في عدده وقدره وعلو منزلته عند الله سبحانه من الأنبياء والرسل لهو دلالة عظمى على حاجة العباد بل واضطرارهم إلى معرفة ما يربطهم بمولاهم وخالقهم وهذا أمر عجز عنه الحكماء والفلاسفة والمنظرون ، فلا يكون ذلك إلا عن طريق من اختارهم الله وأرسلهم وأوحى إليهم ، فلم يترك عباده جهالاً بموجودهم وبارئهم ، ((ومن هاهنا نعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضا الله البتة إلا

(١) سورة النساء آية : ١٦٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، ج ٥ ، ص ١٧٨ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢٦٦ . وانظر مشكاة المصابيح للتبريزي تحقيق ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي ، ج ٣ ، ص ١٢٢ . وقال : إسناده صحيح .

على أيديهم ، فالطبيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاعوا به ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها .. وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك ، وصار كالحوت إذا فارق الماء ، ووضع في المقلاة ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسول كهذه الحال ، بل أعظم ، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حيّ ، وما لجرح بميت إيلام ، وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها ، وسعادتها أن يعرف منهجه وسيرته وشأنه وما يخرج به عن الجاهلين به ، ويدخل به في اعداد أتباعه وشيعته وحزبه ، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ، ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم))^(١) .

وإذا كانت الأبدان تحتاج إلى علم الطب فإن الأرواح والأبدان بحاجة إلى علم الرسل ، بل إن ((حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية ، فوق حاجتهم إلى كل شيء ، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها ، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ، وهم أصح أبداناً ، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب .. وأما الشريعة فمبناها في تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية ، على الوحي المحض ، بل أشد من الحاجة إلى التنفس فضلاً عن الطعام ، والشراب ، لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن ، وتعطيل الروح عنه ، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة ، وهلاك الأبد ، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت ، فليس الناس قطّ إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به ، والدعوة إليه ، والصبر عليه ، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه ، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر))^(٢) .

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٥ ، ١٤٠٧هـ ، ج ١ ، ص ٦٩ .

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٢ .

و((الأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته ، ولم يجيئوا بما تعلم العقول
بطلانه ، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول))^(١) .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

دين الرسل جميعهم واحد :

أرسل الله رسله وبعث أنبيائه بتوحيده ((ويجب الإيمان بأن الله تعالى أمر بعبادته وحده لا شريك له ، كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه . وعبادته تتطلب كمال الذل له والحب له . وذلك يتضمن كمال طاعته ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله .

فأمر الرسل بإقامة الدين ، وأن لا يفرقوا فيه ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح ((إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، والأنبياء أخوة لعلات ، وأنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بيني وبينه نبي)) (١) . قال ابن حجر : ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع . وهذا الدين هو دين الإسلام ، والذي لا يقبل الله ديناً غيره ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام ، قال تعالى عن نوح : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) وقال عن إبراهيم : ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنبَى إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) ، وقال عن موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُنْقِظُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٤) ، وقال في خبر المسيح : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَّا وَآشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٥) فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً ، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته ، والمشارك به والمستكبر عن عبادته كافر ، والاستسلام

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (واذكر في الكتاب مريم) ، ج ٦ ، ص ٤٧٧ ، ٤٨٩ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام ، ج ١٥ ، ص ١١٩ .

(٢) سورة يونس آية : ٧٢ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٣٢ .

(٤) سورة يونس آية : ٨٤ .

(٥) سورة الأنعام آية : ١١١ .

له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده (١). ((وهؤلاء الرسل أرسلهم الله إلى الأمم في جميع العصور المتطاولة فلم تخل أمة من رسول يدعوها إلى الله ويرشدها إلى الحق . يقول سبحانه ﴿ تَأْتِيهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (٢). والرسول بشر من نفس الأمة المبعوث فيها ، وإن كان من معدن كريم خصه الله بمواهب عقلية وروحية ليستعد لتلقي الوحي عن الله .

و إنما خص الله الرسول بمزايا وفضائل ليقوى على الاضطلاع بأعباء الرسالة ، وليكون مثالا يقتدى به في أمور الدين والدنيا، ولو لم يتميز رسل الله بهذه الخصائص العقلية والروحية لما كانوا أهلاً لحمل هداية الله إلى الناس ﴿ آتَاهُ اللَّهُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٣) ((٤) .

أهل الكتاب يكفرون برسالة محمد ﷺ :

وأهل الكتاب هم : ((الخارجون عن الملة الحنيفية ، والشرعية الإسلامية ممن يقول بشرية وأحكام ، وحدود وأعلام . وهم قد انقسموا : إلى من له كتاب محقق مثل التوراة والإنجيل ، وعلى هذا يخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب . وإلى من له شبهة كتاب مثل المجوس والمناوية (٥) . فإن الصحف التي أنزلت على إبراهيم عليه السلام قد رفعت إلى السماء لأحداث أحدثها المجوس ، ولهذا يجوز عقد العهد والذمام معهم ، وينحى بهم نحو اليهود والنصارى ، إذ هم من أهل الكتاب ، ولكن لا يجوز مناكحتهم ، ولا أكل ذبائحتهم ، فإن الكتاب قد رفع عنهم ..

أما اليهود والنصارى فهاتان الأمتان من كبار أمم أهل الكتاب. والأمة

(١) الرسالة التدمرية ، لشيخ الإسلام بن تيمية ، تحقيق محمد السعوي ، ١٤٠٥هـ ، ص ١٦٦ - ١٦٩ .

(٢) سورة النحل : ٦٣ .

(٣) سورة الأنعام : ١٢٤ .

(٤) العقائد الإسلامية ، السيد سابق ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٥) المجوس هم عبدة النيران القائلون إن العالم صادر عن أصلين أحدهما قديم والآخر محدث هما الظلمة والنور ، وهم أقدم الطوائف وأصلهم من بلاد فارس ، وقد نبغوا في علوم النجوم ومن جملتهم المانوية التي تؤمن بالتناسخ وهم أتباع ماني بن فائق كان مجوسياً فأحدث ديناً ودعا إليه وزعم أن صانع العالم اثنان . أحدهما فاعل الخير وهو نور وثانيهما فاعل الشر وهو ظلمة . معجم ألفاظ العقيدة ، عامر الفالح ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٩ .

اليهودية أكبر لأن الشريعة كانت لموسى عليه السلام ، وجميع بني إسرائيل كانوا متعبدين بذلك ، مكلفين بالتزام أحكام التوراة . والإنجيل النازل على المسيح عليه السلام لا يتضمن أحكاماً ، ولا يستبطن حلالاً ولا حراماً ، ولكنه رموز وأمثال .. والمسلمون قد بينوا أن الأمتين قد بدلوا وحرفوا)) (١) .

((فهم قتلة الأنبياء : قتلوا زكريا وابنه يحيى وخلقاً كثيراً من الأنبياء .. واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فसानه الله من ذلك وأكرمه أن يهينه على أيديهم ، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه ، وراموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة والله يعصمه منهم . ومن هذا شأنهم لا يكبر عليه اختيار الكفر على الإيمان .. ولا غرابة في جحد النصارى رسالة محمد ﷺ وقد سبوا رب العالمين ، وقد ذكرنا اتفاق أمة الضلال وعباد الصليب على مسبة رب العالمين ، أقبح مسبة ، على ما يعلم بطلانه بصريح العقل ، فإن من خفي عليه أن هذا مسبة لله وأن العقل يحكم ببطلانه وبفساده من أول وهلة لم يكثر على تلك العقول السخيفة أن تسب بشراً أرسله الله ، وتجحد نبوته ، وتكابر ما دل عليه صريح العقول من صدقه وصحة رسالته ..

وكيف ينكر لأمة أطبقت على صلب معبودها وإلهها ثم عمدت إلى الصليب فعبدته وعظمته - وكان ينبغي لها أن تحرق كل صليب تقدر على إحراقه، وأن تهينه غاية الإهانة إذ صلب عليه إلهها الذي يقولون تارة : إنه الله ، وتارة يقولون إنه ابنه، وتارة يقولون ثالث ثلاثة ، فجحدت حق خالقها وكفرت به أعظم كفر وسبته أقبح مسبة - أن تجحد حق عبده ورسوله محمد ﷺ وتكفر به)) (٢) .

((والعجيب في أمر النصارى ، أنهم يذهبون إلى القول بصلب السيد المسيح، مع أنهم يعتقدون بألوهيته ، أو بأنه ابن الإله .

وإذا صلب الإله فكيف يكون شأن الخلق ؟ ! ولمن يا ترى ترك تدبير العالم

(١) المال والنحل للشهرستاني ج ١ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم تحقيق مصطفى الشليبي ، الطبعة الثالثة ١٤١٨ هـ ، مكتبة السوادى جدة ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

بعد أن صلب؟! ومن هم الذين صلبوه .. أليسوا هم أشر خلق الله عليهم لعنة الله ؟
فكيف لم يستطع الرب أن يخلص نفسه من بين أيديهم أو ينقذ ولده من تتكيلهم
وإجرامهم؟! ولقد أحسن من قال :

أعباد المسيح لنا سؤال نروم جوابه ممن وعاه
إذا صلب الإله بفعل عبد يهودي فما هذا الإله؟!

ويقولون: إن المسيح صلب ليخلص بني آدم من ذنوبهم وخطاياهم!!.

هل هذا صحيح؟! وهل يتفق مع العدالة الإلهية والمنطق السليم؟! ما هو ذنب
عيسى حتى يصلب ليكون كفارة عن ذنوب الخلائق؟ هل من العدل أن نؤاخذ
الإنسان بجريرة غيره؟ والمنطق السليم يحكم بأن العقوبة تحل بالفاعل المجرم فقط،
ولكنه التعصب الأعمى ، والتفكير السقيم ، الذي يفكر به رجال الكنسية ، ويحشون
به أذهان المغفلين .. !) (^(١) .

((ولقد تلمسو لتلك العقيدة أصلاً في العهد القديم)) وأسسوا عليه صلب المسيح
فقالوا : إن آدم وهو أول كل البشر قد عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة ، التي
نهاه الله عنها فصار خاطئاً ، وصار جميع ذريته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة
بالهلاك الأبدي.. ولما كان الله من صفاته العدل والرحمة ، فمن عدله أن لا يترك
الجريمة دون عقاب ، وإلا لم يكن عادلاً، ولهذا شاء الله أن يحل ابنه ، الذي هو
بنفسه ((الله)) في رحم امرأة من ذرية آدم وتتجسد جنيناً في رحمها يولد منها
فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث أنه ابن لتلك المرأة ، وإلهاً كاملاً من حيث أنه
ابن الله ، ويكون معصوم من جميع المعاصي ، ثم بعد أن يعيش كما يعيش الناس ،
ويأكل كما يأكلون .. يأتي أعداء الله ، وأعداء شريعته ويقتلونه شر قتله وأفظعها ،
وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب ، ثم يقتلوه: كل ذلك ليفدي

(١) النبوة والأنبياء ، محمد علي الصابوني ، دار النصر - حلب ، الطبعة الثانية _ ١٣٩٥هـ ، ص ٢١٢ .

البشر من جريمة لم يقتترفها هو ولا هم ..)) (١) .

وبهذا يتبين عقيدة القوم في نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذبوا وافتروا على الله بغير علم ، وقد رد الله على اليهود والنصارى كذبهم وزورهم في كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿ وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هَتَنًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ * وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ * وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٢) .

أما اليهود فقد افتترقت في إنكار نبوة محمد ﷺ في ((الأصل إلى فرقتين : فزعمت فرقة منهم أن نسخ الشرائع وإرسال نبي بعد موسى عليه السلام ، لنسخ شريعته جائز من طريق العقل ، وأنهم إنما منعوا نسخ شريعتهم على يد نبي بعد نبيهم من جهة توقيف الله ، جل اسمه في التوراة وعلى لسان موسى عليه السلام ، إنه لا ينسخها ولا يبعث نبي بتبديلها . وزعمت فرقة أخرى أن نسخ الشرائع محال من جهة العقل وأن السمع أيضاً قد ورد بتأكيد ما في العقل من ذلك . وأجمعوا على أن نسخ الشيء قبل امتثاله ووقت فعله بداء وهو حالة من العلم يسبقها الجهل .

فيقال لهم جميعاً : ما الدليل على إثبات نبوة موسى عليه السلام؟ فإن قالوا ما ظهر على يده من المعجزات كفلق البحر وإخراج اليد بيضاء وغير ذلك ، قيل لهم : ما الدليل على صحة هذه الأعلام وثبوتها مع علمكم بخلاف من يخالف فيها كالبراهمة^(٣) والمجوس والملحدين وغيرهم من الجاحدين ؟ فإن قالوا : الدليل على ذلك نقل اليهود خلفاً عن سلف ، وهم قوم بهم تقوم الحجة بما هم عليه من كثرة

(١) تفسير المنار ، رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت ، ج ٦ ، ص ٢٥ .

(٢) النساء آية : ١٥٦ - ١٥٨ .

(٣) البراهمة : هم الذي يزعمون أن العقل يغني عن الوحي وهم عبدة البقر ، ومن أبرز زعمائهم المعاصرين الزعيم الهندي غاندي يقول مفاخرًا ((عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيواناً لأنني أعبد البقر وسأدافع عن عبادتهم أمام العالم أجمع . ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمه البقرة على أمه التي ولدته .)) : معجم ألفاظ العقيدة عامر فالح ص ٦٩ والرسل والرسالات عمراً لأشقر ص ٣٧ .

العدد وتفرق الدواعي والهمم وتباين الأوطان وتباعد الديار واختلاف المذاهب .
والكذب ممتنع على مثلهم ، أن موسى عليه السلام أتى بهذه الأعلام التي ذكرناها
فوجب العلم بصحتها .. فإن قالوا : إذا استوى أول الخبر وطرفاه من آخره ووسطه
ثبتت صحته .. فيقال لهم : ما أنكرتم أن يكون محمد ﷺ نبياً وأن يكون ما أثبتته
المسلمون من أعلامه صحيحاً .. فهو كالذي أثبتتم لموسى فوجب القضاء بنبوة
محمد ﷺ (١) .

وحيث إن دين اليهود ودين النصارى وهم أهل الكتاب وقد بدلوا وحرفوا
دينهم وأنهم مشركون لقولهم بالتثليث والتثنية في آلهتهم ، وأن الله لا يقبل ديناً غير
الإسلام الذي ختم الله به الدين وتشرف رسول الله ﷺ بأنه خاتم النبيين وأشرف
المرسلين فلا نبي حق مطاع غير محمد ﷺ ولا دين عند الله إلا الإسلام الحق .

(١) التمهيد للباقلاني ، دار الفكر العربي ، حققه محمود الخضيرى ومحمد أبو ريدة ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

الوحي :

إن الرسل والرسالات تكليف من الله وهدياً من لدنه ((والرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة .. إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة ؛ وهو من الأموات .. وسمى الله تعالى رسالته روحاً ، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(١) ، فذكر هنا الأصلين وهما : الروح ، والنور ... وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب ؛ فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان ، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً ، لا ترجى الحياة معه أبداً ، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً ، فلا فلاح إلا باتباع الرسول ﷺ فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره .

وهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب المنزلة من السماء وبعث به جميع الرسل ، ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم ... ^(٢) .
والوحي من أوحى ((والوحي : الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام ، والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك .. وأوحى إليه بعثه ، والوحي : ما يوحيه الله إلى أنبيائه)) ^(٣) .

قال ابن حجر : ((الوحي لغة الإعلام في خفاء ، والوحي أيضاً الكتابة والمكتوب والبعث والإلهام والأمر والإيماء والإشارة والتصويب وقيل أصله التفهيم

(١) سورة الشورى آية : ٥٢ .
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٩ ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) لسان العرب لابن منظور ، ج ١٥ ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

وشرعاً : الإعلام بالشرع وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى به ، وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ ((^(١)).

عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أنها قالت : ((أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ : قال ما أنا بقارئ قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال ، اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال : زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبدالعزي ، ابن عم خديجة ، وكان إمراً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ :

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ، ج ١ ، ص ٩ .

أومخرجي هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وأن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ ثم لم ينشب ورقه أن توفي ((^(١)) .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي ، قال في حديثه : ((فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض قال رسول الله ﷺ فرعبت منه ، فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ وهي الأوثان ، قال : ثم تتابع الوحي ((^(٢)) .

وقد بين الله تعالى تلك الصورة التي يخاطب بها أنبياءه عليهم الصلاة والسلام فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ ((^(٣)) .

قال ابن كثير رحمه الله : ((هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل وهو أنه تبارك وتعالى ، تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل : كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فأتقوا الله وأجملوا في الطلب)) ((^(٤)) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام فإنه سأل الرؤية بعد تلك فحجب عنها. وفي الصحيح

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى الرسول ﷺ ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٣) الشورى آية : ٥١ .

(٤) شرح السنة للبلغوي ، تحقيق شيعب الأرناؤوط وزهير الشاويش ١٤٠٠هـ ، المكتب الإسلامي بيروت ، كتاب الرقاق ، باب التوكل على الله ج ١٤ ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ عن عبد الله بن مسعود ؛ شعب الإيمان للبيهقي ، باب الزهد وقصر الأمل ، ج ٧ ، ص ٢٩٩ ؛ مشكاة المصابيح لأبي عبد الله التبريزي تحقيق محمد وهيتم تميم ، دار الأرقم ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

؛ فتح الباري لابن حجر وقال : صححه الحاكم من طريق ابن مسعود ، ج ١ ، ص ٢٠ .

؛ المستدرک للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ج ٢ ، ص ٥ .

أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: ((ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً)) (١) كذا جاء في الحديث وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا في عالم البرزخ والآية إنما هي في الدار الدنيا ، وقوله عز وجل ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)) (٢).

قال الآجري في الشريعة: باب كيف ينزل الوحي على الأنبياء وعلى نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين .

ثم روى بسنده .. قال : سمعت الزهري سئل عن قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ قال : نزلت هذه الآية تعم من أوحى إليه من النبيين ، والكلام كلام الله عز وجل الذي كلم به موسى من وراء حجاب . والوحي : ما يوحى الله عز وجل إلى النبي ﷺ من أنبيائه ، فيثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه في قلب النبي ﷺ يتكلم به النبي ﷺ ويبينه ، وهو كلام الله عز وجل ووحيه ، ومنه ما يكون بين الله ورسوله ، لا يكلم به أحد من الأنبياء أحداً من الناس ، ولكنه سرغيب بين الله عز وجل وبين رسله ، ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ، ولا يأمرهم أن يبينوه للناس ، ويبلغوه ومن الوحي ما يرسل الله عز وجل من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته ، فيكلمون أنبياءه من الناس . ومن الوحي ما يرسل به من يشاء ، فيوحون به وحياً في قلوب من شاء من رسله ، وقد بين الله عز وجل أنه يرسل جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله عز وجل في كتابة : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا

(١) سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٢) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ١٠٩ .

بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَنُورٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ وذكر أنه الروح الأمين ، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ((٢)) (٣) .

مقامات الوحي أو صور الوحي :

ذكر الله سبحانه مقامات الوحي في كتابه العزيز ((وكلمة الوحي وما تصرف منها قد وردت في القرآن العظيم في تسعة وسبعين موضعاً ، وكانت معانيها تدور حول ما يبعث الله به أنبياءه إلى عباده ، يدلهم إلى العلم به ، وتوحيده وطاعته وعبادته ويرشداهم إلى أحكام الشريعة ومناهج الدين .

وتكرار هذه الكلمة ((الوحي)) يدل على أهمية تقريره للموحي به ، وأنه سبحانه وتعالى قد أنزل على خلقه النعم ، وجعل صلته بعباده عن طريق هذا الوحي، ويدخل في مفهوم الكلمة جميع أنواع ودرجات التكليم ، ويقع الوحي المطهر من الله إلى الرسول البشري بعد إعداد ذلك الرسول إعداداً خاصاً يليق بمقام النبوة وشرف الرسالة ، وتطهير نفسه وتصفيته من أو ضار البشر ، وبث النبوة في أرجاء نفسه ، وإلهامها إلهاماً ربانياً تحف به العناية الإلهية)) (٤) .

درجات الوحي :

أولاً : الوحي العام : وهو الإعلام السريع في خفاء وهذا النوع من الوحي له عدة أوجه :

أ - يكون في اليقظة ، فعن أنس وابن عمر ، أن عمر رضي الله عنه، قال : وافقت ربي في ثلاث . قلت يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى

(١) سورة البقرة آية : ٩٧ .

(٢) سورة الشعراء آية : ١٩٢ - ١٩٥ .

(٣) الشريعة ، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ، تحقيق محمد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ، دار الفكر ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

فنزلت ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (١) وقلت يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر ، فلو أمرتهن يحتجبن ؛ فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة ، فقلت عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك فنزلت كذلك)) . (٢) ، (٣) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال عمر رضي الله عنه : ((وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم وفي الحجاب، وفي أسارى بدر)) (٤) .

ب - ويكون في المنام ، فإن رؤيا الأنبياء حق ، عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي (٥) إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب . ورأيت في رؤياي هذه : أني هزرت سيفاً فانقطع صدره ، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد . ثم هزرته أخرى فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين)) (٦) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن ، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، وما كان من النبوة فإنه لا يكذب)) قال محمد بن سيرين : وأنا أقول : الرؤيا ثلاث : حديث النفس ، وتخويف الشيطان ، وبشرى من الله، فمن رأى شيئاً يكره فلا يقصه على أحد، وليقم فليصل . قال : وكان يكره الغل في النوم ويعجبهم القيد . ويقال القيد : ثبات في الدين)) (٧) .

(١) سورة البقرة ١٢٥ .

(٢) سورة التحريم ٥ . وآية الحجاب : سورة الأحزاب آية ٥٩ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في القبلة ، ، ص ٥٠٤ .

(٤) نفس المصدر ، كتاب التفسير ، باب واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، ج ٨ ، ص ١٦٨ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر ، ج ١٥ ، ص ١٦٦ .

(٥) الوهل هو الحدس والتوقع ومنه الحديث فذهب وهلي إذا ذهب وهمه إليه . لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٧٣٧ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ، ج ٦ ، ص ٦٢٧ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الرؤيا ، باب رؤيا النبي ﷺ ، ج ١٥ ، ص ٣١ .

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التعبير ، باب القيد في المنام ، ج ١٢ ، ص ٤٠٤ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الرؤيا ، باب قول النبي ﷺ من رأني في المنام فقد رأني ، ج ١٥ ، ص ٢٠ .

ج - التصريح بالوحي إلى غير الأنبياء ومنه :

١- إلى الصالحين والأولياء ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ﴾ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي ۖ ﴾ ^(٢) .

٢- الوحي إلى غير البشر كالحيوان : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ۖ ﴾ ^(٣) .

٣- الوحي إلى الجمادات : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ ﴾ ^(٤) .

ثانياً : التكليم المباشرة : وهو أن يكلم الله رسوله مباشرة بصوت نفسه بدون واسطة فلا يجعل بينه وبين من يكلمه رسولاً من خلقه فيسمع المكلم كلام الله مباشرة . وكان هذا لثلاثة من الأنبياء أولهم آدم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۖ ﴾ ^(٥) ومنهم موسى عليه السلام ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۖ ﴾ ^(٦) . وكما جرى لمحمد ﷺ ليلة أسري به إلى الملكوت الأعلى عند سدره المنتهى وكلمه ربه . فقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ ﴾ ^(٧) . وهذا تكليم الله لرسله من وراء حجاب .

ثالثاً : الوحي أو التكليم بواسطة الرسول الملك : وقد جاء جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ على صورة الصحابي دحية بن خليفة الكلبي ، وجاء مرة بصورة إعرابي شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، كما جاء على هيئته التي خلقه الله عليها مرتين ، وكل القرآن تلقاه صلى الله عليه وسلم تلقيناً من الملك الرسول ، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم الخليل بصورة رجال ، وإلى لوط بصورة فتيان ، وجاء الملك

(١) سورة القصص آية : ٧ .

(٢) سورة المائدة آية : ١١١ .

(٣) سورة النحل : ٦٨ .

(٤) سورة الزلزلة آية : ٥ .

(٥) سورة البقرة ٣٧ .

(٦) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٧) سورة النجم آية ١٠ .

إلى مريم بصورة رجل)) (١) .

وكان الملك يجيء إلى الرسول ﷺ كصلصلة الجرس، قال ﷺ : ((وهو أشدها)) فهو يسمعه من الرسول الملك ولا يراه . عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما أقول قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً)) (٢) .

قال ابن حجر رحمه الله : ((للمصنف من وجه آخر عن هشام في بدء الخلق قال : كل ذلك يأتي الملك ، أي كل ذلك حالتان فذكرهما . وروى ابن سعد عن طريق أبي سلمة الماجشون أنه بلغه أن النبي ﷺ كان يقول ((كان الوحي يأتيني على نحوين : يأتيني به جبريل فيلقيه علي كما يلقي الرجل على الرجل ، فذاك ينفلت مني . ويأتيني في بيتي مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي ، فذاك الذي لا ينفلت مني)) . وهذا مرسل مع ثقة رجاله ، فإن صح فهو محمول على ما كان قبل نزول قوله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ (٣) فإن الملك قد تمثّل رجلاً في صور كثيرة ولم ينفلت منه ما أتاه به ، كما في قصة مجيئه في صورة دحية وفي صورة إعرابي وغير ذلك وكلها في الصحيح - ثم ذكر ابن حجر حالات أخرى في صفة مجيء الوحي فقال : إما صفة الوحي كمجيئه كدوي النحل ، والنفث في الروح ، والإلهام ، والرؤيا الصالحة ، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة . وإما صفة حامل الوحي كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح ، ورؤيته على كرسي بين

(١) المنهاج إلى أصول الدين ، عقيدة الفرقة الناجية ، د . عثمان الصوينع ١٤١٤هـ مطابع الفرزدق الرياض ، ص ٢٠٤ - ٢٠٧ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ج ١ ، ص ١٨ .

(٣) سورة القيامة : ١٦ .

السماء والأرض وقد سد الأفق)) (١) .

((والتصديق بمبدأ الوحي ليس مما يتعاضم على العقول إدراكه ، وشبه الماديين حوله تتساقط من تلقاء نفسها ، ما دمنا قد اعترفنا بأن الله حق وأن وجوده فوق الريب، وأن له جل شأنه أن يصطفي من عباده من يبلغ عنه مراده ، يتعهد به الأمم الشاردة ويخرجها من الظلمات إلى النور .. وحاجة العالم إلى الرسل ماسة . فلو تركت أزمة الفكر الإنساني للاجتهاد المحض ، لضل الناس رشدهم ، ولما اتفقوا على حقيقة واحدة تصلح حالهم ومآلهم . ونحن ننظر في تاريخ الأرض القريب والبعيد فلا نجد مثابة تفرع إليها الشعوب ، وتلتمس في ضلالها الخير والبركة إلا تعاليم الأنبياء .. ومن ثم فإن بعثة الرسل كانت ضرورة إنسانية لتجنيب العالم متاعب الضرب في ببداء طامسة .. والنبوة في هذا المضمار لا يسبقها شيء . ومهما عظمت نتائج الفلسفة فلن تخطو في هذا السبيل أشباراً بعد أشبار حتى يدركها العثار !)) (٢) .

قال الباحث : وهذه خلاصة من جرب دراسة فلسفة العقيدة والمنطق وعلم الكلام ، ثم اهتدى بفضل الله إلى مصادر العقيدة الصحيحة وهي وحي الله إلى رسوله ﷺ كتاباً وسنة ، وهو ما يقوم عليه المنهج في هذه البلاد المباركة وقد عاش فيها الشيخ رحمه الله فترة من عطائه .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب بدء الوحي ، ج ١ ، ص ١٩ .
(٢) عقيدة المسلم ، محمد الغزالي ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

الرد على المخالفين في باب النبوات :

إن غلاة الصوفية والفلاسفة وملاحدتهم ممن ينتسبون إلى الإسلام قد ضلوا في باب النبوة وقالوا : إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن ، والقائل بهذا ((آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض فهو كافر أكفر من أولئك ، لأن علم الباطن الذي هو : علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة ..

وهؤلاء الملاحدة يقولون كما يقول صاحب الفصوص ابن عربي : إنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول، وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة ملاحدة المتفلسفة ، ثم أخرجوها في قالب المكاشفة)) (١) .

((وتلك المعرفة عندهم هي كون الوجود واحداً ، لا يتميز فيه وجود الخالق عن وجود المخلوق ، وادعوا أن خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول .. وهؤلاء أخذوا كلام الفلاسفة : أخرجوه في قالب المكاشفة والمشاهدة . والملك عند هؤلاء ما يتخيل في نفس النبي من الصورة الخيالية ، وهم يقولون إن للنبي ثلاث خصائص : أحداها : أن يكون له قوة قدسية ينال بها العلم بلا تعلم . الثانية: أن تكون له قوة نفسانية يؤثر بها في هيولي العالم . والثالثة : أن يرى ويسمع في نفسه بطريق التخيل ما يتمثل له من الحقائق ، فيجعلون ما يراه الأنبياء من الملائكة ويسمعون منهم إنما وجوده في أنفسهم لا في الخارج .

ومن كان هذا قوله قال : إنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى إلى خاتم الأنبياء ، فإن الملك عنده هو الخيال الذي في نفس النبي ، وهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الخيال . فهذا وأمثاله هو المكاشفة التي يرجع إليها من

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ، تحقيق عبد الرحمن اليحيى ، دار طويق للنشر ١٤١٤هـ ، ص ١٩٦ - ١٩٨ .

استغنى عن تلقي الأمور من جهة السمع)) (١)

((ولفرق الضلال في الوحي طريقتان : طريقة التبديل وطريقة التجهيل . أما أهل التبديل فهم نوعان : أهل الوهم والتخييل ، وأهل التحريف والتأويل . فأهل الوهم والتخييل . هم الذين يقولون : إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه ! لكنهم خاطبوه بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير ، وأن الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيماً محسوساً وعقاباً محسوساً ، وأن كان الأمر ليس كذلك ، لأن مصلحة الجمهور في ذلك ، وأن كان كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور .

وأما أهل التحريف والتأويل ، فهم الذين يقولون : إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر ، وأن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا ! ثم يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات .. وأما أهل التجهيل والتضليل ، الذين حقيقة قولهم : إن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون ، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء! ويقولون : يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله ، لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء ، فضلاً عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان)) (٢) .

((وهذا الكلام أصله من مادة المتفلسفة والقرامطة الباطنية ، الذين يجعلون النبوة فيضاً يفيض من العقل الفعال على نفس النبي ، ويجعلون ما يقع في نفسه من الصور هي ملائكة الله ، وما يسمعه في نفسه من الأصوات هو كلام الله ، ولهذا يجعلون النبوة مكتسبة ، فإذا استعد الإنسان بالرياضة والتصفية فاض عليه ما فاض على نفوس الأنبياء ، وهذا الكلام عندهم باطل باتفاق المسلمين واليهود

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ١٤٠١هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ج ٥ ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، خرج أحاديثها الشيخ الألباني ، ص ٥٢٧ .

والنصارى)) (١) .

قال شيخ الإسلام : ((إنا نعلم بالاضطرار من دين النبي ﷺ ، ودين أمته المؤمنين به ، بطلان لوازم هذا القول ، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم ، بل نعلم بالاضطرار من الدين أن لوازم هذا القول من أعظم الكفر والإلحاد ، وذلك لأن لازم هذه المقالة وحقيقتها ومضمونها : أن رسول الله ﷺ لا يكون فيما أخبر به عن الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر : لا علم ولا هدى ، ولا كتاب منير ، فلا يستفاد منه علم بذلك ، ولا هدى يعرف به الحق من الباطل .. ومعلوم أن كثيراً من خطاب القرآن ، بل أكثره ، متعلق بهذا الباب ، فإن الخطاب العلمي في القرآن أشرف من الخطاب العملي قدراً وصفة .

فإذا كان هذا الخطاب لا يستفيدون منه معرفة ، ولم يبين لهم الرسول مراده ومقصوده بهذا الخطاب ، بل إنما يرجع أحدهم في معرفة الأمور التي ذكرها ووصفها وأخبرهم عنها ، إلى مجرد رأيه وذوقه، فإن وافق خبر الرسول ما عنده صدق بمفهوم ذلك ومقتضاه ، وإلا أعرض عنه كما يعرض المسلم عن الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب .

وكان هذا ما يعلم فساد بالاضطرار من دين الرسول .. أن هؤلاء مناقضون لدعوة الرسول ، وأن هذا يعرفه كل من عرف حال الرسول من مؤمن وكافر ، ولوازم هذا القول أنواع كثيرة من الكفر والإلحاد)) (٢) .

ويوضح مذهب الفلاسفة في النبوة شيخ الإسلام فيقول: ((هم القائلون بقدوم العالم وصدوره عن علة واحدة موجبه مع إنكارهم أن الله تعالى يفعل بقدرته ومشيئته ، وأنه يعلم الجزئيات ، فالنبوة عندهم فيض يفيض على الإنسان بحسب استعداداته وهي مكتسبة عندهم ، ومن كان متميزاً - في قوته العلمية بحيث يستغني عن التعليم ،

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، ج ٥ ، ص ٣٥٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

وشكّل في نفسه خطاب يسمعه كما يسمع النائم ، وشخص يخاطبه كما يخاطب النائم؛ وفي العملية بحيث يؤثر في العنصریات تأثیراً غريباً - كان نبياً عندهم .

وهم لا يثبتون ملكاً منفصلاً يأتي بالوحي من الله تعالى ، ولا ملائكة بل ولا جنأ يخرق الله بهم العادات للأنبياء ، إلا قوى النفس .

وقول هؤلاء ، وإن كان شراً من أقوال كفار اليهود والنصارى وهو أبعد الأقوال عما جاءت به الرسل ، فقد وقع فيه كثير من المتأخرين الذين لم يشرق عليهم نور النبوة من المدعين للنظر العقلي والكشف الخيالي الصوفي ، وإن كان غاية هؤلاء الأقيسة الفاسدة والشك ، وغاية هؤلاء الخيالات الفاسدة والشطح .

- ثم يبين شيخ الإسلام حال النبوة عند الجهمية والأشاعرة وهم من يسمون بالجبرية فيقول : إن الناس تكلموا في ذلك بحسب أصولهم في أفعال الله تعالى ، وإذا كان جعل الشخص نبياً رسولاً من أفعال الله تعالى ، فمن نفى الحكم والأسباب في أفعاله وجعلها معلقة بمحض المشيئة وجوّز عليه فعل كل ممكن ولم ينزهه عن فعل من الأفعال - كما هو قول الجهم بن صفوان وكثير من الناس ، كالأشعري ومن وافقه من أهل الكلام - فهؤلاء يجوزون بعثة كل مكلف ، والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه ، والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه ، وليست النبوة عندهم صفة ثبوتية ولا مستلزمة يختص بها ، بل هي من الصفات الإضافية .

ثم قال شيخ الإسلام واصفاً حال المعتزلة والشيعة القدرية مع النبوة : وكثير من القدرية المعتزلة والشيعة وغيرهم ممن يقول بأصله في التعديل والتجويز وأن الله لا يفضل شخصاً على شخص إلا بعمله ، فيقول : إن النبوة والرسالة جزاء على عمل متقدم ، فالنبي فعل من الأعمال الصالحة ما استحق به أن يجزيه الله بالنبوة .

وهؤلاء القدرية في شق وأولئك الجهمية الجبرية في شق - وإذا كانت هذه أقوال المخالفين للحق في شرف النبوة وعلو الرسالة فإنه وبضدها تتميز الأشياء ، وعند ذلك يظهر الحق ويسطع النور كما ابتغاه الله سبحانه ورضيه رسول الله صلى

الله عليه وسلم وبينه لأمته فكان ذلك قول سلف الأمة وأهل السنة والجماعة ،
والطائفة المنصورة ، الفرقة الناجية .

وهو الذي عليه جمهور سلف الأمة وأئمتها - أن الله يصطفي من الملائكة
رسلاً ومن الناس ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فالنبي يختص بصفات ميزه الله
بها على غيره ، في عقله ودينه ، واستعد بها لأن يخصه الله بفضله ورحمته كما
قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ * أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ؕ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ ^(١) ^(٢) .

أما الصوفية وهم الذين ادعوا الفيض والكشف والذوق والوجد والتجلي
وأعرضوا عن كلام النبوة وهي بدعة في الإسلام جلبت الفساد والعناد ، بل هي
((بدعة تشابه الرهبانية المنهي عنها ، وكل ما جاوز حده جانس ضده ، ثم صار
ذلك مسلماً متميزاً ، حتى قيل : صوفية ، وصار اسم مدح قد تقصده بعض النفوس ،
ثم أثارت لهم تلك الخلوات مواعظ وكلمات أسرع في جذب القلوب من خطاطيف
الحديد ، ثم اخترعت طرائق السلوك ، واصطلحت اصطلاحات ، وابتدعت رموزاً
وإشارات ، ثم قالوا: ها هنا شريعة وطريقة ، ورسوم وحقيقة ، وتفسير وتأويل
وظاهر وباطن ، ثم ترأس قوم في هذا المعنى وابتلوا بحظ في الوعظ شهرهم . ثم
ظهر منهم كلمات ودعاوى فقال قائلهم : خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله ،
أسرجت وألجمت ، وطففت في أقطار البسيطة ثم ناديت : هل من مبارز ؟! فلم
يخرج إلي أحد ، رجلي على رقبة كل ولي ، لو تحركت نملة سوداء فوق صخرة
صماء في ليلة ظلماء في أقصى الصين ، ولم أسمعها لقلت : إني مخدوع . ما
الجنة ؟! ... - كلام يُخشى من الله عند كتابته ونقله .

(١) سورة الزخرف : ٣١ - ٣٢ .

(٢) منهاج السنة النبوية ، لابن تيمية ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام ، ج ٢ ، ص ٤١٤ - ٤١٥ .

- ٤١٦ -

نعم إنه مخدوع وواههم بل إنه الجهل بالرسالة والمرسل والرسول صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويزداد الهول في كل قرن إلى أن انتهى الشأن إلى ابن الفارض ، وابن سبعين وابن عربي وأضرابهم الذين لم يقنعوا بتلك الدعاوى الشنيعة ، ولا ساغ لهم احترام الشريعة وهذه كتبهم ((الفتوحات)) و((الإنسان الكامل)) و((الفصوص)) وأشعار ابن الفارض التائية والخمريات وغير ذلك ..

دع عنك ما هو عندهم بمنزلة الظاهرية عند أهل الشريعة ، كالغزالي مع أنه قد فعل ما فعل ، وقال في بعض كتبه : من ظن أن النبوة مجيء الملك إلى البشر فهو كذا .. يعني إنما هو الفيض والكشف ، وقال : هو من جملة ما استفاده من الخلوة تحت الصخرة في بيت المقدس إحدى عشرة سنة ، ذكر هذا في ((المنقذ من الضلال)). وهب أنك رجل حسن الظن بهم أو تظن أنك متورع ، زن حال هؤلاء بميزان الصحابة رضي الله عنهم فما وجدته من أخلاق الصحابة فأبقه عليهم ، وما لم يكن من أخلاقهم فاعلم أنه ضلالة إن كنت قد استيقنت إصابة الصحابة ، وإلا فقد زللت بأول قدم ، وجف في شقاوتك القلم ، ومن بلایا هذا البدعة دخولها في كل فرقة، وأبعدها ضلالاً قوم مذهبهم عين مذهب الفلاسفة والمعتلة والباطنية)) (١) . وإذا كان هذا فساد حالهم وجب هجر أقوالهم المخالفة لما جاء به الوحي ، وبيان الحق لهم الذي جاء عن الله تعالى وسنه نبينا محمد ﷺ فيما صح عنه صلى الله عليه وسلم .

صفات الرسول :

والرسل اختارهم الله من البشر ((وإن كانوا من معدن كريم خصهم الله

(١) العلم الشامخ للعلامة صالح المقبلي ، دار البيان ، بشير عون ، دمشق ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

بمواهب عقلية وروحية ليستعدوا لتلقي الوحي عن الله ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) وإنما خص الرسول بمزايا وفضائل ليقوى على الاضطلاع بأعباء الرسالة ، وليكون مثلاً يقتدى به في أمور الدين والدنيا، ولو لم يتميز رسل الله بهذه الخصائص العقلية والروحية بأن انحطت فطرهم أو ضعفت عقولهم لما كانوا أهلاً لحمل هداية الله للناس . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٢) وإقامة الدين وعبادة الله تنتظم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما تنتظم الأعمال الصالحة التي تزكي النفس الإنسانية وتطهرها ، وتغرس فيها الخير ، لتبلغ الكمال المادي والأدبي في هذه الحياة ولتسعد لكمال أرقى وأبقى . وهذه التعاليم العالية لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها بعقولهم ، وإنما يتعلمونها بوحي الله . والله سبحانه لا يعذب أحداً حتى يقيم الحجة ويقطع عذره (٣) . قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٤) . ومن هذه الصفات أنهم من البشر وأنهم يتعرضون للابتلاء ويباشرون حياتهم بأنفسهم في طلب الرزق ويكون الرسول رجلاً حراً سالماً من العيوب وأنهم أهل حياء وكرم وشجاعة وأهل عفوَ في مقدرة وصبر وحسن خلق.

الرسول بشر :

قال تعالى حكاية عن رسله عليهم الصلاة والسلام : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ خُنْ إِلَّا بِشَرِّ مِثْلِكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٥) . وقال تعالى

(١) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٣ - ١٦٥ .

(٣) العقائد الإسلامية ، السيد سابق ، انظر : ص ١٧٦ - ١٨٠ .

(٤) سورة الإسراء ، آية ١٥ .

(٥) سورة إبراهيم ١١ .

حكاية عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۖ ﴾ (١) .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((يا أم سليم : أما تعلمين : أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر : أَرْضَى كما يَرْضَى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأیما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة یقرب به بها منه يوم القيامة)) (٢) .

وعن سعد بن أبي وقاص أنه قال : قلت: يا رسول الله ! أي الناس أشد بلاء؟ قال : ((الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)) (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((كان زكريا نجاراً)) (٤) .
الرسول يكون رجلاً حراً سليماً من العيوب :

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَأهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ۖ ﴾ (٦) .

والرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة ، ومخاطبة الرجال ، ومقابلة الناس في

(١) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب البر والصلة والآداب .باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه ، ج ١٦ ، ص ١٥٥ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح - ج ٤ ، ٦٠١ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، ج ١٦ ، ١٣٥ .

(٥) الأنبياء ٧ .

(٦) سورة الأحزاب آية ٦٩ .

السر والعلانية ، وإعداد الجيوش وقيادتها ، وهذا لا يناسب المرأة البتة ، بل هذا عمل الرجال ، ثم إن المرأة يطرأ عليها ما يحول بينها وبين كثير من المهمات ، كالحيض والحمل والولادة والنفاس ، ثم ما يتطلبه الوليد بعد من العناية . فلأجل ذا ولغيره لا تصلح المرأة للقيام بأعباء الرسالة وتكاليفها ، وجاءت النصوص بخطاب الأنبياء .

((فأثبتت الرسالة للرجال الموحى إليهم ، وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم ، فلا تكون أنثى نبيه ؛ لئن النفوس مائلة في ذواتهن بحسب الطبع فيغفلون عن مقالهن))^(١) .

وكذلك فإن الرق لا يليق بالأنبياء ((ذلك لأن الرق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة ، والنبي يكون داعياً للناس آناء الليل وأطراف النهار ، والرقيق لا يتيسر له ذلك ؛ وأيضاً الرقية وصف نقص يأنف الناس ويستنكفون من اتباع من اتصف بها وأن يكون إماماً لهم وقدوة ، وهي أثر الكفر ؛ والأنبياء منزهون عن ذلك .. كما إنهم مبرعون من لؤم النسب ، قال : ولهذا لم يبعث الله نبياً إلا في أشرف منسب أمته ، فلم يبعث نبياً من ذي نسب مبذول))^(٢) .

ثم إن جميع أنبياء الله تبارك وتعالى ورسله قد صانهم الله تعالى من العيوب المنفرة للطباع . كالجذام ، والبرص ، والخرس ، والطرش ونحو ذلك فإن هذه العيوب تنفر الناس من الاجتماع بهم ومن اتباعهم والسماع لدعوتهم ؛ فلذا حماهم الله جل وعلا من هذه العيوب ، وسلمهم من تلك الأمراض^(٣) . عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء ، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا ما تستر هذا التستر إلا من عيب

(١) لوامع الأنوار البهية للإسفرائيني ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٣) دلائل النبوة لإبي القاسم الاصبهاني ، تحقيق مساعد الحميد ، دار العاصمة ، الرياض ١٤١٢هـ ، انظر ص ٣٣ - ٣٩ .

بجلده ، أما برص أو أدره ، وإن الله أراد أن يبرئه ، فخلا يوماً وحده ليغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فخرج موسى في أثره يقول : ثوبي يا حجر ! ثوبي يا حجر ! حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وقالوا والله ما بموسى من بأس ، وأخذ ثوبه ، وطفق بالحجر ضرباً ، فوالله أن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً)) (١) .

وكان كرم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم - تتحدث به الركبان ، ويتناقله الثقلان ، فعن أنس رضي الله عنه قال : ((إن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين ، فأعطاه إياه ، فأتى قومه ، فقال : أي قوم أسلموا ، فوالله إن محمداً ليعطي عطاءً ما يخاف الفقر)) (٢) .

وعنه رضي الله عنه قال : ((كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق الناس قبل الصوت ، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول : ((لم تراعوا لم تراعوا)) وهو على فرس لأبي طلحة عُرِي ما عليه سرج ، وفي عنقه سيف ، فقال : لقد وجدته بحراً)) (٣) .

وعنه رضي الله عنه ، قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي ، فجبذه بردائه جبذة شديدة ، ورجع نبي الله ﷺ في نحر الإعرابي حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد ! مُرْ لي من مال الله الذي عندك ،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الغسل ، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة ، ج ١ ، ص ٣٨٥ والأدره هي انتفاخ في الخصية . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب ما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا ، ج ١٥ ، ص ٧٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب حسن الخلق ، ج ١٠ ، ص ٤٥٥ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم وتقدمه للحرب ، ج ١٥ ، ص ٦٧ وبحراً : أي واسع الجري وفيه بيان عظيم معجزته ﷺ في انقلاب الفرس سريعاً ، ج ١٥ ، ص ٦٨ .

فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء)) (١). قال ابن حجر : ((وجبذ بمعنى جذب)) .

وقال النووي : ((وفيه احتمال الجاهلين والإعراض عن مقابلتهم ودفع السيئة بالحسنة وإعطاء من يتألف قلبه والعفو عن مرتكب الكبيرة لأحد فيها بجهله ، وإباحة الضحك عند الأمور التي يتعجب منها في العادة ، وفيه كمال خلق الرسول ﷺ وحلمه وصفحه الجميل)) (٢) .

فلا عجب أن يختار الله واحداً من هذا الجنس ، صاحب استعداد للتلقي ، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلما غام عليهم الطريق ، وما يقدم به إليهم العون كلما كانوا بحاجة إلى العون .. وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة ، لأنه بشر مثلهم ، يتسامى بهم رويداً رويداً ، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم ، وتكون حياته وحركاته صفحة معروضة لهم ، فتهفوا نفوسهم إلى محاكاتها لأنها ممثلة في إنسان (٣) . صادق شجاع جواد صبور حر سالم من العيوب ، يتحلى بكامل صفات الرجولة والبشرية وهذا الصفات التي تقوم عليها النبوة والرسالة كما اتضحت جلية في خاتمهم وسيد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب حسن الخلق ، ج ١٠ ، ص ٥٠٣ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ، ج ٧ ، ص ١٤٧ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف على إيمانه ، ج ٧ ، ص ١٤٦ .

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، الطبعة التاسعة ، ١٤٠٠هـ ، ج ٥ ، انظر ص ٢٥٥٢ ، ٢٥٥٣ .

الرد على المخالفين في صفات الرسل :

وأنبىء الله ورسله ممن اصطفاهم الله من خيرة البشر فليسوا من الملائكة ولا من الجن وليسوا آلهة كما ادعى كذباً اليهود والنصارى ، ولذلك فإن الرسل أنفسهم كانوا يتبرأون من الحول والطول ويعتصمون بالله الواحد الأحد ولا يدعون شيئاً من صفات الله تعالى ، قال تعالى مبيناً براءة عيسى مما نسب إليه ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلُّهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۖ قَتَلْنَاهُ اللَّهُ ۖ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ۖ ﴾ (٢) إنهم اليهود والنصارى وقد وصفهم الله بالكفر ، وقضى سبحانه بلعنهم لضلالتهم وقتلهم الأنبياء فهم بين قاتل للأنبياء وبين مؤله لهم وهذان يقتضيان الكفر واللعنة من الله . قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۖ ﴾ (٣) .

وبهذا يتبين انكار الله سبحانه في كتابه العزيز دعوى من ادعى أن الأنبياء فيهم من انتسب إلى الله ، بل إنما هم بشر من ذرية آدم عليه السلام .

وإذا لم يكن لهم نسب إلى الله فإنهم لا ينتسبون إلى الملائكة قطعاً ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْآمُرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ

(١) سورة المائدة آية ١١٦ - ١١٧ .

(٢) سورة التوبة آية ٣٠ .

(٣) سورة المائدة آية ٧٨ .

جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿١﴾ .

قال ابن كثير : ((أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب ، ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة الرجل ليتمكن مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري ، فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ليدعوا بعضهم بعضاً وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال)) (٢) وحيث أن الأنبياء لم يكونوا ملائكة وليس فيهم خاصية الألوهية ؛ فهم كذلك ليس فيهم رسل من الجن على الراجح من القول .

الجن والرسالة :

قال شيخ الإسلام متسائلاً : ((وهل فيهم رسل أم ليس فيهم إلا نذر ؟ على قولين : فقليل : فيهم رسل لقوله تعالى : ﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ (٣) وقيل : الرسل من الإنس ، والجن فيهم النذر ، وهذا أشهر ؛ فإنه أخبر عنهم باتباع دين محمد ﷺ ، وأنهم ﴿ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ * قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ (٤) . والأكثر على أنه لا رسل فيهم ، وعن الحسن البصري قال : لم يبعث الله نبياً من الجن .. وأما التكليف بالأمر والنهي والتحليل

والتحريم : فدلائله كثيرة ، مثل ما في مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : ((أتاني داعي الجن ، فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، فانطلقوا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم ، أو فر ما يكون ، وكل بكرة علف لدوابكم)) (٥) وقال النبي ﷺ : ((لا تستنجوا

(١) سورة الأنعام آية : ٨ ، ٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٣) سورة الأنعام ١٣٠ .

(٤) سورة الأحقاف ٢٩ ، ٣٠ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الصلاة باب القراءة على الجن والجهر بالقراءة في الصبح ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

بالعظم والروث)) (١) وذلك لئلا يفسد عليهم طعامهم وعلفهم ، وهذا يبين إن ما أباح لهم من ذلك ما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه .

وقد قال تعالى عن الجن : ﴿ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية . فأمرُوا بإجابة داعي الله الذي هو الرسول .

والإجابة والاستجابة هي طاعة الأمر والنهي ، وهي العبادة التي خلق لها الثقلان)) (٢) قال ابن حجر : ((وأما كونهم مكلفين فقال ابن عبد البر : الجن عند الجماعة مكلفون ، لا نعلم خلافاً بين أهل النظر في ذلك ، ودليل الجماعة ما في القرآن من ذم الشياطين والتحرز من شرهم وما أعد لهم من العذاب ، وهذه الخصال لا تكون إلا لمن خالف الأمر وارتكب النهي مع تمكنه من أن لا يفعل ، والآيات والأخبار الدالة على ذلك كثيرة جداً ، وإذا تقرر كونهم مكلفين فقد اختلفوا هل كان فيهم نبي منهم أم لا ؟ .

فروى الطبري عن الضحاك بن مزاحم إثبات ذلك . واحتج بأن الله تعالى أخبر أن من الجن والإنس رسلاً أرسلوا إليهم ، فلو جاز أن المراد برسل الجن رسل الإنس لجاز عكسه وهو فاسد . وقال ابن حزم : بأنه ﷺ قال : ((وكان النبي يبعث إلى قومه)) (٣) قال وليس الجن من قوم الإنس فثبت أنه كان منهم أنبياء إليهم . قال : ولم يبعث إلى الجن من الإنس نبي إلا نبينا ﷺ لعموم بعثته إلى الجن والإنس باتفاق . وقال ابن عبد البر : لا يختلفون أنه ﷺ بعث إلى الإنس والجن ، وهذا مما فضل به على الأنبياء . وقال الجمهور : بأن معنى الآية أن رسل الإنس رسل من قبل الله إليهم ، ورسل الجن بثهم الله في الأرض فسمعوا كلام الرسل من الإنس وبلغوا قومهم .

(١) سنن الترمذي ، كتاب الطهارة ، باب كراهية ما يستجى منه ، ج ١ ، ص ٢٩ . قال أبو عيسى : والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ وانظر النبوات لابن تيمية ص ٣٩١ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التيمم ، ج ١ ، ص ٤٣٦ .

وذهب الجمهور إلى أنهم يثابون على الطاعة ، وهو قول الأئمة الثلاثة ، ثم اختلفوا هل يدخلون مدخل الإنس ؟ على أربعة أقوال : أحدها نعم ، وهو قول الأكثر ، وثانيها يكونون في ربض الجنة وهو منقول عن مالك وطائفة . وثالثها أنهم أصحاب الأعراف ، ورابعها التوقف عن الجواب في هذا)) (١) .

خطأ من قال بنبوة النساء :

وهم بعض العلماء فقالوا بنبوة مريم ابنت عمران وأم موسى وآسية امرأة فرعون وهاجر أم إسماعيل لقوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (٣) وقد أورد ابن حجر في الفتح قول الإمام القرطبي : ((الصحيح أن مريم نبيّة لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك ، وقول الأشعري: إن من النساء من نبيء وهن ست : حواء وسارة وأم موسى وهاجر وآسية ومريم، والضابط عنده أن من جاءه الملك عن الله بحكم من أمر أو نهى أو بإعلام مما سيأتي فهو نبي ، وقد ثبت مجيء الملك لهؤلاء بأمور شتى من ذلك من عند الله عز وجل، ووقع التصريح بالإحياء لبعضهن في القرآن)) (٤) . وقال ابن حزم : ((هذا فصل لا نعلمه حدث التنازع العظيم فيه إلا عندنا بقرطبة وفي زماننا فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة في النساء جملة وبدعت من قال ذلك ، وذهبت طائفة إلى القول بأنه قد كانت في النساء نبوة ، وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك . ولم يدّع أحد أن الله تعالى أرسل امرأة وإنما الكلام في النبوة دون الرسالة.. والوحي الذي هو النبوة قصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحى إليه بما يعلمه به ويكون عند الوحي به إليه حقيقة ، فهذا خطاب الملائكة لأم اسحق عن الله عز وجل بالبشارة لها بإسحق ثم يعقوب ثم بقولهم

(١) فتح الباري ج ٦ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٢) سورة القصص ٧ .

(٣) سورة مريم ١٧ .

(٤) فتح الباري ج ٦ ، ص ٤٤٧ .

أتعجبين من أمر الله ، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم.. فهذه نبوه
صحيحة بوحي صحيح . ووجدنا أم موسى قد أوحى إليها بإلقاء ولدها في اليم
وأعلمها أنه سيرده إليها ويجعله نبياً مرسلأً فهذه نبوة لا شك فيها .. فصح يقينا أن
الوحي الذي ورد لها في إلقاء ولدها في اليم كالوحي الوارد على إبراهيم في الرؤيا
في ذبح ولده . فصحت نبوتهن بيقين)) (١) .

ثم استدل القائلون بالنبوة لهن بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ
اللَّهُ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) واستدلوا بحديث
المصطفى ﷺ ؛ فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : ((كمل من الرجال كثير ، ولم
يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على
النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)) (٣) .

وهذا الاستدلال على نبوة مريم بالآية والحديث قول مردود ، كما بينه علماء
التفسير والحديث عند ذكر الآية وحديث الكمال ؛ فقال ابن كثير : ((إن الله قد
اصطفاه أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار
والوساوس ، واصطفاه ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين فتكون أفضل
نساء العالمين ممن كان قبلها ووجد بعدها ؛ لأنه إن كانت نبية على قول من يقول
بنبوتها محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ،
فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى .

وأما قول جمهور أهل السنة والجماعة إن النبوة مختصة بالرجال وليس في
النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ، ج ٥ ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ، ج ٦ ، ص ٤٤٦ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها
ج ١٥ ، ص ١٩٨ .

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴿١﴾ . فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها ومن بعدها والله أعلم ، وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رضي الله عنهن وأرضاهن)) (٢) .

وقال النووي : ((قال القاضي : هذا الحديث يستدل به من يقول بنبوة النساء ونبوة آسية ومريم ، والجمهور على أنهما ليستا نبيتين بل هما صديقتان ووليتان من أولياء الله تعالى ، ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابيه ، والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر .. وهذا الذي نقل من القول بنبوتها غريب ضعيف ، وقد نقل جماعة القول على عدمها والله أعلم)) (٣) .

وقال ابن حجر : ((واستدل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ ﴾ على أنها كانت نبيهة وليس بصريح في ذلك ، وأيد بذكرها مع الأنبياء في سورة مريم ، ولا يمنع وصفها بأنها صديقة فقد وصف يوسف بذلك ، وقد نقل عن الأشعري أن في النساء عدة نبيات .. وحصرهن ابن حزم في ست .. وقال القرطبي : الصحيح أن مريم نبيهة .

وقال عياض ، الجمهور على خلافه ، ونقل النووي في كتاب الأذكار قول الجمهور على أن مريم ليست نبيهة . وعن الحسن : ليس في النساء نبيهة ولا في الجن . ونقله السهيلي في آخر الروض عن أكثر الفقهاء . وقال الكرمانى : لا يلزم من لفظ الكمال ثبوتها لأنه يطلق لتمام الشيء وتناهيه في بابيه فالمراد بلوغها النهاية

(١) سورة المائدة ٧٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ، ص ٣١٢ . وانظر البداية والنهاية لابن كثير حققه د . أحمد أبو ملح وأخرون ، دار الريان ، القاهرة ١٤٠٨ هـ ، ج ٢ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) شرح النووي ، ج ١٥ ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

في جميع الفضائل التي للنساء)) (١) وبهذا تكون ((النبوة خاصة بالرجال ، ولا تكون للنساء أبداً والحكمة من تخصيص الرجال بالنبوة دون النساء أن النبوة عبء ثقل ، وتكليف شاق لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة، لأنه يحتاج إلى مجاهدة وصبر ومصابرة ..

وما كانت نبياً قط أنثى ولا عبداً قبيحاً في الفعال

وما يقوله بعضهم أن النبوة قد تكون في النساء لقوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ فإنه استدلال خاطئ ، لأن الوحي ليس بإنزال ملك وإنما هو بطريق الإلهام فقد أخبر تعالى بأنه أوحى إلى النحل .. فهل يصح أن نقول إن النحل قد نبأه الله تعالى)) (٢) .

((وهذا الذي ذكره القائلون في نبوتهن لا ينهض لإثبات نبوة النساء ، والرد عليهم من وجوه :

الأول : أننا لا نسلّم لهم ، أن النبي غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس ، والذي اخترناه أنه لا فرق بين النبي والرسول في هذا ، وأن الفرق واقع في كون النبي مرسل بتشريع رسول سابق .

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في إرسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء ، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحق النبوة .

الثاني : قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة إنما وقع مناماً ، فقد علمنا أن من الوحي ما يكون مناماً ، وهذا يقع لغير الأنبياء ، ولا نسلّم لهم قولهم إن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي ، ففي الحديث أن الله أرسل ملكاً لرجل يزور أخاً له في

(١) فتح الباري ج ٦ ، ص ٤٤٧ ، ٤٧١

(٢) النبوة والأنبياء ، محمد علي الصابوني ، ص ١٢ .

الله في قرية أخرى ، فسأله عن سبب زيارته له ، فلما أخبره أنه يحبه في الله ، أعلمه أن الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبه ، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة ، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول ﷺ والصحابة يشاهدونه ويسمعونه .

الثالث : ورد في الحديث النص على أن خديجة من الكاملات وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة .

الرابع : وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والأخبار بفضلها .. فلو كان هناك وصفاً أعلى من ذلك لوصفها به ، ولم يأت في نص قرآني ولا في حديث نبوي صحيح أخبار بنبوة واحدة من النساء^(١) .

الخامس : إنه لم يثبت أن أحداً منهن قد ادعت النبوة أو شتهر أمرها بدعوى النبوة ، مع كمالهن في العقل والاصطفاء والتدين وورود الثناء عليهن في الكتاب والسنة ، وحيث إنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، علم بطلان تلك الدعوى وقد علم بالضرورة حب النساء للثناء والإطراء فكيف إذا كان في جانب النبوة ! .

السادس : قال ابن تيمية : ((وبالجمله فهذا قول شاذ لم يسبق إليه أحد من السلف ، وأبو محمد مع كثرة علمه وتبحره ، وما يأتي به من الفوائد العظيمة ، له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة ، وهذا كقوله : إن مريم نبيه ، وإن آسية نبيه ، وإن أم موسى نبيه))^(٢) .
قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾^(٣) .

(١) الرسل والرسالات ، د . عمر الأشقر ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ؛ انظر صحيح مسلم كتاب البر والصلة ، باب فضل الحب في الله ج ١٦ ، ص ١٢٢ ؛ وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الأبرص والأعمى والأقرع ج ٦ ، ص ٥٠٠ ؛ وانظر صحيح مسلم كتاب الزهد ج ١٨ ، ص ٧٩ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٣٩٦ .

(٣) سورة البقرة ٢٥٣ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ۖ ۝ (١) .

وقال ﷺ : إنا معشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء أخوة لعلات ۖ (٢) .
فهذا بيان حق لمن اتبع الهدى في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(١) سورة النساء ١٦٣ .
(٢) سبق تخريجه ص ٣٢٥ ، وانظر البحث ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

فضائل الأنبياء وتفاضلهم :

حين خلق الله الخلق لم يتركهم هملاً ، بل أرسل إليهم رسلاً وأنبياء يدعون إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك وأهله ، وقد اختارهم فهم صفوة الخلق أجمعين ، فكانوا رسلاً هادين مهديين ، أولياء الله رضي عنهم ورضوا عنه ((وأفضل أولياء الله هم أنبياءه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۗ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لَيَسْأَلَنَّ الْمُصَدِّقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) . وأفضل أولي العزم : محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين ، وسيد ولد آدم ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، صاحب المقام المحمود الذي يغطه به الألوان والآخرون ، وصاحب لواء الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم القيامة ، وصاحب الوسيلة والفضيلة ، بعثه الله بأفضل الكتب وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم ، وهم آخر الأمم خلقاً ، وأول الأمم بعثاً ، كما قال ﷺ : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم - يعني يوم الجمعة - فاختلفوا ، فهدانا الله له ، والناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غدٍ)) (٢) .

((والأنبياء كل منهم يأتيه الوحي من الله لاسيما محمد ﷺ لم يكن في نبوته

(١) سورة الأحزاب آية ٧ - ٨ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب فرض الجمعة ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ، ج ٦ ، ص ١٤٤ .

محتاجاً إلى غيره ، فلم تحتج شريعته إلى نبي سابق ، ولا إلى لاحق ، بخلاف غيره، فإن المسيح أحالهم في أكثر الشريعة إلى التوراة ، وشريعة التوراة جاء المسيح يكملها ، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح ، كالتوراة والزبور ، وكانت الأمم قبلنا محتاجين إلى محدثين ، بخلاف أمة محمد ﷺ فإن الله أغناهم به، فلم يحتاجوا معه إلى نبي ولا إلى محدث ، بل جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرقه في غيره من الأنبياء)) (١) .

وقد رفع الله قدرهم وأعلى منزلتهم وأنزل فيهم قرآناً يتلى حتى يبعث الله الخلق ويرث الأرض ، بعد أن يُسرى على كتاب الله فلا يبقى في الأرض منه آية واحدة ، وذلك قبل قيام الساعة . فعن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال : ((يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ولا نسك ولا صدقة ، ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض آية ، ويبقى طوائف من الناس فيهم الشيخ يقولون أدركنا آباءنا يقولون لا إله إلا الله فنقولها ، فقال صلة بن زفر فما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صيام ولا نسك ولا صدقة فأعرض عنه حذيفة فأعاد صلة ثلاثاً ثم قال حذيفة : تتجيبهم من النار - قالها ثلاثاً -)) (٢) .

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم ، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به .

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ، دار طويق للنشر ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، ١٥٨ ، ١٨٦ ، ١٩٤ .

(٢) المستدرك للحاكم ج ٤ ، ص ٥٢٠ ، على شرط مسلم ، وصححه ؛ فتح الباري ، كتاب الفتن ، ج ١٣ ، ص ١٦ ، وقال الحافظ بن حجر سنده قوي ؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني ، ج ١ ، القسم الأول ، حديث رقم ٨٧ ، ص ١٧١ .

من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١) .

أما رسالة محمد ﷺ فقد اختصت بأمرين هامين وهما :

أولاً : إنها عامة لجميع الإنس والجن ولم يحصل هذا إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : ((والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار)) (٣) .

فأهل الكتاب إذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فهم كفار ، وقد كفرهم الله لقولهم بالتنقية والتثليث وأن المسيح وعزير أبناء الله. فعن جابر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)) (٤) .

ثانياً : إنها رسالة خاتمة .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٥) .

(١) سورة النساء آية ٦٩ .

(٢) سورة سبأ ٢٨ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التيمم ، ج ١ ، ص ٤٣٥ . صحيح مسلم كتاب المساجد ، ج ٥ ، ص ٥ .

(٥) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه ترك منه موضع لبنة، فطاف له النظار ، يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة ، فكنت أنا سددت موضع اللبنة ، ختم بي النبيان وختم بي الرسل)) وفي رواية : ((فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)) (١) .

إن فضائل وشمائل المصطفى ﷺ قد كثر روايتها واشتهرت أخبارها ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع)) (٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((أتي باب الجنة يوم القيامة ، فاستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك)) (٣) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : ((لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً)) (٤) .

وإذا كان الله سبحانه قد أعطى أنبياءه من الفضائل والمكرمات ما يعجز البحث عن استقصائه ؛ فمنهم من وصفهم الله بأنهم أولو العزم من الرسل ، ثم إن داود عليه الصلاة والسلام قد فضله الله بإعطائه الزبور ، وآدم اختصه الله بأنه أبو البشر ، ونوح بأنه أول الرسل ، وإبراهيم خليل الله وإماماً للناس ، وموسى فضله الله بالتوراة وبكلامه ، وعيسى بن مريم كلمة الله وروح منه ، وقد يكون النبي نبياً

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، ج ٦ ، ص ٥٥٨

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب ذكر كونه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، ج ١٥ ، ص ٥١ .

(٢) نفس المصدر ، كتاب الفضائل ، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ، ج ١٥ ، ص ٣٧ .

(٣) نفس المصدر ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ . أنا أول الناس يشفع في الجنة ج ٤ ، ص ٧٣ .

(٤) نفس المصدر كتاب الفضائل ، باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ج ١٥ ، ص ١٥٣ .

ملكاً كسليمان، وقد يكون عبداً رسولاً كمحمد ﷺ ، وقد يكون نبياً لا غير كأنبياء بني إسرائيل ، وقد ورد عدد الأنبياء والرسل وأن غالبهم أرسلوا إلى بني إسرائيل .

أما محمد ﷺ فقد نال الفضائل كلها ، فكان كما قال ﷺ ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وببيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر)) (١) .

وعندما يبعث الله الأولين والآخرين يوم القيامة يكون رسولنا المصطفى ﷺ سيد ولد آدم ، بيده لواء الحمد ، والأنبياء والمرسلون في ذلك اليوم تحت لوائه .

وعندما يشتد الكرب بالناس في ذلك اليوم يستشفع الناس بالرسل العظام ليشفعوا إلى الله ليقضي بين عباده فيتدافعها الرسل ، كل واحد يقول اذهبوا إلي غيري حتى إذا أتوا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال : ((اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر)) (٢) وقد فضله الله في نفسه ودعوته وأمته بفضائل ، فمن ذلك أنه اتخذ خليلاً كما اتخذ الله إبراهيم خليلاً وخصه الله دون غيره بست لم يعطها أحد من الأنبياء قبله ، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : ((فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون)) (٣) .

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنه لا يبعث رسول من بعده بغير شرعه ، ويبطل شيئاً من دينه ، أما نزول عيسى آخر الزمان فهو حق وصدق كما أخبر المصطفى ﷺ ولكنه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والإنجيل، بل يحكم بالقرآن ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير ، ويؤذن للصلاة)) (٤) .

(١) سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة بني إسرائيل ، ج ٥ ، ص ٣٠٨ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ * إلى ربها ناظرة ﴿ ، ج ١٣ ، ص ٤٢٢ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ج ٥ ، ص ٥ .

(٤) الرسل والرسالات ، د . عمر الأشقر ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

وقد تميز الأنبياء بعذلهم وأمانتهم فكان يوسف أمين على خزائن عزيز مصر ، وكان إبراهيم أمة ، وسُمي محمد قبل بعثته بالأمين ، وسمى نفسه أمين من في السماء ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : ((بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخويصرة^(١) وهو رجل من تميم فقال : يا رسول الله اعدل . فقال : ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل.. - وفي رواية عند مسلم - ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً ..)) (٢) .

((وكذلك لما ادعى النبوة من ادعاها من الكذابين ، مثل مسيلمة الكذاب والعنسي وغيرهما ، مع ما كان يشبهه من أمرهم ، لما كان ينزل عليهم من الشياطين ويوحون إليهم ، حتى يظن الجاهل أن هذا من جنس ما ينزل على الأنبياء ويوحى إليهم ، فكان ما يبلغ العقلاء وما يرونه من سيرتهم والكذب الفاحش والظلم ونحو ذلك يبين لهم أنه ليس بنبي ، إذ قد علموا أن النبي لا يكون كاذباً ولا فاجراً)) (٣) .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ((لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته وأخرت دعوتي شفاعاً لأمتي ، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً)) (٤) .

وقد كان من علو منزلة نبينا محمد ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قد ختم برسالته

(١) عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي رأس الخوارج وقائدهم ، قال عمر رضي الله عنه إني لي فيه يا رسول الله أضرب عنقه قال : دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحكم صلاته مع صلاتهم .. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية .. ، قتل في موقعة النهروان ، وحمد الله علي رضي الله عنه أنه منهم أي الخوارج . فتح الباري ، كتاب استتابة المرتدين ، باب قتال الخوارج ، ج ١٢ ، ص ٢٩٠ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ، ج ٦ ، ص ٦١٧ ؛ . صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفات لقلوبهم ومن يخاف على إيمانه ، ج ٧ ، ص ١٦٣ .

(٣) منهاج السنة ، لابن تيمية ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب اختباء النبي ﷺ دعوته الشفاعة لأمته ، ج ٣ ، ص ٧٤ .

الدين وتبليغ رسالته إلى الناس أجمعين ، بل وإلى الثقلين فكانت خاتمة الدين والرسالات حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، بل إن الله لا يقبل ديناً بعد رسالة محمد ﷺ إلا الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي وأنا العاقب ، والعاقب الذي ليس بعده نبي)) (٢) .

((والأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين ، وبعدهم الصديقون والشهداء والصالحون .. وهم أصحاب الدرجات العلى في الآخرة ، فيمتنع أن يكون النبي من الفجار ، بل لا يكون من عموم أصحاب اليمين ، بل من أفضل السابقين المقربين ، فإنهم أفضل من عموم الصديقين والشهداء والصالحين ، وإن كان النبي يوصف بأنه صديق وصالح وقد يكون شهيداً ، لكن ذلك أمر يختص بهم لا يشركهم فيه من ليس بنبي .. فهذا ما يوجب تنزيه الأنبياء أن يكونوا من الفجار والفساق ، وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها)) (٣) .

((ومما استدل به أهل السنة على أن آدم وغيره من الأنبياء أفضل من جميع الملائكة ؛ أن الله أمر الملائكة بالسجود له إكراماً له ؛ في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٤) فهذه ثلاث صيغ مقررّة للعموم وللإستغراق ؛ فإن قوله الملائكة، يقتضي جميع الملائكة ، الثاني كلهم ، وهذا من أبلغ العموم، الثالث قوله: أجمعون وهذا تأكيد للعموم .

أما المفاضلة بين عموم البشر والملائكة فإن صالحى البشر أفضل باعتبار

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل باب ، أسمائه ﷺ ، ج ١٥ ، ص ١٠٤ .

(٣) منهاج السنة ، لابن تيمية ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٦ .

(٤) سورة الحجر آية ٣٠ .

كمال النهاية ، والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهين عما يلبسه بنو آدم ، مستغرقون في عبادة الرب ، ولا ريب، أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير صالحوا البشر أكمل من حال الملائكة ((^(١)).

((وأما دعوة محمد ﷺ إلى التوحيد والتنزيه ، فقد وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة ، والناس قبل مجيئه كانوا على الأديان الباطلة ، فعبدوا الأصنام كانوا مشغولين بعبادة الحجر والخشب . واليهود كانوا على دين التشبيه وصنعة التزوير ، وترويج الأكاذيب. والمجوس كانوا في عبادة الإلهين ونكاح الأمهات والبنات . والنصارى كانوا في التثليث ، تثليث الأب والابن وروح القدس . والصابئة كانوا في عبادة الكواكب ، فكان أهل العالم معرضين عن الدين الحق والمذهب الصدق ، فلما أرسله الله تعالى إلى هذا العالم، بطلت الأديان الباطلة ، وزالت المقالات الفاسدة، وطلعت شمس التوحيد ، وأقمار التنزيه من قلب كل أحد ، وانتشرت تلك الأنوار في بلاد العالم ، فثبت أن تأثير دعوة محمد عليه الصلاة والسلام في علاج القلوب المريضة والنفوس الضالمة إلى الحق ، كان أتم وأكمل من تأثير دعوة سائر الأنبياء فوجب القطع بأنه أفضل من جميع الأنبياء والرسل في كل ما يتعلق بالنبوة والرسالة))^(٢).

وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة ، ومن حين بعثه الله جعله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه باطناً وظاهراً ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ، بل من

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٤ ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٦ .

(٢) النبوات وما يتعلق بها ، فخر الدين محمد الرازي ، تحقيق د . أحمد السقا ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر ، ص ١٨٢ .

خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (١) .

قال الحسن البصري (٢) - رحمه الله - : ((ادّعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم . وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله)) (٣) .

الرد على المخالفين في فضل الأنبياء

بعد أن أتم الله دينه منزلاً على نبيه محمد ﷺ ، فما لبث أن توفاه الله ، ثم كانت خلافة راشدة ما قدر الله ، وبعد وفاة علي رضي الله عنه ، ظهر مذهب التشيع فمنهم من غلا ورفع إلى مرتبة الألوهية وقالوا : ((إن الإله حل فيه وفي الأئمة من بعده ، وهو قول يوافق بعض الديانات القديمة التي كانت تقول بحلول الإله في بعض البشر ، وأن روح الإله تتناوب الأئمة إماماً بعد إمام . فأما السبئية وهم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي والذي أسلم منافقاً ثم أخذ في إقناع أتباعه بأفكاره حقداً وتحريضاً ونفاقاً حتى قالوا : إن الإله قد تجسد في علي ؛ وقالوا له : ((هو أنت الله)) وقد هم بإحراق هؤلاء - وكان هذا في حياته رضي الله عنه .

أما فرقة الغرابية : وهي فرقة من الغلاة ، وهذه الفرقة لم تؤله علياً ؛ كالسبئية ولكنها كادت تفضله على النبي ﷺ ، فزعموا أن الرسالة كانت لعلي رضي الله عنه ولكن جبريل أخطأ فنزل على محمد بدل أن ينزل على علي رضي الله عنه، وسُموا بالغرابية لأنهم قالوا أنه يشبه النبي ﷺ كما يشبه الغراب الغراب !.

(١) سورة آل عمران ٣١ .

(٢) الحسن بن أبي الحسن - يسار - البصري أبو سعيد من التابعين ، قال ابن حجر ثقة فقيه فاضل مشهور ، ولد بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، وتوفي بالبصرة سنة ١١٠هـ رحمه الله . تقريب التهذيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ، حققه د . عبد الرحمن اليحبي ، ص ٥٧ . .

وقالت السبئية إن المختار^(١) حجة الزمان ، وحملوه على دعوى النبوة ، فادعاها عند خواصه ، وزعم أن الوحي ينزل عليه))^(٢) .

قال أبو محمد : ((فهل سمع بأضعف عقولا وأتم رقاعة من قوم يقولون أن محمداً ﷺ كان يشبه علياً بن أبي طالب فأين يقع شبه بين ابن اربعين سنة من صبي ابن إحدى عشرة سنة حتى يغلط به جبريل عليه السلام ..

والقسم الثاني من فرق الغالية الذين يقولون بالألوهية لغير الله الذين قالوا لعلي بن أبي طالب مشافهة أنت هو فقال : ومن هو ؟ قالوا أنت الله فاستعظم الأمر وأمر بنار فأجبت وأحرقهم بالنار فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار الآن صح عندنا أنه الله لأنه لا يعذب بالنار إلا الله وفي ذلك يقول رضي الله عنه :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أجبت ناراً ودعوت قنبراً

يريد قنبراً مولاه وهو الذي تولى طرحهم في النار .. فإن محنة أبي الحسن رضي الله عنه بين أصحابه كمحنة عيسى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وهذه الفرقة باقية إلى اليوم فاشية عظيمة العدد))^(٣) .

ثم كان مذهب الإمامية الإثني عشرية الرافضي هو المذهب المسيطر والمعتبر بالنسبة للتشيع وله علماء ورواته ، بل أصبح في هذا العصر ممثلاً بدولة تحكم من خلال هذا المذهب ((والشيعة الإمامية تميزت عن سواها من الفرق ، إلى جانب تمييزها ببعض الأسماء ، وهي الشيعة الإمامية ، والشيعة الإثنا عشرية ،

(١) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي الكذاب ، قال ﷺ : ((يكون في أمتي كذاب ومبير)) فكان الكذاب هذا ، خرج يطلب بثأر الحسين بن علي ، جهز جيشاً لحرب عبيد الله بن زياد فقتله في عهد عبد الملك بن مروان . سار مصعب بن الزبير فنزل حروراء والتقى بالمختار فقتله بعد موقعة عظيمة في الكوفة سنة ٦٧ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي ، ج ٣ ، ص ٥٣٨ . الأعلام للزركلي ج ٧ ، ص ١٩٢ ؛ وانظر سنن الترمذي كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون . حديث حسن صحيح ، ج ٤ ، ص ٤٩٨ .

(٢) الفرق بين الفرق للبغداد ، ص ٢١ ، ٤٧ وانظر : تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج ٤ ، ص ١٤٠ ، ١٤٢ .

والشيعة الجعفرية والشيعة الرافضة ، وقد عرفت بالإمامية لأنها جعلت الإمامة ركناً خامساً من أركان الإيمان ، وعدت الإمامة صنو النبوة ، وعرفت بالإثني عشرية لأنها جعلت الإمامة متسلسلة في اثني عشر إماماً من ولد علي رضي الله عنه ، ينص السابق على اللاحق الذي يليه .

وأصول الشيعة الإمامية خمسة وهي : التوحيد ، النبوة ، والإمامة ، والعدل ، والمعاد^(١) . والشيعة في غالب اعتقادهم موافقون للمعتزلة في التوحيد والعدل والمعاد ، وتعتقد الشيعة الإمامية أن لائمتهم صلة بالوحي وإن اختلف علماءهم في التعبير عن طبيعة هذه الصلة ، وقد روى الكليني في كتابه الكافي قال : ((كتب الحسن بن عباس إلى الرضا عليه السلام : جعلت فداك أخبرني عن الفرق بين الرسول والنبي والإمام ، قال فكتب وقال : الفرق بين الرسول والنبي والإمام أن الرسول الذي ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه ، وينزل عليه الوحي ، وربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ، والنبي ربما يسمع الكلام وربما رأى الشخص ولم يسمع ، والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص ثم يقول الكليني على لسان أحد أئمتهم : إن منا لمن ينكت في قلبه ، وإن منا لمن يؤتى في منامه ، وإن منا لمن يسمع الصوت مثل صوت السلسلة في الطشت وإن منا لمن يأتيه صورة أعظم من جبريل وميكائيل))^(٢) .

ويقول آيتهم^(٣) ! : ((إن من ضرورات مذهبنا أن لائمتنا مقاماً لا يبلغه ملك

(١) أصل الشيعة وأصولها ، محمد كاشف الغطاء ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ص ٥٧ - ٦٢ .

(٢) الكافي في الأصول ، لمحمد بن يعقوب الكليني ت ٣٢٨هـ ، ج ١ ، ص ١٧٦ ، حديث رقم ٢ .

(٣) هو عند أصحابه الشيعة آية الله ! وروح الله ! مصطفى أحمد الخميني ، هاجم الشاه وسجنه فصار عظيماً عند الشيعة ثم أطلقه ونفاه ، عاش في النجف في العراق بعد ذلك ثم غادرها في ١٣٩٨هـ ثم ثار على الشاه وأقام حكومة الشيعة الإسلامية ١٣٩٩هـ . له كتاب الحكومة الإسلامية ، وكشف الأسرار ، وتحرير الوسيلة ، قال بولاية الفقيه وقيام الجمعة والجماعة والجهاد حتى يخرج الإمام فهو أعظم مفكر في تاريخهم . انظر كتاب الخميني الوجه الآخر في ضوء الكتاب والسنة ، د . زيد العيص ، دار اليقين ١٤١٣هـ ، المنصورة ، مصر ، ص ٣٦ - ٤٢ .

مقرب ولا نبي مرسل .. وإن تعاليم الأئمة كتعاليم القرآن يجب تنفيذها واتباعها^(١).
وها هم يرفعون مقام أئمتهم بقولهم : ((إن قول الإمام نبياً كان أو وصياً هو قول الله،
وهده هدى الله ، وحكمه حكم الله ، الذي لا يحتمل العكس))^(٢) .

وها هم الشيعة يدعون أن محمداً ﷺ لم يبلغ جميع ما أوحى إليه وإنما ترك
لهؤلاء الأئمة الإثني عشر تبليغ وبيان بعض الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ وقد
أوضح هذا المعتقد محمد كاشف الغطاء فقال : ((وبقيت أحكام كثيرة لم تحصل
الدواعي والبواعث لبيانها ، أو لعدم اقتضاء المصلحة لنشرها ، أو لعدم الابتلاء بها
في عصر النبوة ، والحاصل أن حكمة التشريع اقتضت بيان جملة من الأحكام ،
وكتمان جملة ، ولكنه سلام الله عليه أودعها عند أوصيائه ، كل وصي يعهد بها إلى
الآخر ، لينشره في الوقت المناسب))^(٣) .

أما صاحب الكافي فقد أورد حديثاً صريحاً عندهم يتضمن مساواة الأئمة
بالنبي ﷺ فقد نسب إلى أبي عبد الله - جعفر بن محمد الصادق بن علي بن الحسين
بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم - قوله إن الأئمة بمنزلة النبي في كل شيء
إلا في الاسم والنكاح ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : ((الأئمة
بمنزلة النبي ﷺ ، إلا أنهم ليسوا بأنبياء ، ولا يحل لهم من النساء ما يحل للنبي صلى
الله عليه وسلم فأما ما خلا ذلك فهم فيه بمنزلة الرسول ﷺ))^(٤) . بل إن هؤلاء
الشيعة يعتقدون برجعة أئمتهم وهذا أصل من أصول معتقدتهم وهو المعاد ((وتعني
الرجعة في المذهب الشيعي أن الأئمة مبتدئاً بالإمام علي ، ومنتهياً بالحسن العسكري
الذي هو الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية سيرجعون إلى هذه الدنيا ليحكموا

(١) الحكومة الإسلامية للخميني ، ص ١٣ ، ٥٢ .

(٢) التفسير الكاشف / محمد جواد مغنية ، ج ١ ، ص ١٩٧ ؛ وانظر الخميني والوجه الآخر ، زيد العيص ،
ص ٢٣ .

(٣) أصل الشيعة وأصولها ، محمد كاشف الغطاء ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٤) الأصول من الكافي للكليني ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ، لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني ، ط
طهران ، ١٣٨١ هـ .

المجتمع الذي أرسى قواعده بالعدل والقسط الإمام المهدي الذي يظهر قبل رجعة الأئمة ، ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً ، ويمهد الطريق لرجعة أجداده وتسلمهم الحكم وأن كل واحد من الأئمة حسب التسلسل الموجود في إمامتهم سيحكم الأرض رداً من الزمن ، ثم يتوفى مرة أخرى ليخلفه ابنه في الحكم حتى ينتهي إلى الحسن العسكري ، وسيكون بعد ذلك يوم القيامة . كل هذا تعويضاً لهم عن حقهم الشرعي في الخلافة ، والحكومة ، التي لم يستطيعوا ممارستها في حياتهم قبل الرجعة)) (١) .

وإذا كان هذا تخبطاً في أئمتهم والقول بلا علم في رجعتهم ؛ فإن هذا لا يمنعهم من التورع في كتاب ربهم المنزل على خير البرية محمد ﷺ حيث يقول النوري الطبرسي صاحب كتاب فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب : إن الأخبار المتواترة المطبق على صحتها الدالة بصحتها الدالة بصريحتها على وقوع التحريف في القرآن الكريم تزيد إلى ألفي حديث (((٢) .

قال شيخ الإسلام : ((وأما من جوز أن يكون غير النبي أفضل منه فهو من أقوال بعض ملحدة المتأخرين من غلاة الشيعة والصوفية .. وفي الجملة : فمن جرب الرافضة في كتابهم وخطابهم علم أنهم من أكذب خلق الله ، فكيف يثق القلب بنقل من كثر الكذب منهم قبل أن يعرف صدق الناقل (((٣) .

ويمكن القول بأن هؤلاء الشيعة ؛ منهم من آله علياً في أول الأمر وفي أثناء حياته رضي الله عنه ، ومنهم من اعتقد أنه أحق بالنبوة ، ومنهم من فضل الأئمة على مقام النبوة ثم ادعى أن الأئمة مكملين لعصر النبوة في التشريع وبيان الأحكام ،

(١) الشيعة والتصحيح . د . موسى الموسوي ، ص ١٤٢ .

• قال شيخنا في تعليقه على مسودة البحث : والغريب أن هذا القول بتمامه يعتقد اليهود في تفسيرهم لليوم الآخر ، وأن مات منهم قبل قيام دولتهم العالمية سيرجعون ويعوضهم الله بالعيش في ظلال دولتهم الموعودة !.

(٢) فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب ، حسين محمد النوري الطبرسي ، ت ١٣٢٠ هـ ، ص ٢٢٧ .

(٣) منهاج السنة لابن تيمية ، ج ٢ ، ص ٤١٨ ، ٤٦٧ .

كما هو الحال في عصرنا هذا وليس هذا بغريب على من ادعى نقص كتاب الله ، ورفض أحاديث رسول الله ﷺ التي رواها الثقات من أصحابه رضي الله عنهم ، فهم في ظلمات بعضها فوق بعض وقد أدى هذا المنهج إلى الشرك والضلال وعبادة القبور والمشاهد واستغاثتهم بأئمتهم وسؤالهم والذبح لهم وهذا شرك بالله . ((والصحيح أن أقوالهم التي يعلم أنها مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ كفر وكذلك أفعالهم التي هي من جنس أفعال الكفار)) (١) . أما البابية البهائية والقاديانية وقبلهم الدروز والنصيرية ؛ فهي مذاهب تمخضت من رحم الشيعة وهم المؤسسون لما طرح القوم من اعتقادات فاسدة في الوحي والنبوة والرسالة جمعاء ، وقد كفرهم جميعاً علماء الإسلام ، فهذا علي البهائي يدّعي ((أنه أفضل من محمد ﷺ صاحب الدعوة الإسلامية العظمى ، وأن تعاليمه التي جمعها في بيانه أفضل من تعاليم نبي المسلمين في قرآنه ، وأن محمداً إذا كان قد تحدى الناس بالإتيان بسورة من سور الفرقان المبين ، فإن الباب يتحدى الجميع بالإتيان بباب من أبواب بيانه العظيم .. أما المسلمون فليسوا في حاجة إلى هذه الديانة . ويكفي أن نعلم أن الإسلام قد كمل منذ أربعة عشر قرناً .. ثم جاءت القاديانية يتزعمها غلام أحمد القادياني الذي ادعى أنه المسيح الموعود ؛ بمعنى أنه جاء بقوة وروح المسيح عيسى عليه السلام ، وادعى أيضاً أنه هو النبي الذي تنبأت بظهوره في آخر الزمان أغلب الديانات العظيمة .

وقد ادعى أنه نبي ، وأن مهمته إقامة العلاقة بين الإنسان وخالقه ، كما أنه جاء ليفسر القرآن وتعاليم الإسلام في ضوء الوحي الإلهي بما يطابق العصر الحاضر)) (٢)

وهنا يقول صاحب كتاب حقيقة البابية والبهائية الدكتور محسن عبد الحميد :

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٢٨ ، ص ٥٠٠ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني - ذيل الملل والنحل - محمد سيد الكيلاني ، ج ٢ ، ص ٤٦ ، ٦٢ .

((إن الاستعمار الإنجليزي كان يقف وراء الحركتين البهائية والقاديانية ، وكان يغذي الحركة البهائية ويقفون وراء رجالها وزعمائها ، وكانوا أيضاً وراء الحركة القاديانية في الهند ، ويقول غلام أحمد نفسه :)) لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها ، وقد ألفت في منع الجهاد ، ووجوب طاعة أولي الأمر الإنجليزي .. وكان هدفي دائماً أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة - أي الإنجليزي - إن كلتا الحركتين نتيجة لعمالتهما الصريحة للإنجليز ألغتا الجهاد إلغاء كاملاً)) (١) . وما أشبه الليلة بالبارحة ؟!! وبهذا تبين موقف هؤلاء المخالفين من النبوة وتعطيل فروض الإسلام .

أما النصيرية وهم المنتسبون إلى محمد بن نصير الطوسي النميري ت ٢٧٠هـ الذي أدعى النبوة والرسالة وقد ألّوها علماً وجعلوا الشريعة ظاهراً وباطناً، وخلع أولئك ربة الإسلام واطرحوا معانيه ولم يبقوا لأنفسهم منه إلا الأسم واتخذوا لهم مقراً يسمى جبل النصيرية وعند الهجوم الصليبي مالتوا الصليبيين ضد المسلمين)) (٢) .

وأما الدروز وهم أتباع حمزة الدرزي ويكثرون بالشام وقد ألّوها الحاكم بأمر الله الفاطمي وينكرون الأنبياء والرسل جميعاً ، ويقولون بتناسخ الأرواح وينكرون الجنة والنار)) (٣) .

والإسماعيلية فرقة باطنية ، انتسبت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت ، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام ، تشيعت فرقها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر .. يقولون بالتناسخ والإمام وارث الأنبياء جميعاً ويرفعون الإمام

(١) حقيقة البابية والبهائية ، د . محسن عبد الحميد ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط الثانية ١٣٩٥هـ ، ص ٢٤٧ .

(٢) المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، ص ٥٨ ، وانظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ٥١١ .

(٣) المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، ص ٥٧ ، وانظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

إلى ما يشبه الإله)) (١) .

قال شيخ الإسلام : ((هؤلاء القوم المسمّون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى ، بل وأكفر من كثير من المشركين ، وضررهم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل التتار والفرنج وغيرهم .. وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين ، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيرهم من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم)) (٢) . ((والإسماعيلية ملاحظة أكفر من النصيرية . ومن شيعة النصيرية من يقول :

أشهد ألا إله إلا حيدرة الأنزع البطين !!

ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين !!

ولا طريق إليه إلا سلمان ذو القوة المتين !!

ويقولون : إن شهر رمضان أسماء ثلاثين رجلاً ، وأن الصلوات الخمس عبارة عن خمسة أسماء وهي علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة إلى أنواع من الكفر الشنيع الذي يطول وصفه)) (٣) .

((وليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أعظم افتراء للكذب على الله وتكذيباً بالحق من المنتسبين إلى التشيع ، ولهذا لا يوجد الغلو في طائفة أكثر مما يوجد فيهم . ومنهم من ادعى إلهية البشر ، وادعى النبوة في غير النبي ﷺ وادعى العصمة في الأئمة ونحو ذلك ، واتفق أهل العلم على أن الكذب ليس في طائفة من الطوائف المنتسبين إلى القبلة أكثر منه فيهم)) (٤) .

والصوفية قوم ادعوا حب النبي ﷺ ، ولكنهم أضل الناس وكذا الشيعة

(١) نفس المصدر ص ٥٤، ٥٥، ٥٦ ، نفس المصدر ص ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) منهاج السنة لابن تيمية ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥١٢ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

لا تدّع حب محمد ﷺ وتخالف أمره إن المحب حقاً للحبيب مطيع

ثم اخترعوا عبارات الوجد والذوق والكشف والعارف والمريد والقطب وكلها ألفاظ مبتدعة ما زادت أصحابها إلا ضلالاً وخذلاناً والعياذ بالله! قال أبو محمد : ((ادعت طائفة الصوفية أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل وقالوا من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك .. وقالوا إنا نرى الله ونكلمه وكلما قُذِف في أنفسنا فهو حق .. واعلموا رحمكم الله أن جميع فرق الضلالة لم يجر الله على أيديهم خيراً ، ولا فتح بهم من بلاد الكفر قرية ولا رفعوا للإسلام راية ، وما زالوا يسعون في قلب نظام المسلمين ويفرقون كلمة المؤمنين ، ويسلّون السيف على أهل الدين ويسعون في الأرض مفسدين)) (١) .

وهذا كبيرهم وصاحب الراية عندهم ومن قبره مزاراً لهم وقضاء لحوائجهم ورغباتهم إنه ابن عربي الذي ((يصرح في فصوصه : أن الولاية أعظم من النبوة؛ بل أكمل من الرسالة ! ومن كلامه :

مقام النبوة في برزخ فوق الرسول ودون الولي

وبعض أصحابه يتأول ذلك بأن ولاية النبي أفضل من نبوته ، وكذلك ولاية الرسول أفضل من رسالته ، أو يجعلون ولايته حاله مع الله ، ورسالته حاله مع الخلق وهذا من بالغ الجهل .. ويزعم أن لبنة محمد ﷺ هي العلم الظاهر ، ولبنته - أي ابن عربي - الذهب علم الباطن ، والفضة علم الظاهر ، وأنه يتلقى ذلك بلا واسطة ؛ ويصرح في فصوصه : أن رتبة الولاية أعظم من رتبة النبوة ، لأن الولي يأخذ بلا واسطة ، والنبي بواسطة فهو لم يتبع النبي ﷺ في شيء ، فإنه أخذ بزعمه

(١) الفصل في الملل والنحل والأهواء ، لابن حزم ، ج ٤ ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

عن الله .. وبالجمله :فهو لم يتبع النبي ﷺ في شيء فإنه أخذ بزعمه عن الله ما هو متابعه فيه في الظاهر ، كما يوافق المجتهد والمجتهد والرسول الرسول ، فليس عنده من اتباع الرسول والتلقي عنه شيء أصلاً ، لا في الحقائق الخبرية ، ولا في الحقائق الشرعيه.. فهذا كما ترى في حال هذا الرجل ، وتعظيم المتأخرين له))^(١) .

((ولهذا يقول : إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وإن الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبياء علم التوحيد ، وأنه هو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحى به إلى الرسول ، فإن الملك عنده هو الخيال التابع للعقل ، فالنبي عندهم يأخذ عن هذا الخيال الذي في النفس ، وهو جبريل عندهم ، وذلك الخيال ما يسمعه من الصوت في نفسه ، ولهذا يقولون إن موسى كلم سماء عقله ، والصوت الذي سمعه كان في نفسه لا في الخارج ، ويدعي أحدهم أنه أفضل من موسى - ﷺ - كما ادعى ابن عربي أنه أفضل من محمد - ﷺ))^(٢) .

ولهذا قال شيخ الإسلام : ((من اعتقد أن في أولياء الله من لا يجب عليه اتباع المرسلين وطاعتهم فهو كافر ، يستتاب فإن تاب وإلا قتل، مثل من يعتقد أن في أمة محمد ﷺ من يستغني عن متابعته .. فإنه مبعوث إلى كل أحد ، فيجب على كل أحد متابعه أمره ، وإذا كان من اعتقد سقوط طاعته عنه كافراً ؛ فكيف من اعتقد أنه أفضل منه ؟ أو أنه يصير مثله))^(٣) .

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ج ٤ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) النبوات لابن تيمية ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٣١٨ .

دفع وَهْم التعارض بين النصوص في تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض :

لقد وردت أحاديث تنهى المسلمين عن تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، بل أن المصطفى ﷺ هو من نهاهم عن تفضيله على بعض الأنبياء ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : ((لا تخيروا بين الأنبياء))^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((قال رسول الله ﷺ لا تفضلوا بين الأنبياء))^(٢) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم : والذي اصطفى محمد ﷺ على العالمين ، في قسم يقسم به ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده ، فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي عند ذلك إلى النبي ﷺ ، فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم فقال : لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله))^(٣) .

قال شارح الطحاوية : ((فكيف يجمع بينه وبين قوله :)) (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) ((^(٤) فالجواب : أن هذا كان له سبب ، فإنه كان قد قال يهودي : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فلطمه مسلم ، وقال : أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ؟ فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه ، فقال النبي ﷺ هذا ، لأن التفضيل إذ كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموماً ، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبيه كان مذموماً ، فإن الله حرم الفخر . وعلى هذا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب إذا لطم المسلم يهودي عند غضبه ، ج ١٢ ، ص ٢٦٣ . صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى ﷺ ، ج ١٥ ، ص ١٣١ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ ، ج ٦ ، ص ٤٥٠ . صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى ﷺ ، ج ١٥ ، ص ١٣٠ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره ، ج ٦ ، ص ٤٤١ .

(٤) سنن الترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل ، ج ٥ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

يحمل قوله ﷺ : لا تفضلوا بين الأنبياء ((^(١)) . وقال ابن حجر : ((إنما نهى عن ذلك من يقوله برأيه لا من يقوله بدليل أو يقوله من بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضل أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع ، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضل فضيلة ، وقيل النهي عن التفضيل إنما هو في حق النبوة نفسها ، ولم ينه عن تفضيل بعض الذوات على بعض .

أو أن الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر ، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي ((^(٢)) وأما قوله ﷺ فيما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس بن متي))^(٣) وفي رواية للبخاري قال : ((من قال : أنا خير من يونس بن متي فقد كذب)).

قال شارح الطحاوية : ((ليس فيه نهى المسلمين أن يفضلوا محمداً على يونس، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهو ملهم أي فاعل ما يلام عليه وقال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٤) فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس ، فلا يحتاج إلى هذا المقام ، إذ لا يفعل ما يلام عليه . ومن ظن هذا فقد كذب بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وإنما أخبر أنه سيد ولد آدم لأننا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره ، إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله ،

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) فتح الباري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ج ٦ ، ص ٤٤٦ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يونس لمن المرسلين ﴾ ، ج ٦ ، ص ٤٥١ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله ﷺ وعليهم أجمعين . ولهذا أتبعه بقوله ((ولا فخر)) . وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر : أن مقام الذي أسري به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم - كمقام الذي ألقى في بطن الحوت وهو مليم ؟! . وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب ؟! فهذا في غاية التقريب ، وهذا في غاية التأديب))^(١).

كيف وقد ثبت له ﷺ أنه حبيب رب العالمين ، بل إنها ((أعلى مراتب المحبة وهي الخلّة ، كما صح عنه ﷺ قوله : ((إن الله اتخذني خليلاً)) وقوله : ((إن صاحبكم خليل الرحمن)) والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال : الخلّة لإبراهيم ، والمحبة لمحمد ، .. بل الخلّة خاصة بهما والمحبة عامة))^(٢).

ومن فضائله ﷺ شفاعته يوم القيامة التي اختص بها دون غيره من الأنبياء ، للخلق أجمعين ، ورضاه سبحانه عن نبينا محمد ﷺ وشفاعته في أهل الكبائر من أمته ، والدين الذي أرسله الله به خاتماً للأديان وكاملاً وشاملاً للتقلين ، وخطاب الله سبحانه في كتابه بأن محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين حتى يأتي يوم الدين وينزل الله سبحانه للقضاء بين العالمين ، فله الحمد والمنة على فضله وإنعامه على أمة محمد ﷺ حين أعلى منزلة نبيهم على سائر أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ثم جعلهم خير أمة أخرجت للناس ، وختم برسالتهم الدين .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٤ ؛ وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل باب فضائل أبي بكر ج ١٥ ، ص ١٥٣ .

؛ سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر ج ٥ ، ص ٦٠٦ . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

المخالفون في ختم النبوة :

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ^(١) وقال ﷺ : ((أنا خاتم النبيين)) ^(٢) ، و((ختم بي النبيون)) ^(٣) ، و((العاقب الذي ليس بعدي نبي)) ^(٤) .

وردت النصوص الصحيحة الصريحة من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ، بختم النبوة ، غير أن من أضلهم الله من الوضّاعين في الحديث قد فتحوا دهليزاً لمن في نفسه مرض من أولئك الذين ذكروا في هذا المبحث وغيرهم ، ليفتروا على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ . وقد ألقت كتب في بيان خطر أولئك والتفكير من بدعتهم ودرء فسادهم على الأمة ، فهذا ابن عراق صاحب كتاب تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الموضوعة ، قد ذكر محمد بن سعيد المصلوب الذي أورد حديث ((وأنا خاتم النبيين إلا أن يشاء الله)) ورواية ((لا نبي بعدي إلا أن يشاء الله)) ^(٥) .

قال ابن حجر : ((قال عبد الله بن أحمد عن أبيه : قتله أبو جعفر في الزندقة حديثه حديث موضوع .. وقال أبو أحمد الحاكم : كان يضع الحديث ، صلب على الزندقة ، لا يحل ذكره إلا على وجه القدح)) ^(٦) .

وهنا يضع الاستثناء في حديث الرسول ﷺ بأنه خاتم النبيين ، فهنا يرد

-
- (١) سورة الأحزاب ٤٠ .
 - (٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ج ٦ ، ص ٥٥٨ .
 - ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٥ ، ص ٥١ .
 - (٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٥ ، ص ٥ .
 - (٤) نفس المصدر ، ج ١٥ ، ص ١٠٤ .
 - (٥) المغني في الضعفاء ، لشمس الدين محمد الذهبي ، تحقيق نور الدين عتر ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ .. عن حميد عن أنس : قال صلى الله عليه وسلم ((لا نبي بعدي إلا أن يشاء الله)) ؛ التعديل والتجريح ، سليمان بن خلف الباجي ، دار اللواء للنشر ، الرياض ، تحقيق أبو لبابه حسين ، ١٤٠٦ هـ ، ج ١ ، ص ٢٩٥ وفيه قال ابن حنبل : المشهورون بالكذب على رسول الله ﷺ أربعة : مقاتل ابن سليمان ، وإبراهيم ابن يحيى ، وأحمد الجوباري ، ومحمد بن سعيد المصلوب ؛ وانظر كتاب تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الموضوعة لابن عراق ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ، مصر .
 - (٦) كتاب تهذيب التهذيب ، للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ، دار الفكر ، ١٤٠٤ هـ ، ج ٩ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

الاحتمال ، والدليل إذ تطرق إليه الاحتمال أصبح عرضة للمقال ولهذا وجب التحذير والبيان للأمة من أولئك الزنادقة كيف وقد سُمّي بالمصلوب تشهيراً لمقالته وزندقته وهلاكه بالقتل ، ورحم الله أبا جعفر المنصور حين حمى جناب التوحيد ، وقد فعل الولاية صنيع ما عمل ، مثل خالد القسري حين قتل الجعد بن درهم ، وسلم بن أحوز حين قتل الجهم بن صفوان لبدعتهما في التجهم ونفي القدر ^(١) . فحفظاً للأمة منهج التوحيد الخالص ، مذهب أهل السنة والجماعة.

(١) نظر سير أعلام النبلاء ج ٥ ، ص ٤٣٣ ، ج ٦ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

عصمة الأنبياء

خلق الله الإنسان وأمتن عليهم بحسن الخلق ، وكان ذلك إعداداً لأمر جلل لم يبرح الخلق منذ هبوط أب البشرية إلى الأرض قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١) . فكان أن اختار الله من عباده أنبياء حفظهم وعصمهم وهياهم لتبليغ رسالته إلى الجن والإنس ، فبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، وأثنى الله عليهم في كتبه وبين ملائكته وحفظ الله ذكرهم وأعلا قدرهم بين أممهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وكان من حفظ الله سبحانه أن عصمهم من الخطأ في تبليغ رسالته وبهذا كان اتفاق الأمة ((وهو أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، في تبليغ رسالته باتفاق الأمة ، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه كما قال تعالى : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ * فَإِنَّ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَتْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) . بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ، ولو كانوا أولياء الله ، ولهذا من سب نبياً من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء ، ومن سب غيرهم لم يقتل . وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة فإن النبي هو المنبأ عن الله ، والرسول هو الذي أرسله الله تعالى ، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسول ، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين)) (٣) .

والعصمة لغة : المنعة والعاصم المانع الحامي والاعتصام : الإمساك بالشيء . والمراد بالعصمة هنا حفظ الله لأنبيائه من الذنوب والمعاصي (٤) .

(١) سورة طه ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٤) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد د . صالح الفوزان ، ص ١٦٤ .

و((الأمة متفقون على أنهم لا يُقرّون على خطأ في الدين أصلاً ولا على فسوق ولا كذب ، ففي الجملة كل ما يقدر في نبوتهم وتبليغهم عن الله فهم متفقون على تنزيههم عنه . وعامة الجمهور الذين يجوزون عليهم الصغائر يقولون : إنهم معصومون من الإقرار عليها ، فلا يصدر عنهم ما يضرهم كما جاء في الأثر كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، والله ﴿ تَحِبُّ التَّوْبِينَ وَتُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ^(١) وإن العبد ليفعل السيئة فيدخل بها الجنة)) ^(٢).

قال ابن القيم : ((وهذا معنى قول بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ويعمل الحسنة يدخل بها النار ، قالوا : كيف ؟ .

قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفاً منه مشفقاً وجلاً باكياً نادماً مستحياً من ربه تعالى ، ناكساً الرأس بين يديه ، منكسر القلب له فيكون ذلك الذنب انفع له من طاعات كثيرة ؛ بما يترتب عليه من هذه الأمور ، التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة)) ^(٣) .

((وما أنبأ به النبي عن الله لا يكون كذباً لا خطأ ولا عمداً ، فلا بد أن يكون صادقاً فيما يخبر به عن الله يطابق خبره مخبره ، لا تكون فيه مخالفة لا عمداً ولا خطأ ، وهذا معنى قول من قال هم معصومون فيما يبلغونه عن الله ، لكن لفظ الصادق وأن النبي صادق مصدوق نطق به القرآن وهو مدلول الآيات والبراهين . ولفظ العصمة في القرآن جاء في قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(٤) أي من أذاهم ، فمعنى هذا اللفظ في القرآن هو الذي يحفظه الله عن الكذب خطأ وعمداً ، والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيره ، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها ، وهي تنزيل من حكيم حميد ، والأمة متفقة عليها ويجب

(١) سورة البقرة ٢٢٢ .

(٢) منهاج السنة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٧٢ .

(٣) صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ، تحقيق وتعليق سليم الهلالي ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ ، ص ١٥ .

(٤) سورة المائدة ٧٠ .

الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم ..

وقد يكون معصوماً على لغة القرآن بمعنى أن الله عصمه من الشياطين ،
شياطين الإنس والجن ، وأن يغيروا ما بعث به ، أو يمنعوه عن تبليغه ، فلا يكتف
ولا يكذب .. فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه ، وهذا في معنى
عصمته من الناس ، فهو المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الإنس أو الجن حتى
يبلغ رسالات ربه كما أمر ، فلا يكون فيها كذب ولا كتمان ، ولفظ الإنباء يتضمن
معنى الإعلام والإخبار ، فهو يستعمل في الإخبار بالأمور الغائبة المختصة دون
المشاهدة)) (١) . وحيث إن الصدق مؤيداً بعصمة النبي في تبليغه عن ربه جل وعلا
ما يصلح حال البشر في دينهم ودنياهم وآخرتهم ((فدلالة الصدق لا تنفك عن حاله
وفعاله طرفة عين وذلك هو المعنى بالعصمة الواجبة للأنبياء عليهم السلام ، لأن
العصمة لو ارتفعت بطلت الدلالة وتناقضت الدعوى خصوصاً فيما أرسلوا به إليهم
وكلف الناس تصديقه في أقواله ومتابعته في أفعاله)) (٢) . ((فهذا محتاج أولاً إلى
أن يعلم أن محمداً رسول الله الصادق المصدق ، الذي لا يقول على الله إلا الحق ،
وأنه بلغ البلاغ المبين ، وأنه معصوم عن أن يقره الله على خطأ فيما بلغه وأخبر به
عنه ، ومن ثبت هذا الإيمان في قلبه امتنع مع هذا أن يجعل ما يناقض خبر الرسول
مقدماً عليه)) (٣) .

وبهذا يتبين اتفاق المسلمين قاطبة على عصمة الأنبياء وأن الله تكفل
بحفظهم وعصمتهم من الجن والإنس ، وأنهم معصومون فيما يخبرون عن الله تعالى
فلا يستقر في الشريعة خطأ ، بل ولا يقر الأنبياء على خطأ عارض ؛ لأن ذلك
يناقض مقصود الرسالة؛ فقال تعالى: ﴿ سَنُقَرِّكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ

(١) النبوات ، لابن تيمية ، ص ٣٣٢ .

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

﴿الله﴾^(١) قال ابن كثير رحمه الله : وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ، وجعل معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ أي لا تنسى ما نقرئك إلا ما يشاء الله رفعه فلا عليك أن تتركه ((^(٢) .

وقال تعالى : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(٣) وهذا تعليم من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه بسرعة ويسابق الملك في قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(٤) أي بعد حفظه وتلاوته نوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا^(٥) .

إنها رعاية الله وحفظه لرسالته الخالدة الخاتمة ، وهنا يتضح عصمة الله في تحمل رسوله صلى الله عليه وسلم لما أمر بتبليغه وكلف بأدائه للجن والإنس كافة .
أما عصمة التبليغ فقد أخبر سبحانه فيما أمر رسوله ﷺ حيث قال تعالى : ﴿يَأْتِيَا الرُّسُولَ يَلْغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٦) .

((يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله ﷺ باسم الرسالة وأمرأ له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم القيام . قال البخاري عند تفسير هذه الآية : .. عن عائشة رضي الله عنها قالت ((من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، إن الله تعالى يقول : ﴿يَأْتِيَا

(١) سورة الأعلى الآية ٦ ، ٧ .

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٤ ، ص ٤٣٧ .

(٣) سورة القيامة آية ١٦ ، ١٧ .

(٤) سورة القيامة آية ١٩ .

(٥) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

(٦) سورة المائدة آية ٦٧ .

الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴿.. الآية (١)﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ((لو كان محمد ﷺ كاتباً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية ﴿ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٢))) (٣) .

وقال البخاري : قال الزهري : من الله عز وجل الرسالة ، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ وعلينا التسليم ، وقال : ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وقال تعالى : حكاية عن النبي ﷺ : أبلغكم رسالات ربي ، وقال كعب بن مالك حين تخلف عن النبي ﷺ : وسيرى الله عملكم ورسوله ، وقالت عائشة : إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل اعملوا فسيرى الله عملك ورسوله والمؤمنون ولا يستخفك أحد)) (٤) .

وقد كان رسول الله ﷺ من المتوكلين على الله المعتمدين به سبحانه ، وقد حماه الله وعصمه من الناس ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : ((غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد فأدركنا رسول الله ﷺ في وادٍ كثير العضاة فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها ، قال : وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر ، قال : فقال رسول الله ﷺ : إن رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلتاً في يده فقال لي من يمنعك مني ؟ قال قلت : الله ثم قال في الثانية من يمنعك مني ؟ قال قلت : الله ، قال : فشام السيف فهاهو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ)) (٥) .

قال النووي رحمه الله : قوله ﷺ : ((والسيف صلتاً إلى قوله فشام السيف))

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : يَتَأْتِيَ الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ج ١٣ ، ص ٥٠٣ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٧ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب التفسير ، ج ٥ ، ص ٣٥٣ ، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : يا أيها الرسول بلغ ، ج ١٣ ، ص ٥٠٣ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب توكل الرسول ﷺ وعصم الله تعالى له من الناس ، ج ١٥ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

أما صلتاً بفتح الصاد وضمها أي مسلولاً وأما شام فبالشين المعجمة ومعناه غمده ورده في غمده يقال شام السيف إذا سله وإذا غمده فهو من الأضداد والمراد هنا أغمده .

وقال : كان رسول الله ﷺ قبل هذا يُحرس حتى أنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

قال ابن كثير : ((أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيكَ وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحرس)) (١) .

كما قال الإمام أحمد : حدثنا.. أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت : فقلت ما شأنك يا رسول الله قال : ((ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة . قالت فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ قال : أنا سعد بن مالك ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه)) (٢) .

قال النووي : فيه جواز الاحتراس من العدو والأخذ بالحزم وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط قال العلماء وكان هذا الحديث قبل نزول قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ لأنه ﷺ ترك الاحتراس حين نزلت هذه الآية وأمر أصحابه بالانصراف عن حراسته .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : ((كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله)) (٣) .

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ١ ، ص ٣٩١ ، ٤٥٠ ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .
؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب الحراسة في سبيل الله ج ١٦ ، ص ٨١ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب فضل سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ج ١٥ ، ص ١٨٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

؛ سنن الإمام الترمذي ، كتاب التفسير ، ج ٥ ، ص ٢٥١ . وقال : حديث غريب .

؛ المستدرک للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

قال القاضي عياض : ((وكذلك اتفق العلماء من أهل الفقه والأصول على أن كل ما كان طريقه الإبلاغ في القول فهم معصومون فيه على كل حال وأما ما كان طريقه الإبلاغ في الفعل فذهب بعضهم إلى العصمة فيه رأساً وأن السهو والنسيان لا يجوز فيه وتأولوا أحاديث السهو في الصلاة .. وهذا مذهب الأستاذ أبي المظفر الاسفراييني من أئمتنا الخراسيين المتكلمين وغيره .. وذهب معظم المحققين وجماهير العلماء إلى جواز ذلك ووقوعه منهم وهذا هو الحق ، ثم لابد من تنبيههم عليه وذكرهم إياه أما في الحين على قول جمهور المتكلمين وأما قبل وفاتهم على قول بعضهم ليسنوا حكم ذلك ويبينوه قبل انخراط مدتهم وليصح تبليغهم ما أنزل إليهم)) (١) .

(١) شرح النووي ج ٣ ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

الخطأ والنسيان طارئان على الأنبياء وقد يخطئون في إصابة الحق في القضاء

إن الأعراض البشرية الجبلية لا تنافي العصمة مثل الخوف والغضب وعدم الصبر والنسيان ، والخطأ في إصابة الحق في الحكم وذلك لاعتمادهم على قول الشهود والخصوم ، ((وهذه الخطايا التي ذكرت للأنبياء من أكل آدم عليه الصلاة والسلام من الشجرة ناسياً ، ومن دعوة نوح عليه السلام على قوم كفار ، وقتل موسى ﷺ لكافر لم يؤمر بقتله ، ومدافعة إبراهيم ﷺ الكفار بقول عرض به هو فيه من وجه صادق ، وهذه كلها في حق غيرهم ليست بذنوب لكنهم أشفقوا منها إذ لم تكن عن أمر الله تعالى وعتب على بعضهم فيها لقدر منزلتهم من معرفة الله تعالى))^(١) . ومثل هذا ما تعرض له نبي من الأنبياء ، فقد غضب حين قرصته نملة فأحرق قرية النمل ، فعاتبه الله على ذلك .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار فأوحى الله إليه : فهلاً نملة واحدة))^(٢) .

وعنه رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : ((كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن احدهما ، فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا به على سليمان بن داود ، فأخبرته ، فقال : اتئوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى))^(٣) .

وأما محمد ﷺ رسول الله فقد أخبر أمته في عصره ومن بعده أن المتخاصمين

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ج ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب خمس فواسق يقتلن في الحرم ، ج ٦ ، ص ٣٥٦ .

؛ صحيح مسلم كتاب السلام باب النهي عن قتل النمل ، ج ١٤ ، ص ٢٣٩ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ووهبنا لداود سليمان ، ج ٦ ، ص ٤٥٨ .

قد يغلب أحدهما الآخر حجة وقولاً فيأخذ حق أخيه عند التخاصم إلى القاضي ، بل إنه أخبر عن نفسه ﷺ في القضاء بين المتخاصمين ،

فعن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : إن النبي ﷺ سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم ، فقال : ((إنما أنا بشر ، وأنه يأتيني الخصم ، فلفل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صادق ، فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها))^(١).

بل إن النبي ﷺ قد نسي في صلاته فذكره أصحابه رضي الله عنهم ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ((صلى بنا رسول الله ﷺ خمساً فقلنا يا رسول الله أزيد في الصلاة ؟ قال وما ذاك قالوا : صليت خمساً ، قال إنما أنا بشر مثلكم أذكر كما تذكرون وأنسى كما تنسون ، ثم سجد سجدتي السهو . - وفي رواية للبخاري - فتى رجله واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلم ، فلما أقبل علينا بوجهه قال : إنه لو حدث في الصلاة شيء لنبأتكم به ، ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني ، وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحري الصواب ، فليتم عليه ثم ليسلم ، ثم يسجد سجدتين))^(٢).

وإذا كانت الأمة قد أجمعت على عصمة الأنبياء في التبليغ ؛ فإن قوماً قد غلوا في قولهم بالعصمة حتى عن الخطأ والنسيان وما كان جبلة للإنسان . أما اليهود والنصارى فقد نسبوا إلى أنبيائهم القبائح ووصفوه بما هم منه براء ، وهم الذين قالوا إنهم أبناء لله سبحانه ثم عبدوهم من دون الله ، فلا يعلم لهم قرار .

(١) نفس المصدر ، كتاب المظالم ، باب إثم من خاصم بالباطل ، ج ٥ ، ص ١٠٧ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الصلاة ، باب السهو في الصلاة والسجود له ، ج ٥ ، ص ٦٦ .
فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب التوجه نحو القبلة ، ج ١ ، ص ٥٠٣ .

موقف اليهود والنصارى من عصمة الأنبياء :

إن تخبط اليهود والنصارى في دينهم قد أدى بهم إلى رفع أنبيائهم إلى مستوى الألوهية. ثم تراهم يقدحون في عصمتهم ويلمزونهم بأقبح الأوصاف كوصفهم لبعضهم بعبدة العجل وعمل الزني فكيف يكون هذا وقد وصفوهم بابن الله وروحه و((ينسب اليهود إلى الأنبياء والمرسلين أعمالاً قبيحة ، فمن ذلك : أن نبي الله هارون صنع عجلاً وعبداه مع بني إسرائيل (١) .

وقد تبين ضلالهم هذا في القرآن عندما حدثنا أن الذي صنع لهم عجلاً جسداً له خوار هو السامري ، وإن هارون قد أنكر عليهم إنكاراً شديداً .

وإن إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قدم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها (((٢) . وهكذا في سائر أنبيائهم . وهذه بعض المخازي والقبايح والكبائر التي نسبتها هذه الأمة الغضبية إلى أنبياء الله الأطهار ، وحاشاهم مما وصفوهم به .

والنصارى ليسوا بأفضل من اليهود في هذا .. فقالوا : ((إن يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل هم سراق ولصوص)) (٣) وهذا غيض من فيض مما تطفح به تلك الأناجيل المحرفة من وصف للأنبياء والرسل مما هم بريئون منه .

إن موقف الأمة الإسلامية مما ألحق هؤلاء المنحرفون عن الهدى ، برسل الله وأنبيائه واضح وجلي وهو أن الأنبياء والرسل أركى الناس وأطهرهم وأفضلهم ، وأن هؤلاء لضالون فيما وصفوا به أنبياء الله الأبرار الأطهار .

والأمة الإسلامية مجمعة على أن مثل هذه الذنوب التي نسبها اليهود والنصارى إلى أنبياء الله كالزنى والسرقة والمخادعة وصناعة الأصنام وعبادتها ..

(١) انظر إصحاح ٣٢ عدد ١ من سفر الخروج .

(٢) انظر إصحاح ١٢ عدد ١٤ من سفر التكوين .

(٣) انظر إصحاح ١٠ عدد ٨ من انجيل يوحنا .

لا يمكن أن تقع من أحد من الأنبياء والرسل بحال من الأحوال وأنهم معصومون من ذلك (١). بل إن اليهود ينسبون إلى الله أعمالاً وهيئات تعالى الله وتقدس عما يقول السفهاء فقد اجتمعت اليهود عن آخرهم على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقياً على قفاه ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى .. أما النصارى فقد اجتمع أربعة من الحواريين وجمع كل واحد منهم جمعاً سماه الإنجيل ، وهم : متى ولوقا ومرقس ويوحنا . وخاتمة أنجيل متى أنه قال : إني أرسلكم إلى الأمم كما أرسلني أبي إليكم . فاذهبوا وادعوا الأمم باسم الأب ، والإبن ، وروح القدس .. ومن العجب أنه نقل في الأنجيل أن الرب تعالى قال : إنك أنت الإبن الوحيد ، ومن كان وحيداً فكيف يمثل بواحد من البشر (٢). وليس بغريب قول وفعل هؤلاء ، وقد وصفهم الله بالكفر والضلال ولعنهم في كتابه الكريم وغضب عليهم ، ذلك أنهم حرفوا كلام الله واشتروا به ثمناً قليلاً .

الذين غلو في عصمة الأنبياء من المسلمين

أما غلاة مدعي عصمة الرسول من الخطأ أو النسيان من المسلمين وهم الشيعة الرافضة الإمامية ، فقد ادعوا أن النبي لا يسهو ولا ينسى ومقصدهم رفع منزلته ليتسنى لهم رفع منزلة أئمتهم من بعده ((وهم قصدوا تعظيم الأنبياء بجهل كما قصدت النصارى تعظيم المسيح وأحبارهم ورهبانهم بجهل . فأشركوا بهم واتخذوهم أرباباً من دون الله وأعرضوا عن اتباعهم فيما أمروهم به ونهواهم عنه .

وكذلك الغلاة في العصمة يعرضون عما أمروا به من طاعة أمرهم والإقتداء بهم وبأفعالهم إلى ما نهوا عنه من الغلو والإشراك بهم فيتخذونهم أرباباً من دون الله ، يستغيثون بهم في مغيبهم وبعد مماتهم وعند قبورهم ، ويدخلون فيما حرم الله ورسوله من العبادات الشركية التي ضاهوا بها النصارى .

(١) الرسائل والرسل ، د. عمر سليمان الأشقر ، انظر ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، انظر ص ٢١٩ ، ٢٢١ .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عند موته : ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ؛ يحذر ما فعلوه . قالت عائشة رضي الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً))^(١) وقال ﷺ : ((اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))^(٢) ..

أما الصوفية فقد غلوا في الرسول ﷺ وقد اعتمد المتصوفة الجهال طريق التأويل ومصطلحات الشيعة مما يثبت الصلة الوثيقة بين المتصوفة والباطنية والشيعة حتى قال شاعرهم :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

بل إن معاصرهم قد غلى في رسول الله ﷺ فرفعه إلى منزلة الخالق الباريء؟!

فقال في كتابه ((الذخائر المحمدية)) إن لرسول الله مقاليد السموات والأرض ، وإن له أن يقطع أرض الجنة ، ويعلم الغيب والروح والأمور الخمسة التي اختص الله بعلمها وأن الخلق خلقوا لأجله وأن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر ..^(٣) .

((فالمشاهد المبنية على قبور الأولياء والصالحين من العامة ومن أهل البيت كلها من البدع المحدثّة المحرمة في دين الإسلام ، وإنما أمر الله أن يقصد لعبادته وحده لا شريك له في المساجد لا المشاهد))^(٤) .

((وكذلك الرافضة غلوا في الرسول ، بل في الأئمة حتى اتخذوهم أرباباً من دون الله ، فتركوا عبادة الله وحده لا شريك له التي أمرهم بها الرسول ، وكذبوا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، ج ١ ، ص ٥٣٢ .

؛ نفس المصدر ، كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ج ٣ ، ص ٢٠٠ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور . ج ٥ ، ص ١٢ .

(٢) الموطأ للإمام مالك كتاب قصر الصلاة ، باب جامع الصلاة عن عطاء بن يسار ص ١١٩ .
؛ مسند الإمام أحمد ، عن أبي هريرة ج ٢ ، ص ٢٤٦ وفيه لعن الله بدل من اشتد غضب الله وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : طبعة المعارف ، ج ١٣ ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) انظر إمام وأمير ودعوة لكل العصور ، أحمد بن عبد العزيز الحصين ، دار الطرفين ، الطائف ١٤١٤هـ ، ص ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ .

(٤) منهاج السنة لابن تيمية ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

الرسول فيما أخبر به من توبة الأنبياء واستغفارهم ، فتجدهم يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ، وليس عندهم كبير حرمة ، وإن صلوا فيها صلوا فيها وحداناً ، ويعظمون المشاهد المبنية على القبور ، فيعكفون عليها مشابهة للمشركين ويحجون إليها كما يحج الحاج إلى البيت العتيق ، ومنهم من يجعل الحج إليها أعظم من الحج إلى الكعبة بل يسبّون من لا يستغني بالحج إليها عن الحج الذي فرضه الله على عباده ، ولا يستغني بها عن الجمعة والجماعة .

وهذا من جنس دين النصارى والمشركين الذين يفضلون عبادة الأوثان على عبادة الرحمن)) (١) .

وأول من نقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقاً وأعظمهم قولاً لذلك : الرافضة ؛ فإنهم يقولون بالعصمة مطلقاً وأعظمهم قولاً لذلك وينقلون ذلك إلى من يعتقدون إمامته فقالوا بعصمة علي ، والإثني عشر ، ثم الإسماعيلية الذين كانوا ملوك القاهرة وكانوا يزعمون أنهم خلفاء علويون فاطميون وهم عند أهل العلم من ذرية عبد الله القداح اليهودي ، كانوا هم واتباعهم يقولون بمثل هذه العصمة لأئمتهم ونحوهم ، مع كونهم كما قال فيهم أبو حامد الغزالي - في كتابه المصنف في الرد عليهم - قال ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض)) (٢) .

بل إن الباحث قد شاهد هذا بأمر عينه في بيت الله الحرام بمكة ومسجد رسول الله ﷺ بالمدينة النبوية ، وهم يخرجون زرافات ووحدانا عند سماعهم الأذان يعلو منائر البيتين ، وخاصة صلاة العشاء والتراويح وغيرها من الصلوات ثم يتجهون إلى مقابر المعلاة بمكة ومقابر البقيع بالمدينة ، وقد طلع الباحث على صور لمقابر البقيع في القرن الثالث عشر الهجري تعلوها القباب والمزارات وقد هدمت بحمد الله في أوائل القرن الماضي . بل إن هذا حالهم ومآلهم على أمد العصر ، هجراً للمساجد

(١) منهاج السنة ، ج ١ ، ص ٤٧٤ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ .

وإعماراً للمقابر ، وهذا دليل غلوهم في الرسول والأئمة وبعدهم عن الإتياع ، وتعظيمهم وتوسلهم بالأشخاص والرسوم دليل غلوهم في عصمتهم وقديسيتهم وأنهم ينفعونهم في آخرتهم ودنياهم ..

أما ((غلوهم في عصمة النبي فلم يوافقهم عليه أحد حيث ادعوا أن النبي ﷺ لا يسهو ، إن هذا لا يوافقهم عليه أحد فيما علمت ، اللهم إلا أن يكون من غلاة جهال النساك - الصوفية - ، فإن بينهم وبين الرفضه قدراً مشتركاً في الغلو وفي الجهل والانقياد لما لا يعلم صحته ، والطائفتان تشبهان النصارى في ذلك)) (١) .

وإذا كان الشيعة قد غلوا في النبوة فقد أدى بهم هذا إلى القول بعصمة الأئمة بل إنهم أحدثوا أصليين من أصولهم في الدين في النبوة والإمامة حين قالوا : أصول الشيعة الإمامية خمسة هي : التوحيد ، والنبوة ، والإمامة ، والعدل ، والمعاد .

الشيعة وغلوهم في عصمة الأئمة :

وتعتقد الشيعة الإمامية أن الله تعالى قد اختار أئمتهم الإثني عشر بالاسم ، ونص عليهم واحداً تلو الآخر ، وعلى لسان نبيه ليكونوا الأوصياء بعده ﷺ فهم يرون أن ((الإمامة منصب إلهي كالنبوة فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله)) (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة)) فذلك يختار للإمامة من يشاء ، ويأمر نبيه ، بالنص عليه ، وأن ينصبه إماماً للناس من بعده ، للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها)) (٢) .

ويقول كاشف الغطا وهو يتحدث عن أركان الإيمان : ((الشيعة الإمامية زادت ركناً خامساً وهو الاعتقاد بالإمامة .. فمن اعتقد بالإمامة بالمعنى الذي ذكرنا فهو عندهم مؤمن بالمعنى الأخص وإذا اقتصر على الأركان الأربعة فهو مسلم)) (٣) .

وقد أورد صاحب الكافي قوله : ((بني الإسلام على خمسة أشياء : على

(١) منهاج السنة ج ٢ ، ص ٤٥٣ .

(٢) سورة القصص ٦٨ . وانظر عقائد الإمامية ، لمحمد رضا المظفر ، ص ١٠٣ .

(٣) أصل الشيعة وأصولها لكاشف الغطا ، ص ٥٩ .

الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية ، فإن قيل : أي شيء أعظم وأفضل ؟ قيل :
الولاية)) (١) .

وإذا كان هذا حال الولاية والإمامة عند القوم فإن الإمام معصوم من الفواحش
والخطأ والنسيان ويقولون : ((نعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوم من
جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن منها من سن الطفولة إلى الموت
عمداً وسهواً ، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان)) (٢) .

ثم قالوا أن أئمتهم أفضل الخلق عند الله ، وقد بوب الحر العاملي ت سنة
١٠٣٢ هـ باباً مستقلاً بعنوان : الأئمة الإثني عشر أفضل من سائر المخلوقات ومن
الأنبياء والأوصياء السابقين والملائكة وغيرهم .

ثم قال : عن جعفر أنه قال : إن الله خلق أولي العزم من الرسل ، وفضلهم
بالعلم وأورثنا علمهم وفضلنا عليهم في علمهم ، وعلم رسول الله ﷺ ما لم يعلمهم
وعلمنا علم الرسول وعلمهم)) (٣) .

((وخلاصة القول أن الشيعة هم قوم يدعون موالاته أحد عشر شخصاً من
أولاد علي ، وعلياً رضي الله عنه ، ويعدونهم معصومين كالأنبياء ورسل الله ،
وأفضل منهم ومن الملائكة المقربين ، ويدعون أن مذهبهم مؤسس على آرائهم
وأفكارهم)) (٤) .

فهذا هو كلينيهم - وهو كالبخاري عند أهل السنة - يكذب على علي بن أبي
طالب رضي الله عنه أنه قال : لقد أعطيت خصالاً لم يعطهن أحداً قبلي - وحتى
الأنبياء - علمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب ، فلم يفتني ما سبقني ولم

(١) الأصول من الكافي للكليني ، باب دعائم الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٨ ؛ وانظر الشيعة والتشيع إحسان إلهي ص ٣٤٢ .

(٢) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ، ص ٧٠ .

(٣) الفصول المهمة للحر العاملي ص ١٥٢ .

(٤) الشيعة وأهل البيت ، إحسان إلهي ظهير ، ص ٢٨ .

يعزب عني ما غاب عني)) ^(١) ويقول: ((إن الأئمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء)) ^(٢) .

ثم قالوا ((اتفقت الإمامية على أن من ينكر إمامة إمام وجد ما أوجبه الله تعالى له من فروض طاعته فهو كافر ضال مستحق الخلود في النار ... وقالوا : لا يجوز لأحد من أهل الإيمان أن يغسل مخالفاً للحق في الولاء ، ولا يصلب عليه)) ^(٣) .

وقد تابعت الزيدية في هذا الشيعة عموماً القول بعصمة غير الرسول ﷺ فقال ابن الوزير اليمني الصنعاني : ((إنما الشيعة هم الذين قالوا بعصمة غير رسول الله ﷺ ممن بعده ، فمنهم من اقتصر على عصمة علي وفاطمة والحسين رضي الله عنهم ، ومنهم من زاد على ذلك ، فالإمامية قالت بعصمة اثني عشر إماماً ، وفي الزيدية من زاد على ذلك وقال بعصمة كل إمام من أئمة الزيدية .. وقالت الزيدية : إن عصمة علي وفاطمة والحسين رضي الله عنهم أعظم من عصمة الأنبياء عليهم السلام؛ لأن الصغائر عندهم تجوز على المذكورين من أهل البيت رضي الله عنهم لأنها لو وقعت منهم لم يعلم بها مع أن أقوالهم وأفعالهم تحج في الشريعة ، والأنبياء عليهم السلام إن وقعت منهم الصغائر بينها الله تعالى . فهذه أقوال الشيعة مصرحة بعصمة غير الأنبياء منصوصة في مصنفاتهم)) ^(٤)

ويقول ابن المطهر صاحب منهاج الكرامة : ((قد بينا أنه يجب في كل زمان إمام معصوم ، ولا معصوم غير هؤلاء إجماعاً . الجواب : منع المقدمة الأولى ، ثم لا إجماع في غيرهم . ثم نقول بالموجب : فهذا المعصوم الذي تدعونه في وقتنا هذا وله أربعمائة وستين سنة وما ظهر له أثر ، بل أحاد الولاية وقضاة البر أكثر تأثيراً منه ، فأی منفعة للوجود بمثل هذا لو كان موجوداً ، كيف وهو معدوم؟! فأی لطف

(١) الأصول من الكافي للكليني ، ج ٩ ، ص ١٩٧ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ، ص ٢٦١ .

(٣) تفسير البرهان للبحراني ، ط . قم إيران ، مقدمة ، ص ٢٠ ؛ انظر الشيع والتشيع ، إحسان إلهي ظهير ص ٣٤٣ .

(٤) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم لمحمد بن إبراهيم ، ابن الوزير الصنعاني تحقيق محمد المصري ، دار الكتب العلمية ١٤٢٩هـ - ص ١٨٦ .

حصل لكم به ، وأي مصلحة نالت الأمم قديماً وحديثاً به ؟ فما زال مفقوداً عندكم ومعدوماً عندنا ولا حصل به نفع أصلاً)) (١) .

((وأما البغض والحق لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطعن فيهم والعيب عليهم وشتيمهم فصار من لوازم مذهب الشيعة ، وكلما يوجد كتاب من كتبهم إلا وهو مليء بالطعن والتعريض بهم ، بل لقد خصصت أبواباً مستقلة لتكفير وتفسيق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يذكرهم أحد من القوم إلا ويسبق ذكرهم بالشتيمة ويلحق بالسباب .. ونقتصر على ما كتبه إمام شيعة اليوم الخميني في كتابه - كشف الأسرار - وهو مع كونه رجلاً سياسياً والسياسة تتطلب بعض الملاينة والمهادنة والمراعاة للآخرين يذكر بكل صراحة ووضوح)) (٢) .

((إن أبا بكر وعمر وعثمان لم يكونوا خلفاء رسول الله ﷺ ، بل وأكثر من ذلك أنهم غيروا أحكام الله وحلّوا حرام الله ، وظلموا أولاد الرسول ، وجعلوا قوانين الرب وأحكام الدين)) (٣) .

((ومما يدل على بطلان مدعاهم في الأئمة أن المعصوم يجب اتباعه من غير دليل ، ومخالفة غير المعصوم جائزة ، بل تكون واجبة إذا علمنا أنه خالف النص ، وقد أمرنا الله بطاعته وطاعة رسوله ، وغير رسوله يطاع إن أمر بطاعة رسوله ، فإن تنازعنا رددنا الأمر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٤) فلو كان الأئمة معصومين لكان أوجب الرد إلى الله وإلى الرسول والأئمة ، فدل عدم إيجاب الرد إليهم حال التنازع على عدم عصمتهم . وقد كان علي وأبناءه وغيرهم يخالف بعضهم بعضاً في العلم والفتيا ، كما يخالف سائر أهل العلم بعضهم بعضاً ، ولو كانوا معصومين

(١) منهاج الاعتدال للذهبي ، ص ٥٣٤ .

(٢) الشيعة والتشيع ، إحسان إلهي ظهير ، ص ٣٤٣ .

(٣) كشف الأسرار للخميني ط فارسي ، ص ١١٠ ؛ وانظر الشيعة والتشيع ص ٣٤٣ .

(٤) النساء آية ٥٩ .

لكان مخالفة المعصوم للمعصوم ممتعة ، ولقد كان الحسن في أمر القتال يخالف أباه، ويكره كثيراً مما يفعله ، ويرجع علي في آخر الأمر إلى رأيه ، وتبين له في آخر الأمر أنه لو فعل غير الذي فعله لكان الصواب ، وله فتاوى رجع ببعضها عن بعض ، والمعصوم لا يكون له قولان متناقضان ، إلا أن يكون أحدهما ناسخاً للآخر، وقد وصى الحسن أخاه الحسين بأن لا يطيع أهل العراق ، ولا يطلب هذا الأمر ، ولو كان معصوماً لما جاز للحسين مخالفته ((^(١)).

هذه عقيدة الشيعة في النبوة والإمامة والأئمة وادعاء عصمتهم بل غلوا في تلك العصمة وأشركوا الأئمة الاثني عشر مع الرسول ﷺ في العصمة أما عقيدتهم في أصحاب الرسول ﷺ، فإنها مقروءة منشورة في كتبهم وليس يوم حليلة بسر ، وحسابهم على مولاهم ، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يعاملهم بعدله .

خروج القائم عندهم

حينما تميز الشيعة بالكذب وقولهم إن التقية أصل في الدين ؛ فقد كثر الكذب على الله ورسوله ﷺ منهم ((ومن أكاذيبهم على أهل البيت أنهم نسبوا إليهم الأقوال والروايات التي تنبئ بخروج القائم من أولاد الحسن العسكري - الذي لم يلد له ولد مطلقاً - في آخر الزمان ، وإحيائه أعداء أهل البيت وقتله إياهم حسب زعمهم))^(٢).

كما أورد الكليني - محدث القوم وبخاريهم! - عن سلام بن المستنير قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدث : ((إذا قام القائم ، عرض الإيمان على كل ناصب، فإن دخل فيه بحقيقة وإلا ضرب عنقه ، ويؤدي الجزية كما يؤديها اليوم أهل الذمة ، ويشد على وسطه الهميان ويخرجهم من الأمصار إلى السواد))^(٣) . ولم يقتنع القوم بهذه الأكاذيب ، ولم يشف غليلهم حتى بلغوا إلى أقصاه ، فافتروا على محمد الباقر أنه قال : ((أما لو قام قائمنا ردت الحميراء - أي أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها - حتى يجلدها الحد ، وحتى ينتقم لابنة محمد ﷺ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٣٥ ، ص ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) الشيعة وأهل البيت ، إحسان إلهي ظهير ، ص ٢٤٤ .

(٣) الروضة من الكافي للكليني ج ٨ ، ص ٢٢٧ وانظر الشيعة والتشيع إحسان إلهي ظهير ص ٢٤٥ .

وآله فاطمة عليها السلام منها)) (١) !.

وهذا خلاف ما يعتقدُه أهل السنة والجماعة في المهدي المنتظر إحدى علامات الساعة.

وأهل السنة والجماعة لا يقرون بعصمة أحدٍ غير رسول الله ﷺ ، ونفع محمد ﷺ واصل إلى أمته وحتى تقوم الساعة ، أما غيره مما ادعاه هؤلاء الشيعة وقولهم بعصمة اثني عشر إماماً فلم يثبت على طول الزمن نفعهم ولا احتاجت إليهم الأمة في شيء ، فدين الله محفوظ بكتاب الله وسنة رسوله الأمين ﷺ ((فالرسول هو المعصوم ، وطاعته هي الواجبة في كل وقت على الخلق ، وعلم الأمة بأوامره أتم من علم البعض بأوامر المنتظر . فهذا رسول الله ﷺ هو الإمام المعصوم ، وأوامره معلومة فاستغنت الأمة به وأوامره وبعلمه عن كل أحد ، وأولوا الأمر منفذون لدينه ليس إلا . ومعلوم قطعاً أنه كان نوابه في اليمن وغيرها يتصرفون في الرعية باجتهادهم وليسوا بمعصومين .

ثم الإمام المعصوم لا يوجد في زماننا ، بل هو مفقود غائب عنكم ، ومعدوم لا حقيقة له عند سواكم ، ومثله لا يحصل به شيء من مقاصد الإمامة ، بل الإمام الذي يقوم وفيه جهل وظلم أنفع لمصالح الأمة ممن لا ينفعهم بوجه ، والإمام يحتاج إليه للعلم ليبالغ به ، وللعمل ليطاع في سلطانه .

وقولكم : لا بد من نصب إمام معصوم ، أتريدون أنه لا بد أن يخلق الله ويقيم معصوماً ، يجب على الناس أن يبايعوه ؟ وغاية ما عنكم أن تدعوا عصمة علي ، لكن الله ما مكنه في زمن الثلاثة بل ولا في خلافته ، فيكون الله عنكم قد أيد الثلاثة الظلمة - بزعمكم - وحينئذ فما خلق الله هذا المعصوم المؤيد الذي اقترحتموه على الله)) (٢) .

(١) تفسير الصافي ، ج ٢ ، ص ١٠٨ للفيض الكاشاني ؛ وانظر الشيعة والتشيع ص ٢٤٦ .

(٢) المنتقى من منهاج الاعتدال - مختصر منهاج السنة لابن تيمية - تأليف أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي ، حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب ، ص ٤٠٦ .

وقد فطن كبير شيعة هذا العصر وآيتهم العظمى! فساد اعتقادهم وباطل قولهم في الإمامة ، فكان من أعظم مفكريهم على مر العصور ؛ وذلك أنه قد رأى فداحة تعطيل الجمعة والجماعة والجهاد والزكاة حتى يخرج الإمام المعصوم المزعوم ليقوم العدل ويوجب الجهاد والجمعة وأمور شرائع الإسلام ؛ فاخترع ما أسموه بولاية الفقيه حتى يخرج المعصوم، وبهذا ينظر العالم إلى معتقدتهم بمنظار آخر يحمل الواقعية وحسن التصرف في الأمور ، وقد طبقها من خلال حكومة شيعية طال غيابها وسئم الشيعة انتظارها ، فكان زعيماً روحياً ملهماً عندهم ! حيث قال .. ((ثبت بضرورة الشرع والعقل أن ما كان ضرورياً أيام الرسول ﷺ وفي عهد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب - من وجود الحكومة ، لا يزال ضرورياً إلى يومنا هذا .. هل ينبغي أن يخسر الإسلام بعد الغيبة الكبرى كل شيء؟.. فلا يستطيع أحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول : أنه لا يجب الدفاع عن ثغور الوطن ، أو أنه يجوز الامتناع عن دفع الخمس .. وقد بحثنا أصل الموضوع وهو ولاية الفقيه أو الحكومة الإسلامية وتبين لنا أن ما ثبت للرسول - ﷺ - والأئمة فهو ثابت للفقيه ، ولا شك يعتري هذا الموضوع)) (١) .

وخلاصة معتقد الخميني في ولاية الفقيه أن للفقيه العادل السلطة المطلقة على البلاد والعباد ، بأمر من الإمام باعتباره نائباً له ، وهذه السلطة تخول الفقيه أن يعامل الناس كأنهم أطفال قصر ، حيث يقول : ((ولاية الفقيه أمر اعتباري جعله الشرع كما يعتبر الشرع واحداً منا قِيماً على الصغار ، فالقيم على الشعب بأسره لا تختلف مهمته عن القيم على الصغار إلا من ناحية الكمية)) (٢) .

قال مؤلف كتاب الخميني والوجه الآخر في ضوء الكتاب والسنة : ((إن الدارس لنظرية ولاية الفقيه لا يراها بعيدة عن فكرة الولي المتأله ، فكلتاها تقوم

(١) الحكومة الإسلامية للخميني ، ص ٢٦ ، ٩٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٠ .

على جعل السلطة في يد رجل ولي مثاله ، ويسميه الخميني نائب الإمام أو الفقيه المجتهد ، والتسمية لا تغير في الحقيقة لأن العبرة بالمضمون والآثار ..

إن نظرية ولاية الفقيه مرفوضة جملة وتفصيلاً ، ونرى فيها خروجاً عن الدين والمنهج القويم ، وتطاولاً على الله تعالى ، ونيلاً من مكانة النبي ﷺ ولا تحتاج على استدلال على بطلانها ، لأنها تحمل في ثناياها ما يكفي لهدمها ((^(١)).

وبهذا يتبين ضلال الشيعة قديماً وحديثاً ؛ ذلك أنهم خالفوا منهج الحق وما جاء به رسول الله ﷺ وقد تركنا على المحجة البيضاء لا يزول عنها إلا هالكاً مضيقاً لأوامر الله وما جاء به رسول الله ﷺ ، أما عقيدة أهل السنة والجماعة في من اعتبره الشيعة قائماً ومهدياً منتظراً ، فإنهم يؤمنون بما جاء عن رسول الله ﷺ ويعدونه من أشراط الساعة وعلاماتها الكبرى ، وهذا عكس ما يعتقدونه في أسمه ووقت خروجه وهدايته للناس بشرع محمد ﷺ .

وقد احتج الرافضة بما رواه ابن الجوزي بإسناده إلى ابن عمر ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يخرج في آخر الزمان رجل من ولدي اسمه كاسمي وكنيته كنيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، فذلك هو المهدي)) .

قال شيخ الإسلام : ((إنكم لا تحتجون بأحاديث أهل السنة ، فمثل هذا الحديث لا يفيدكم ؛ فإن الحديث الذي ذكرتم ((اسمه كاسمي وكنيته كنيتي)) ولم يقل ((يواطيه اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي)) فلم يروه أحد من أهل العلم في كتب الحديث المعروفة بهذا اللفظ . مثل مسند أحمد وسنن أبي داود والترمذي . وغير ذلك من الكتب ، وإنما ذكر بلفظ مكذوب لم يروه أحد منهم .

وقوله : ابن الجوزي رواه بإسناده : إن أراد العالم المشهور صاحب المصنفات الكثيرة أبو الفرج فهو كذب عليه . وإن أراد سبطه صاحب التاريخ المسمى بمرآة الزمان .. فهذا الرجل يذكر في مصنفاته الغث والسمين ، ويحتج في

(١) الخميني والوجه الآخر في ضوء الكتاب والسنة د . زيد العيص ، ص ١٥١ .

أغراضه بأحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة وكان يصنف بحسب مقاصد الناس !..
وإن لفظ الحديث الصحيح حجة عليكم لا لكم - فإن لفظه ((يواطىء اسمه
اسمي واسم أبيه اسم أبي)) فالمهدي الذي أخبر به النبي ﷺ : اسمه محمد بن عبد الله
لا محمد بن الحسن ..

وأحاديث المهدي معروفة رواها الإمام أحمد وأبو داود والترمذي
وغيرهم^(١) .

وقال شارح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان رحمه الله : ((إن المهدي
عليه السلام يظهر أولاً في الحرمين الشريفين ثم يأتي بيت المقدس فيأتي الدجال
ويحضره في ذلك الحال فينزل عيسى عليه السلام من المنارة الشرقية في دمشق
الشام ويجيء إلى قتال الدجال فيقتله بضربة في الحال فإنه يذوب كالملح في الماء
عند نزول عيسى عليه السلام من السماء فيجتمع عيسى عليه السلام بالمهدي رضي
الله عنه ، وقد أقيمت الصلاة فيشير المهدي لعيسى بالتقدم فيمتنع معللاً بأن هذه
الصلاة أقيمت لك فأنت أولى بأن تكون الإمام في هذا المقام ويقتدي به ليظهر
متابعته لنبينا ﷺ))^(٢) .

وقد انقسم الناس في أمر المهدي إلى طرفين ووسط :

فالطرف الأول : من ينكر خروج المهدي مثل الكتاب العصريين الذين ليس لهم
خبرة بالنصوص وأقوال أهل العلم وإنما يعتمدون على مجرد آرائهم وعقولهم .
والطرف الثاني : من يغالي في أمر المهدي من الطوائف الضالة حتى ادعت كل
طائفة لزعيمهم أنه المهدي المنتظر ، فالرافضة تدعي أن المهدي هو إمامهم المنتظر
الذي ينتظرون خروجه من السرداب في سامراء محمد بن الحسن العسكري ..

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ، ص ٩٤ إلى ٩٨ .

(٢) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله ، شرح الملا علي القاري ت ١٠١٤ هـ ،
حققه علي محمد دندل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٦ هـ ، ص ١٩١ .

وأما الوسط في أمر المهدي :

فهم أهل السنة والجماعة الذين يثبتون خروج المهدي على ما تقضي به النصوص الصحيحة في اسمه واسم أبيه ونسبه وصفاته ووقت خروجه، لا يتجاوزون ما جاء في الحديث ، وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي ، وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عد من معتقداتهم .. فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة^(١) .

((واسم المهدي محمد بن عبد الله من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، يخرج في آخر الزمان وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملؤها عدلاً وقسطاً ، وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف ، وهو أن الحسن رضي الله عنه ترك الخلافة لله فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة بالحق المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض ، وهذه سنة الله في عباده ، أن من ترك لأجله شيئاً أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه))^(٢) .

قال الترمذي رحمه الله : ((باب ما جاء في المهدي .. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي .

قال أبو عيسى : وفي الباب عن علي وأبي سعيد وأم سلمة وأبي هريرة . وهذا حديث حسن صحيح .

وفي رواية عنه ، عن أبي هريرة قال : ((لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي)) . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وفي رواية عنه ، عن أبي سعيد الخدري قال ((إن في أمتي المهدي يخرج

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ، د . صالح الفوزان ، ص ٢٠١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٠ .

يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً - زيد الشاك - قال : قلنا وما ذاك ؟ قال سنين . قال فيجئ إليه رجل فيقول يا مهدي : اعطني أعطني ، قال : فيحني له في ثوبه ما استطاع أن يحمله)) (١) .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

وقال أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني رحمه الله : كتاب المهدي .. عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((المهدي من عترتي من ولد فاطمة)) وفي رواية عنه ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((المهدي مني أجلى الجبهة ، أقى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً سبع سنين)) .

وفي رواية عن أم سلمة قالت قال النبي ﷺ : .. ثم ينشأ رجل من قریش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم ، وذلك بعث كلب ، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب ، فيقسم المال ، يعمل في الناس بسنة نبينهم ﷺ ويلقي الإسلام بجرانه (٢) في الأرض ، فيلبث سبع سنين ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون)) (٣) .

وقال ابن ماجه القزويني : باب خروج المهدي .. عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة)) (٤) .

وروي عن أبي سعيد الخدري وثوبان وعبد الله بن مسعود وأم سلمة رضي الله عنهم . وروى الإمام أحمد في مسنده .. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((أبشركم بالمهدي يبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلازل فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يرضى عنه ساكن

(١) سنن الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في المهدي ج ٤ ، ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

؛ المستدرک على الصحيحين للحاكم وقال حديث صحيح ووافقه الذهبي ، ج ٤ ، ص ٤٨٩ .

(٢) ويلقي الإسلام بجرانه : قال الشيخ الخطابي شارح سنن أبي داود : الجران مقدم العنق وأصله في البعير إذا مد عنقه على وجه الأرض فيقال : ألقى البعير جرانه ، وإنما يفعل ذلك إذا طال مقامه في مناخه ، فضرِب الجران مثلاً للإسلام إذ استقر قراره فلم يكن فتنة ولا هرج وهو القتل ، وجرت أحكامه على العدل والاستقامة . سنن أبي داود ج ٤ ، ص ٤٧٦ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب المهدي ج ٤ ، ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

(٤) شرح سنن ابن ماجه القزويني للإمام أبي الحسن السندي ، دار الجيل ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .

السماء وساكن الأرض ، يقسم المال صحاحاً فقال له رجل : ما صحاحاً قال بالسوية بين الناس ، قال : ويملاً الله قلوب أمة محمد ﷺ غنى ويسعهم عدله ، حتى يأمر منادياً فينادي فيقول من له في مال حاجة ؟ فما يقوم من الناس إلا رجل ، فيقول أنت السدان ، يعني الخازن ، فقل له إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالا فيقول له احث حتى إذا جعله في حجره وأبرزه نم ، فيقول كنت أجشع أمة محمد نفساً أو عجز عني ما وسعهم ، قال فيرده فلا يقبل منه ، فيقال له إنا لا نأخذ شيئاً أعطيناك فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ثم لا خير في العيش بعده أو قال : ثم لا خير في الحياة بعده ((^(١)).

((وخلاصة القول في الإمام المهدي : أنه سيظهر في آخر الزمان ، وأن اسمه محمد بن عبد الله ، وأنه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة ، وأنه يشبه الرسول ﷺ ، وأنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً ، وأنه يقيم شريعة الإسلام ، ويحيي ما اندثر من سنة رسول الله ﷺ ، وأن الإسلام تعلق كلمته في عهده ، يلقي بجرانه إلى الأرض ، ويمكن له ، ويكثر الرخاء في أيامه من وفرة العدل ، وكثرة ما يعطي من المال ، فهو يحثوا المال حثواً ، لا بعده عدلاً ، وأنه يمكث سبع سنين ويأتي بعده الدجال ، ثم ينزل عيسى ، فيتعاون عيسى مع المهدي على قتله ، ثم يتوفى المهدي ويصلي عليه المسلمون ويصلي عليه روح الله عيسى ﷺ ويدفنه في بيت المقدس)) (^(٢)).

وهنا يتضح الفرق بين خروج قائمهم المستور ، المزعوم المعصوم والذي عطلّ بعدم خروجه كثير من أصول الدين عندهم حتى يخرج ، وهم في انتظاره صباح مساء ، يسألون ربهم أن يعجل بفرجه!! وهنا هزيء منهم كل ذي لب ، ولا غرابة فضلال القوم جلي لكل ناظر ، وحقدهم على أهل السنة بيّن واضح لكل ذي

(١) مسند الإمام أحمد ج ٣ ، ص ٣٧ ؛ وانظر تصحيح الحديث ص ٧٧٦ من البحث .

(٢) العقائد الإسلامية للسيد سابق ، ص ٢٥٠ .

معرفة بمنهج الرافضة وخابر لأحوالهم في يوم عاشوراء وليلتها وغيرها.
أما خروج المهدي الذي أخبرنا ظهوره المصطفى ﷺ بالأحاديث الصحيحة
الثابتة ، والذي هو علامة من علامات الساعة الكبرى ، ثم لا يمكث في الأرض إلا
زمنًا يسيرًا بالنسبة لزمن الرسالة ، ويملاها عدلاً .. فهذا المهدي قطعاً لا يكون هو
الذي تقصده الرافضة الخاسرة ، فمهديهم كما يزعمون حيّ يرزق منذ ألف وثلاثمائة
عام وتسرج له الخيل ليمتطيها فيقيم دينه ودولته ؟!! .

عصمة الأنبياء من الصغائر

إن الله سبحانه قد عصم أنبياءه فيما يبلغون عنه من التشريع ، واصطفاهم من بين خلقه لأمر أراده منذ خلقهم فكانوا خيرة البشر ، ومع هذا فقد تعرض لهم أمور ذكرها الله في كتابه ، فكان الناس فيها طرفان ووسط هم أهل السنة والجماعة الذين يستدلون بالقرآن ويعملون به وبأدلته من السنة .

فالذين قالوا إن الأنبياء معصومون من الصغائر مطلقاً وهم الشيعة وذلك ليتسنى لهم القول بعصمة الأئمة الذين يتلقون عنهم التشريع فقالوا ((إن جبرائيل كان يأتي بعد وفاة النبي ﷺ لفاطمة بأنباء من الغيب فيقوم أمير المؤمنين بتدوينها وهذا هو مصحف فاطمة))^(١) . ثم قالوا : ((إن الفقهاء أوصياء الرسول - ﷺ - من بعد الأئمة وفي حال غيابهم ، وقد كلفوا بالقيام بجميع ما كلف الأئمة القيام به))^(٢) بل إن العصمة عندهم قد نالها الفقيه المجتهد ، حيث يقول المظفر : ((وعقيدتنا في المجتهد أنه نائب الإمام عليه السلام في حال غيبته له ما للإمام ، والرد عليه راد على الإمام ، والراد على الإمام راد على الله تعالى ، وهو على حد الشرك بالله تعالى))^(٣) .

ويقابل هؤلاء من ادعى عدم عصمة الأنبياء ؛ وهم اليهود والنصارى وأصحاب الحركات الهدامة في العالم الإسلامي كالبهائية والقاديانية والإسماعيلية ، فهذا غلام أحمد المسيح الموعود ((بمعنى أنه جاء بقوة وروح المسيح عيسى عليه السلام ، وادعى أيضاً أنه هو النبي الذي تنبأت بظهوره في آخر الزمان أغلب الديانات العظيمة ، كما أنه جاء ليفسر القرآن وتعاليم الإسلام في ضوء الوحي الإلهي بما يطابق العصر الحاضر . ثم لحق بهم المنتورون العصريون الذين تناولوا القرآن الكريم والسيرة النبوية تناولاً أدى بهم إلى الكفر الصريح على أن منهم من

(١) كشف الأسرار ، للخميني ص ١٤٣ ، نقلاً عن الكافي للكليني انظر الخميني والوجه الآخر ، زيد العيص ، ص ٥٣ .

(٢) الحكومة الإسلامية للخميني ، ص ٧٥ انظر الخميني والوجه الآخر ، زيد العيص ، ص ٥٨ .

(٣) عقائد الإمامية ، رضا المظفر ، دار الغدير ، بيروت ، ص ٥٧ . انظر الخميني والوجه الآخر ، زيد العيص ، ص ٥٨ .

رجع عن آرائه وتبرأ منهم ومنها وعاد إلى حظيرة الإسلام والله أعلم بالسرائر..
فمنهم من قال : محمد يشرع لجميع الناس ويستثني نفسه . ومن قال : لقد حدّ النبي
من نظام تعدد الزوجات ، إلا أنه تعدى بالنسبة إلى نفسه ما وضعه من حدود
للآخرين)) (١) . وهذا طعن في عصمة المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .
وكذلك المعتزلة البصريين فإن ((مذهبهم تجويز تعدد الصغائر على الأنبياء)) (٢) .

قال ابن حزم : ((اختلف الناس في هل تعصى الأنبياء عليهم السلام أم لا
فذهبت طائفة إلى أن رسل الله ﷺ يعصون الله في جميع الكبائر والصغائر عمداً
حاشى الكذب في التبليغ فقط وهو قول الكرامية من المرجئة وقول ابن الطيب
الباقلاني من الأشعرية ومن اتبعه وهو قول اليهود والنصارى)) (٣) وقال ابن تيمية:
((ومن جَوّزَ منهم تكليف ما لا يطاق مطلقاً يلزمه جواز أن يأمره الله بتبليغ رسالة
لا يعلم ما هي ، وجوّزوا من جهة العقل ما ذكره القاضي أبو بكر أن يكون
الرسول ﷺ فاعلاً للكبائر)) (٤) . فهؤلاء كانوا على طرفي نقيض في عصمة
الأنبياء ، وهم كما قال ابن تيمية فيهم : ((واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة
على طرفي نقيض ، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه : قوم أفرطوا في
دعوى امتناع الذنوب ، حتى حرفوا النصوص في القرآن المخبرة بما وقع منهم من
التوبة من الذنوب ومغفرة الله لهم ، ورفع درجاتهم بذلك . وقوم أفرطوا في أن
ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه ، وأضافوا إليهم ذنباً وعيوباً نزههم الله
عنها ، وهؤلاء مخالفون للقرآن .

ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط ،
مهتدياً إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

(١) ذيل الملل والنحل للكيلاني ، ج ٢ ، ص ٦٢ ، ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ، لابن الوزير الصنعاني ، ص ١٨٠ .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٢ .

(٤) النبوات لابن تيمية ص ١٤٦ .

والشهداء والصالحين)) (١) .

والذين اتبعوا القرآن هم أهل السنة والجماعة وقد وقع بينهم الخلاف أيضاً ، غير أنهم متفقون في تنزيه الأنبياء فالذين قالوا بعدم العصمة من الصغائر قالوا إنهم لا يقرون عليها وأنهم تابوا وقبل الله توبتهم وأن ذلك كان خطأ ونسياناً .

قال ابن حزم : ((وذهبت طائفة إلى أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يجوز عليهم كبيرة من الكبائر أصلاً ، وجوزوا عليهم الصغائر بالعمد وهو قول ابن فورك الأشعري وذهبت جميع طوائف أهل الإسلام من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي أصلاً معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة وهو قول ابن مجاهد الأشعري .

قال أبو محمد : وهذا القول الذي ندين الله به ونقول إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد ويقع منهم قصد الشيء يريدون به وجه الله فيوافق خلاف مراد الله إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً ، بل ينههم على ذلك ولا بد أثر وقوعه منهم ويظهر عز وجل ذلك لعباده ويبينه لهم)) (٢) .

وقال القاضي عياض : ((وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من الصغائر التي تترى بفاعلها وتحط منزلته وتسقط مروأته ، واختلفوا في وقوع غيرها من الصغائر منهم فذهب معظم الفقهاء والمحدثين والمتكلمين من السلف والخلف إلى جواز وقوعها منهم وحجتهم ظواهر القرآن والأخبار .

وذهب جماعة من أهل التحقيق والنظر من الفقهاء والمتكلمين من أئمتنا إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر وأن منصب النبوة يجلب عن موافقتها وعن مخالفة الله تعالى عمداً ، وتكلموا على الآيات والأحاديث الواردة في ذلك وتأولوها وأن ما ذكر عنهم من ذلك إنما هو فيما كان منهم على تأويل أو سهو أو

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٥ ، ص ١٥٠ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج ٤ ، ص ٢ .

أذن من الله تعالى في أشياء أشفقوا من المؤاخذه بها وهذا هو المذهب الحق لما قدمناه ولأنه لو صح ذلك منهم لم يلزمنا الاقتداء بأفعالهم وإقرارهم وكثير من أقوالهم)) (١) .

وقال الشهرستاني : ((والأصح أنهم معصومون عن الصغائر عصمتهم عن الكبائر فإن الصغائر إذا توالى صارت بالإتفاق كبائر ، وما أسكر كثيرة فقليله حرام، لكن المجوز عليهم عقلاً وشرعاً مثل ترك الأولى من الأمرين المتقابلين جوازاً وجوازاً وحظراً وحظراً ولكن التشديد عليهم في ذلك القدر يوازي التشديد على غيرهم في كبائر الأمور ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وتحت كل زلة يجري عليه سر عظيم فلا تلتفت إلى ظواهر الأحوال وانظر إلى سرائر المآل)) (٢) .

قال شيخ الإسلام : ((والقول الذي عليه جمهور الناس ، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف ، إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقاً ، والرد على من يقول إنه يجوز إقرارهم عليها ، وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول ..

وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء ، فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسى بهم مشروع ، وذلك لا يجوز مع تجويز كون الأفعال ذنوباً ، ومعلوم أن التأسى بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه ..

وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال ، أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح ، أو أنها توجب التنفير ، أو نحو ذلك من الحجج العقلية ؛ فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع ، وإلا فالتوبة النصوح التي قبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف : كان داود عليه

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) نهاية الإقدام للشهرستاني ، ص ٤٤٥ .

السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة. وقال آخر : لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلي بالذنوب أكرم الخلق عليه وقد ثبت في الصحاح حديث التوبة ((الله افرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً...)) (١)

ثم إن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا لا يؤخرون التوبة ؛ بل يسارعون إليها ، ويسابقون إليها ؛ لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك ، ومن آخر ذلك زمناً قليلاً كفر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النون ؑ هذا على المشهور إن إلقاءه كان بعد النبوة .. والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب ، فالأفضل أحق بالنبوة ..

وخلاصة القول إن الذين ادعوا العصمة للأنبياء وغلو في ذلك ، لم يستفيدوا من قولهم هذا ؛ ذلك أنهم لم يطيعوا الله ورسوله بحق وهو المقصود من الرسالة والرسول ..

إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع ، وهي العصمة في التبليغ لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يقرون بموجب ما بلغته الأنبياء ، وإنما يقرون بلفظ حرفوا معناه أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، والعصمة التي كانوا ادعوا لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم ، فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به ، فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان ، ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم ، وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة ، والله تعالى لم يذكر في القرآن شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار ، كقول آدم وزوجته : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) وكذا الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وداود)) (٣) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة ، ج ٧١٧ ، ص ٦٠ .
؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب التوبة ج ١١ ، ص ١٠٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٣ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٠ ، ص ٢٩٣ ، ٣٠٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

ويمكن تلخيص هذا المبحث فيما يلي :

عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منها ما هو مجمع عليه بداية ونهاية ، ومنها ما هو مختلف فيه بداية لا نهاية وبيان ذلك :

أولاً : أجمعوا على عصمتهم فيما يخبرون عن الله تعالى وفي تبليغ رسالاته؛ لأن هذه العصمة هي التي يحصل بها مقصود الرسالة والنبوة .

ثانياً : واختلفوا في عصمتهم من المعاصي ، فقال بعضهم بعصمتهم منها مطلقاً كبائرها وصغائرها ، لأن منصب النبوة يجل عن مواقعتها ومخالفة الله تعالى عمداً ، ولأننا أمرنا بالتأسي بهم وذلك لا يجوز مع وقوع المعصية في أفعالهم ؛ لأن الأمر بالاعتداء بهم يلزم منه أن تكون أفعالهم كلها طاعة، وتأولوا الآيات والأحاديث الواردة بإثبات شيء من ذلك . وبعضهم جَوَّز وقوع المعصية كبيرها وصغيرها .

ثالثاً : وقال الجمهور : بجواز وقوع الصغائر منهم ، بدليل ما ورد في القرآن والأخبار ، لكنهم لا يصرون عليها فيتوبون منها ويرجعون عنها ، كما مر تفصيله فيكونون معصومين من الإصرار عليها ، ويكون الإقتداء بهم في التوبة منها (١) .

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد د . صالح الفوزان ، ص ١٦٩ .

دلائل النبوة

بعث الله النبيين والمرسلين لدعوة الناس إلى طاعة الله ابتغاء مرضاته وعفوه، فتصلح أحوالهم في دنياهم وآخرتهم ، فهذا نوح عليه السلام يعرض دعوة ربه على قومه مبلغاً إياهم بأنه رسول مولاهم وخالقهم ﴿ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ١﴾ (١) وهكذا دأب رسل الله وأنبيائه، ثم ختم الله رسالاته برسالة محمد ﷺ ثم أمره بالبراءة مما ألفه الناس وأحبوه من الغنى والملك وعلم الغيب إلا ما أخبره الله به وأطلعه عليه بوحى منه فقال تعالى : ((﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ٢﴾ (٢).

ودلائل النبوة هي الأدلة التي تعرف بها نبوة النبي الصادق ، ويعرف بها كذب المدعي للنبوة من المتنبئين الكذبة ؛ لأن هذا موضوع مهم خطير .

والدلالة ((هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، والشيء الأول هو الدال ، والثاني هو المدلول)) (٣) .

((وعلى هذا فآيات الأنبياء هي أدلة صدقهم وبراهين دعوتهم النبوة ، وهي ما يستلزم صدقهم ، ويمتنع وجوده بدون صدقهم ، فلا يمكن أن يكون ما يدل على النبوة موجوداً بدون النبوة ، ثم كونه مستلزماً للنبوة ، ودليلاً عليها يعلم بالضرورة ، أو بما ينتهي إلى الضرورة .. فمجرد العلم بهذه الآيات يوجب علماً يعلم بالضرورة ، بأن الله جعلها آية لصدق هذا الذي استدل بها ، وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة ، وأنه لا يمكن معارضتها ، فهذا من جملة صفاتها لا أن هذا وحده كاف فيها ..

والله سبحانه دل عباده بالدلالات العيانة المشهودة ، والدلالات المسموعة وهي كلامه ، لكن عامتهم تعذر عليهم أن يسمعوا كلامه منه ، فأرسل إليهم بكلامه

(١) سورة نوح آية ٢، ٣ .

(٢) سورة الأنعام ٥٠ .

(٣) التعريفات للرجاني ، ص ٦١ ، ٦٢ .

رسلاً وأنزل إليهم كتباً ، ثم إنه سبحانه جعل مع الرسل آيات هي علامات وبراهين ، هي أفعال يفعلها مع الرسل يخصصهم بها لا يوجد لغيرهم ، فيعلم العباد اختصاصهم بها وأن ذلك إعلام منه للعباد وإخبار لهم أن هؤلاء رسلي .. ولهذا قد يعلم برسالة رسول بإخبار رسول أخبر عنه ، وقد يخبر عن إرساله بكلامه لمن سمع كلامه منه ، كما أخبر موسى وغيره بالوحي الذي يوحيه إليهم ، فأيات الأنبياء هي علامات وبراهين من الله يتضمن إعلام الله لعباده وإخباره ، .. فإن الإعلام والإخبار بأن هذا رسول وتصديقه في قوله : إن الله أرسلني ، لا يتصور أن يوجد لغير رسول ، والآيات التي جعلها الله علامات هي أعلام بالفعل الذي قد يكون أقوى من القول ، فلا يتصور أن تكون آيات الرسل إلا دالة على صدقهم ، ومدلولها أنهم صادقون لا يجوز أن توجد بدون صدق الرسل البتة)) (١) .

((فإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يقيم الله الدلائل والحجج والبراهين المبينة صدق الرسل في دعواهم أنهم رسل الله ، كي تقوم الحجة على الناس ، ولا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (٢) أي بالدلائل والآيات البينات التي تدل على صدقهم)) (٣) .

((والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة ، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسمونها النظائر معجزات . غير أنها تسمى دلائل النبوة ، وأعلام النبوة ، وبراهين ونحو ذلك .

وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء ، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة ، وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان كما قال تعالى في قصة موسى ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٤) في العصا واليد ، وقال الله تعالى في حق محمد ﷺ : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ

(١) النبوات لابن تيمية ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) سورة الحديد ٢٥ .

(٣) الرسل والرسالات د عمر الأشقر ، ص ١١٩ .

(٤) سورة القصص ٣٢ .

جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١﴾ أما لفظ المعجزة فإنما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢) .

وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إذا فسر المراد به ، وذكر شرائطه ، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط ، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة .

والسلف - كأحمد وغيره - كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء : إنها معجزات ، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك . بخلاف ما كان آية وبرهان على نبوة النبي ، فإن هذا يجب اختصاصه وقد يسمون الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولي ، فإن الدليل مستلزم للمدلول ، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول فكذلك ما كان آية وبرهاناً وهو الدليل والعلم على نبوة النبي يمتنع أن يكون لغير النبي (((٣) . ولا تلتبس معجزات الرسل وآيات الأنبياء بما يحدث على يد غيرهم من خوارق العادات ، فإن المعجزات تأتي مصحوبة بالتحدي ، وتصدر عن رجال عرفوا بالتقوى والصلاح ، وأنهم بلغوا منهما الذروة التي لا يتناول إليها أي إنسان .

وتأتي المعجزات بدون كسب لأحد من البشر ، فالله هو الذي يمدهم بها مباشرة لأنها كما قلنا ليست في مقدورهم ولا مقدور غيرهم من الناس ، وإنما هي آية من الله وحده ، ومعجزة لنبيه يتحدى بها معارضيه .

وأما ما يظهر على يد غير الرسل من خوارق العادات فهو منقول عن جميع الأمم في جميع العصور ، نقلاً متواتراً في جنسه دون أنواعه وليست كلها حقيقة . فإن منها ما له أسباب مجهولة للجمهور ، ومنها ما يستفاد بالتعليم ، وخصائص قوى النفس ، والمكاشفة ، والتنويم المغناطيسي ، وانخداع البصر ، وما فعله سحرة

(١) سورة النساء آية ١٧٤ .

(٢) سورة العنكبوت ٢٣ .

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٤ ، ٦٩ ، ٧٠ .

- ٤١٨ -

توجد مع انتفاء صدق من أخبر أن الله أرسله)) (١).

والمعجزة : واحدة معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتكون أيضاً من العجز . ويقال : عجز يعجز عن الأمر إذا قصر عنه . ويقال : أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه ، وقوله تعالى في سورة سبأ ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ﴾ (٢) قال الزجاج : معناه ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون وأنه لا جنة ولا نار ، وقرئت معجزين ، وتأويلها أنهم يعجزون من اتبع النبي ﷺ ، ويشبّطونهم عنه وعن الإيمان بالآيات وقد أعجزهم)) (٣) .

وقال الجرجاني هي أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة مقرونة بدعوى النبوة قصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله)) (٤) .

ويقول شيخ الإسلام : ((فإن قيل فما آيات الأنبياء ؟ قيل : هي آيات الأنبياء التي تعلم أنها مختصة بالأنبياء ، وأنها مستلزمة لصدقهم ، ولا تكون إلا مع صدقهم ، وهي لا بد أن تكون خارقة للعادة ، خارجة عن قدرة الإنس والجن ، ولا يمكن أحداً أن يعارضها ، لكن كونها خارقة للعادة ولا تمكن معارضتها هو من لوازمها ليس هو حداً مطابقاً لها ، والعلم بأنها مستلزمة لصدقهم قد يكون ضرورياً كانشقاق القمر ، وجعل العصا حية ، وخروج الناقة .

فآيات الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا تحد بحدود يدخل فيها غير آياتهم كحد بعضهم ، كالمعتزلة وغيرهم بأنها خارق للعادة ، وظن أن خوارق السحرة والكهان والصالحين ، خرق للعادة ، فكذبها ، وحد بعضهم بأنها الخارق للعادة ، إذا لم يعارضه أحد ، وجعل هذا فصلاً احترز به عن تلك الأمور ، فقال : المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل مع عدم المعارضة ، وجوز أن يأتي غير الأنبياء

(١) النبوات لابن تيمية ، ص ٢٨٧ .

(٢) سورة سبأ ٣٨ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ، ج ٥ ، ص ٣٦٩ .

(٤) التعريفات للجرجاني ، ص ١٢١ .

بمثل ما أتوا به سواء مع المعارضة ، وحقيقة المعجز هذا ما لم يعارض ، ولا حاجة إلى كونه خارقاً للعادة، بل الأمور المعتادة إذا لم تعارض كانت آية ، وهذا باطل قطعاً ، ثم مسيلمة والأسود العنسي وغيرهما ، لم يعارضوا .. فجميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة ، فوجود ذلك يدل على أن صاحبه ليس بنبي ، ويمتنع أن يكون شيء من ذلك دليلاً على النبوة .. كذلك ما يأتي به أهل الطلاسم وعبادة الكواكب ومخاطبتها ، كل ذلك مناقض للنبوة ، فإن النبي لا يكون إلا مؤمناً ، وهؤلاء كفار .

والمقصود هنا أن ما يأتي به السحرة والكهان ونحوهم ، هو مما يصنعه الإنس والجن ، ولا يخرج ذلك عنهم ، والإنس والجن قد أرسلت إليهم الرسل ، فأيات الأنبياء خارجة عن قدرة الإنس والجن ، لا يقدر عليها لا الإنس ولا الجن والله الحمد والمنة)) (١) .

وهنا يبين شيخ الإسلام آراء أهل السنة والأشاعرة والمعتزلة في الاستدلال بالمعجزة على النبوة :

حيث قال : أما أهل السنة : ((فهم يعلمون أن المعجزة مختصة بالأنبياء حقيقة لأنها خارجة عن قدرة الجن والإنس ، وكونها خارقة للعادة هو من لوازمها وليس حداً مطابقاً لها، ثم العلم بصدقها قد يكون ضرورياً كانشقاق القمر، وخروج الناقة، وكذلك ما يأتي به السحرة والكهان وأهل الطلاسم لا يعتد به فلا يدل شيء منه على أن صاحبه نبي ؛ ذلك أن النبي لا يكون إلا مؤمناً وهؤلاء كفار .

فأما المعتزلة فقد ألزمهم مذهبهم بالتكذيب لما يأتي به السحرة والكهان وأهل الكرامات من الأولياء ؛ ذلك أنهم ادعوا أن الأمر الخارق لا يكون إلا للأنبياء (٢) .

أما الأشاعرة : فإنهم احترزوا بعدم المعارضة ، وقد ردَّ عليهم بأن مسيلمة

(١) النبوات لابن تيمية ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٠ ، ١٥٧ .

الكذاب والأسود العنسي لم يعارضهما أحد ، وكذا الرسول ﷺ لم يتحد بغير القرآن .
ثم إنهم جوزوا أن يأتي الساحر والكاهن بمثل ما يأتي به الأنبياء من المعجزات
((وهذا القول هو حقيقة قول القاضي وأمثاله من المتكلمين الأشعرية ومن وافقهم ..
الذين قالوا : لو ادعى الساحر والكاهن النبوة ، لكان الله ينسب الكهانة والسحر ،
ولكان له من يعارضه لأن السحر والكهانة هي معجزة عندهم . وفي هذه الأقوال
من الفساد عقلاً وشرعاً ومن المناقضة لدين الإسلام وللحق ما يطول وصفه ، ولا
ريب أن قول من أنكر وجود هذه الخوارق أقل فساداً من هذا ، ولهذا يشنع عليهم
ابن حزم وغيره بالشناعات العظيمة . ولهذا يقيم أكبر فضائلهم مدة يطلبون الفرق
بين المعجزات والسحر ، فلا يجدون فرقاً إذ لا فرق عندهم في نفس الأمر ،
والتحقيق أن آيات الأنبياء مستلزمة للنبوة ولصدق الخبر بالنبوة)) (١) . ولأنهم
جوزوا على الله إرسال الرسل ، فقال القاضي : ((ويجب أن يُعلم أنه يجوز لله تعالى
إرسال الرسل وبعث الأنبياء خلافاً لما تدعيه البراهمة (٢)) (٣) . وقد سبقهم في هذا
المعتزلة الذين يوجبون على الله فعل الأصلح ، وكلا الأمرين مخالف لما نهج عليه
أهل السنة والجماعة ؛ ذلك إنهم يعتقدون حكمة الله في جميع أفعاله وأقواله وقد
أرسل الرسل لحكمة يعلمها هو سبحانه وهي عبادة الله وحده ((وهو سبحانه غني
عن العالمين فالحكمة تتضمن شيئين : أحدهما : حكمة تعود إليه يحبها ويرضاها .
والثاني : إلى عباده وهي نعمة عليهم يفرحون بها ويلتذنون بها وهذا في المأمورات
وفي المخلوقات)) (٤) .

((والرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال يفعل ما يشاء ويتكلم إذا شاء قال

(١) النبوات لابن تيمية ، ص ٢٩١ ، ٢٩٥ .

(٢) هم الذين يقولون ويزعمون أن العقل يغني عن الوحي . معجم الفاظ العقيدة ، عامر فالح ، مكتبة العبيكان ، ص ٦٩ .

(٣) الإنصاف للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب تحقيق محمد زاهد الكوثري ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ص ٥٣ .

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٨ ، ص ٦٥ ، ٣٦ .

تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) فإنه سبحانه لم يزل حياً ، والفعل من لوازم الحياة ، فلم يزل فاعل لما يريد . كما وصف بذلك نفسه حيث يقول ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (٢) والآية تدل على أمور :
أحدهما : أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته .

الثاني : أنه لم يزل كذلك ، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه ، وأن ذلك من كماله سبحانه ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات (((٣) .

ثم يقول القاضي الباقلاني : ((ويجب أن يعلم أن صدق مدعي النبوة لم يثبت بمجرد دعواه وإنما يثبت بالمعجزات وهي أفعال الله الخارقة للعادة المطابقة لدعوى الأنبياء ، وتحديدهم للأمم للإتيان بمثلها . يبين ذلك أن موسى عليه السلام جاء في زمان سحرة وسحر فتحداهم بقلب العصا حية.. وكذلك عيسى عليه السلام جاء في زمان قوم طب ومداواة فأحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص .. وكذلك نبينا ﷺ جاء في وقت فصاحة وشعر وخطب ونظم ونثر فأتاهم بما هو خارج عن عاداتهم في النظم والنثر وتحداهم بالإتيان بمثله ..)) (٤)

فهم ينفون ثبوت النبوة بغير المعجزة ، وقد علم أن قولهم هذا خلاف تأصيلهم . أما قولهم إنه لا يعلم صدق مدعي النبوة بمجرد دعواه وإنما يثبت بالمعجزات ((فهذا الكلام الذي قالوه من أن العلم بالرسول يتضمن العلم بالمرسل كلام صحيح . فإن العلم بالإضافة يستلزم العلم بالمضاف إليه ، لكن المعارض يقول له : المعجزة لا تدل على الرسالة إلا بعد العلم بإثبات الصانع ، ثم يعلم بعد ذلك صدق الرسول ، إما لكون المعجز يجري مجرى التصديق ، والعلم بذلك ضروري

(١) سورة آل عمران ٤٠ .

(٢) سورة البروج آية ١٥ ، ١٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٤) الإنصاف للباقلاني ، ص ٥٤ .

في العادة . وأما لكون المعجز لو لم يدل على الصدق للزم عجز الرب عن طريق يُصدق به الرسول ، وإما لكون تصديق الكذاب قبيحاً ، وهو منزّه عن فعل القبيح ، ونحو ذلك من الطرق التي سلكها من سلكها من أهل النظر القائلين بأن صدق الرسول لا يعرف إلا بالمعجزة . والطريقان الأولان هما طريقا الأشعري وأصحابه ومن وافقهم . والثاني: هو طريق المعتزلة ومن وافقهم .

وأما القائلون بأن صدق الرسول يعرف بطرق أخرى غير المعجزة ، فلا يحتاجون إلى هذا .. والمقصود هنا أن قول القائل : إن مثبتي النبوات تحصل لهم معرفة بالله بثبوت النبوة من غير نظر ولا استدلال في دلائل العقول ، وأنا لا نمنع صحة النظر ، ولا نمنع حصول المعرفة به ، وإنما خلافتنا : هل يحصل بغيره ؟ والجواب : نعم^(١) . ويُردّ على أولئك وغيرهم بما يلي :

أ : إن الذين أوجبوا على الله تأييد رسله بالمعجزات وعدّوا سلامتها عن المعارضة أهم من سلامة الشرع عن التخليط والنقص كما قال البغدادي: ((وقال أصحابنا إن سلامة معجزته عن المعارضة دليل على صحته وأما سلامة شرعه عن التخليط والنقص فيه فلا يدل على صحته))^(٢) .

فقولهم ((لا بد له من المعجزة ، هذا متضمن أنهم يوجبون على الله تعالى إظهار تلك المعجزة . فقليل لهم : لم أوجبتم على الله هذا في هذا الموضع دون غيره وأنتم لا توجبون على الله شيئاً ؟ فقالوا لأن المعجزة علم الصدق فيمتنع أن يكون لغير صادق: فالمجموع هو الممتنع وهو خارق العادة ودعوى النبوة ، أو هذان مع السلامة عن المعارض .. وهذا ممتنع فإنكم تقولون يجوز أن يخلق على يد مدعي النبوة والساحر والصالح لكن إن ادعى النبوة دلت على صدقه وإن لم يدع النبوة لم يدل على شيء مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعي النبوة ، وغير مدعي النبوة ، بل

(١) درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ، ج ٩ ، ص ٤٠ .

(٢) أصول الدين للبغدادي ، ص ١٧٦ .

كلاهما جائز فيه ، فإذا كان هذا مثل هذا فلم كان أحدهما دليلاً دون الآخر^(١) .

ب : إن المعجزات لهي دليل واحد من الأدلة الدالة على النبوة : ((ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات ، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ، ولا يلتبس هذا بهذا على أجهل الجاهلين بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما ، وتعرف بهما والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة ، فكيف بدعوى النبوة ، وما أحسن ما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه : حيث قال :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تتبئك بالخبر^(٢) .

جـ : قد تبين أن النبوة تعلم بالمعجزات وبغيرها على أصح الأقوال ؛ وأما نبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام فإنها تعرف بطرق كثيرة . منها : ((المعجزات ومعجزاته منها القرآن ، ومنها غير القرآن ، والقرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه .. وقد علم أيضاً بالتواتر أنه دعا قريشاً خاصة والعرب عامة ، وأن جمهورهم في أول الأمر كذبوه وآذوه وآذوا أصحابه وقالوا فيه أنواع القول مثل قولهم هو ساحر وشاعر وكاهن ومعلم ومجنون ، وأمثال ذلك وعلم أنهم كانوا يعارضونه ولم يأتوا بسورة من مثله وذلك يدل على عجزهم عن معارضته لأن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة ، ومعلوم أن إرادتهم كانت من أشد الإرادات على تكذيبه وإبطال حجته ، وأنهم كانوا أحرص الناس على ذلك .. وأما الطرق فكثيرة جداً متنوعة من وجوه وليس كما يظنه بعض الناس))^(٣) .

د : ((وأخبار أهل التواتر بما جاءت به الأنبياء من الآيات ، هو من أدلة ثبوتها ،

(١) النبوات لابن تيمية ص ٦ ، ٧ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ج ٤ ، ص ٣١٦ .

(٣) العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ، قدم له المفتي السابق حسنين مخلوف ، دار الكتب الإسلامية - القاهرة ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

فكل من آمن بالرسول عن بصيرة ، فلا بد أن يكون في قلبه علم بأنه نبي حق ، أما علم ضروري ، أو علم نظري بدليل من الأدلة ، والعلوم النظرية مع أدلتها تبقى ضرورية)) (١) .

هـ : إن الذين آمنوا بمحمد ﷺ في بداية بعثته لم يشهدوا معجزة ، بل إنهم لم يسألوا عنها ولم يطلبوها ((فإن النبي ﷺ ، بل وغيره من الأنبياء كان في نفس أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم وأخلاقهم وسيرهم أمور كثيرة تدل على نبوتهم)) (٢) ولهذا قال شيخ الإسلام : ((وإيمان خديجة وأبي بكر وغيرهما من السابقين الأولين كان قبل انشقاق القمر ، وقبل إخباره بالغيوب ، وقبل تحديه بالقرآن ، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه ، ونفس كلامه ، وإخباره بأني رسول الله ، مع ما يعرف من أحواله مستلزم لصدقه ، إلى غير ذلك من آيات الصدق وبراهينه . بل خديجة قالت له - بعد أن أخبرها بالوحي وقال لها : ((لقد خشيت على نفسي - : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق)) (٣) . فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره ، وتلاعب الشيطان به ، وأبو بكر كان من أعقل الناس وأخيرهم ، وكان معظماً في قريش ، لعلمه ، وإحسانه وعقله ، فلما تبين له حاله علم علماً ضرورياً أنه نبي صادق ، وكان أكمل أهل الأرض يقيناً وعلماً وحالاً)) (٤) .

و : إن هناك من علماء المتكلمين من أثبت طرقاً أخرى للدلالة على النبوة غير المعجزة، فقال : ((المقصد الرابع في إثبات نبوة محمد ﷺ وفيه مسالك :

(١) النبوات لابن تيمية ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٨٨ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ج ١ ، ص ٢٢ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٣١٦ .

المسلك الأول وهو العمدة أنه ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده ، والاستدلال بأحواله قبل النبوة وحال الدعوة وبعد تمامها ، وأخلاقه العظيمة ، وأحكامه الحكيمة ، وإقدامه حيث يحجم الأبطال ، وأخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته ، وأنه عليه الصلاة والسلام ادعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم ، أني بعثت بالكتاب والحكمة لأتمم مكارم الأخلاق)) (١) وهذا حال المتأخرين من علماء الأشاعرة الذين عاد بعضهم عن أقواله وأقوال متقدميهم وقناعتهم بهذا القول الموافق للحق .

ز : إنه من الثابت عند الأمة أن الرسول ﷺ لم يدع الناس إلا إلى الإيمان بالله مستعيناً بكتاب الله العزيز ((وأنت تتبين من حال الشارع ﷺ أنه لم يدع أحداً من الناس ، ولا أمة من الأمم إلى الإيمان برسالته ، وبما جاء به بأن قدم بين يدي دعواه خارقاً من خوارق الأفعال مثل قلب عين من الأعيان إلى عين أخرى ، وما ظهر على يديه ﷺ من الكرامات والخوارق فإنما ظهرت في أثناء أحواله، من غير أن يتحدى بها، وقد يدلك على هذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ خَيْلٍ وَعَنْبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٢) . وإنما الذي دعا به الناس وتحداهم به هو الكتاب العزيز ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٣) (((٤) .

(١) المواقف لعضد الدين الإيجي ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٢) سورة الإسراء آية ٩٠ - ٩٣ .

(٣) الإسراء آية ٨٨ .

(٤) منهاج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد تحقيق وتقديم محمد قاسم ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

ح : ودلائل النبوة ليست محصورة في المعجزة كما يقوله المتكلمون ، بل هي كثيرة متنوعة . منها : ((إخبارهم الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أعدائهم وبقاء العاقبة لهم ، فوقع كما أخبروا ولم يتخلف منه شيء ، كما حصل لنوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى ونبينا محمد ﷺ وعليهم جميعاً تسليماً كثيراً .

وقد جاءوا بالشرائع والأخبار في غاية الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدى الخلق مما يعلم بالضرورة أن مثله لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأبرهم . وأن الله يؤيدهم تأييداً مستمراً ، وقد علم من سنته سبحانه أنه لا يؤيد الكذاب . وأن طريقتهم واحدة فيما يأمرون به من عبادة الله والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والإيمان بجميع الكتب والرسل فلا يمكن خروج واحد منهم عما اتفقوا عليه ، فهم يصدق متقدمهم بمتأخرهم ، كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد ﷺ وعليهم أجمعين ، وكما صدق ﷺ جميع النبيين قبله)) (١).

ط : تيسير الله لعباده علم ما احتاجوا إليه ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية متعجباً ؛ ذلك إنه ((كلما كان الناس إلى الشيء أحوج كان الرب به أجود ، وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج كان به أجود ، فإنه سبحانه الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، وهو الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؛ فكيف لا يقدر أن يهدي عباده إلى أن يعلموا أن هذا رسوله ، وإن ما جاء به من الآيات آية من الله ، وهي شهادة من الله بصدقه ، وكيف تقتضي حكمته أن يسوي بين الصادق والكاذب فيؤيد الكاذب من آيات الصدق بمثل ما يؤيد به الصادق حتى لا يعرف هذا من هذا ، وأن يرسل رسولاً يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته ولا

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ، د . صالح الفوزان ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

يجعل لهم طريقاً إلى معرفة صدقه ، وهذا كتكليفهم بما لا يقدرُونَ عليه وما لا يقدرُونَ على أن يعلموه ؛ وهذا ممتنع في صفة الرب وهو منزّه عنه سبحانه ، فإنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ؛ وقد علم في سنته وعادته أنه لا يؤيد الكذاب بمثل ما يؤيد به الصادق قط ، بل لابد أن يفضحه ولا ينصره ، بل لابد أن يهلكه^(١) .

ي : إن بشارات الأنبياء وتوافق الدعوة بين جميع الأنبياء وسلامتها مع الآيات والبراهين التي صاحبت دعوتهم جميعاً لهو دليل ساطع على صحة نبوتهم جميعاً وإن التشكيك في أحدها يصبح تشكيكاً في كافة رسل الدعوة إلى الله وأنبيائها .

قال ابن القيم : ((إنه لا يمكن الإيمان بنبي من الأنبياء أصلاً مع جحود نبوة محمد ﷺ وأنه من جحد نبوته فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحداً وهذا يتبين بوجوه : أحدها : إن الأنبياء المتقدمين بشروا بنبوته وأمروا أممهم بالإيمان به ، فمن جحد نبوته فقد كذب الأنبياء قبله فيما أخبروا به وخالفهم فيما أمروا وأوصوا به من الإيمان به ، والتصديق به لازم من لوازم التصديق بهم .

الوجه الثاني : إن دعوة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة جميع المرسلين قبله من أولهم إلى آخرهم ، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم .

الوجه الثالث : إن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه أضعاف آيات من قبله من الرسل ، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلا ولمحمد ﷺ مثلها .. فإن جاز القدح في ذلك كله ، فالقدح في وجود عيسى وموسى وآيات نبوتهما أجوز وأجوز ، وإن امتنع القدح فيهما وفي

(١) النبوات لابن تيمية ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

آيات نبوتهما فامتتاعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشد . فالرسول ﷺ إنما جاء
بتعريف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله والتعريف بحقوقه على عباده
فمن أنكر رسالته فقد أنكر الرب الذي دعا إليه وحقوقه التي أمر بها ، بل
نقول لا يمكن الاعتراف بالحقائق على ما هي عليه مع تكذيب رسوله ، وهذا
ظاهر جداً لمن تأمل مقالات أهل الأرض وأديانهم ((^(١)).

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، لابن القيم ، ص ٣٤٨ ، ٣٥٤ .

مشاهد من آيات ومعجزات الرسل :

أيد الله أنبياءه بمعجزات حسية مشاهدة ، وذلك بطلب من أقوامهم أو بدعاء أنبيائهم على أتباعهم فكانت ((آيات الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم وليست مما تكون لغيرهم فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء ، وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم وآياتهم التي فرق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء ، وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا نوحاً ، ومن ركب معه في السفينة ، فهذا لم يكن قط في العالم نظيره .

وكذلك إهلاك قوم عاد وإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد مع كثرتهم وقوتهم وعظم عمارتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ثم أهلكوا بريح صرصر عاتية مسخرة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً حتى صاروا كلهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ونجا هود ومن اتبعه ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم .

وكذلك قوم لوط أصحاب مدائن متعددة رفعت إلى السماء ، ثم قلبت بهم وأُتبعوا بحجارة من السماء تتبع شاذهم ونجا لوط وأهله ، إلا امرأته أصابها ما أصابهم ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم وكذلك قوم صالح أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين أهلكوا بصيحة واحدة ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم . .

وكذلك قوم فرعون وموسى ، جمعان عظيمان ينفرك لهما البحر كل فرق كالطود العظيم ، فیسلك هؤلاء ويخرجون سالمين ، فإذا سلك الآخرون انطبق عليهم البحر ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم .

وكذلك الكعبة فإنها بيت من حجارة بواد غير ذي زرع ، ليس عندها أحد يحفظها من عدو ، ولا عندها بساتين وأمور يرغب فيها الناس ، ومع هذا حفظها بالهيبة والعظمة ، وهي على هذا الحال من آلاف السنين ، وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية غيرها .. فأيات الأنبياء هي أدلة وبراهين على صدقهم ، والدليل يجب أن يكون مختصاً بالمدلول عليه لا يوجد مع عدمه ، لا يتحقق الدليل إلا مع تحقق

المدلول ((١) .

وقد ذكر الله سبحانه معجزات بعض أنبيائه في كتابه القرآن المنزل على محمد ﷺ فهذا نبي الله صالح وقد أرسله إلى ثمود الذين اعترضوا رسالته فقالوا : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) . وقد حكى الله مقاتلتهم وحببتهم فقال ابن كثير : ((ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملأهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء وأشاروا على صخرة عندهم ، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوه ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها إلى ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها فأمن بعضهم وكفر أكثرهم)) (٣) .

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقد أمر الله النار المحرقة أن تكون برداً وسلاماً عندما أشعل قومه النار ورموه فيها ، فقال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٤) .

أما موسى عليه الصلاة والسلام فقد جعل الله بين يديه معجزات بينات ذلك؛ أنه أرسل إلى بني إسرائيل المكذبين بالنبوات وقاتلي الأنبياء والصالحين ؛ فكان ما أرسل إليهم من الأنبياء يفوق ما أرسل إلى غيرهم من الأمم ، ثم أمدهم بالمعجزة لعل بني إسرائيل يرجعون عن غيهم وكفرهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ سَعَةَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ (٥)

((وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عن أرسله

(١) النبوات لابن تيمية ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٥٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٣٩٦ ؛ وانظر تعريف ((عشراء)) ص ٥١٠ من البحث هـ ٤ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٦٨ ، ٦٩ .

(٥) سورة الإسراء ١٠١ .

إلى فرعون وهي العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً وما نجعت فيهم ، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا وقالوا لن نؤمن حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله .. فهذه التسع آيات التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هاهنا وهي المعنية.. وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة منها ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ومنها تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ولكن ذكر هاهنا التسع آيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً ((^(١)).

وقد أجرى الله علي يد نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام من المعجزات ما يفوق القدر لإيمان أهل الأرض جميعاً إن كانوا يعقلون ، فأخبر الله عنه أنه كان يصنع من الطين ما يشبه الطير ثم ينفخ فيها فتصبح طيوراً بإذن الله ، ويمسح الأكمه وهو الذي يولد أعمى ((قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء ، وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمة والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التتاد ، وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل فلو اجتمعت الإنس والجن

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٦٠ .

على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً)) (١).

آيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وأعظمها القرآن العظيم :

ما بعث الله نبياً ولا رسولاً إلا وقد أيده الله بالآيات والمعجزات المخالفة للسنن المعروفة والخارجة عن مقدور الناس ، وحيث إنه بشر مثلهم ثم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل ما جاء به ، فهذا هو المقصود من تلك المعجزات وقد كانت حسيّة مشاهدة ثم تنتهي بانتهاء وقت وقوعها وزمن صاحب الرسالة أو النبوة .

أما خاتم الأنبياء والمرسلين فقد كانت معجزته العظمى وآيته الكبرى باقية بحفظ الله ، ولأن البشر أشد حاجة لما تضمنته معجزة محمد ﷺ ، إنه القرآن الكريم ، معجزة علمية وحجة عقلية ، وهو العلم الذي اقترن بدعوته ولم يزل يتزايد أيام حياته ، ودام في أمته بعد وفاته وهو القرآن العظيم ، المعجز المبين ، وحبل الله المتين ، الذي هو كما وصفه من أنزله فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٣) .

فهذا الإمام البيهقي في دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، الذي أثنى عليه الحافظ بن كثير رحمهما الله تعالى - فقال : دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي من عيون ما صنّف في السيرة والشمائل : يقول فيه : ((فأما النبي المصطفى ، والرسول المجتبي ، والمبعوث بالحق إلى كافة الخلق من الجن والإنس ، أبو القاسم ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلوات

(١) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

(٢) سورة فصلت ، آية ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) سورة الإسراء آية ٨٨ .

الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين فإنه أكثر الرسل آيات وبيّنات وذكر بعض أهل العلم أن أعلام نبوته تبلغ ألفا ...

ثم إن لنبينا ﷺ وراء القرآن من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة ما لا يخفى ، وأكثر من أن يحصى . فمن دلائل نبوته هي استدلال أهل الكتاب على صحة نبوته .. ومن دلائل نبوته : ما حدث بين أيام مولده ومبعثه ﷺ من الأمور الغريبة .. ثم إن له من وراء هذه الآيات المعجزات: انشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وخروج الماء بين أصبعيه ، وتسبيح الطعام ، وإجابة الشجرة إياه ، وتكليم الذراع المسمومة إياه ، وشهادة الذئب والضب والرضيع والميت له بالرسالة .. وغير ذلك مما قد ذكر ودوّن في الكتب . غير أن الله تعالى لما جمع له بين أمرين : أحدهما بعثه إلى الجن والإنس عامة ، والآخر : ختمه النبوة به ، ظاهر له من الحجج حتى إن شذت واحدة عن فريق بلغتهم الأخرى ، وإن لم تتجع واحدة ، نجعت أخرى ، وإن درست على الأيام واحدة بقيت أخرى ، وفيه في كل حال ؛ الحجة البالغة ((^(١))). ((وهي معنوية وحسية : فمن المعنوية إنزال القرآن عليه ، وهو أعظم المعجزات ، وأبهر الآيات ، وأبين الحجج الواضحات لما اشتمل عليه من التركيب المعجز الذي تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك ، مع توافر دواعي أعدائه على معارضته ، وفصاحتهم وبلاغتهم ، ثم تحداهم بعشر سور منه فعجزوا ، ثم تنازل إلى التحدي بسورة من مثله ، فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك ، وأن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبداً .. ومن الدلائل المعنوية أخلاقه عليه الصلاة والسلام الظاهرة ، وخلقه الكامل ، وشجاعته وحلمه وزهده وقناعته وإيثاره وجميل صحبته . وسيرة الرسول ﷺ وأخلاقه وأقواله وأفعاله من آياته، أي من دلائل نبوته، وكرامات صالحى أمته من آياته ..

ومن أعظم دلائل نبوته الحسية انشقاق القمر فرقتين .. ((^(٢)) .

(١) دلائل النبوة للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي تعليق د . عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الثانية ، ١٤٢٣هـ - ج ١ ، ص ١٠ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ، ص ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٦ .

القرآن العظيم معجزة الرسول ﷺ الخالدة

وهو حجة الله وبرهانه على الأولين والآخرين من الخلق أجمعين ((ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ، ليس ذلك مخلوقاً منفصلاً عنه ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه ، بل قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء .. وكلمات الله لا نهاية لها ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (١) . وقال السلف : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وإن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر .. فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ؛ ومن أجلها الكلام . فلم يزل متكلماً إذا شاء ولا يزال كذلك... ولم يقل أحد من السلف : إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله ، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق ؛ بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة ، من أن هذا القرآن كلام الله ، والناس يقرعون بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام الله)) (٢) .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو . وفي رواية لمسلم: ((لا تسافروا بالقرآن فإني لا آمن أن يناله العدو)) (٣) وقد أخبر رسول الله ﷺ أن حجتة الساطعة وآيته الباقية على مدى الدهر

(١) سورة الكهف آية ١٠٩ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٢ ، انظر ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٣٠٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب كراهية السفر إلى أرض العدو ، ج ٦ ، ص ١٣٣ .
صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإمامة ، باب النهي أن يسافر بالمصاحف إلى أرض الكفار ج ١٣ ، ص ١٣ .

الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين فإنه أكثر الرسل آيات وبيّنات وذكر بعض أهل العلم أن أعلام نبوته تبلغ ألفا ...

ثم إن لنبينا ﷺ وراء القرآن من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة ما لا يخفى ، وأكثر من أن يحصى . فمن دلائل نبوته هي استدلال أهل الكتاب على صحة نبوته .. ومن دلائل نبوته : ما حدث بين أيام مولده ومبعثه ﷺ من الأمور الغريبة .. ثم إن له من وراء هذه الآيات المعجزات: انشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وخروج الماء بين أصبعيه ، وتسبيح الطعام ، وإجابة الشجرة إياه ، وتكليم الذراع المسمومة إياه ، وشهادة الذئب والضب والرضيع والميت له بالرسالة .. وغير ذلك مما قد ذكر ودون في الكتب . غير أن الله تعالى لما جمع له بين أمرين : أحدهما بعثه إلى الجن والإنس عامة ، والآخر : ختمه النبوة به ، ظاهر له من الحجج حتى إن شذت واحدة عن فريق بلغتهم الأخرى ، وإن لم تتجع واحدة ، نجعت أخرى ، وإن درست على الأيام واحدة بقيت أخرى ، وفيه في كل حال ؛ الحجة البالغة))^(١) .
((وهي معنوية وحسية : فمن المعنوية إنزال القرآن عليه ، وهو أعظم المعجزات ، وأبهر الآيات ، وأبين الحجج الواضحات لما اشتمل عليه من التركيب المعجز الذي تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك ، مع توافر دواعي أعدائه على معارضته ، وفصاحتهم وبلاغتهم ، ثم تحداهم بعشر سور منه فعجزوا ، ثم تنازل إلى التحدي بسورة من مثله ، فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك ، وأن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبداً .. ومن الدلائل المعنوية أخلاقه عليه الصلاة والسلام الظاهرة ، وخلقه الكامل ، وشجاعته وحلمه وزهده وقناعته وإيثاره وجميل صحبته . وسيرة الرسول ﷺ وأخلاقه وأقواله وأفعاله من آياته، أي من دلائل نبوته، وكرامات صالحى أمته من آياته ..

ومن أعظم دلائل نبوته الحسية انشقاق القمر فرقتين ..))^(٢) .

(١) دلائل النبوة للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي تعليق د . عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الثانية ، ١٤٢٣هـ ج ١ ، ص ١٠ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ، ص ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٦ .

القرآن العظيم معجزة الرسول ﷺ الخالدة

وهو حجة الله وبرهانه على الأولين والآخرين من الخلق أجمعين ((ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ، ليس ذلك مخلوقاً منفصلاً عنه ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه ، بل قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء .. وكلمات الله لا نهاية لها ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (١) . وقال السلف : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وإن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر.. فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ؛ ومن أجلها الكلام . فلم يزل متكلماً إذا شاء ولا يزال كذلك... ولم يقل أحد من السلف : إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله ، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق ؛ بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة ، من أن هذا القرآن كلام الله ، والناس يقرءونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام الله)) (٢) .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو . وفي رواية لمسلم: ((لا تسافروا بالقرآن فإني لا آمن أن يناله العدو)) (٣) وقد أخبر رسول الله ﷺ أن حجته الساطعة وآيته الباقية على مدى الدهر

(١) سورة الكهف آية ١٠٩ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٢ ، انظر ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٣٠٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب كراهية السفر إلى أرض العدو ، ج ٦ ، ص ١٣٣ .
صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإمامة ، باب النهي أن يسافر بالمصاحف إلى أرض الكفار ج ١٣ ، ص ١٣ .

إلى يوم القيامة ، إنما هو الوحي من الله وهو كلام الله وقرآنه ، وقد سأل ربه أن يكون أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)) (١) .

بل إن رسول الله ﷺ قد جزم في حديث أنس رضي الله عنه أنه أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنه أول من يقرع باب الجنة .
فعن أنس رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : ((أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة)) (٢) .

ثم أمر أمته بتبليغ هذا القرآن لما فيه من البيان لأمر الإسلام وأحكامه فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)) (٣) . وقوله ولا حرج : أي لا حرج في التحديث عنهم إن لم يكن تعارض مع الشريعة المحمدية .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((زينوا القرآن بأصواتكم ؛ فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً)) (٤) .

قال محمد بن الحسين الأجرى : ((إن قول المسلمين الذين لم ترغ قلوبهم عن

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ، ج ٩ ، ص ٣ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ج ٢ ، ص ١٨٦ ،

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس يشفع في الجنة ج ٣ ، ص ٧٣ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ج ٦ ، ص ٤٩٦ .
(٤) مسند الإمام أحمد ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ .

؛ سنن أبي داود ، كتاب الوتر ، باب استحباب الترتيل في القراءة ج ٢ ، ص ١٥٥ .

؛ سنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب في حسن الصوت بالقرآن ج ١ ، ص ٤٠٤ .

؛ سنن الدرامي ، كتاب فضائل القرآن ، باب التغني بالقرآن . ج ٢ ، ص ٤٧٤ .

؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .

الحق، ووفقوا للرشاد قديماً وحديثاً : إن القرآن كلام الله عز وجل لا يكون مخلوقاً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك . دلّ على ذلك القرآن والسنة ، وقول الصحابة رضي الله عنهم ، وقول أئمة المسلمين رحمة الله عليهم لا ينكر هذا إلا جهمي ^(١) .

((والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، وهو الذي نزل عليه به ، وجبريل سمعه من الله تعالى . كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) : وقال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ^(٣) . فأخبر سبحانه أنه نزل به روح القدس وهو الروح الأمين ، وهو جبريل من الله بالحق ، ولم يقل أحد من السلف : إن النبي ﷺ سمعه من الله)) ^(٤) .

وقد كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ على ثلاثة أنواع :

فيكون وحياً أي إلقاء المعنى في القلب المعبر عنه بالنقث في الروع ، وفي الحديث ((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)) ^(٥) .

ويكون كلاماً من وراء حجاب ، وهو أن يسمع الموحى إليه كلام الله من حيث لا يراه، كما سمع موسى عليه الصلاة والسلام النداء من وراء الشجرة ، وسماع محمد ﷺ من ربه حين عُرج به إلى سدرة المنتهى ، ثم عرج به ﷺ حتى ظهر إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، وفرض عليه خمسين صلاة ^(٦) .

ويكون ما يلقيه الوحي المرسل من الله إلى رسوله ، فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل . روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ، أن الحارث بن

(١) الشريعة للإمام محمد بن الحسين الآجري ، تحقيق محمد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ ، ص ٧٥ .

(٢) سورة البقرة ٩٧ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٩٣ - ١٩٥ .

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٢ ، ص ٢٩٨ .

(٥) تقدم تخريجه ص ٣٣٣ .

(٦) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ذكر إدريس عليه السلام ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الأنبياء ، باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

هشام ، سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : ((أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد علي ، فيفصم عني ، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمني فأعي ما يقول ، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً)) (١) .

وأكمل هذه الأنواع الثلاثة هو إرسال الرسول بالوحي ، وهذه الصورة هي التي نزل بها القرآن الكريم . فقد نزل بواسطة جبريل عليه السلام . هذه المعجزة التي أيد الله بها نبيه الأمي ، والتي غير بها نفوساً ، وأحيا قلوباً وأثار بصائراً ، وربى أمة ، وكون دولة ، في سنيّ تعد على الأصابع . وإذا كان قلب العصا حية معجزة ، فإن تغيير العقول والقلوب أبلغ في الإعجاز . وإذا كان إحياء الميت من الخوارق التي أيد الله بها بعض أنبيائه فإن إحياء أمة أمية من الجهل والرذيلة ، وجعلها مصدر إشعاع وهداية ، هو الخارق الذي تتضاءل في جوانبه المعجزات (٢) .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٢) العقائد الإسلامية ، السيد سابق ، انظر ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ .

الرد على المخالفين في كلام الله ومصدره وحقيقته

افترق الناس في مسألة كلام الله تعالى الذي أنزله معجزة لنبيه محمد ﷺ وهو القرآن العظيم ، فقد كان للفرق آراء في فهم مصدرية القرآن الذي بين أيدي المسلمين ، وكيف وصل إلى الأمة .

((فقالت الفلاسفة والصابئة : إن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني، أما من العقل الفعال عند بعضهم ، أو من غيره .
وقالت : المعتزلة والجهمية : إنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه ، وليس الكلام صفة قائمة به .

وقالت : الأشاعرة والماتريدية : إنه معنى واحد قائم بذات الله ، وهو الأمر والنهي والخبر والإستخبار ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا وإنه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره وهذا قول أبي منصور الماتريدي)) (١) .

قال الباقلاني : ((فصح أن الكلام الحقيقي هو المعنى القائم بالنفس دون غيره ، وإنما الغير دليل عليه بحكم التواضع والاصطلاح ، ويجوز أن يسمى كلاماً إذ هو دليل على الكلام ، لا أنه نفس الكلام الحقيقي)) (٢) .

فأما الفلاسفة وأصحاب الاتحاد ووحدة الوجود وملاحدة الصوفية كابن عربي والحلاج ((فيجب أن يكون على قولهم كل كلام في الوجود كلامه ، وقد أفصح بذلك الاتحادية الذين يقولون الوجود واحد كابن عربي صاحب الفصوص ونحوه فقالوا :
وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره أو نظامه

ومذهبهم في الحقيقة منتهى مذهب الجهمية وهو تعطيل الخالق والقول بأن هذا الوجود هو الوجود الواجب كما ذكر ذلك أبو حامد عن دهرية الفلاسفة.. والمعتزلة

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني ، ص ٩٥ .

خير من المتفلسفة حين يثبتون الله تعالى كلاماً منفصلاً ويقولون إن الرسالة والنبوة تتضمن نزول كلام الله تعالى منفصلاً عن النبي ﷺ ينزل عليه كما يقول ذلك سائر المسلمين ((^(١)).

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي : ((وأما مذهبنا في ذلك فهو أن القرآن كلام الله تعالى ، ووحيه ، وهو مخلوق محدث))^(٢) . ((بمعنى أن الله تعالى لم يكن متكلاماً ، وحينما أراد الكلام خلقه في محل ، وأسمعه من أراد كما قالوا عن موسى عليه السلام أن سماعه لكلام الله تعالى إنما كان من الشجرة التي خلق الله كلامه فيها ، وهذا هو رأي الجهمية أيضاً))^(٣) .

وقال النظام المعتزلي : ((إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس معجزة النبي ﷺ ولا دلالة فيه على صدقه في دعواه النبوة ؛ ذلك أن القرآن كتاب كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، ووجه الدلالة في هذا الكتاب على صدق الرسول ﷺ إنما هو ما فيه من الأخبار عن الغيوب .

فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف ولم يعارضه العرب لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به وهو ما عرف عندهم بالصرفة))^(٤) .

وقال الآمدي وهو من أساطين علماء الأشاعرة : ((وأما ما قيل من أن القرآن معجزة الرسول فيمتنع أن يكون قديماً فتحويل لا حاصل له ، فإننا مجمعون على أن القرآن الحقيقي ليس بمعجزة الرسول ، وإنما الاختلاف في أمر وراءه وهو أن ذلك القرآن الحقيقي ماذا هو؟ فنحن نقول إنه المعنى القائم بالنفوس والخصم يقول:

(١) شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد تحقيق د . عبد الكريم عثمان ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، مصر ١٣٨٤هـ ، ص ٥٢٨ .

(٣) التنبيه والرد علي أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي - ٣٧٧هـ تحقيق محمد زاهد الكوثري ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٣٨٨هـ ، ص ١٢٥ .

(٤) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، القاضي عبد الجبار ، الدار التونسية ١٣٩٣هـ ص ٧٠ ، وانظر ، الفرق بن الفرق للبغدادى ، ص ١٤٣ .

إنه حروف وأصوات أوجدها الله تعالى، وعند وجودها انعدمت وانقضت ، وأن ما يأتي به الرسول ، وما نتلوه نحن ليس هو ذلك وإنما هو مثال له ، على نحو قراءتنا لشعر المتنبي ، وامرئ القيس ، فإنه ليس ما يجري على ألسنتنا هو كلام امرئ القيس ، وإنما هو مثله)) (١) .

وقد غلط هؤلاء وغيرهم الذي جانبوا الصواب في أقوالهم ((ولا شك أن القرآن العظيم هو المعجزة الكبرى لسيدنا محمد ﷺ فهو كلام الله المعجز المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام والمنقول إلينا بين دفتي المصحف عن طريق التواتر المتعبد بتلاوته ويشمل العقيدة والشرعية، وأحكام وقصص وترغيب وترهيب)) (٢) .

فعن الحارث الأعور : قال : مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث ، فدخلت على علي رضي الله عنه ، فأخبرته فقال: أوقد فعلوها ؟ قلت: نعم. قال : أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((ألا إنها ستكون فتنة ، قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته ، حتى قالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ (٣) من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم)) (٤) . ((وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ

(١) غاية المرام في علم الكلام للأمدي ، سيف الدين ، تحقيق حسن محمد عبد اللطيف ، مطابع الأهرام ١٣٩١هـ ، القاهرة ، ص ١٠٧ ؛ وانظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ، تقديم د . عادل العوا ، دار الأمانة ، بيروت ١٣٨٨هـ ، ص ١٤٩ .

(٢) الإسلام في مواجهة أعدائه ، توفيق علي وهبة ، دار اللواء ، الرياض ، ص ١٦٣ .

(٣) سورة الجن آية ١ - ٢ .

(٤) سنن الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل القرآن ، ج ٥ ، ص ١٧٢ ، قال أبو عيسى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

؛ سنن الدرامي ، كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٣٥ .

؛ مسند الإمام أحمد ، ج ١ ، ٩١ .

مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِيَّيَّ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها ! وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها فإن الله تعالى قال : ﴿ فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنَ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ والنداء هو الكلام من بعد ، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي ثم قال تعالى : ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت ، يكون من البيت لابتداء الغاية ، لا أن البيت هو المتكلم ، ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة ، لكانت الشجرة هي القائلة ((إني أنا الله رب العالمين)) وهل القائل ((إني أنا الله رب العالمين)) غير رب العالمين؟ ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٢) صدقاً ، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله ؟ وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة : أن ذاك كلام خلقه الله في الشجرة ، وهذا كلام خلقه فرعون !! فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله !)) (٣) .

وهذا أصدق الخلق يخبر عن ربه تعالى أنه يتكلم بوحي أوحاه إلى نبيه ﷺ ، فعن زيد بن خالد الجهني قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل [أي عقب مطر] ، فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : ((هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)) (٤) .

وقال الطحاوي رحمه الله راداً على من ادعى أن كلام الله هو القائم بذات الله

(١) سورة القصص آية ٣٠ .

(٢) سورة النازعات آية ٢٤ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

وأسموه الكلام النفسي فقال : ((وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية)) قال الشارح رحمه الله : هذا رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول الظاهر . وفي قوله بالحقيقة رد على من قال : إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفساني ، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به : إن هذا كلام حقيقة ، وإلا لزم أن يكون الأخرس متكلماً ، ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله ، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله .. لكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه ، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً ، بل فهم معنى مجرداً ، ثم عبر عنه ، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي .. وهنا معنى عجيب ، وهو : أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت ؟ فإنهم يقولون : كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي يمكن سماعه ، وأما النظم المسموع فمخلوق ، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام ، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه ! .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ ((إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل به أو تتكلم))^(١) فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم ، ففرّق بين حديث النفس وبين الكلام ، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به ، والمراد : حتى ينطق به اللسان ، باتفاق العلماء . فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة ، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب))^(٢) .

قال صاحب التكميل بما في تأنيب الكوثر من الأباطيل ، العلامة عبدالرحمن المعلمي :

((القرآن كلام الله غير مخلوق ، هذه القضية كانت بغاية الوضوح في عهد

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب العتق ، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ، ج ٥ ، ص ١٦٠ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

السلف ، ثم جردها الزائغون ، ثم التبس الأمر فيها على بعض الناس ، وقد كفى فيها وشفى ما بينه إمام السنة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، ثم ما حرره الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ثم ما حققه ونقحه شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية . والعقول الفطرية قاضية بأن الله تعالى الكمال المطلق والقدرة التامة ، وأنه متى شاء أن يتكلم الكلام الحقيقي المعروف بعبارة وحرف وصوت تكلم كيف شاء ، ثم جاءت كتب الله تعالى ورسله بإثبات أنه سبحانه تكلم ويتكلم ، وكلم ويكلم ، وقال ويقول ، ونادى وينادي ، وأن القرآن هذا المعروف كلام الله على الحقيقة الحقة .

ثم جحد الزائغون كلام الله عز وجل ، وحاولوا تحريف معاني النصوص التي لا تحصى تحريفاً ليس بخير من التكذيب الصريح ، بل لعله شر منه ، ثم حاول بعض الناس التلبس فحمل النصوص على كلام نفسي ليس بعبارة ولا حرف ولا صوت ، بل زاد أنه معنى واحد لا تتوع فيه ولا تعدد ، فلا أمر فيه ولا نهى ، ولا خبر ، ثم لا يزالون في تخطيط وتخطيط .

وإذ قد اعترف المتعمقون بأن الله تبارك وتعالى يتكلم بلا واسطة بعبارة وحرف وصوت ويسمع كلامه من يشاء من خلقه ، فهذا هو الذي قامت عليه الحجة ، وعليه سلف الأمة وأتباعهم ، ولم يبق إلا التنطع في البحث عن الكيفية ، وهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، ولا يبتغيه إلا أهل الزيغ ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ ^(١) .)) (الذين يرون أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه ، وهو صفة من صفاته لأنه كلام الله تعالى وكلامه سبحانه قديم النوع حادث الآحاد ، فالله تعالى تكلم به ، وأسمعه الملك فنزل به على نبيينا محمد ﷺ ، والكلام لمن قاله مبتدئاً ، لا لمن قاله مبلغاً ، وهو عند السلف صفة ذات ملازمة لذات الله تعالى لم تخل منها في وقت من الأوقات ، وهي

(١) سورة آل عمران ٧ .

(٢) التكميل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ، العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، حققه محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض : ط الثانية ١٤٠٦ هـ ، ج ٢ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

صفة فعل أيضاً ، لأنه متكلم متى شاء كيف شاء بحرف وصوت كما ورد ذلك في النصوص الصريحة .. والخلاف بين الأشاعرة والسلف ينحصر في حقيقة الكلام ما هو ؟ وإلا فالكل يقول إن القرآن الحقيقي غير مخلوق ، وإنما قال الأشاعرة بخلق القرآن المنزل على محمد ﷺ ، لأنهم يقولون إنه ليس هو القرآن الحقيقي ، وإنما هو عبارة عنه ودلالات عليه ، أما القرآن الحقيقي فهو نفسي قديم وهو غير مخلوق وهذا رأي واضح البطلان)) (١) .

بل إن المعتزلة مع جهلهم بما يليق بجلال الله وإعراضهم عن النصوص وقولهم بنفي صفة الكمال وهي الكلام وقولهم بأنه يخلقه في غيره أكثر تعظيماً لله من قول هؤلاء الأشاعرة والماتريدية الذين قالوا بالكلام النفسي ووصفوا الله بحالة العجز عن الكلام فإنهم قد عارضوا ما قاله هو عن نفسه تعالى في كتابه بإثبات كلامه سبحانه وأنه يكلم عباده وأنبيائه وملائكته وما أثبتته رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته في الأحاديث الصحيحة في كلام الله .

إن ذلك الخلل في العقيدة عندهم نتيجة إعراضهم عن السنة وقولهم إنها أخبار آحاد لا يحتج بها .

(١) البيهقي وموقفه من الإلهيات ، د . احمد بن عطيه الغامدي ، مكتبة العلوم والحكمة ، المدينة المنورة ، ط الثالث ، ١٤١٢ هـ ، ص ٢٢١ .

انشقاق القمر

أيد الله سبحانه وتعالى صدق نبيه محمد ﷺ بالآيات البينات مما يؤيد رسالته، كالإسراء والمعراج، والتحدي بكلام الله القرآن ، وإجابة دعوته ﷺ ، وإخباره بالأمور الغيبية ، وإبراء المرضى ، وحنين الجذع ، وتسليم الحجر وشكوى البعير... وقد وردت بأحاديث صحيحة عنه ﷺ وكذا غيرها من المعجزات أما انشقاق القمر فقد ذكر الله ذلك في كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ (١) .

وذلك إن أهل مكة سألوا رسول الله آية فانشق القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : ((إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما)) (٢) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ((انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ ((اشهدوا)) (٣) .

قال ابن كثير : ((ومع أن قريشاً سألوا رسول الله ﷺ الآية وحصل ما طلبوا، معجزة من الله وتأييداً لنبيه ﷺ ؛ غير أنهم أنكروا ما رأوا وقالوا إن هذا إلا سحر سحرنا أبي كبشة وقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ؟ فإن محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . فجاء السفار فقالوا ذلك ، وقد شوهد ذلك في كثير من بقاع الأرض ويقال : إنه أُرِخَ ذلك في بعض بلاد الهند ، وبني بناء تلك الليلة وأُرِخَ بليلة انشقاق القمر .

وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عن من أحاط بها ونظر فيها

(١) سورة القمر آية ١ ، ٢ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب انشقاق القمر ، ج ٧ ، ص ١٨٢ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صفة الجنة والنار ، باب انشقاق القمر ج ١٧ ، ص ١٤٥ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ، ج ١ ، ص ٦١٧ . ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب انشقاق القمر ، ج ١٧ ، ص ١٤٤ .

ونحن نذكر من ذلك ما تيسر .. ثم قال : فهذه طرق متعددة قوية الأسانيد تفيد القطع لمن تأملها وعرف عدالة رجالها .. والقمر حين انشق لم يزايل السماء غير إنه حين أشار إليه النبي ﷺ انشق عن إشارته فصار فرقتين ، فسارت واحدة حتى صارت من وراء حراء ، ونظروا إلى الجبل بين هذه وهذه (((١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ((بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر فلتقتين : فلقة من وراء الجبل ، وفلقه دونه ، فقال لنا رسول الله ﷺ : اشهدوا ، يعنى اقتربت الساعة وانشق القمر)) .
قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح (٢) .

قال شيخ الإسلام : ((آياته ﷺ أنواع : منها : ما هو في العالم العلوي ، كانشقاق القمر ، وحراسة السماء بالشهب ، الحراسة التامة لما بعث ، وكمعراجة إلى السماء فقد ذكر الله انشقاق القمر ، وبين أن الله فعله ، وأخبر به لحكمتين عظيمتين : أحدهما : كونه من آيات النبوة لما سألته المشركون آية ، فأراهم انشقاق القمر .

والثانية : أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك ، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات ، ولهذا قال تعالى ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر ، وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب ، لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم ، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك إذ هو الجسم المستدير الذي يظهر الانشقاق فيه ، لكل من يراه ، ظهوراً لا يتمارى فيه ، وأنه - نفسه - إذا قبل الإنشقاق فقبول محله أولى بذلك ، وقد عاينه الناس وشاهدوه .

وكان النبي ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار ، مثل صلاة الجمعة

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ، ص ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ؛ وانظر تفسير بن كثير ج ٤ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة القمر ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ .

والعبيدين ، يسمع الناس ما فيها من آيات النبوة، ودلائلها ، والاعتبار بما فيها ، وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره ، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامة وفي صحيح مسلم : أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ((ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيها بـ ((ق)) والقرآن المجيد، ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾))^(١).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صلاة العبيدين ، باب ما يقرأ به في صلاة العبيدين ، ج ٦ ، ص ١٨١ .

الرد على المخالفين في معجزة انشقاق القمر

إن حادثة انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها : ((وقد أنكرها بعض المبتدعة وذلك لمن أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للعقل فيها لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنية ويكوره في آخر أمره . وأما قول بعض الملاحدة لو وقع هذا لنقل متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته ، ولم يختص بها أهل مكة ، فأجاب العلماء بأن هذا الانشقاق حصل في الليل ومعظم الناس نيام غافلون والأبواب مغلقة وهم متغطون بثيابهم ، فقلّ ما يتفكر في السماء أو ينظر إليها إلا الشاذ النادر ، وما هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر وغيره من العجائب والأنوار الطوالع والشهب العظام وغير ذلك مما يحدث في السماء في الليل ولا يتحدث بها إلا الآحاد ولا علم عند غيرهم لما ذكرناه .

وكان هذا الانشقاق آية حصلت في الليل لقوم سألوها واقترحوا رؤيتها فلم يتتبعه غيرهم لها ، وقد يكون القمر كان حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض الآفاق دون بعض ، كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عن قوم كما يجد الكسوف أهل بلد دون بلد والله أعلم)) (١)

إن الذين سألوا رسول الله ﷺ وهم أهل مكة أن يريهم آية حتى يؤمنوا به ويصدقوا رسالته ، لم يهدم الله بها ، بل قالوا إنه لسحر قد سحرنا محمد وهذا دليل على أنهم رأوا تلك المعجزة في حينها وهو قول جمع كثير منهم وقد سألوه ذلك ، فلو لم يحدث لما قالوا سحراً ، ولقالوا قد أعجزناه ولم يجنبا ، هذا بالنسبة للمشركين من أهل مكة .

أما من جاء بعدهم في القرن الثاني والثالث وهم العقلانيون فقد أنكروا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، ج ١٧ ، ص ١٤٣ .

معجزات الرسول ﷺ وقالوا إنما جاءت بأحاديث آحاد ، ((واعتبروا الحجة قائمة على الناس بالعقل لا بالنبوة فحتى من لم يبلغه خبر الرسول فهو محجوج لتقصيره إعمال عقله للوصول إلى الحقيقة)) (١) .

ومنهم من أنكر ما روي من معجزات الرسول ﷺ من انشقاق القمر ، وتسبيح الحصى في يده ، ونبوع الماء من بين أصابعه... وقالوا : إن الأعراض لا يدل شيء منها على الله تعالى وزعموا أن تلك المعجزات لا يدل شيء منها على صدق الرسول في دعواه الرسالة)) (٢) . وهكذا أمر العقلانيين المعرضين عن الوحي وخاصة أحاديث النبي صلاة الله وسلامه عليه والتي تلقتها الأمة بالقبول .

فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : ((انشق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم . فصار فرقتين : على هذا الجبل ، وعلى هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقال بعضهم لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم)) (٣) . قال أبو عيسى : وقد رواه ابن مسعود وانس وابن عمر ثم قال في كل الروايات : هذا حديث حسن صحيح .

وقد رواه الإمام أحمد في مسنده بنفس اللفظ (٤) .

((ومعلوم بالضرورة في مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك ، فضلاً عن أعدائه الكفار والمنافقين .

ومعلوم أنه كان من أحرص الناس على تصديق الخلق له واتباعهم إياه . فلو لم يكن انشق ، لما كان يخبر به ويقرأه على جميع الناس ، ويستدل به ، ويجعله آية له)) (٥) .

وقد سأل إمبراطور بيزنطة ، الإمام الباقلاني في سفرته إلى بيزنطة فقال :

(١) ميزان الاعتدال للإمام الذهبي ، تحقيق عيسى الحلبي ، سنة ١٣٨٩هـ ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ، ص ١٣٢ ، ١٦٢ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة القمر ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد ، ج ٤ ، ص ٨١ .

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ج ٤ ، ص ١٦٢ .

((هذا الذي تدعونه من معجزات نبيكم : من انشقاق القمر كيف هو عندكم ؟ فقال الباقلائي : هو صحيح عندنا انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأى الناس ذلك ، إنما رآه الحضور من اتفق نظره في تلك الحال ، ويقول الملك : وكيف لم يره جميع الناس ؟ فيجيب الباقلائي : لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعده لانشقاقه ، وإنما يراه من كان في محاذاته ويختم بقوله : فما أنكرت من انشقاق القمر إذا كان في ناحية أن لا يراه إلا أهل تلك الناحية ، ومن تأهب للنظر له ، فأما من أعرض عنه ، أو كان في الأمكنة التي لا يرى القمر فيها فلا يراه)) (١) .

وقد يقال : ((إن انشقاق القمر ليس شيئاً مستحيلاً ، فالعالم قد شاهد انشقاق مذنب ((بروكس)) شقين وكذلك انقسام مذنب ((بيلا)) إلى جزئين كلاهما في القرن التاسع عشر ، كما ذكر الفلكي سبنسر جونز في فصل المذنبات والشهب كتاب ((عوامل بلا نهاية)) (٢) .

وفي الإجابة يقال : ((الفرق بين انشقاق القمر وانشقاق هذين المذنبين أنهما لم يلتئما بعد الانشقاق ، والقمر التأم ، وهو الفرق المنتظر بين الظاهرة الفلكية في الفطرة والمعجزة الفلكية على يد رسول ، لأن المعجزة مؤقتة تزول بزوال وقتها وتحقق الغرض منها ، ولو استمرت لكانت ظاهرة طبيعية صرفة ، ولخرجت من دائرة المعجزات)) (٣) .

((وكذلك سائر آيات الأنبياء ؛ فأخرج ناقة عظيمة من صخرة تمخضت بها ثم انصدعت عنها ، والناس حولها ينظرون ، وكذلك تصوير طائر من طين ، ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائراً ذا لحم ودم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس ، وكذلك إيماء الرسول ﷺ إلى القمر فينشق نصفين بحيث يراه الحاضر والغائب فيخبر به كما رآه الحاضرون .. فكل طريق من هذه الطرق أصح وأقرب وأسهل

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ، تقديم سيد صقر ، دار المعارف بمصر ١٣٩٢ هـ ، ص .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٣٠ ، وانظر الرسل والرسالات ، د. عمر الأشقر ، ص ١٣٦ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، نفس المصدر ص ١٣٦ .

وأوصل من طرق المتكلمين التي لو صحت لكان فيها من التطويل والتعقيد والتعسير ما يمنع الحكمة الألّهية والرحمة الربانية أن يدل بها عباده عليه وعلى صدق رسله.. هذا وإن للقرآن وحده لمن جعل الله له نوراً أعظم آية ودليل وبرهان على هذه المطالب ، وليس في الأدلة أقوى ولا أظهر ولا أصح دلالة منه من وجوه متعددة جداً ، كيف وقد أرشد ذوي العقول والألباب فيه على أدلة هي للعقل مثل ضوء الشمس للبصر لا يلحقها إشكال ولا يغير في وجه دلالتها إجمال ولا يعارضها تجويز واحتمال .. وهذا الأمر إنما هو لمن نور الله بصيرته وفتح عين قلبه لأدلة القرآن وأتاه فهماً في كتابه فلا يعجب من منكر ولا معترض أو معارض .

وقل للعيون العمي للشمس أعين سواك تراها في مغيب ومطلع

وسامح نفوساً أطفأ الله نورها بأهوائها لا تستفيق ولا تعي^(١)

بل إن عودة نفر منهم إلى الجادة واعترافهم في آخر مراحل عمرهم بالتقصير في طلب الحق ومعرفته والعودة إلى الكتاب والسنة لهو دليل آخر على فساد تلك الطرق الكلامية .

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة لابن القيم ، تحقيق د . علي محمد الدخيل الله ، دار العاصمة ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ، ج٣ ، ص ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ .

الإسراء والمعراج

عرض رسول الله ﷺ دعوته على قومه في مكة فأمن به نفر قليل منهم ثبتت الله قلوبهم بالإيمان ورجحت عقولهم الهدى والنور على الظلام والخسران حين وقفت قريش بأجمعها حجر عثرة في طريق انتشار هذه الدعوة المباركة وأوصدت السبل للصد من ظهورها للناس وأرسلت الرسل للتفجير منها والتقليل من شأنها وأذاقت أتباعها ألواناً من العذاب والكيد والبطش. بل تعدى ذلك إلى محاولة قتل الرسول ﷺ وضربه وإهانته ومنعه من تبليغ رسالة رب العالمين للناس أجمعين.

لكن المصطفى ﷺ الذي هداه ربه تحمل جميع تلك المشاق وصبر عليها ليكون قدوة للدعاة إلى يوم التلاق ، ولا شك إن تلك حكمة ربانية عظيمة للبشر ولتبقى دروساً وعبراً على مر العصور وسائر الدهور .

قام ﷺ على الصفا يدعو وفود القبائل من العرب لحماية الدعوة ونشرها بين أفراد قبائلهم وأهلهم لكن صلف قريش وكبريائها وجبروتها تلاحق دعوته تلك بالتكذيب تارة ، وبالاستهزاء تارة أخرى ، فلم تتجح أو تلقى أذن صاغية عندهم .

وهنا كان لا بد من أن يتحرك لينقل دعوته إلى مكان آخر وقوم آخرين. فيذهب إلى الطائف ويقابله أهلها بالإهانة والإزدراء فيعود وقد احتمل هموماً وأثقالاً لا يقدر على حملها إلا العظماء. وعند ذلك يلجأ إلى ربه فيصلي ركعتين ثم يدعو ربه فيقول ((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني على الناس أنت أرحم الراحمين إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك ، أو يحل بي

سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ولا قوة إلا بك))^(١) وهكذا يعلمنا رسولنا العظيم ﷺ أن نلجأ في المصائب وحال الضعف إلى الله فيجيب الدعاء ويفرج كرب المكروبين ويلبي دعاء السائلين ويغيث المستغيثين .

عالمية الدعوة:

حين أعرض هؤلاء عن الاستجابة لهذه الدعوة والسير في ركب الإيمان والخير وحين يظلمون أنفسهم فيحيدون عن طريق الهدى والنور ويرضون بالعبودية في الدنيا للذاتهم وأهوائهم وأسيادهم ويرفضون عبادة خالقهم وربهم ورازقهم ومولاهم .

وحين تعجز الأرض عن استقبال هذا النور وهذا الإشعاع عندها يأتي المدد من السماء استجابة من الرب لدعاء نبيه ﷺ وتعزية له وتكريماً سيبقى ما بقيت الدنيا كيف وقد سجل في كتاب الله العزيز الحميد قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾^(٢) إنه عالم آخر ذاك هو عالم الجن المخلوق العجيب الذي أمرنا أن نؤمن بوجوده مع عدم إحساسنا به ولا برؤيته قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٣)

فكان منهم الاستجابة والإصغاء والمبادرة إلى الإيمان والتصديق والتوحيد لله المجيد في حين استكبر ذوي العقول والنهى الذين فضلهم الله على الخلق أجمعين.

كان هذا تكريماً للرسول ﷺ ولرسالته الخاتمة فقد كانت الرسائل السابقة خاصة بأقوام دون آخرين وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، فجاءت هذه الرسالة الخاتمة . وتوضح لنا الآيات السابقة تكليف الله للجن بالعبادة والتوحيد وأنهم

(١) مجمع الزوائد للهيتمي ج ٦ ، ص ٣٦ وقال رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقيّة رجاله ثقات .

(٢) سورة الجن آية ١ ، ٢ .

(٣) سورة الزاريات آية ٥٦ .

ملزمون برسالة التوحيد وإنذار أقوامهم وأممهم. فهذه مرتبة من مراتب علو الدعوة من عالم الإنس إلى عالم الجن ومن عالم الوضوح والمشاهدة إلى عالم الغيب والإيمان به فهو عالم متميز ولا يعلم حقيقته إلا القادر على إيجاده الله سبحانه وتعالى.

عاد الرسول ﷺ إلى مكة في جوار المطعم بن عدي وقد فقد عمه أبو طالب الذي كان ينصره ويعينه على تحمل أذى قريش وقبل ذلك فقد زوجته خديجة التي كانت تساعد وتشد من أزره . ويزداد ضغط قريش وتكذيبهم وعداوتهم وخطرستهم في الباطل . مع كل هذه الشدائد والضيق يأذن الله بفتح من عنده ونصر وتسليته لنبيه ﷺ فيسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله وهذه إرهاصة ثانية في عالمية الدعوة وختم الرسالة فقد انتقل من أم القرى إلى مجمع الرسل والأنبياء فقد بعثوا في الشام وفي القدس خاصة وتروي الأحاديث إنه صلى بالأنبياء جماعة في بيت المقدس وهذا دليل على إمامته ﷺ لهم جميعاً وقد رضوا بذلك ثم عروجه إلى سدره المنتهى ومباركة كل سماء وساكنيها للقادم من الأرض مروراً بآدم وإبراهيم وموسى وعيسى وهم يحيونه ويدعون له ولأمته ولا شك أن هذا لم يحدث لنبي من قبل ولا رسول.

فكان استماع الجن والإسراء والمعراج إرهاصات لعالمية دعوته ﷺ وعلى أن رسالته العظيمة هي خاتمة الرسالات وذلك لما لها من البعد المكاني والبعد الرأسي إلى السماء فهي ثلاثية الأبعاد وهذا منتهى التمكن والتمكين لها بإذن الله سبحانه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (١) .

كانت معجزة الإسراء والمعراج تأييداً من الله تعالى ورضاً وتكريماً لم يبلغه بشر من قبل ولا نبي مرسل ولا ملك مقرب. وقد كانت عظمة تلك المعجزة مواكبة

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .

لأهمية الأمر المبلغ إلى النبي ﷺ كيف لا وقد فرض الله على محمد ﷺ وعلى أمته
ركناً مهماً من أركان هذه الدين الحنيف وهو الصلاة عمود الدين والتي تلقاها
المصطفى ﷺ مباشرة من الله تعالى إشارة إلى أنها مفتاح أعمال العبد فيها تقبل
الأعمال ولأجلها ترد.

إن وقوف محمد ﷺ في ذلك المكان وفي الحضرة المقدسة بين يدي الله هو
منتهى التكريم من الله تعالى ، والعزة والرفعة منه والتشريف لسيد وخاتم النبيين
وشريف الأولين والآخرين. فليهنك يا أبا القاسم هذا السمو وهذه الرفعة وهذه المكانة
والتي لم ينلها أحد قبلك ولا بعدك وأنت سيد ولد آدم.

تعريف الإسراء والمعراج:

الإسراء من سراء و((السرى هو سير الليل عامته وقيل السرى سير الليل
كله تذكره العرب وتؤنثه. وسريت وسرى ومسرى وأسريت بمعنى إذا سريت ليلاً
وجاء القرآن بهما جميعاً. وفي حديث جابر قال له: ما السرى يا جابر ؟ السير
بالليل ، أراد ما أوجب مجيئك في هذا الوقت ؟)) .

وفي التنزيل العزيز قال تعالى: ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ ^(١) وفيه
أيضاً ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ ^(٢) فنزل القرآن باللغتين.

((وإنما قال سبحانه: ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ إن كان السرى
لا يكون إلا بالليل للتأكيد وقد عظم الله هذا الإسراء فصدر به إحدى سور القرآن
العظيم وسبحان مصدر سبح يقال سبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً ومعناه التنزيه والبراءة
لله من كل نقص والعامل فيه فعل ليس من لفظه والتقدير أنزه الله تنزيهاً)) ^(٣)

(١) سورة الإسراء آية ١ .

(٢) سورة الفجر آية ٤ .

(٣) لسان العرب ج ٤ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

ويقول الشهيد سيد قطب في ظلال القرآن في مناسبة الآية للحدث العظيم ،
أولاً: تقرير عبودية الرسول صلى الله عليه وسلم الله تعالى مع ارتباطها بالغيب ،
ثانياً: الإسراء من السير ليلاً ، ثالثاً: الربط بين عقائد التوحيد منذ إبراهيم عليه
السلام وحتى محمد ﷺ ، رابعاً : الربط بين الأماكن المقدسة ، خامساً: إعلان وراثته
الرسول ﷺ لمقدسات الرسل قبله في رسالة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان
والمكان^(١).

حكمة استفتاح السورة بالتسبيح:

الإسراء معجزة من الله سبحانه تأييداً لرسوله ﷺ وتكريماً له ثم زاد هذا
التكريم تكريماً خالداً حتى يرث الله الأرض ومن عليها فقد سجله في أقدس كتاب
واشرف تنزيل من رب العالمين ولتبدأ به سورة من سور القرآن العظيم وسميت
السورة بسورة الإسراء وقد استنتج علماؤنا حكماً لهذا وهي:

١ - ((إن العرب تسبح عند الأمر العجيب ورحلة الرسول ﷺ يقظة كانت مدعاة
للتعجب والدهشة.

٢ - عندما حدثهم بما وقع له ليلة أسري به كذبوه فهذا رد عليهم ويعني تنزيه الله
أن يتخذ رسولاً غير الحق.

٣ - هو ذكر يُعَظِّم الله به لا يصلح إلا له.

وقد وصفه بعبد دون نبيه أو حبيبه لئلا تضل أمته أو لأن وصفه بالعبودية
المضافة إلى الله تعالى أشرف المقامات وهذا الوصف دليل على أنه قد أسري به ﷺ
وسلم جسداً وروحاً يقظة لدلالة اللفظ على ذلك))^(٢).

(١) في ظلال القرآن ، ح ٤ ، ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامي ، ت ٩٤٢ هـ تحقيق
مصطفى عبد الواحد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٣٩٢ ، ص ١٥.

المعراج :

خص الله نبيه سليمان عليه السلام بمعجزات أرضية في سرعة الانتقال في لحظة من الزمن ، غير أن محمداً ﷺ قد حصل له من المعجزات ما هو أعظم وأبقى و((المعراج هو المصعد وهو الطريق الذي تصعد فيه الملائكة والمعراج شبه سلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت والمعراج هو السلم ومنه ليلة المعراج.

والمعراج ثابت بالأحاديث الصحيحة التي رواها الثقات العدول وتلقاها الأمة بالقبول وأخرجها الشيخان وغيرهما فيما روي من أحاديث الرسول ﷺ . بل ويرى بعض العلماء أن القرآن الكريم قد أشار إلى المعراج في سورة النجم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ^(١) . يقول ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ((والمقصود أنه ﷺ لما فرغ من أمر بيت المقدس نصب له المعراج وهو السلم فصعد فيه إلى السماء ولم يكن الصعود على البراق كما قد يتوهمه بعض الناس بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة)) ^(٢) .

وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية ((المعراج: مفعال من العروج أي: الآلة التي يعرج فيها أي يصعد وهو بمنزلة السلم لكن لا يعلم كيف هو وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن بها ولا نشغل بكيفيتها)) ^(٣) .

((أما البراق الذي ركبهُ المصطفى ﷺ في سراه من مكة إلى بيت المقدس فقد قال: ابن الأثير في النهاية ((سمي بذلك لنصوع لونه وشدة بريقه وقيل لسرعة حركته شبهه فيها بالبرق)) ^(٤) .

(١) سورة النجم آية ١٣ - ١٨ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ، ص ٧٤ .

(٣) الطحاوية ، ص ١٨٦ .

(٤) سبل الهدى، ص ١٦٣ .

معجزة الإسراء والمعراج

حينما تكون رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات وصاحبها خاتم الأنبياء والرسل فإن هذا يلزم منه شيئاً غير عادي ذلك لتثمر هذه الرسالة وتؤتي أكلها كل حين بأمر ربها ولا يتم ذلك إلا بتثبيت جذورها وأساسها في قلوب المؤمنين بها ولا يكون هذا حتى يتعرض معتقديها للاختبار الصعب الذي يتراجع عنه أصحاب الشكوك والأوهام ونحن نعلم أن الرسالات السابقة قد أصابها الذبول والتحريف والانحراف عن الجادة وقل اتباعها وانحرفوا عن الطريق السوي ولأن الله قد سبق قدره وحكمته في أمره جميعاً وهو العالم بما يصلح الناس فقد هيا لهذه الرسالة الخاتمة أسباب نجاحها واستمرارها فكان الرسول ﷺ الذي رباه الله ورعاه وحفظه منذ كان جنيناً فصغيراً فشاباً حتى بعثه الله نبياً ، وكانت الأرض التي بعث فيها أرضاً بكرأ من الرسالات والرسل والوحي ثم أيده الله بهذا القرآن العظيم الذي تكفل الله بحفظه إلى أن تقوم الساعة.

كان القرآن العظيم هو معجزة محمد ﷺ الذي تحدى به العرب وهو مركب مثل كلامهم وألفاظهم وهو كلام الله تعالى وسيبقى معجزة حتى تقوم الساعة وقد تكفل الله بحفظه بخلاف الكتب السابقة التي حرفت وغيّرت وبدلت وضيعت وأدخل فيها كلام البشر ، وقد أيد الله رسوله ﷺ بمعجزات حسية كثيرة والإسراء والمعراج من هذه المعجزات والتي يجب علينا الإيمان بها لورود الأدلة الصريحة الصحيحة عليها من غير تأويل كما يفعل البعض فإن الله سبحانه قادر على فعل ما يشاء وهو الذي أوجد هذا الكون فمن السهل أن يغير من نواميس وطبائع الكون وبهذا تكون المعجزات.

ويقول الشيخ أبو شهية رحمه الله ((وقد أراد الله سبحانه أن يجمع الفضل من أطرافه لخاتم رسله وحامل لواء الشريعة الباقية الخالدة فأعطاه معجزات حسية فضلاً عن معجزته الكبرى المعنوية والناس ليسوا سواء في الإدراك والتفكير وسمو

الفطرة فمنهم من يقف عند المحسوس ولا يسمو نظره إلى المعقول ومنهم من لا يقتنع بالمحسوس فاقتضت حكمة الله عز شأنه أن تكون معجزات خاتم أنبيائه بعضها حسي وبعضها معنوي.

الإسراء هو تمام الهيئة والحفظ من الله تعالى لرسوله ﷺ للذهاب به من مكة إلى بيت المقدس في جزء يسير من الليل ورجوعه في نفس ليلته.

وهكذا المعراج فإنه تمام الهيئة والحفظ من الله تعالى لرسوله ﷺ حين صعد به إلى السموات السبع وما فوقها ثم رجوعه إلى بيت المقدس الذي صعد منه في جزء يسير من الليل وكان ذلك في نفس تلك الليلة التي أسري به من مكة^(١).

الإسراء ثابت في القرآن الكريم والسنة الشريفة:

أما في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢).

وأما في الأحاديث ((فقد روى أحاديث الإسراء والمعراج كثير من الصحابة رضوان الله عليهم وتلقاها عنهم الرواة العدول الضابطون وخرّجها أئمة الحديث في كتبهم: البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي والبيهقي وابن جرير الطبري وغيرهم ، وذكرها الإمامان محمد بن إسحاق وابن هشام في سيرهما^(٣)).

وقال العلامة الإمام ابن كثير في تفسيره ((قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه [التتوير في مولد السراج المنير] بعد أن ذكر حديث الإسراء والمعراج من طريق أنس وتكلم عليه وأفاد وأجاد : وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة

(١) الإسراء والمعراج ، للدكتور أبو شهبة ، ص ١٥ .

(٢) سورة الإسراء آية ١ .

(٣) الإسراء والمعراج ، للدكتور أبو شهبة ، ص ٣٩ .

وأبي سعيد الخدري وابن عباس وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرظ وأبي حبة ((وذكره الواقدي بالنون))^(١) وأبي ليلى الأنصاري وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب الأنصاري وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء وصهيب الرومي وأم هانيء وعائشة وأسماء عنهم جميعاً منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع من المسانيد وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحيح فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّأ أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(٢) ((^(٣))).

وقد أورد الإمام الحافظ ابن كثير أغلب تلك الروايات في تفسيره للقرآن العظيم ثم قال: ((إذا حصل الوقوف على مجموعة هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس))^(٤) وفي هذا المبحث سيكتفى بذكر أصح تلك الروايات والتي اتفق عليها الشيخان أو أحدهما.

رواية الإمام البخاري:

قال البخاري حدثنا هدية بن خالد قال: حدثنا همام بن يحيى قال: حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما ((أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال: بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر^(٥)

(١) الإسراء والمعراج ، للدكتور أبو شهبه ، ص ٣٩

(٢) سورة التوبة آية ٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

(٥) الحطيم هو الحجر . وانظر معاني الكلمات في هذا البحث في شرح حديث الإسراء والمعراج في صحيح البخاري ومسلم لابن حجر والنووي .

مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فقدَّ (١) قال وسمعتَه يقول: فشق ما بين هذه إلى هذه فقلت للجارود (٢) ما يعني به ؟ قال: من ثغرة نحره إلى أسفل بطنه. فأستخرج قلبي ثم أُتيت بطشت من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود هو البراق (٣) يا أبا حمزة ؟ قال أنس: نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه (٤) فحملت عليه فأنطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ، نعم المجيء جاء ، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأبن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح ، قيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت إذا يوسف قال: هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه

(١) القَدَّ : هو القطع .

(٢) الجارود بن أبي سبرة البصري تابعي ثقة توفي سنة ١٢٠هـ تهذيب التهذيب لابن حجر، ج ٢، ص ٤٦.

(٣) البراق بضم الباء مشتق من البرق إذ سرعته في سيره مثل سرعة البرق في لمعانه.

(٤) طرفه يعني منتهى بصره .

فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا هارون. قال: هذا هارون فسلم عليه. فسلمت عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما تجاوزت بكى قيل: له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً^(١) بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به ونعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال فسلمت عليه فردّ السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم رفعت لي سدرة المنتهى^(٢) فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لي البيت المعمور ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة^(٣) التي أنت عليها وأمتك، ثم

(١) لم يرد موسى عليه السلام التقليل من شأن النبي ﷺ وإنما أراد صغر السن بالنسبة لمن كان أكبر منه سناً من الأنبياء ومع هذا فقد أعطاه الله ما لم يعط أحدا ممن هو أسن منه وأطول عمراً وزمناً.

(٢) سميت بذلك لأنها ينتهي إليها علم كل نبي مرسل وكل ملك مقرب ولم يجاوزها أحد إلا نبينا صلى الله عليه وسلم.

(٣) عبر عن اللبن بالفطرة لأنه أول ما يدخل بطن المولود ويشق أمعائه وهو الغذاء الذي لم يصنعه صانع غير الله والغذاء المستوفي للعناصر التي يحتاج إليها الجسم في بنائه ونموه مع كونه طيباً سائغاً للشاربين.

فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أمرت ؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فرفع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى ، فقال : بما أمرت ؟ قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، قلت : سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم ، فلما جاوزت نادى مناد^(١): أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي. ((^(٢)).

وقد قال البخاري حدثنا الحميدي حدثنا سفيان عمرو عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ((﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ ^(٣) قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، قال: والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم))^(٤).

رواية الإمام مسلم:

قال الإمام مسلم: حدثنا محمد بن المثنى حدثنا ابن أبي عدي عن سعيد عن

(١) المنادي هو الله سبحانه إذ هذا الكلام لا يصدر إلا منه سبحانه وهذا من أقوى الأدلة على أن الله سبحانه وتعالى كلم نبيه ليلة المعراج بغير واسطة.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ح ٦ ، ص ٣٠٢.

(٣) سورة الإسراء آية ٦٠.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار باب المعراج ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

قتادة عن أنس بن مالك لعله قال عن مالك بن صعصعة رجل من قومه قال ، قال رسول الله ﷺ بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول أحد الثلاثة بين الرجلين فأُتيت فانطلق بي فأُتيت بطشت من ذهب فيها من ماء زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا قال قتادة فقلت للذي معي ما يعني ، قال أسفل بطنه فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيماناً وحكمة ثم أُتيت بدابة أبيض يقال له البراق فوق الحمار ودون البغل يقع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا ... والحديث متفق عليه ((^(١))). والحديث تقدم بطوله عند البخاري.

وفي رواية أخرى للإمام مسلم قال: حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا حماد بن سلمه حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: أُتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أُتيت بيت المقدس قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء ... الحديث ((^(٢))).

ثم ساق مسلم الحديث كما تقدم عند البخاري في روايته وفي آخره فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: ((يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم و ليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرأ ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة)) (^(٣)).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، ج٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات. ج٢ ، ص ٢٢٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، ج٢ ، ص ٢١٤ .

قال الشيخ أبو شهبه بعد أن أورد ما رواه مسلم في هذه الرواية ((وقد تكفلت رواية مسلم هذه بذكر ما أوجز في الرواية الأولى من إتيانه ﷺ بيت المقدس والصلاة فيه ركعتين وعرض جبريل على النبي ﷺ الخمر قبل العروج وهكذا نرى أن الروايات يكمل بعضها بعضاً وما تركته إحداها ذكرته الأخرى))^(١). وهكذا نرى أن المعراج ثابت بالسنة المطهرة الصحيحة.

زمان الإسراء والمعراج ومكان وقوعه:

أما زمان الإسراء فقد ذكر العلماء أقوالاً عدة ذكرها السيوطي فقال: ((قيل قبل الهجرة بسنة قاله ابن مسعود وجزم به النووي وقيل قبل الهجرة بثمانية أشهر وقيل كان قبل الهجرة بثلاث سنين وقد حكاه ابن الأثير وقال الزهري بخمس وحكاه عنه القاضي عياض رحمه الله بالاتفاق على أن خديجة صلت معه بعد فرض الصلاة وأنها ماتت قبل الهجرة بثلاث أو بخمس ولا خلاف أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء وأجيب بان الصلاة التي صلتها معه هي التي كانت أول البعثة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، أما عن الشهر الذي كان فيه فالذي رجحه ابن المنير على قوله في السنة ربيع الآخر وقيل في ربيع الأول وقيل في رجب وهو المشهور))^(٢). لكن القول بأنه قد وقع الإسراء في شهر ربيع الأول أرجح فقد ذكر ابن كثير أثراً في البداية والنهاية حيث قال: ((وقال أبو بكر أبي شيبة حدثنا عثمان عن سعد بن مينا عن جابر وابن عباس قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات. - ثم قال - وفيه انقطاع وقد اختاره الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي في سيرته))^(٣).

(١) الإسراء والمعراج للدكتور أبو شهبه ، ص ٤٦.

(٢) شرح قصة الإسراء والمعراج للإمام السيوطي ، ص ٣١.

(٣) البداية والنهاية ح ٣ ، ص ١٠٧.

هل كان الإسراء والمعراج في ليلة واحدة ؟.

قال السيوطي ((ذهب الجمهور من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين إلى أنهما وقعا في ليلة واحدة في اليقظة وتواردت عليه الأخبار الصحيحة)) (١) .
وقال ابن حجر في الفتح ((قال ابن دحية: جنح البخاري إلى أن ليلة الإسراء كانت غير ليلة المعراج لأنه أفرد لكل منهما ترجمة قلت: ولا دلالة على ذلك على التغاير عنده بل كلامه في أول الصلاة ظاهر في اتحادهما وذلك أنه ترجم ((باب كيف فرضت الصلاة ليلة الإسراء)) والصلاة إنما فرضت في المعراج فدل على اتحادهما عنده)) (٢) .

مكان وقوع الإسراء :

جاء في الأحاديث أقوالاً مختلفة فقليل في المسجد وقيل بين المقام وزمزم وقيل في الحجر وقيل في بيته وقيل في بيت أم هاني وقيل في بيت خديجة وقيل في شعب أبي طالب قال ابن الأثير في الكامل ((وقائل هذا يقول: الحرم كله مسجد)) (٣) .

قال ابن حجر في الفتح ((والجمع بين هذه الأقوال أنه نام في بيت أم هاني وبيتها عند شعب أبي طالب ففرج سقف بيته فنزل منه الملك فأخرجه إلى المسجد فكان به مضطجعا وبه أثر النعاس ثم أخرجه الملك إلى باب المسجد فأركبه البراق وقد وقع في مرسل الحسن عند أبي إسحاق إن جبريل أتاه فأخرجه إلى المسجد فأركبه البراق وهو يؤيد الجمع)) (٤) .

هل كان الإسراء بالجسد والروح أم بأحدهما ، يقظة أم مناماً ؟:

الإسراء والمعراج آيتان عظيمتان من آيات الله سبحانه وتعالى التي أيد بهما

(١) شرح فقه الإسراء والمعراج للإمام السيوطي ص ٢٥ .

(٢) فتح الباري ح ٧ باب حديث الإسراء ص ١٩٦ .

(٣) الكامل في التاريخ، لابن الأثير ، دار صادر بيروت ١٤٠٢هـ ، ح ٢ ، ص ٥١ .

(٤) فتح الباري ح ٧ ، ص ٢٠٤ .

رسوله ﷺ وقد اختلف في كيفيتهما وهل كانا بالجسد والروح أم بأحدهما وهل كانا يقظة أم مناماً وذلك في عدة أقوال:

القول الأول: جمهور العلماء من السلف والخلف على أنهما كانا ليلة واحدة وأنهما كانا بجسده وروحه ﷺ ويؤيد هذا القول ما اشتملت عليه آية الإسراء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ﴾ والتسبيح إنما يكون في الأمر العجيب والعظيم ولا عجب من الرؤيا فإنها تقع لكل أحد وقريش إنما كذبت الإسراء الحقيقي وليس الرؤيا ، وفي قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ والعبد يطلق على الجسد والروح معاً.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ فهذا يقتضي سفرأ وقد وردت الأحاديث بالنص على البراق في حمل المصطفى ﷺ والروح لا تحمل لوحدها.

ثم إن الصلاة قد فرضت في هذه الليلة المباركة على أشرف الخلق ﷺ ليلبلغ أتمه بفرضها ولا يصح أن يكون هذا المقام إلا في حالة اليقظة والوعي التام.

وفي قوله تعالى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ أي ما عدل عن رؤية ما أمر به وبرؤيته من عجائب الملكوت وهي صراحة ظاهرة في كونه بجسده يقظة لأنه أضاف الأمر إلى البصر وهو لا يكون إلا يقظة بجسده^(١).

والإمام البيهقي ترجم باباً في عروج النبي ﷺ فقال الدليل على أن النبي ﷺ عرج به إلى السماء فرأى جبريل عليه السلام في صورته عند سدرة المنتهى وقبل ذلك كان قد رأى جبريل عليه السلام في صورته وهو بالأفق الأعلى ((^(٢)).

القول الثاني: الذين قالوا إن الإسراء بالروح دون الجسد ((نقله ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما ونقل عن الحسن البصري نحوه لكن ينبغي أن

(١) سبل الهدى ، ص ٩٨ .

(٢) دلائل النبوة ، ح ٢ ، ص ٣٦٦ .

يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً وبين أن يقال كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم. فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولوا كان مناماً وإنما قالوا: أُسري بروحه ولم يفقد جسده وفرق ما بين الأمرين: وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أُسري بها ففارقت الجسد ثم عادت إليه ويجعلان هذا من خصائصه فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت ((^(١)).

والذين قالوا بهذا القول أعتمدوا على حديث عائشة الذي قالوا: إنها روته وهو ((ما فقدتُ جسد رسول الله ﷺ ولكن أُسرى بروحه)).

قال صاحب سبل الهدى في هذا الحديث ((وأما ما يعزى لعائشة رضي الله عنها فلم يرد بسند صحيح للحجة بل في سنده انقطاع . وقال أبو الخطاب بن دحية في التنوير في مولد السراج المنير أنه حديث موضوع عليها)) (^(٢)).

وقال الشيخ أبو شهبه ((ومما يضعف هذا الأثر ويرده أن السيدة عائشة رضي الله عنها لم تكن حينئذ قد دخل بها رسول الله ﷺ وكذلك لو كانت ترى هذا الرأي الذي نسبوه إليها زوراً لكان أقرب شيء في ردها على من يقول بالرؤية أن تحتج عليهم بأن المعراج لم يكن بجسده ولكن لم ينقل عنها أنها احتجت بذلك)) (^(٣)).

أما معاوية فإنه أسلم بعد الفتح. وكذلك فإن ظواهر النصوص ترد هذا القول. القول الثالث: الذين قالوا إنهما كانا في المنام وهم يستدلون بقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ (^(٤)). والرؤيا إنما تطلق على المنامية وللدرد على هذا القول أولاً: قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ((هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به والشجرة الملعونة شجرة الزقوم)) (^(٥)).

ثانياً: ((لو كان كذلك لما كان فيها شيء يستعظم ولما بادر كفار قريش إلى

(١) العقيدة الطحاوية، ص ١٨٦.

(٢) سبل الهدى، ص ١٠٣.

(٣) الإسراء والمعراج للدكتور أبو شهبه، ص ٢٨.

(٤) سورة الإسراء آية ٦٠.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح ٧، ص ٢٠٢.

تكذيب ذلك)) (١) .

القول الرابع: الذين قالوا إن الإسراء كان يقظة والمعراج كان مناماً وإستدلوا بأن قریش اعترضت على الإسراء وكذبوه حين أخبرهم ﷺ وكذلك فإن الإسراء ذكر في القرآن وللدرد على هذا قال صاحب سبل الهدى ((وأجاب الأئمة عن ذلك بأنما استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولاً فلما ظهرت أمارات صدقه وصحت لهم براهين رسالته .. أخبرهم بالمعراج.. وأنزله الله في سورة النجم ويؤيد وقوع المعراج عقب الإسراء في ليلة واحدة رواية ثابت عن أنس رضي الله عنهما عند مسلم (٢) (٣) .

القول الخامس: الذين قالوا إنه وقع مرتين أحدهما مناماً والأخرى يقظة وذلك لكي يجمعوا بين الأحاديث.

القول السادس: الذين قالوا إن الإسراء والمعراج وقع مراراً في مكة وفي المدينة لما اعتقدوه من اختلاف الروايات كما ظهر لهم.

والراجع : أن المقصود من الإسراء والمعراج هو تأييد الرسول ﷺ بمعجزة من الله تعالى وهي الأمر الخارق للعادة ويجريها الله على يد نبي من أنبيائه عليهم الصلوات والتسليم ولا يكون الإسراء والمعراج معجزة للرسول ﷺ إلا إذا كان بروحه وجسده يقظة مرة واحدة بدليل أن الصلاة قد فرضت ويستحيل تكرار فرضها مرات أخرى.

قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد : ((ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه مراراً كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً . ثم يقول الله تعالى ((أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي)) ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها

(١) الإسراء والمعراج للدكتور أبو شهبة، ص ٢٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٢ ، ص ٢٠٩.

(٣) سبل الهدى ، ص ١٠٠.

عشراً وقد غلّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء ؛ ومسلم أورد المسند منه فقدم وآخر وزاد ونقص ولم يسرد الحديث فأجاد رحمه الله (((١).

الرد على من أنكر وقوع الإسراء والمعراج:

إن أهل الباطل لا يهدأون وإذا قريء عليهم الحق لا يسمعون وهم في الغي والضلال سائرون وهؤلاء الفلاسفة والملاحدة والزنادقة يوردون شبهاً ظنوها حقائقاً فكانت زيغاً وبهتاناً وكان من ضلالتهم ((هو قولهم باستبعاد الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم الصعود إلى السماء ثم الهبوط منها ثم العودة إلى مكة في جزء من الليل وقولهم إن الطبقة الهوائية حول الكرة الأرضية محدودة وقولهم إن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة ثم لو صعد إلى السموات لوجب خرق الأفلاك ثم إن الجرم الثقيل يستحيل صعوده إلى أعلى ثم عادوا ليقولون إنه كان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدق من ادعى النبوة (((٢) .

قال الشيخ أبو شبهة ((هذه شبه لا تثبت أمام البحث العلمي الصحيح)) (٣).

فالإسراء والمعراج أمران ممكنان عقلاً وأخبر بهما الصادق المصدوق ﷺ في القرآن الكريم المتواتر وفي الأحاديث الصحيحة المشهورة.

وأجيب عن الحركة البالغة في السرعة أنها ممكنة في نفسها والله قادر على ذلك ويدل على صحته أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور وأيضاً كانت الرياح تسير لسليمان بن داود ﴿ غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ ﴾ (٤).

أما خرق الأفلاك فليس بمحال لأن الأجسام العلوية والسفلية متماثلة ومركبة

(١) زاد المعاد، ح ٣ ، ص ٤٢ .

(٢) سبل الهدى ، ص ١٠٧ .

(٣) الإسراء والمعراج للدكتور أبو شبهة، ص ٣٧ .

(٤) سورة سبأ آية ١٢ .

من الجواهر فإذا أمكن خرق الأجسام السفلية أمكن خرق الأجسام العلوية.

وإذا استبعد صعود الجسم الكثيف فإنه يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من العرش إلى مركز العالم فإذا استحال عروج النبي ﷺ استبعد نزول جبريل أما كونه ليلاً فله فوائد منها: ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب ويفتن الذين كفروا زيادة على فتنهم ومنها أن الليل وقت الخلوة والاختصاص^(١).

ثم إن الرسول ﷺ قد أخبر قريشاً بأوصاف بيت المقدس كما يعرفونها ولم يزرها من قبل.

الإسراء والمعراج ووحدة الوجود:

إن الدين الإسلامي هو الدين الباقي إلى يوم القيامة لأنه قد استكمل كل المقومات الثابتة فهو الدين المرتضى عند الله ((إن الدين عند الله الإسلام)) وهو دين الفطرة السليمة الخالصة من الهوى والشبهات وهو الدين الوحيد الذي حفظ الله كتابه العظيم وسبقه محفوظاً حتى يبعث الله الأرض ومن عليها ومدعماً بسنة صحيحة شارحة مبينة لما أجمل ، محفوظة مصانة ثابتة بالإسناد السالم من الجرح، ثم هيأ الله علماء أجلاء خدموا السنة فبقيت صافية خالصة من عبث العابثين. وفي هذا العصر يأتي من يحاول خلط الصحيح بالسقيم والداء بالدواء وهيهات أن يتم ذلك لهم .

قال الشيخ أبو شبة ((ولا يفوتني وقد عرضت للآراء في الإسراء والمعراج وبينت الصحيح منها من الزائف أن أعرج على رأي ساقه الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه ((حياة محمد)) . عليه أفضل الصلاة والسلام وهو تصوير الإسراء والمعراج تصويراً روحياً مبنياً على فكرة وحدة الوجود. وهاك ما ذكره في كتابه بعد ما ذكر خلاف العلماء في الإسراء والمعراج قال: ((ففي الإسراء والمعراج في حياة محمد الروحية معنى سام غاية السمو معنى أكبر من هذا الذي

(١) سبل الهدى ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

يصوروه والذي قد يشوب بعضه من خيال المتكلمين حظ غير قليل. فهذا الروح القوي قد اجتمعت فيه في ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها لم يقف أمام ذهن محمد وروحه في تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التي تجعل حكمنا نحن في الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا المحسة والمدبرة والعاقلة .. ((^(١).

الرد على فكرة وحدة الوجود:

إن فكرة وحدة الوجود هي من الأفكار التي وفدت مع الفلاسفة ودراسة التراث اليوناني وتأثر بها بعض علماء المسلمين ثم تشيع لها بعض الصوفية المنتسبين للإسلام وقد تصدى لها علماء الإسلام الحق وذاذوا عنه وفندوا مغالطاتهم وكذبهم وقولهم بقدّم العالم وإنكار الألوهية وهدم الشرائع السماوية التي قامت على أساس التفرقة بين الخالق والمخلوق وبين وجود الرب ووجود العبد ((ومقتضى هذا المذهب أن الوجود واحد فليس هناك خالق ومخلوق ولا عابد ولا معبود ولا قديم ولا حديث وعابدوا الأصنام والكواكب والحيوانات حين عبدوها إنما عبدوا الحق لأن وجودها هو وجود الحق))^(٢).

وفي كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام قال: ((ولهذا لما سلك ابن عربي وابن سبعين وغيرهما هذا الطريق الفاسدة أورثهم ذلك الفناء عن وجود السوى فجعلوا الموجود واحداً ووجود كل مخلوق هو عين وجود الحق وحقيقة الفناء عندهم أنه لا يرى إلا الحق وهو الرائي والمرئي العابد والمعبود والذاكر والمذكور والأمر الخالق هو الأمر المخلوق وهو المتصف بكل ما يوصف به الوجود من مدح وذم وعباد الأصنام ما عبدوا غيره وما ثم موجود مغاير له البتة عندهم وهذا منتهى سلوك هؤلاء الملحدين - وأكثر هؤلاء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود يقولون إن

(١) الإسراء والمعراج للدكتور أبو شهبة ، ص ٣١ .

(٢) الإسراء والمعراج ، للدكتور أبو شهبة ، ص ٣٢ .

فرعون أكمل من موسى وإن فرعون صادق في قوله: أنا ربكم الأعلى لأن الوجود فاضل ومفضل والفاضل يستحق أن يكون رب المفضل ومنهم من يقول مات مؤمناً وأن تغريقه كان ليغتسل غسل الإسلام)) (١).

وفي هذا العصر أبتلي الإسلام وأهله بطائفة من علماء الغرب سُمُوا بالمستشرقين وهم يكفرون بالمعجزات وخوارق العادات وذلك لكفرهم في الأصل برب المعجزات وخالقها وكان هدفهم هو تحطيم التشريع الذي نزل به الوحي.

قال الدكتور البوطي ((ثم تلقف هذه النظرية منهم أناس من المسلمين كان من سوء حظ العالم الإسلامي أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب دون أي مؤيد سوى الأتيان بزخرف خداعهم وإنخفاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التي هبت في أنحاء أوربا وكان من هؤلاء المسلمين الشيخ محمد عبده ومحمد فريد وجدي وحسين هيكل .. فراحوا يروجون صفات معينة لرسول الله ﷺ .. وقد تكون صورة محمد العبكري أو تكون صورة محمد القائد أو محمد البطل - أو حياة محمد - ولكنها لا ينبغي - عندهم - أن تكون على أي حال من الأحوال صورة محمد النبي والرسول. ذلك لأن ظاهرة الوحي والنبوة تعتبران في رأس المعجزات)) (٢).

أما المعتزلة فقد أثبتوا الإسراء إلى بيت المقدس لورود ذلك في القرآن الكريم فقال القاضي عبد الجبار: ((إنه ﷺ أُسري به في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عاد من ليلته إلى مكة ، ومدة السفر في ذلك مقدار شهرين ذهاباً وإياباً ، وهذا لا يفعله الله إلا للأنبياء في زمن الأنبياء)) (٣). وهذا واقع للجسد والروح وهذا خاص بالإسراء أما المعراج فإنهم لا يثبتونه ولا يصرحون بعدم وقوعه ، فقال القاضي عبد الجبار في كتابه المغني ((ومن ذلك ما أخبر به ﷺ ،

(١) كتاب الرد علي المنطقيين لشيخ الإسلام ، ص ٥٢١.

(٢) فقه السيرة للدكتور البوطي ، ص ١٤٨ .

(٣) تنبئت دلائل النبوة للقاضي ، عبد الجبار ، ج ١ ، ص ٤٦ .

وشهد القرآن بصحته ، ووقع التصديق من الكافة، من أنه أسري به إلى بيت المقدس حتى أخبرهم بالأمور التي شاهدها ، فإن ثبت مع ذلك ما يرون في حديث المعراج أو بعض ذلك فهو أوكد في الدلالة ، وإن كان القدر الذي شهد القرآن بصحته فهو ما قدمناه)) (١).

((والذي يظهر أن إغفالهم للمعراج ليس سببه عدم ثبوت نصوصه، فقد أثبتوا المعجزات للنبي ﷺ ما هو أقل شهرة وأضعف إسناداً من قصة المعراج ، فإن قصة المعراج ثابتة متواترة ، وإنما السبب لإغفالهم المعراج أن فيه إثباتاً للأمور ينكرونها وهي إثبات علو الله عز وجل والنسخ قبل التمكن من الامتثال، والدال على هذا كلام أبي الحسين البصري في إنكاره للنسخ قبل الفعل)) (٢).

حيث قال : ((ومن أدلة المثبتين قولهم إن النبي ﷺ لما عرج به إلى السماء فرض الله عز وجل عليه وعلى أمته خمسين صلاة، فأشار إليه موسى عليه السلام بالرجوع وأن يشفع في النقصان وأنه قبل ما أشار عليه ، فردت الصلاة إلى خمس بعد رجعات وذلك نسخ قبل الوقت ، والجواب: أن ذلك خبر واحد لا يجب قبوله فيما يجب أن نعلم ، أيضاً فالخبر يتضمن من أنواع التشبيه ما يدل على أن أكثره موضوع)) (٣) ! فهذا يدل على انكارهم له لما تضمن من إثبات الصفات لله عز وجل. وقد عزا الاسفراييني إلى المعتزلة إنكار المعراج ، وأن هذا من الأمور التي أجمعوا عليها (٤).

وقد ((اعترض المبتدعة وغيرهم ، وقالوا: لم يأت ذكر العروج في القرآن، وإنما أتى فيه ذكر الإسراء إلى المسجد الأقصى.

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبد الجبار ، تحقيق مصطفى السقا ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر سنة ١٣٨٥هـ ، ج ١٦ ، ص ٤١٩ .
(٢) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية ، يحيى بن أبي الخير العمراني ، تحقيق د . سعود الخلف ، أضواء السلف ، الرياض سنة ١٤١٩هـ ، ج ٢ ، ص ٦٥٢ .
(٣) المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري ، تحقيق محمد حميد الله ، نشر المعهد العلمي الفرنسي ، دمشق ، سنة ١٣٧٤هـ ، ج ١ ، ص ٤١٢ .
(٤) التبصير في الدين ، أبي المظفر الأسفراييني، تحقيق كمال الحوت ، عالم الكتب سنة ١٤٠٣هـ، انظر ص ٦٦ .

فيقال: إن ابتداء أمره ﷺ كان بالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى والعروج إنما كان بعد ذلك ، فلو أخبر النبي ﷺ بالعروج ابتداء لم يصدقوه، فأسراه الله ابتداءً إلى بيت المقدس حتى شاهده وراه ثم عرج به منه إلى السماء وأرى ما رأى من العجائب ، فكما نزل وأخبر قومه من الغد بالإسراء قالوا له: كيف رأيت بيت المقدس ؟ فطفق يخبرهم بذلك فلم يمكن أحداً منهم رأى بيت المقدس أن ينكره ، وسألوه عن خبر العير ؟ فأخبرهم فكان ذلك كالحجة اللازمة لهم في قبول خبره وتصديق مقالته ، هذا هو الحكمة في تقديم الإسراء على المعراج.

ويدل على حجة المعراج قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ (٢). ثم الأخبار المتواترة بالأسانيد المتصلة أنه عرج به إلى السماء (٣).

المسجد الحرام والمسجد الأقصى تاريخ ورسالة:

لقد عظم الله سبحانه مكانة هذين المسجدين في تاريخهما ورسالتهما.

فأما التاريخ فقد ارتبط بأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي قدم إلى مكة ومعه سيدنا إسماعيل رضيهما فتركه حيث أمره الله قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ

(١) سورة النجم آية ٧.

(٢) سورة التكوين آية ٢٣.

(٣) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ، للإمام إسماعيل بن محمد الأصفهاني تحقيق د. محمد ربيع المدخلي ، دار الراية ، الرياض ١٤١١هـ - ١ ص ٤٧٩ - ٤٩٩ - ٥٠٠.

(٤) سورة البقرة آية ١٢٥ - ١٢٧.

الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾
 وقال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد
 وضع على الأرض فقال: ((المسجد الحرام . قلت : ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى
 قلت: وكم بينهما . قال: أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة
 فصل)) (٣) .

والبيت الحرام هو أول بيت وضع للناس وأول من بناه إبراهيم عليه السلام
 كما نص القرآن فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
 لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ
 الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤).
 أما بيت المقدس فقد تأخر بناءه أربعين سنة وقد بناه إسحاق بن إبراهيم
 عليهما السلام)) (٥) .

وأما الرسالة فقد ارتبط برسالتي إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم الحنيفية
 السمحة ، وبعث محمد ﷺ في مكة وأسري به منها وعرج به من بيت المقدس القبلة
 الأولى ومهبط الرسالات والوحي.

قصة الإسراء والمعراج عند ابن كثير:

قال الحافظ بن كثير: ((إذا حصل الوقوف على مجموعة هذه الأحاديث

-
- (١) سورة الإسراء آية ١ .
 - (٢) سورة البقرة آية ١٤٤ .
 - (٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾ ج ٦ ، ص ٤٥٨ .
 - ؛ صحيح مسلم بشرح النووي كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ج ٥ ، ص ٢ .
 - (٤) سورة آل عمران آية ٩٦ - ٩٧ .
 - (٥) شرح قصة الإسراء والمعراج للسيوطي، ص ١٥

صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام.

قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة وكذا قال عروة وقال السدي: بستة عشر شهراً والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السموات السبع فتلقاه من كل سماء مقربوها وسلم على الأنبياء في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم في السادسة وإبراهيم الخليل في السابعة ثم جاوز منزلتيهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام أي أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى زخرفاً أخضر قد سد الأفق ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هناك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم وهذا هو اللائق لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجنب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ثم لما فرغ من الذي أريد به

اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم ((^(١)).

هداية الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الفطرة:

حفظ الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ من ما وقع فيه قومه من الزلل والأخطاء وكان ذلك قبل البعثة وبعدها قال ابن هشام في السيرة النبوية ((فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته حتى بلغ إن كان رجلاً وأفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً حتى ما أسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه الأمور الصالحة))^(٢).

ويكفي من كانت هذه أوصافه أن يكون أشرف الخلق وسيد ولد آدم عليه السلام وحين يصطفيه الله برسالته الخاتمة ثم يرفعه إليه في رحلة مباركة لم يشهدها التاريخ من قبل ولا من بعد بل وصل إلى مكان لم يصل إليه بشر ويتشرف بأمر الله له مباشرة بدون وسيط وفي هذا الوسط النوراني يتعرض المصطفى لاختبار له ولأتمته من بعده ولا غرو فمن كانت تلك أوصافه فإنه سينجح في الاختبار بإذن الله تعالى.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((قال النبي ﷺ حين أسري بي لقيت موسى عليه السلام .. قال فأنتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر قيل لي خذ أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال هديت الفطرة أو

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٢٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ١٨٣.

أصببت الفطرة أما أنك لو أخذت الخمر غوت أمتك)) (١).

وقال النووي في تفسير الفطرة ((فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة ومعناه والله أعلم اخترت علامة الإسلام والاستقامة وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة وأما الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع من الشر في الحال والمآل)) (٢).

وقال ابن حجر ((الفطرة أي دين الإسلام، قال القرطبي : يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لأنه أول شيء يدخل بطن المولود ويشق أمعائه والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفاً ولأنه لا ينشأ عن حبه مفسدة)) (٣).

قال ابن كثير ((وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء ويحتمل أنه ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقادم)) (٤).

معجزة شق الصدر:

كان لمحمد ﷺ موعد مع المعجزات صغيراً وهذا من حفظ الله له ورعايته وحمايته بل وهذا من إرهاصات نبوته ﷺ في زمن اتخذ الناس معبوداً من دون الله فهم يرون خالقهم صنماً من حجر أو خشب أو عجوة من تمر ومثل هؤلاء يرفضون كل ما لا يستطيعون أن يلمسونه أو يحسونه وتتكرر صور هؤلاء عبر القرون والأزمان فتظهر في عهدنا هذا وقد اتشحت بلباس المادية أو العصرية العلمانية وهم الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

روى الإمام أحمد رحمه الله عن عتبة بن عبد السلمي: ((أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال كانت حاضنتي من بني

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٢ ، ص ٢٣٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٢ ، ص ٢١٢.

(٣) فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٢١٥.

(٤) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٢٣.

سعد بن كعب فانطلقت أنا وابن لها في بهم^(١) لنا ولم نأخذ معنا زاداً فقلت يا أخي اذهب فاتنا بزاد من عند أمتنا فانطلق أخي ومكثت عند البهم فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران^(٢) فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو؟ قال : فأقبلا بيتراني فأخذاني وبطحاني إلى القفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقا فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه أنتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ثم قال أنتني بماء برد فغسلا به قلبي ثم قال أنتني بالسكينة فذراها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه حصه^(٣) فحاصه وختم عليه بخاتم النبوة ((^(٤)).

وقد تكرر هذا الأمر في حياته ﷺ مرة عند بعثته ومرة عند إسرائه ومعراجة.

قال ابن حجر في الفتح ((وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسرائ وقال إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد ولا إنكار في ذلك فقد تواردت الروايات به وثبت شق صدره أيضاً عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل ولكل منها حكمة فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس : فأخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه لينتقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الاسباغ بحصول المرة الثالثة كما يقرر في شرعه صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن تكون الحكمة في انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها. وجميع ما ورد من شق الصدر

(١) جمع بهمة وهي ولد الضأن والمراد أنه ﷺ كان يرعى الغنم مع أخيه من الرضاع.

(٢) هما ملكان من الملائكة.

(٣) أي خطه.

(٤) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد ح ٢٠ ص ١٩٠.

؛ المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٢ ، ص ٦٧٣ .

واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك ((^(١)).

البراق:

اعتاد الناس في أسفارهم أن يمتطوا صهوات جيادهم أو ظهور ركابهم أو دوابهم وعندما أسري برسول الله ﷺ هياً الله له دابة هي معجزة في ذاتها وتكريم للرسول صلى الله عليه وسلم وزيادة إيمان لمن آمن بها.

((والبراق بضم الموحدة وتخفيف الراء مشتق من البرق فقد جاء لونه أنه أبيض أو من البرق لأنه وصفه بسرعة السير أو من قولهم شاة برقاء إذا كان خلالها صوف أبيض وأسود والقدرة كانت صالحة لأن يصعد بنفسه من غير براق ولكن ركوب البراق كان زيادة له في تشريفه لأنه لو صعد بنفسه لكان في صورة ماشي والراكب أعز من الماشي. وقيل إن الحكمة في الإسراء به ركباً مع القدرة على طيء الأرض له إشارة إلى أن ذلك وقع تأنيلاً له بالعادة في مقام خرق العادة لأن العادة جرت بأن الملك إذا استدعى من يختص به يبعث إليه بما يركبه))^(٢).

تعقيب:

قال الشيخ أبو شبهة رحمه الله تعالى في نهاية رسالته الإسراء والمعراج بعنوان أمل ورجاء ((وبعد: فهذه قصه الإسراء والمعراج ذكرتها كما استقيتها من أصح الأخبار وأوثقها وأجدرها بالقبول وأملّي ورجائي أن يتخذ منها الوعاظ والمرشدون والأئمة والكاتبون والخطباء والمحاضرون مادة خصبة في وعظ الناس وإرشادهم وفي خطبهم ومحاضراتهم وأن يكفوا عن ذكر القصص الذي لا سند له يصح عند التحقيق. وأن يتخذ منها المنشدون وقارئوا الموالد والمتغنون بالخصائص المحمدية مادة صحيحة لإنشادهم فإن كثيراً من هؤلاء يأتون بغرائب كثيرة قد تشوق

(١) فتح الباري ، ح ٧ ، ص ٢٠٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ح ٣ ، ص ٢٢ .

الناس وتستولي على وجدانهم. وإن لنا في الثابت الصحيح ما يغني عن التزديد والاختلاق .. ((^(١).

لقد تردد الباحث كثيراً في إثبات هذا التعقيب وأنى يكون له بضاعة أمام تاجر في الحديث وعلوم القرآن بل هو خادم القرآن والسنة، وهو الذي أفنى عمره رحمه الله في التدريس والتأليف والدعوة إلى الله؛ لكن العزاء في هذا قوله السابق: وإن لنا في الثابت الصحيح ما يغني عن التزديد ..

أما رسالة الإسراء والمعراج فحقاً ثناءه عليها وقد رُجع إليها كثيراً في البحث.

وأما قوله ((وإن يتخذ منها المنشدون وقارئوا الموالد والمتغنون بالخصائص المحمدية ..)) ومن المعلوم أن هؤلاء المنشدون والمتغنون هم دعامة الاحتفال بالمولد النبوي وبدونهم لا يتم لأولئك الحاضرين المولد الفرح والسرور والاعتباط؟! على طريقتهم وكذا الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج عندهم .

والمولد النبوي - كما يسمونه - لا أصل له في التشريع الإسلامي بل هو تقليد ومحاكاة للنصارى واليهود في أعيادهم واحتفالاتهم بمولد أنبيائهم .

وهذا المولد النبوي قد سخره من كان يعادي الرسول ﷺ وسنته للظهور بمظهر المحب للرسول ﷺ مثل الدولة الفاطمية - العبيدية.

وجاءت طوائف أخرى يبتدعون في الدين حسب الهوى والبعد عن الأدلة وما جاء به والوحي .

وهناك من يستفيد من هذه الاحتفالات ممن يسمون أنفسهم شيوخ الطريقة وأقطابها فهم يحصلون على أموالاً ومراكز قيادية بين الناس وتعظيماً وتبجيلاً عندهم !!.

فكفى الله الأمة ما أحدثه المبتدعون من البدع والضلال وذلك بتمسكهم بكتاب

(١) الإسراء والمعراج لأبي شهبه، ص ٧٦.

الله وسنة نبيه ﷺ . هذا وفي رسالة الشيخ ابن باز رحمه الله وغيرها في التحذير من البدع بياناً شافياً لمن أراد الحق واتبع سبيل الهدى .

حكم الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج:

يحتفل كثير من المسلمين في شتى أقطار العالم الإسلامي بما يسمونه ليلة الإسراء والمعراج من شهر رجب في كل عام وقد نسي هؤلاء أنهم يقيمون ويحيون بدعة ويهدمون سنناً أمروا بها قد سنّها المصطفى ﷺ وهم لا يجدون دليلاً واحداً يؤيد ما ذهبوا إليه بل إنه يتم في إحياء هذه الليلة من مخالفات الشرع ما لا يرضى به من يخاف الله ويتقه وينصر سنة نبيه ﷺ . وذلك مثل الاجتماع بين النساء والرجال والاختلاط وقيام المنشدون بالتغني بما لا يمكن قبوله في شخص المصطفى ﷺ . وعلى هذا فالاحتفال بدعة لم يسبق إليه الصحابة رضوان الله عليهم ولا القرون المفضلة وإنما هو تقليد لما رأوه عند النصارى واليهود من كثرة أعيادهم واحتفالاتهم.

((وهذه الليلة التي حصل فيها الإسراء والمعراج لم يأت في الأحاديث الصحيحة تعيينها لا في رجب ولا في غيره وكل ما ورد في تعيينها فهو غير ثابت عن النبي ﷺ عند أهل العلم بالحديث ، والله الحكمة البالغة في إنساء الناس لها ولو ثبت تعييناً لم يجز للمسلمين أن يخصصوها بشيء من العبادات ولم يجز لهم أن يحتفلوا بها؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم - والقرون المفضلة - لم يحتفلوا بها ولم يخصصوها بشيء ، ولو كان الاحتفال بها أمراً مشروعاً لبينه ﷺ للأمة إما بالقول وإما بالعمل والفعل، ولو وقع شيء من ذلك لعرف واشتهر ونقله الصحابة رضي الله عنهم إلينا فقد نقلوا عن نبيهم ﷺ كل شيء تحتاجه الأمة ، ولم يفرطوا في شيء من الدين بل هم السابقون إلى كل خير فلو كان الاحتفال بهذه الليلة مشروعاً لكانوا أسبق الناس إليه والنبي ﷺ هو أنصح الناس للناس وقد بلغ الرسالة غاية البلاغ وأدى الأمانة فلو كان تعظيم هذه الليلة والاحتفال بها من دين الله لم

يغفله النبي ﷺ ولم يكتمه فلما لم يقع شيء من ذلك علم أن الاحتفال بها وتعظيمها ليسا من الإسلام في شيء ، وقد أكمل الله لهذه الأمة دينها وأتم عليها النعمة وأنكر على من شرع في الدين ما لم يأذن به الله ...)) (١).

وقال ابن القيم رحمه الله ((سئل الشيخ ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل فأيهما المصيب؟ فأجاب: الحمد لله ، أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، فإن أراد به أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبي ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر ، فهذا باطل ، لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاطراد من دين الإسلام ، هذا إذا كانت ليلة الإسراء تعرف عينا ، فكيف ولم يقد دليل معلوم لا على شهرها ولا على عشرها ولا على عينا ، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة ليظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره ، بخلاف ليلة القدر ... وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي ﷺ ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا غيره فهذا صحيح .. والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحى ، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم ، ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها ، لا سيما على ليلة القدر ، ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها ، ولهذا لا يعرف أي ليلة كانت ، وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ . ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ، ولا ذلك المكان بعبادة شرعية ، بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي وكان يتحراه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة مدة مقامه بمكة ، ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها ، وقد قال بعض الناس: إن ليلة

(١) مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز ، ح ١ ، ص ١٨٨ .

الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل من ليلة القدر ، وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء، فهذه الليلة في حق الأمة أفضل لهم ، وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ أفضل له)) (١).

حكم الاحتفال بالموالد النبوي كما يسميه المبتدعة :

لقد نهى رسول الله ﷺ عن الابتداع في الدين فلا ((يجوز الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ولا غيره لأن ذلك من البدع المحدثه في الدين لأن الرسول ﷺ لم يفعله ولا خلفاؤه الراشدون ولا غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم ولا التابعون لهم بإحسان في القرون المفضلة وهم أعلم الناس بالسنة، وأكمل حبا لرسول الله ﷺ ومتابعة لشرعه من بعدهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) وقال في حديث آخر ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)) ففي هذين الحديثين تحذير شديد من إحداث البدع والعمل بها وقد قال سبحانه وتعالى في كتابه المبين ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٢). وقال عز وجل ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣). وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ هُمُ الْمُفَوَّضُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُواهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

(١) زاد المعاد ، ح ١ ، ص ٥٧ - ٥٨ - ٥٩.

(٢) سورة الحشر آية ٧.

(٣) سورة النور آية ٦٣.

(٤) سورة الأحزاب آية ٢١.

(٥) سورة التوبة آية ١٠٠.

وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿١﴾.

ثم إن غالب هذه الاحتفالات بالموالد - مع كونها بدعة - لا تخلو من اشتغالها على منكرات أخرى كاختلاط النساء بالرجال واستعمال الأغاني والمعازف وشرب المسكرات والمخدرات وغير ذلك من الشرور وقد يقع فيها ما هو أعظم من ذلك وهو الشرك الأكبر وذلك بالغلو في رسول الله ﷺ أو غيره من الأولياء ودعائه والاستغاثة به وطلبه المدد واعتقاد أنه يعلم الغيب .. قال رسول الله ﷺ ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله..))^(٢).

(١) سورة المائدة آية ٣.

(٢) مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز، ج ١، ص ١٨٣ - ١٨٧؛ وانظر البحث ص ٦٣٣، ٦٣٧، ٦٨٩، حيث تمّ تخريج الأحاديث الثلاثة .

ثمرات الإسراء والمعراج

إن كل أمرٍ اختص به رسول الله ﷺ من ربه قد كان له من الدلالات والفوائد والنعم بما يعود على المسلمين وأمة محمد ﷺ بالخير والبركة والنفع في الدنيا والآخرة.

والإسراء والمعراج معجزة من الله وتأييد وتسليّة لرسول الله ﷺ تجاه المصاعب والعقبات التي واجهته في سبيل دعوته تعدى ذلك الفضل من الله إلى أمة محمد ﷺ .

فقد كان للإسراء والمعراج دروساً مستفادة بل وإحياءات إيمانية وتشريف للمصطفى ﷺ الذي فرضت عليه الصلاة ركناً أساسياً لهذا الدين مبلغاً بها أمتّه وموجباً لهم القيام بها فرضاً أساسياً عليهم . وقد تلقاها مباشرة من الله سبحانه لعظمتها وأهميتها ولأنها تصل مباشرة من العبد فلا واسطة بينه وبين الله وهي خطاب من العبد إلى خالقه ليبقى على اتصال دائم في كل يوم وليلة وضاعف الله أجرها كرمًا منه سبحانه على عبده وقد كانت صلاته ﷺ بجميع الأنبياء في بيت المقدس وقبلة المسلمين الأولى لدليل أنه خاتم لهم فلم يحصل لأحد من قبله من الأنبياء مثل ما حصل لنبينا ﷺ . وإن اجتماع الأنبياء وصلاتهم خلف رسول الله ﷺ في بيت المقدس وفي أثناء إسرائه ومعراجه لتعطي الدليل أن رسالاتهم قد أدت غرضها وإن الرسالة الباقية الخالدة هي رسالة محمد ﷺ .

فأما الكتب السابقة التي أنزلت على الرسل السابقين فقد حرّفت وبدلت وحُذِف منها ما لا يناسب شهواتهم ورغباتهم بل وألفت كتباً على يد البشر ثم نسبوها إلى الله تعالى.

أما المنتسبين إلى هذه الأديان فقد اشتط بهم المسار بعيداً عن أصل ومنهج رسالاتهم بل اتخذوا شركاء لله من دونه فعبدهم واتخذوهم آلهة فانزروا بها في معابدهم وأديرتهم وكنائسهم ، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ آلَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ

الْإِسْلَامُ ﴿١﴾.

الإيمان بالإسراء والمعراج:

إن حياة المسلم الحق لا تقوم إلا بالإيمان الحق القائم على ما أنزل في أصدق كتاب وأشرف تنزيل وبما جاء في سن نبيه صلى الله عليه وسلم ويكون ذلك بالتصديق بالقول والقلب والعمل وهذا الإيمان ينجي صاحبه في الدنيا والآخرة.

والإسراء والمعراج معجزة أيد الله بها رسوله ﷺ وهي إحدى معجزاته ﷺ والإيمان بها كالإيمان بالغيب الذي أمرنا الله بالإيمان به والتسليم لعالم الغيب والشهادة. ولا شك أنه في بداية الدعوة يتطلب الأمر إلى رجال عظماء من نوعية خاصة ورباطة جأش وصبر على الأذى وتحمل المشاق ليقفوا صفاً قوياً وراء صاحب الدعوة يؤيدوه ويؤازروه ليصمد أمام هذا الكم الهائل من الجحود والظلم والاستبداد.

ومن لها غيره ؟! نعم إنه أبو بكر الصديق رضي الله عن ،ه إيمان أمة وقوة في الحق لا تضاهى وقدرة فذة في عقد الأمور وحلها كان صادقاً فأصبح صديقاً وكان قوياً فأصبح مؤمناً وكان وثقاً فغدى مطمئناً فهنيئاً له الصحبة والخلة والتصديق ﴿وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ (٢).

وعندما علمت قريش خبر محمد ﷺ وإسرائه إلى بيت المقدس كانت تلك فرصتهم للتشكيك والتكذيب وبث روح الانهزام في قلوب النلة المؤمنة بين جحافل قريش وغطرستها وتمردھا. كان همهم تغيير مسار الدعوة والداعي وزرع الشكوك والإرجاف لكنه خاب مسعاهم .

كان أبو بكر في صف الإيمان والتصديق برسالة محمد ﷺ فيقول ((إن كان قالها فقد صدق فوالله إنه ليخبرني الخبر يأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه)) (٣).

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .

(٢) سورة المدثر آية ٣١ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ، ح ٢ ، ص ٣٩٩ . البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٠٨ وقال : وبادر الصديق إلى التصديق .

ومثل هذا الإيمان القوي سيعطي الانطلاقة الكبرى في مسار الدعوة لمرحلة جديدة تحتاج إلى التضحية بالنفس والمال والأهل والأرض فكانت مرحلة الهجرة والدعوة القوية وهي مرحلة تحتاج إلى طراز أبي بكر وعمر. فأبو بكر كان مصداقاً لأن الله أعطاه نور الحق واليقين أما عمر فقد تريت واسترشد وتأكد لأن الله أعطاه معيار الحق واليقين وكلاهما وأمثالهما تحتاجهما الدعوة في ذلك العصر الأول فكان الكثيرون على نفس هذا المنهج من صحابة رسول الله رضي الله عنهم فقامت دولة الإسلام الأولى على التصديق والإيمان الحق.

هل رأى محمد ﷺ ربه ؟:

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح ((وقد اختلف السلف في رؤية النبي ﷺ ربه فذهبت عائشة وابن مسعود إلى إنكارها وأختلف عن أبي ذر وذهب جماعة إلى إثباتها. وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أنه حلف أن محمداً رأى ربه. وأخرج ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها وكان يشتد عليه إذا ذكر له إنكار عائشة وبه قال سائر أصحاب ابن عباس وجزم به كعب الأحبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون وهو قول الأشعري وغالب أتباعه ثم اختلفوا: هل رآه بعينه أو بقلبه؟ وعن أحمد كلا القولين ..)) (١).

النافون للرؤية وأدلتهم:

ذهبت عائشة رضي الله عنها وابن مسعود رضي الله عنه وإليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين وكانت عائشة رضي الله عنها تتكر على من يقول بالرؤية وتشتد في الإنكار.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن مسروق قال: ((كنت عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منها فقد أعظم على الله الفرية قلت: ما هي ؟ قالت من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ ﴾

(١) فتح الباري، ح ٨، ص ٦٠٤.

بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (٢). فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: ((إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين)) رآه منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض قالت: أو لم تسمع الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٣). وأن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ (٤) قالت ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله .. (٥).

قال أبو شهبه: ((أما ما ذهبت إليه من أن آية التكوير والنجم في رؤية النبي ﷺ لجبريل فهذا مالا ننازعها فيه لأن عائشة رضي الله عنها اعتمدت في ذلك على ما سمعته من رسول الله ﷺ وما دامت الرؤية صحت عن المعصوم ﷺ فلا كلام لأحد مع كلامه. وأما استدلالها بآية الأنعام ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وآية الشورى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ السابقتين فالظاهر أن هذا اجتهد منها على حسب ما فهمته .

أما الإدراك الوارد في الآية السابقة فإنه يعني الإحاطة التامة بالرؤية وإلا فإن الغير المرئي لا يمدح ، وأما تكليم الله فليس الكلام شرطاً للرؤية فقد يراه ولا يكلمه)) (٦) ..

المثبتون للرؤية:

ذهب جماعة من السلف إلى إثبات رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج منهم ابن عباس وعروة بن الزبير وعبد الرزاق والحسن البصري.

(١) سورة التكوير آية ٢٣.

(٢) سورة النجم آية ١٣.

(٣) سورة الأنعام آية ١٠٣.

(٤) سورة الشورى آية ٥١.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ح ٣ ، ص ٨.

(٦) الإسراء والمعراج للدكتور أبي شهبه ، ص ٦٦.

قال ابن حجر في الفتح ((قلت: جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة فيجب حمل مطلقها على مقيدها. فمن ذلك ما أخرجه النسائي بإسناد صحيح وصححه الحاكم أيضاً من طريق عكرمة عن ابن عباس ((هل رأى محمد ربه ؟ فأرسل إليه: أن نعم)) (١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ﷺ)) (٢).

ومنها ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ قال رآه بفؤاده مرتين.

وله من طريق عطاء عن ابن عباس قال: رآه بقلبه.

وأصرح من ذلك ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء أيضاً عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينه إنما رآه بقلبه.

الجمع بين النفي والإثبات:

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة رضي الله عنهما بأن يحمل نفيها على رؤية البصر وإثباته رؤية القلب ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام. بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره. والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً ولو جرت العادة بخلقها في العين (((٣).

قال ابن كثير رحمه الله بعد ما ساق رواية الإمام مسلم عن ابن عباس ((وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم. وقول

(١) فتح الباري ، ح ٨ ، ص ٦٠٨ .

(٢) المستدرک للحاکم وصححه ووافقه الذهبي ، ج ١ ، ص ١٣٤ .

(٣) فتح الباري ، ح ٨ ، ص ٦٠٨ ؛ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب إثبات رؤية الله ، ج ٣ ، ص ٧ .

البغوي في تفسيره: وذهبت جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر)) (١).

وقال ابن تيمية رحمه الله ((وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد إجماع الصحابة رضي الله عنهم ، على أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج ، وبعضهم استثنى ابن عباس من ذلك ، وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه وعليه اعتمد أحمد - بن حنبل - في إحدى الروايتين حيث قال: أنه رآه ولم يقل بعيني رأسه)) (٢).

وعن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ ((هل رأيت ربك قال: نورٌ أنى أراه)) وفي رواية ((قال قد سألت فقال رأيت نوراً)) (٣).

قال النووي ((أما قوله ﷺ نورٌ أنى أراه فهو بتتوين نور وبفتح الهمزة في أنى وتشديد النون وفتحها وأراه بفتح الهمزة هكذا رواه جميع الرواة في جميع الأصول والروايات ومعناه حجاب نور فكيف أراه .. أما قوله ﷺ ((رأيت نوراً)) معناه رأيت النور فحسب ولم أر غيره)) (٤).

وقال ابن تيمية رحمه الله ((قوله ﷺ ((نورٌ أنى أراه)) معناه كان ثم نور وحال دون رؤيته نور فأنى أراه ؟ قال ويدل عليه: إن في بعض ألفاظ الصحيح هل رأيت ربك ؟ فقال: ((رأيت نوراً)) . وقد أعطل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال نوراً إنني أراه على أنها ياء النسب والكلمة كلمة واحدة وهذا لفظاً ومعنى. وردة بعضهم باضطراب لفظه وكل هذا عدول عن موجب الدليل)) (٥).

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .

(٢) الفتاوى ، ج ٦ ، ص ٥٠٧ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٥) الفتاوى ، ج ٦ ، ص ٥٠٧ .

الذين رجحوا الإثبات:

وهناك جماعة قالوا بإثبات الرؤية لمحمد ﷺ ليلة أسري وعرج به وقد قال بهذا إمام الأئمة ابن خزيمة وتبعه السيوطي.

قال ابن حجر وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: ((رأى محمد ربه)).

وجنح ابن خزيمة في ((كتاب التوحيد)) إلى ترجيح الإثبات وأطنب في الاستدلال له بما يطول ذكره ، وحمل ما ورد عن ابن عباس على أن الرؤيا وقعت مرتين مرة بعينه ومرة بقلبه. وممن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد فروى خلال في ((كتاب السنة)) عن المروزي : قلت لأحمد أنهم يقولون إن عائشة قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. فبأي شيء يدفع قولها ؟ قال: يقول النبي ﷺ ((رأيت ربي)) قول النبي صلى الله عليه وسلم أكبر من قولها))^(١). وقد ذهب إلى هذا السيوطي فقال: ((والصحيح ثبوت الرؤية .. فقد روى أحمد من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : ((رأيت ربي تبارك وتعالى))^(٢).

قال عكرمة فقلت لابن عباس: نظر محمد إلى ربه ؟ قال: نعم جعل الكلام لموسى والخلة لإبراهيم والنظر لمحمد ﷺ ((وأخرجهما الحاكم في المستدرك^(٣)))^(٤). ويرجح هذا القول ما ذهب إليه ابن حجر في الفتح ((وقال عياض: رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة عقلاً وثبتت الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين في الآخرة وأما في الدنيا فقال مالك: إنما لم ير سبحانه في الدنيا لأنه باق والباقي لا يرى بالفاني.

(١) فتح الباري ، ح ٨ ، ص ٦٠٨.

(٢) المسند ، ح ٤ ، ص ٢٠١.

(٣) المستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ج ١ ، ص ١٣٤.

(٤) شرح قصة الإسراء والمعراج للسيوطي ، ص ٦٧.

فإذا كانوا في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية رأوا الباقي . قال عياض: وليس في هذا الكلام استحالة الرؤية إلا من حيث القدرة فإذا قدر الله من شاء من عباده عليها لم يمتنع.

قلت ((ابن حجر)) ووقع في ((صحيح مسلم)) ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه: ((وأعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)) وأخرجه بن خزيمة أيضاً من حديث أبي أمامة ومن حديث عبادة بن الصامت. فإن جازت الرؤية في الدنيا عقلاً فقد امتنعت سمعاً لكن من أثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم له أن يقول: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه.)) (١).

وقد أشار إلى هذا القول ابن تيمية وذلك عندما قرر مذهب السلف في رؤية الله تعالى فقال: ((وقد ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة أنه لا يرى الله أحد في الدنيا بعينه ، إلا ما نازع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد ﷺ خاصة ، واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عياناً كما يرون الشمس والقمر)) (٢).

مخالفة شريك للحفاظ:

قال ابن حجر في الفتح ((ومجموع ما خالفت فيه رواية شريك غيره من المشهورين عشرة أشياء بل تزيد على ذلك: الأول أمكنة الأنبياء .. الثاني كون المعراج قبل البعثة .. الثالث: كونه مناماً. الرابع: مخالفته في محل السدرة .. الخامس: مخالفته في النهرين .. السادس: شق الصدر .. السابع: ذكر نهر الكوثر .. الثامن: نسبة الدنو والتدلي .. التاسع: إمتناعه من الرجوع بعد الخامسة .. العاشر: قوله: فعلا به الجبار .. الحادي عشر: زاده زيادة ذكر ((التور)) الطشت. وقد سبق إلى التنبيه على ما في رواية شريك من المخالفة مسلم في ((صحيحه)) فإنه قال: بعد

(١) فتح الباري ، ح ٨ ، ص ٦٠٧ - ٦٠٨؛ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفتن باب ذكر ابن صياد ج ١٨، ص ٥٦ ..

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ح ٦ ، ص ٥١٠.

أن ساق سنده وبعض المتن ثم قال: فقدم وأخر وزاد ونقص. ((^(١)).

وقال النووي ((وقد ذكر البخاري رحمه الله رواية شريك هذه عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه وأتى بالحديث مطولاً قال الحافظ عبد الحق رحمه الله في كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكر هذه الرواية هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس وقد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والأئمة المشهورين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث، قال والأحاديث التي تقدمت قبل هذا هي المعول عليها ((^(٢)).

إثبات صفة العلو لله تعالى في حديث المعراج وأن بعض الأنبياء في السماء :

لقد دلت النصوص من القرآن والسنة وكذلك دل العقل والفطرة على علو الله سبحانه وتعالى فهو سبحانه بائن من خلقه مستوٍ على عرشه فوق سماواته.

وفي حديث المعراج دلالة عظيمة على ثبوت هذه الصفة لله تعالى أيضاً. والعروج هو الصعود إلى أعلى وقد صعد المصطفى ﷺ متجاوزاً السموات السبع ليخاطبه الله تعالى من وراء حجاب فدل ذلك على علوه سبحانه فوق مخلوقاته.

وعندما عُرج بالمصطفى ﷺ رأى بعض الأنبياء في منازلهم في السموات السبع وسلم عليهم فردوا عليه ودعوا له.

قال ابن حجر ((واختلف في حال الأنبياء عندما لقي النبي ﷺ إياهم ليلة الإسراء هل أسري بأجسادهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة أو أن أرواحهم مستقرة في الأماكن التي لقيهم النبي ﷺ بها ، وأرواحهم مشكلة بشكل أجسادهم كما جزم به أبو

(١) الإسراء والمعراج لابن جرير جرده ورتبه عبد الله حجاج ، ص ٧٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ح ٢ ص ٢١٠.

الوفاء بن عقيل. (((١).

أما عن أماكنهم في السموات فإن السيوطي يقول: ((الأضبط في الروايات في محل الأنبياء أن آدم في السماء الأولى ، وعيسى في الثانية ، ويوسف في الثالثة ، وإدريس في الرابعة ، وهارون في الخامسة ، وموسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة. واختلف في الحكمة في إختصاص كل منهم بالسماء التي التقاه فيها فقيل:

١ - للإشارة إلى تفاضل درجاتهم عند الله.

٢ - وقيل الحكمة في الاختصار على المذكورين الإشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه من نظير ما وقع لكل منهم (((٢).

سدرۃ المنتهى:

((قال ابن عباس والمفسرون وغيرهم : سميت سدرۃ المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ . وحكي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنها سميت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله تعالى (((٣).

وقال ابن حجر في الفتح ((قال ابن دحية: اختيرت السدرۃ دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل ممدود ، وطعام لذيذ ورائحة زكية فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية والظل بمنزلة العمل والطعم بمنزلة النية والرائحة بمنزلة القول)) (٤).

(١) الإسراء والمعراج لابن حجر ، ص ٤.

(٢) شرح قصة الإسراء والمعراج للسيوطي ، ص ٦٢.

(٣) شرح النووي ، ج ٢ ، ص ٢١٤.

(٤) فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٢١٣.

الصلاة:

كانت الصلاة ثمرة وخاتمة لرحلة المصطفى ﷺ المباركة بصحبة جبريل عليه السلام إلى السماء السابعة. ثم يخلو النبي ﷺ في الحضرة الإلهية ويتلقى من الله مباشرة هذا الأمر العظيم في حياته وحياته أمته من بعده.

والصلاة فريضة الله على كل مسلم ومسلمة وأمر الله بها عباده في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(١). وقال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(٢). وقال ﷺ ((رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد))^(٣) و ((بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة))^(٤).

ومن الحكمة في شرعية الصلاة أنها تطهر النفس وتركيها وتؤهل العبد لمناجاة الله تعالى في الدنيا ومجاورته في الدار الآخرة كما أنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٥). ولهذا كان شرف فرضها في ذلك المكان والزمان والإنفراد مناسباً لأهميتها وعظمتها ودورها في تزكية النفوس وتطهيرها وتأهيلها لصاحبها لمناجاة الله تعالى بدون وسيط.

وقد تم للمصطفى ﷺ ذلك حين ارتقى في درجات التشريف والتكريم إلى ربه عز وجل لينعم عليه بما لم يسبق إليه مخلوق هنا بهذا السمو والرفعة والمكانة يتوجه ربه سبحانه بشرف عظيم وهو فرض الصلاة عليه وعلى أمته فيعود بهذا الركن

(١) سورة النساء ١٠٣.

(٢) سورة البقرة ٢٨٣.

(٣) الجامع الصحيح للترمذي ح ٥ ص ١٢ كتاب الإيمان . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
المسند للإمام أحمد ح ٥ ص ٢٣١.

(٤) الجامع للترمذي ح ٥ ص ١٣ كتاب الإيمان وقال حسن صحيح.

(٥) سورة العنكبوت ٤٥ .

المتين والفتح المبين.

وفرض الصلاة في الإسلام بهيئتها وضوابطها وشروطها وسننها لا توجد في أي دين أو رسالة أخرى، بل إن صلواتهم تلك هي مزيج من بقايا رسالاتهم واجتهاداتهم البشرية بحسب أهوائهم وضلالهم .

أما في الإسلام فقد نقلت إلينا بالتواتر عن نبينا ﷺ عن ربه تعالى.

صلاة جبريل عليه السلام بالنبى صلى الله عليه وسلم:

حين فرض الله الصلاة على نبيه ﷺ خمسين صلاة في اليوم والليلة كان ذلك اختباراً والله أعلم بما سيكون ، وما هو كائن فقد تحمل الأمانة عائداً مبلغاً ولكن الله قد قدر أن يكون في طريقه ﷺ وفي النزول كان موسى عليه السلام الذي طلب منه مراجعة الله فيما فرض طلباً للتخفيف ثم يقرر الله سبحانه خمس صلوات في اليوم والليلة وبأجر خمسين صلاة وذلك من فضل الله تعالى .

((ولأن أمرها عظيم فإن الآثار والأحاديث الصحيحة قد أخبرتنا أنه في غداة اليوم التالي لليلة الإسراء والمعراج جاء جبريل إلى النبي ﷺ يعلمه كيفية الصلاة ويبين له أوقاتها فما إن زالت الشمس حتى أمر رسول الله ﷺ فنودي بأصحابه فاجتمعوا وصلى به جبريل عند البيت. النبي يقتدي بجبريل والمسلمون يقتدون بالنبي من ظهر هذا اليوم إلى فجر اليوم الثاني)) (١).

وفي صحيح مسلم عن أبي مسعود البصري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((نزل جبريل فأمني فصليت معه ثم صليت ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس صلوات)) (٢).

((وقيل إن جبريل صلى بالنبي ﷺ يومين متتاليين ليبين له الوقتين الأول

(١) الإسراء والمعراج لأبي شهبه، ص ٥٧.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب أوقات الصلوات الخمس، ج ٥ ص ١٠٧.

والآخر لكل صلاة روى ابن عباس وجابر أن النبي ﷺ قال: ((أَمَنِي جبريل عند البيت مرتين)) ^(١) ومن هذه الليلة صارت الصلاة فرضاً موقوتاً على كل مسلم ومسلمة وركناً من أركان الإسلام تشهد لمؤديها بالإخلاص والمواظبة عليها في أوقاتها بطهارة القلب واستقامة السلوك (صلاح الأحوال)) ^(٢).

مشاهدات الرسول صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء دروس للأمة:

إن الأمة الإسلامية اليوم بحاجة ماسة إلى العودة إلى منبع النور وأصل الرسالة ذلك الذي استرشدت به القرون المفضلة فنعمت واطمأنت ودخل الناس في دين الله أفواجا. وإن الإسلام الحق يرفض الخارجين والفاستدين والمنحرفين عن المنهج الصحيح والطريق المبين.

والمصطفى ﷺ لم يدع أمر خير إلا وأرشدنا إليه وأمرنا به ولا أمر شر إلا وحذرنا ونصحنا أن نسلك طريقه.

وفي إسرائه ﷺ كانت له مشاهدات وذلك لينقل لأمته ما رأى وسمع ويحذرهم مما وقع فيه أولئك المعذبون من الانحراف والفساد والضلال والابتعاد عن منهج الله فاستحقوا تلك العقوبة.

وجدير بالأمة الإسلامية العمل بطاعة الله ورسوله ﷺ والاعتبار بأخبار من قد سبق من الأمم وكيف أصبحت نهايتهم ومآلهم ((وقد شاء الله أن تضرب الأمثال للنبي ﷺ في هذه الليلة الميمونة المباركة ووراء هذه الأمثال ما وراءها من العبر والعظات والإشارات والبشارات وللأمثال عند بني الإنسان - ولا سيما العرب - شأن وأي شأن فهي تريك المعقول في صورة المحسوس والغائب في صورة المشاهد والمأمول المرتقب في صورة الواقع المحقق وهي بما فيها من دقة التصوير

(١) سنن الترمذي ، كتاب أبواب الصلاة ، باب ما جاء في مواقيت الصلاة ، وقال أبو عيسى حديث ابن عباس حديث حسن صحيح ج ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢) الإسراء والمعراج لأبي شهبه ، ص ٥٧ .

وسمو التعبير عن الغرض المقصود تستولى على النفوس وتهز أوتار القلوب فلا عجب أن ضربت الأمثال للنبي في مسراه وصورته تصويراً دقيقاً معبراً يرى المشهد العجيب فيستفسر عنه من جبريل فيجيب إجابة الحكيم المخبر عن رب العالمين ليكون من وراء ذلك العظة لقوم يعقلون (١).

وقد أورد ابن حجر في الفتح بعض تلك المشاهد في حديث أبي هريرة وتتمثل فيما يلي:

((١ - إنه رأى امرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى فقالت يا محمد انظرني أسألك فلم يلتفت إليها فقال النبي ﷺ من هذه يا جبريل؟ قال: تلك الدنيا أما إنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة.

٢ - إنه رأى قوماً يزرعون ويحصدون وكلما حصدوا عاد الزرع كما كان فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٢).

٣ - وإنه ﷺ أتى على قوم ترسخ (٣) رؤوسهم بالحجارة كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر (٤) عنهم من ذلك شيء فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم عن الصلاة.

٤ - وإنه أتى على قوم على أقبالهم (٥) وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ويأكلون الضريع والزقوم ورضف (٦) جهنم فقال ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم المفروضة وما ظلمهم الله شيئاً.

٥ - وأتى على قوم بين أيديهم لحم طيب نضيج ولحم آخر نيء قدر خبيث

(١) انظر الإسراء والمعراج لأبي شهبه ، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) سبأ ٣٩

(٣) تدق وتهشم.

(٤) يزول.

(٥) عوراتهم.

(٦) حجارة ملتهبة حارة.

فجعلوا يأكلون من اللحم النبيء الخبيث ويدعون النضيح الطيب فقال: ما هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح.

٦- وأتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها.

٧- وأتى على خشبة منصوبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا حرقته فقال: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا مثل أقوام يقعدون على الطريق فيقطعونها ثم تلا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ^(١) .

٨- وأتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

٩- وأتى على منظر عجيب ثقب صغير يخرج منه ثور يريد أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع فقال: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها.

١٠- ومر على قوم بطونها أمثال البيوت لفخامتها كلما نهض أحدهم خر فقال النبي ﷺ : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال: هم آكلون الربا ومصداق ذلك من كتاب الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ^٢ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ^٣ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ^(٢) ، ^(٣) .

(١) سورة الأعراف آية ٨٦.

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٥.

(٣) فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٢٠٠

١١- وممر على قوم مشافرههم^(١) كالإبل يلتقمون حجراً فيخرج من أسافلهم

فقال: النبي ﷺ من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً ومصدق ذلك من كتاب الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾^(٢).

تنبيه :

كان الذين يسعون تضليلاً وإفساداً لمعتقدات الأمة وشريعتها قديماً مثل ما يحدث في هذا العصر ، وهذا يدعوا أبناء الأمة إلى الحذر والحيطه من أولئك الذين يسعون خراباً وابتداعاً .

فيقول الدكتور البوطي ((احذر وأنت تبحث عن قصة الإسراء والمعراج أن تركز إلى ما يسمى بـ((معراج ابن عباس)) فهو كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطله لا أصل لها ولا سند ، وقد شاء ذاك الذي فعل فعلته الشنيعة هذه أن يلصق هذه الأكاذيب بابن عباس رضي الله عنهما ، وقد علم كل مثقف بل كل إنسان عاقل أن ابن عباس بريء منه ، وأنه لم يؤلف أي كتاب في معراج الرسول صلى الله عليه وسلم بل وما ظهرت حركة التأليف إلا في أواخر عهد الأمويين ولما وقف دعاة السوء على هذا الكتاب ووجدوا فيه من الأكاذيب المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكفل زعزعة إيمان الكثير من الناس راحوا يروجون له ويدعون إليه مع أنهم يعلمون قبل سائر الناس أنه كتاب مكذوب على ابن عباس وأن أحاديثه كلها باطله ولكن الكذب سرعان ما ينقلب عندهم صحيحاً إذا كان فيه ما يشوش أفكار المسلمين ويلبس عليهم دينهم))^(٣).

الصبر والقدرة في الدعوة:

عاد المصطفى ﷺ من رحلته العظيمة عبر السموات وهو مغتبط بما أنعم الله عليه من التكريم والمنزلة والرفعة وقد ازداد إيماناً وحكمة وقرباً إلى الله وثقة بأن

(١) شفاهم.

(٢) سورة النساء آية ١٠.

(٣) فقه السيرة للدكتور البوطي، ص ١٥٤.

الله سينصره ويؤازره ثم إنه عاد يحمل ركناً قوياً من أركان هذا الدين العظيم وهي الصلاة عمود الدين والتي لا يقبل عمل ابن آدم إلا بها.

كان يعلم رسول الله ﷺ حينما عاد من إسرائه أنهم سيكذبونه عندما يخبرهم خبره وقد كانوا يكذبونه عندما يبلغهم خبر الوحي فكيف به وقد انتقل روحاً وجسداً عبر هذه المسافات والزمن ثم يخبرهم بذلك!.

لكنه ﷺ وقد عودنا الصدق دائماً فهو الصادق الأمين عند قومه قبل الرسالة وهو بعدها كذلك ، غير إنه في سبيل نشر الرسالة والتحدث بنعمة الله عليه وفي سبيل أن يجلي الحقائق للناس جميعاً ولأن هذه الرسالة واضحة كالشمس عند ذلك لم يتردد في إبلاغهم والصبر على ردود أفعالهم ونتائج نزوات عواطفهم وتكذيبهم.

وقد أنكروا عليه ذلك الخبر لأن عقولهم لم تتجاوز حدود ما يحسونه ويلمسونه ويرونه وتلك هي النظرة المادية التي تتادي بها جاهلية القرن العشرين - الذين أعرضوا عن هدي محمد ﷺ - وجاهلية العصر، والجاهليات ليس لها عصر معين بل هي مستمرة ما استمر الضلال والزيغ والبعد عن منهج الله ، وهي مستمرة وإن تغيرت صورها وأشكالها.

والله سبحانه قد علم ذلك منهم ولكن سنة الله ماضية وذلك كي تأتي الأمور ناضجة راسخة فيما بعد.

وفي هذه المرحلة من الدعوة يعوضه الله عن إعراضهم وتكذيبهم وصالفهم أرضاً وقوماً يحبون من هاجر إليهم ويؤثرونهم على أنفسهم ولا يجدون في أنفسهم حاجة مما أوتوا ويؤمنون بما أنزل على نبيهم.

تلك كانت الهجرة إلى طيبة الطيبة ولتبدأ من هناك الدعوة قوية وتبدأ بشائر النصر والفتح من الله سبحانه ثم قيام دولة الإسلام ، والرسالة الخالدة .

من وحي الإسراء والمعراج:

القدس مدينة ارتبطت بالوحي والرسالات والرسول وفيها ثاني المسجدين في هذه الأرض الذي كان يتجه إليه المؤمنون ، فهو القبلة الأولى ومهبط الوحي

والرسالات وإليها أُسري بالنبي ﷺ فيصلي بالأنبياء إماماً لهم ثم يعرج به إلى السموات العلا متلقياً التكريم والتكليف مباشرة من الله سبحانه ، ثم يفتحها الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويعهد إليه بطريقها بمفتاحها لما علمه من عدل عمر وعظمة الإسلام.

فتنتظم القدس مع مكة ودمشق وبغداد والفسطاط وتتبعها القيروان فغرناطة وبخاري جيداً مرصعاً للدولة الإسلامية ومراكز إشعاع للنور الجديد والعهد الزاهر ، فما تكاد أن تهناً هذه الأرض بهذا العهد الجديد لبضعة قرون حتى ترتكس مرة أخرى في ظلام التجزئة والطائفية والجهل بالحق ، ويفقد المسلمون القدس مكبلة بقيود الصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين لترسخ في ذلك العهد قرناً من الزمان ليخلصها القائد المسلم المجاهد صلاح الدين الأيوبي^(١) من تلك القيود والأرساف ، ثم يفرط فيها أبناء الإسلام مرة أخرى على موعد مع قيودها في منتصف هذا القرن ، وهاهي الآن تنادي أبناء الأمة الإسلامية خلاصها وحريتها فهي أمانة في أعناقهم فكيف بنا وقد ضيعنا الأمانة وقبلنا الإهانة ورضينا بالاستكانة.

وإن هذا الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غير مستغرب لعدة أسباب منها:

- البعد عن المنهج الصحيح الذي يجب أن تسلكه الأمة في مجموعها وأفرادها بل قد غُلقت قلوب أبناء الأمة بالشبهات والأهواء فصاروا شيعاً وأحزاباً إلا من شاء الله قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

(١) صلاح الدين الأيوبي أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي الملقب بالملك الناصر من أشهر ملوك الإسلام ، أصله من قرية دوين من الأكراد ، دخل مع أبيه وعمه في خدمة نور الدين زنكي ثم دخل مع عمه مصر فحكمها وأقام الجهاد ، وقهر بني عبيد ومحا دولتهم ، وقاد موقعة حطين مع الفرنج وهزمهم ثم حاصر القدس فأخذها بالأمان من يد الصليبيين . توفي بدمشق ٥٨٩هـ .

قال عنه الذهبي : كان محبوباً صالحاً عادلاً رجل سياسة وحرب . ومحاسن صلاح الدين جمّة لا سيما الجهاد فله فيه اليد البيضاء وله عقل جيد وفهم وحزم وعزم .

؛ سير أعلام النبلاء للذهبي ، ج ٢١ ، ص ٢٧٨ - ٢٨٧ .

؛ الأعلام للزركلي ، ج ٦ ، ص ٢٢٠ .

(٢) سورة الرعد آية ١١ .

- إن المنهج الذي اتخذه علماء المسلمين سيقود الأمة إلى الخلاص وإلى العلاج النافع الشاف وإن دعوة الإمام العز بن عبد السلام^(١) إلى نشر العلم الإيماني وإلى تربية الأمة تربية إسلامية قد نجحت في تركية النفوس وعلوها وعلو مطالبها حتى ارتقت إلى الذروة وليس هناك إلا الجهاد الحق وهو إعلاء كلمة الله ورفع راية لا إله إلا الله. والجهاد هو ذروة سنام الإسلام.
- إنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به ماضيها ، وهذه سنة الله لهذا الدين الحنيف ومن حاد عن هذا وتخلف عنه ابتلاه الله بالضعف والهوان على الناس والانسياق وراء كل ناعق من دعاة ومهرجي الباطل.
- إن قوى الشر والظلم في هذا العالم تقف وتجتمع في صف متراص ضد الإسلام بل إنهم يتناسون خلافتهم ويعدونها هامشية إذا قيست بعدائهم للإسلام وأهله وإن حال المسلمين وشتات أمرهم قد مكنهم من ذلك.
- إن تقريط المسلمين في خلافتهم الإسلامية قد مهد الطريق للاستعمار والتبعية وتقسيم العالم الإسلامي إلى دويلات وطوائف.

(١) العز بن عبد السلام : الإمام العلامة سلطان العلماء ، برع في الفقه والتفسير والحديث رحل إلى بغداد وصنف التصانيف ولي الخطابة في دمشق وحارب البدع ثم توجه إلى مصر في عهد الصالح أيوب وتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، توفي سنة ٦٦٠ هـ .
شذرات الذهب ، أبي الفلاح ابن العماد الحنبلي ، دار الفكر ج ٥ ، ص ٣٠١ .

ثانياً : إجابة دعوة الرسول ﷺ من ربه تعالى

مرّ على رسول الله ﷺ مواقف يدعو ربه ويناجيه فيستجيب له ويتحقق ما سأل الله فيه وقد كانت آيات بينات وتأييد من رب الأرض والسموات فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : ((أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة قام إعرابي فقال يا رسول الله : هلك المال ، وجاع العيال فادعُ الله لنا . فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة ^(١) فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ، ومن الغد ، ومن بعد الغد حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال فادعُ الله لنا . فرفع يديه فقال :

اللهم حوالينا ولا علينا . فما يشير إلى ناحية من السحاب إلا انجابت وصارت المدينة مثل الجوبة ^(٢) . وسال وادي قناة شهراً ولم يجيء أحد من ناحيته إلا حدث بالجوّد . وفي رواية قال : اللهم حوالينا ولا علينا . اللهم على الآكام ^(٣) . والضراب ^(٤) . وبطون الأودية . ومنابت الشجر)) . قال :

فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس)) ^(٥) .

وها هو رسول الله ﷺ يستجيب لصاحبه أبي هريرة رضي الله عنه فيدعو لأمه أن يهديها الله للإسلام فيجيب الله دعاءه وتسلم في لحظة الدعاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة ، فدعوته يوماً ، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي ، قلت :

(١) قزعة : قطعة من السحاب ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، ملاً علي قاري ، دار إحياء التراث العربي بيروت ح ٥ ص ٤٦٠ .

(٢) الجوبة : الفرجة في السماء . نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٤٦١ .

(٣) الأكمة ، الرابية . النهاية في غريب الحديث والأثر لأبن الأثير الجزري ، تحقيق طاهر الزاوي محمد الطناحي دار إحياء التراث ح ١ ص ٥٩ .

(٤) الضراب ، الجبال الصغيرة نفس المصدر ح ٣ ، ص ١٥٦ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة ح ٢ ، ص ٤١٣ .
صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صلاة الإستسقاء ، باب الدعاء في الإستسقاء ، ج ٦ ، ص ١٩٣ .

يا رسول الله ادع الله أن يهد أم أبي هريرة ، فقال : ((اللهم اهد أم أبي هريرة))
فخرجت مستبشرا بدعوة النبي ﷺ فلما صرت على الباب فإذا هو مجاف ^(١) فسمعت
أمي خشف ^(٢) قدمي ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء ،
فاغتسلت ، فلبست درعها ، وعجلت عن خمارها ، ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا
هريرة : اشهد أن لا إله إلا الله ، واشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فرجعت إلى
رسول الله ﷺ وأنا أبكي من الفرح ، فحمد الله وقال خيرا ^(٣) . وهذا جابر بن
عبدالله رضي الله عنهما يروي خبر تكثير الطعام القليل حتى أنه ليكفي أهل الخندق
جميعهم ببركة دعاء المصطفى ﷺ وقد عدّه جابر لرسول الله ﷺ ونفر قليل معه ،
فكان كثيرا يكفي جيش الخندق .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : انكفأت إلى امرأتي في يوم
الخندق ((فقلت : هل عندك شيء ! فإني رأيت بالنبي ﷺ خمصاً)) (جوعاً) شديداً ،
فأخرجت جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بهمة داجن ((سمينة)) فذبحتها ،
وطحنت الشعير ، حتى جعلنا اللحم في البرمة ((القدر)) ثم جئت النبي ﷺ
فساررته ، فقلت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا ، وطحنت صاعاً من شعير ، فتعال
أنت ونفر معك ، فصاح النبي ﷺ ((يا أهل الخندق ، إن جابر صنع سوراً))
طعاماً ((فحي هلا)) .

فقال رسول الله ﷺ : ((لا تنزلن برمتكم ، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء ،
وجاء ، فأخرجت له عجينا ، فبصق فيه ، وبارك)) (دعا بالبركة فيه) ثم عمد إلي
برمتنا ، فبصق ، وبارك ، ثم قال : ادعُ خابزة ، فلتخبز معك ، واقدحي ((اغرفي))
من برمتكم ، ولا تنزلوها ، وهم ألف ، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ،
وأن برمتنا لتغط ((تفور وتغلي)) كما هي ، وإن عجينا ليخبز كما هو ^(٤) .

(١) مجاف ، أي مردود ، مرقاة ح ٥ ، ص ٤٥٨ .

(٢) خشف : أي صوتهما وقيل حركتهما ، مرقاة ح ٥ ، ص ٤٥٨ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه ،
ج ١٦ ، ص ٥١ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق ح ٧ ، ص ٣٩٥ صحيح مسلم
بشرح النووي ، كتاب الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ح ١٣ ص ٢١٥ .

وقد دعا ﷺ ربه لحاجة أصحابه للماء فكثّره الله ، ونبع من بين أصابعه ، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، قال كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة يوم الحديبية ، والحديبية بئر ، فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ النبي ﷺ ، فأثأها . فجلس على شفيرها^(١) ، ثم دعا بإناء من ماء ، فتوضأ ، ثم مضمض ، ودعا ، ثم صبه فيها ، ثم قال دعوها ساعة ، فأرووا أنفسهم وركابهم ، حتى ارتحلوا^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : ((كنا نعد الآيات ^(٣) بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً . كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فقلّ الماء قال : اطلبوا فضلة من ماء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده في الإناء ثم قال : حيى على الطهور المبارك ، والبركة من الله . ولقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل^(٤) .

بل إن رسول الله ﷺ يخبر بأخبار الغيب التي لا يعلمها إلا نبي يخبره الوحي من الله تعالى ، ثم يثمر هذا في إسلام يهودي هو عبدا لله بن سلام رضي الله عنه وقد كان حجة عند يهود ، فعن انس رضي الله عنه ، قال : سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف^(٥) ، فأتى النبي ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : فما أول أشراف الساعة ، وما أول طعام أهل الجنة ، وما ينزع^(٦) الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : ((أخبرني بهن جبريل آنفاً ؛ أما أول أشراف الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . يا رسول الله

(١) شفيرها أي طرفها . مرقاة ح ٥ ص ٤٤٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، ح ٧ ، ص ٤٤١ .

(٣) الآيات - المعجزات والكرامات مرقاة ح ٥ ، ص ٤٥٦ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ح ٦ ص ٥٨٧ .

(٥) يخترف : أي يجتبي من الفواكه . مرقاة ح ٥ ، ص ٤٤٠ .

(٦) ينزع : أي نزع الولد إلى أبيه إذا أشبهه ، المعنى وما يشبهه .؟ . مرقاة ح ٥ ، ص ٤٤٢ .

إن اليهود قوم بهت^(١)، وأنهم أن يعلموا باسلا مي من قبل أن تسألهم يبهتوني ، فجاءت اليهود فقال : أي رجل عبد الله فيكم ؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : - أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا أعاذة الله من ذلك . فخرج عبد الله فقال : اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، فانتقصوه . قال هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله !))^(٢) . وأخبر رسول الله بأخبار ما هو كائن إلى يوم القيامة في خطبة من صلاة الفجر حتى غربت الشمس ، فعن عمرو بن أخطب الأنصاري ، قال : ((صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الفجر وصعد المنبر فخطبنا ، حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر ، فخطبنا ، حتى حضرت العصر ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأعلمنا أحفظنا))^(٣) ،

وقد شهد الشجر والحجر بنبوة محمد ﷺ ، فعن جابر رضي الله عنه قال : ((كان رسول الله ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع من جذوع النخل ، فلما صنع المنبر وقام عليه سمعوا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار^(٤) ، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت))^(٥) .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن ﷺ قال : ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن))^(٦) . وقد أعطي رسول الله ﷺ قوة إبصار وقدرة فيرى الجنّي الذي تقلّت عليه ﷺ وهو قائم يصلي ليفسد عليه صلاته ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ((إن عفريتاً من الجنّ تقلّت البارحة ليقطع عليّ صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على

(١) بهت ، جمع بهوت من بناء المبالغة ، في البهتان وهو الظلم الجائر . مرقاة ٤٤٢/٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري : كتاب التفسير سورة البقرة ، باب قوله من كان عدوا لجبريل ح ٨ ، ص ١٦٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب أخبار النبي ﷺ بما يكون إلى يوم القيامة ج ١٨ ، ص ١٦ .

(٤) العشار : وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر . مرقاة ج ٥ ص ٤٤٢ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الخطبة على المنبر ح ٢ ، ص ٣٩٧ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ ، ج ١٥ ، ص ٣٦ .

سارية من سوارى المسجد حتى تنتظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ (١) ((فرددته خاسئاً)) (٢) .

قال شيخ الإسلام : ((والنبي ﷺ لما تفلّت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال فأخذته فذعته (٣) حتى سال لعبه على يدي وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد ثم ذكرت دعوة أخى سليمان - من أن تسخير الجن خاص بسيدنا سليمان فى قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ فأرسلته أى أطلقته . فلم يستخدم الجن أصلاً ، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله وقرأ عليهم القرآن وبلغهم الرسالة وبايعهم كما فعل بالإنس)) (٤) .

((وفيه دليل على أن الجن موجودون وأنهم قد يراهم بعض الأدميين وأما قول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرْوَهُمْ ﴾ (٥) فمحمول على الغالب فلو كانت رؤيتهم محالاً لما قال النبي ﷺ ما قال من رؤيته إياه ومن أنه كان يربطه لينظروا كلهم إليه ويلعب به ولدان أهل المدينة)) (٦) .

وإذا كان الله سبحانه قد سخر الجنّ بل والطير والدواب لنبيه سليمان عليه الصلاة والسلام ، فإن نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم قد أثر دعوة الجنّ وهدايتهم وعلم أن غير ذلك قد خصّ الله به أخيه سليمان عليهما الصلاة والسلام .

(١) سورة ص ٣٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى " ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب . ح ٦ ، ص ٤٥٧ . ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد باب جواز لعن الشيطان ح ٨ ، ص ٢٨ .

(٣) فذعته أى خنقته . ودعته : أى دفعته دفعاً شديداً ، شرح النووي ح ٥ ، ص ٢٩ .

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١٣ ، ص ٨٩ .

(٥) سورة الأعراف ٢٧ .

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم ، ج ٥ ، ص ٢٩ .

وهنا يتبين الفرق بين رسالة النبيين محمد وسليمان عليهما الصلاة والسلام وتعاملهما مع الجن ، والذي نبينا محمد ﷺ أعظم مما أوتيته سليمان ﷺ ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ، واختار أن يكون عبداً رسولاً على أن يكون نبياً ملكاً . فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد ، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين)) (١).

وهذا عمر رضي الله عنه في زمن خلافته ، وهو يسير الجيوش شرقاً وغرباً وشمالاً ، وهو يخطب الجمعة في مدينة الرسول ﷺ تنزل عليه مكرمة ، ومكرمات أولياء الرحمن تصديقاً لنبوة نبيهم المصطفى رسول الله ﷺ ، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ((أن عمر بن الخطاب بعث جيشاً أمر عليهم رجلاً يدعى سارية ، قال فبينما عمر يخطب بالناس يوماً قال : فجعل يصيح وهو على المنبر يا ساري الجبل يا ساري الجبل ، قال : فقدم رسول الجيش فسأله ، فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فإذا بصائح يصيح يا ساري الجبل يا ساري الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله ، فقيل لعمر بن الخطاب إنك كنت تصيح بذلك)) .

وفي رواية ، قال : فأثبتوا ذلك اليوم من هذا الشهر ثم انظروا ، وكان بعث سارية في بعث فظفروا بالعدو فحيز إلى الجبل ، وقال سارية لما انصرف : بينما نحن نقاتل العدو سمعنا صوتاً لا ندري ما هو يا ساري الجبل ثلاثاً فدفع الله عز وجل عنا به فنظروا إلى ذلك اليوم فإذا هو اليوم الذي قال عمر ما قال)) (٢).

قال شيخ الإسلام : ((وعمر رضي الله عنه لما نادى يا سارية الجبل قال إن لله جنوداً يبلغون صوتي . وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحى الجن . فجنود

(١) الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للآل كافي ، تحقيق د. أحمد سعد حمدان ج ٧ ، ص ١٣٣١ ، ١٣٣٠ .
؛ البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ، ص ١٣٥ . وقال ابن كثير : وهذا إسناد جيد حسن ثم قال بعد جمع طرق الحديث : فهذه طرق يشد بعضها بعضاً .
؛ تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين ، للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق د. عمر عبدالسلام . دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧ هـ ص ٢٤٩ .

الله بَلَّغُوا صوت عمر إلى سارية وهو أنهم نادوا بمثل صوت عمر ، وإلا نفس صوت عمر لا يصل لنفسه في هذه المسافة البعيدة)) (١) .

((وهذه الأخبار : منها ما هو في القرآن . ومنها ، ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة ، كنبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام ، وحنين الجذع .. ونحن نعلم بموجب العادة الفطرية التي جبل الله عليها عباده ، وبموجب ما كان عليه سلف الأمة عن اعتياد الصدق وتحريه ، واعتقادهم أن ذلك واجب ، ومن شدة توقيعهم الكذب على نبيهم وتعظيمهم ذلك .. فنحن نعلم أنهم لم يكونوا يقرّون من يعلمون أنه كذب عليه ﷺ ، ومن أخبر عنه بما كانوا مشاهدين له ، وكذب عليه ، فقد علموا أنه كذب عليه ، فلما اتفقوا على الإقرار على ذلك وعلى تناقله بينهم من غير إنكار أحد منهم لذلك . علم قطعاً أن القوم كانوا متفقين على نقل ذلك ، كما هم متفقون على نقل القرآن والشرعة .. أما ما ينقله كثير من أهل الجهل مثل ما يجعلونه من معجزات الرسول أو غيره ، ولا يوجد منقولاً عند أهل العلم بأحواله ، بل يكذبون ناقله ، مثل قول كثير من العامة أن الغمام كان يظله دائماً فهذا لا يوجد في شيء من كتب المسلمين المعروفة عند علمائهم ، ولا نقله عالم من علمائهم ، بل هو كذب عندهم ..

وكذلك ما نقله طائفة من أهل العلم ، من أن الشمس ردت لما فاتت علياً صلاة العصر ، لكون النبي ﷺ نام في حجره ، وجعل بعضهم هذا من المعجزات ، وليس هذا الحديث في شيء من كتب المسلمين التي يعتمدون على ما فيها من المنقولات ، لا الصحاح ولا المسانيد ، ولا التفسير ولا المغازي ، ولا السير ولا غير ذلك بل بيّن أهل العلم بالحديث أن هذا كذب ، وليس له إسناد واحد صحيح متصل ، بل غايته أن يروى عن لا يعرف صدقه ولم يروه إلا هو مع توفر الهمم والدواعي على نقله ، فاعلموا أنه كذب ، وهذا باب واسع يبين أن علماء المسلمين

(١) الفرقان لابن تيمية ص ١١٢ .

يميزون في المنقولات بين الصدق والكذب .. وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول :
أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم^(١) . وهذا
دأب الشيعة والصوفية وولعهم بالمكذوب المروي زوراً وبهتاناً ، وإعراضهم عن
الحق وأهله رفضاً وضلالاً ، ويدعون حباً خلياً عن الطاعة والامتثال ! .

ثالثاً - أحوال الأنبياء

إن علم الله سبحانه قد أحاط بما كان وما هو كائن ، وإن أنبياءه عليهم
الصلاة والسلام كانوا محاطين بعلمه وتهيئته لهم ؛ فكانوا قدوة بين أقوامهم في
تعاملهم وتصرفاتهم قبل النبوة وبعدها ، كيف وقد قص الله أخبار بعض أنبيائه في
كتابه العزيز فما خفي على المتتبع لأمرهم في القرآن أنهم أهل للرسالة والتحمل في
الدعوة والصبر على الإيذاء من أقوامهم . فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه ألف
سنة إلا خمسين عاماً ، ثم لم يؤمن معه إلا قليل ويخاطبه ربه ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ
لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٢) ويأمره
ربه بأن يصنع السفينة ويهيئ له حسن إتقان صنعها حتى إذا جاء أمر الله وطغى
الماء على اليابسة ، كانت تلك السفينة وسيلة نجاة للذين آمنوا معه ، وحين يسأل الله
أن يلحق به ابنه الذي عصاه ، ولم يجبه إلى ركوب السفينة ، فيخبره الله أنه ليس
من أهل الصلاح فلا يستحق أن ينجيه الله مع الذين آمنوا : ثم يعوضه الله هبوطاً
آمناً وحياة بسلام ، ثم يكون أباً للأنبياء من بعده ويكون جداً للبشرية والأمم
اللاحقة ، وتكون دعوته وجهاده وصبره مع قومه نبزاً لمن جاء بعده من الأنبياء ،
وهكذا قصص الأنبياء صورة حية لحياتهم ودعوتهم . . أما نبينا محمد ﷺ فإن
سيرته وحياته قبل الدعوة وبعدها لا يشك في دلالتها على أنه صاحب رسالة ، بل
إنه قد جمع له أخلاق الأنبياء وصبرهم وحلمهم مع أقوامهم ، بل إن رسالته الكاملة
وحفظ الله لوحيه قرآناً وسنة وتبليغ رسوله أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، ثم إن

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ .

(٢) سورة هود آية ٣٥ .

صلاح دعوته ورسالته لكل عصر ومصر ، وجهاده لإعلاء كلمة الله ، ونقل جميع ذلك عبر الأزمان وحفظه ، فيطلع عليه اللاحق وكأنه يعيش مع السلف السابق مراقباً لأحوال محمد ﷺ في الصدق والوفاء والكرم والشجاعة والورع والخوف من الله ، والزهد في الدنيا وحبه لأصحابه ، وإيثاره غيره ، والعزيمة في الأمر ، وإقدامه في المدلهمات ، وحبه للشهادة في سبيل الله ، فهذه الأمور وغيرها سبباً لأحواله ﷺ في نفسه ومع أصحابه مؤثر ودليل على نبوته وأنه رسول الله وخاتم النبيين لا يعتري ذلك شك ولا توهم إلا عند من زأغت قلوبهم وأفئدتهم وأبصارهم . وكان محمد ﷺ يوصف بالأمين في قومه قبل البعثة ، فقد روى أصحاب السير في الحديث عن بناء الكعبة وكان عمره خمساً وثلاثين سنة ، فبعد هدمها ، ثم بنائها ((فلما بلغ البنيان موضع الركن ، يعني الحجر الأسود ، اختصموا فيمن يضعه وحرصت كل قبيلة على ذلك حتى تحاربوا ومكثوا أربع ليال . ثم أنهم اجتمعوا في المسجد ثم اجتمع أمرهم على أن يجعلوا أول داخل للمسجد حكماً فيما بينهم ، وبمشيئة الله كان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه ، قالوا هذا الأمين رضينا به ، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال : هاتوا لي ثوباً فأثوا به ، فأخذ الركن بيده فوضعه في الثوب ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوا جميعاً ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو ﷺ بيده وبنى عليه)) (١) .

وكانت قریش تدعوه الصادق الأمين وبعد بعثته ﷺ ونزول قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) أمثال ﷺ أمر ربه وصعد الصفا مبلغاً ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ

(١) تاريخ الإسلام - السيرة النبوية - للذهبي ، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧ هـ ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، وقد أحال إلى السير الآتية .

؛ سيرة ابن هشام ج ١ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٨ .

؛ السيرة والمغازي لابن اسحق ص ١٠٣ - ١٠٨ .

؛ طبقات ابن سعد ج ١ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

؛ تاريخ الطبري ج ٢ ، ص ٢٨٦ - ٢٩٠ .

؛ السيرة لأبن كثير ج ١ ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ - ٢٨١ ، وانظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ، ص ٤٢٥ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢١٤ .

على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم إن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ فقالوا نعم ما جر بنا عليك إلا صدقاً ، قال : فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ۝ (١) ۖ ۝ (٢) ۚ

لقد خاطبهم رسول الله ﷺ خطاب المنطقيين بعرض المقدمة وقولهم بالتسليم وهو قبولهم صدقه فيما يقول ، غير أنهم عادوا في قبولهم عندما عرض عليهم الإسلام وكانوا يهجونه ﷺ ويدعونه بغير اسمه، وقد تعجب منهم ﷺ وكيف يصرف الله عنه شتمهم .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً وأنا محمد)) (٣) . فكان هذا حفظ الله لنبيه ﷺ حتى لا يسوؤه ما يسمعه أصحابه من هجاء النبي بذكر اسمه ﷺ وهم يصفونه بالسحر والكهانة والجنون .

رابعاً : دعوتہ ﷺ وأحوال أصحابہ :

وقد ختم الله بختم النبوة على كتفه فكانت من علامات نبوته حتى إن سلمان
الفارسي رضي الله عنه قد استدلل بها في إسلامه عندما جاء يبحث عن النبي الذي
يظهر في ذلك الزمان .

فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: ((ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إن ابن اختي وقع ، فمسح رأسي ودعالي بالبركة وتوضأ فشربت من وضوئه ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه)) (٤).

وإذا كان سلمان رضي الله عنه قد آمن برسول الله ﷺ لأنه جاء طالباً للحق والهداية فاراً من عبادة النار التي يؤلّوها قومه المجوس^(٥)؛ فإن ضماد بن ثعلبة

(١) سورة المسد آية ١ ، ٢ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب النفوس ، باب وأندر عشيرتك الأقرين ج ٨ ، ص ٥٠١

(۳) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ ج ۶، ص ۵۴.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لكتاب المناقب باب ختم النبوة ج٦ ص ٥٦١ .

(٥) مسند الإمام أحمد ج ٥، ص ٤٤١، ٤٤٤؛ انظر تاريخ الإسلام للذهبي - السيرة - وقال المحقق رجاله

ثقافت و اسنادہ قوی ، ص ۹۵ - ۱۰۲ .

الأزدي والذي قدم إلى مكة ليرقي النبي ﷺ وحين سمع كلامه ورأه آمن وعدل عن تطبيبة ورقيته.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((قدم ضمادُ مكة وهو من أزد شنوءة وكان يركي من هذه الرياح فسمع سفهاء الناس يقولون إن محمداً مجنون فقال آتي هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، قال : فلقيت محمداً ، فقلت : إني أركي من هذه الرياح ، وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهلم . فقال محمد : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهديه الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد : فقال ضماد^(١) : والله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات فهلم يدك أبايك على الإسلام ، فبايعه رسول الله ﷺ فقال له : ((وعلى قومك)) قال : وعلى قومي . فبعث النبي ﷺ سرية . فمروا بقوم ضماد . فقال صاحب الجيش للسرية : هل أصبتم من هؤلاء شيئاً ؟ فقال رجل منهم : أصبت منهم مطهرة ، فقال ردوها عليهم فإنهم قوم ضماد . وفي رواية فقال ضماد : أعد علي كلماتك هؤلاء فقد بلغن قاموس البحر^(٢) ،^(٣) .

بل إن رسول الله ﷺ قد أخبر عن رجل من التابعين وكان عابداً لله باراً بأمه ، وهذا الذي جاء لينادي به محمد ﷺ إخلاصاً لله وإتباعاً لرسول الله ﷺ .
فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إن رسول الله ﷺ قال : ((إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس ، لا يدع باليمن غير أم له وقد كان به بياض ، فدعا الله فأذهبه إلا موضع الدينار أو الدرهم ، فمن لقيه منكم فليستغفر لكم .
وفي رواية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن خير التابعين رجل يقال له : أويس وله والدة ، وكان به بياض ، فمروه فليستغفر لكم))^(٤) فكان من

(١) هو ضماد بن ثعلبة الأزدي . من أزد شنوءة ، وكان رجلاً يتطبب ويرقي ويطلب العلم . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج ٢ ، ص ٢١٠ ؛ وانظر تاريخ الإسلام للذهبي - السيرة - ص ١٩٦ .

(٢) قاموس البحر : قال النووي : هو المشهور في روايات الحديث في غير صحيح مسلم ، وقال أبو عبيدة : قاموس البحر وسطه . وقال بن دريد : لجته وقال صاحب كتاب العين فعره الأقصى ، وقاموس البحر لجته التي تضطرب أمواجها ولا تستقر مياهها وهي لفظة عربية صحيحة . شرح النووي ج ٦ ص ١٥٧ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجمعة ، باب صلاة الجمعة وخطبتها ، ج ٦ ، ص ١٥٦ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أويس ، ج ١٦ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

حرصه على زيادة أجور وحسنات أصحابه من بعده أن دلهم على خير التابعين وهم الذين لقوا أصحابه رضي الله عنهم ولم يروه ﷺ ، ثم أمرهم بأن يسألوه الاستغفار لهم ، وهنا يتضح أمران :

- ١ - حرصه ﷺ على ما يصلح أحوال أمته مثل الاستغفار والدعاء بظهر الغيب .
- ٢ - إن إخباره ﷺ بأويس رحمه الله معجزة لا تكون إلا لنبي يخبره الوحي من الله .

وإن جوده وسخاءه ﷺ قد اشتهر وظهر مما جعل أقواماً يسلمون ولم يروه ولم يدعهم بنفسه ، وقد كان المرء يسلم لأجل المال والعطاء فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها ، وهذا من الحكمة في شريعة الإسلام فإن المؤلفه قلوبهم أحد الأصناف الثمانية التي تصرف لهم الزكاة فعن أنس رضي الله عنه قال : ((إن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياها فأتى قومه قال أي قوم أسلموا فوالله أن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر ، فقال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها))^(١).

وعن ابن شهاب قال : ((غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح فتح مكة ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بحنين فنصر الله دينه والمسلمين وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة ، قال بن شهاب حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال : والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنه أحب الناس إليّ))^(٢).

وإذا كان هذا حال المصطفى ﷺ في جوده وكرمه فإنه ﷺ كان زاهداً في هذه الدنيا وعرضها الزائل ، وقد كان هذا حال الأنبياء والرسل من قبل يبذلون الخير للناس ويصبرون على الأذى ولا يريدون جزاءً ولا شكوراً ، ويخرجون الناس من عبادة الأصنام والعباد إلى عبادة رب العباد ، ومن الظلمات إلى النور ، فهذا أول

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب سخائه ﷺ ج ١٥ ، ص ٧٢ .

(٢) نفس المصدر ج ١٥ ، ص ٧٣ .

الرسول نوح عليه الصلاة والسلام . يقول لقومه: ﴿ وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (١).

وكان هذا حال هود وصالح ولوط وشعيب ؑ وكل منهم يقول لقومه : ﴿ وَمَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وهذا آخر الرسل وخاتمهم محمد ﷺ يأمره الله بقوله تعالى: ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (٣) ((أي إن هذا البلاغ وهذا
الإنذار بلا أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله وطريقاً ومسلكاً
ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به)) (٤).

وإن لنا في أسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه لعلبة بقوة هذا الدين وبيان
لحال النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وكيف تحملوا المشاق لبلوغ رؤية النبي ﷺ ،
وكيف يعلن بعضهم إسلامه مع علمه بما سيطرتب على ذلك ، وما ذاك إلا إيماناً
عميقاً وتوكلاً على الله وحباً في الشهادة ، و هذا دلالة من دلائل النبوة ويدل على
هذا أيضا عودة أولئك النفر إلى أقوامهم فيدعونهم إلى الإسلام فيسلمون ولم يروا
النبي ﷺ ، فعن بن عباس رضي الله عنهما قال : ((لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ
قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لنا علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه
الخبر من السماء ، واسمع من قوله ثم انتتني . فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من
قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له : رأيته يأمر بكرم الأخلاق ، وكلام ما هو
بالشعر ، فقال : ما شفيتني مما أردت . فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم
مكة، فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه
بعد الليل. فرآه عليّ فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحداً منهما
صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم احتمل قريته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك

(١) سورة هود أية ٢٩.

(٢) سورة الشعراء أية ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ .

(٣) سورة الفرقان أية ٥٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

اليوم ولا يراه النبي ﷺ فعاد إلى مضجعه، فمر به علي فقال : أما نال الرجل أن يعلم منزله ، فأقامه ، فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث فعاد علي على مثل ذلك، فأقام معه ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني ففعلت ، ففعل ، فأخبره ، قال : فإنه حق ، وهو رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل ، فانطلق يققوه ، حتى دخل على النبي ﷺ ، ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه. فقال له النبي ﷺ ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيتك أمري . قال : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم . فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : اشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ثم قام القوم فضربوه حتى أوجعوه . وأتى العباس فأكب عليه قال : ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلى الشام عليهم ؟ فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمتلها فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه)) (١).

وفي رواية لمسلم عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ((ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال: إنه قد وجهت لي أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله أن ينفعهم بك وبأجرك فيهم، فأتيت أنيساً فقال : ما صنعت ؟ قلت : صنعت إني قد أسلمت وصدقت . قال : ما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت فأتينا أمنا . فقالت : ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت وصدقت فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارا فأسلم نصفهم وكان يؤمهم إيماء بن رخصة الغفاري وكان سيدهم ، وقال نصفهم إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي وجاءت أسلم فقالتوا يا رسول الله أخوتنا نسلم على الذي أسلموا عليه فأسلموا. فقال رسول الله ﷺ غفار

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار باب إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ج ٧ ،

ص ١٧٣ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي ذر الغفاري رضي الله

عنه ج ١٦ ، ص ٣٢ .

غفر الله لها واسلم سالمها الله)) (١).

وهذا دليل ناصع ساطع على حجية خبر الواحد الثقة ، كيف وقد بلغهم أبو ذر فصدقوه وآمنوا واعتنقوا الإسلام ولم يروا النبي ﷺ ولم يرحلوا عن ديارهم وإن إسلام تلك الجزر في شرق قارة آسيا مثل جزر أندونيسيا وماليزيا والمالديف وغيرها ولم يبلغهم الإسلام إلا عن طريق تجار أفراد حاملين معهم خلق الإسلام وعدالة الإسلام ، فأسلموا لأنه دين الفطرة الذي يخاطب القلوب والعقول فلا تعارض فيه بين النقل الصحيح والعقل الصريح بعكس غيره من الأديان المحرفة، وإن إسلام النجاشي ملك الحبشة عندما هاجر إلى بلاده المستضعفون من أتباع محمد ﷺ وهو في مكة هرباً من إيذاء قريش للدعوة والدعاة والمستضعفين ، فعندما تبين له حقيقة الإسلام وأنه حق من عند الله أسلم وحمى أولئك الذين هاجروا بدينهم وقد صلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب عندما بلغه خبر موته ودعى له . وقد وقع ما أخبر به أبو سفيان من أنه ﷺ سيملك موضع قدمي هرقل وهذا ما حدث فكانت دولة الخلافة العثمانية في بلاد الأناضول ، فقد ((أعمل هرقل ملك الروم عقله وفكره وعلمه بأحوال الرسل وصفاتهم فاهتدى إلى أن محمداً مرسل من ربه، ولكنه لم يؤمن ضناً بملكه ، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إلى ملوك الأرض في عصره يدعوهم إلى الإسلام . وكان هرقل ملك الروم من هؤلاء الذين أرسل إليهم، فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام)) (٢).

فعن عبيد بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره ((أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في

(١) صحيح مسلم شرح النووي كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ج ١٦ ، ص ٣٠ عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه .

(٢) الرسل والرسالات ، د . عمر الأشقر ، ص ١٩٨ .

المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأثوه وهم بإيلياء^(١) ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعى بترجمانه، فقال أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً. فقال : أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل هذا الرجل ، فإن كذبتني فكذبوه . فوالله لو لا الحياء من أن يأتروا علي الكذب لكذبت عنه . ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم الضعفاء فيهم؟ فقلت بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون. قال : فهل يرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال : قلت لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها . قال ولم تمكنني كلمه أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينهم سجال ينال منا وننال منه. قال : ماذا يأمركم؟ قلت : يقول أعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً، و اتركوا ما يقول آباءكم و يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت لا . فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، فقلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس يتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم

(١) إيلياء : قال ابن حجر : أي بيت الله ، قرية من قرى الشام . فتح الباري ، ج ١ ، ص ٣٤ .

أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم وسألتك أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدمه .

ثم دعا بكتاب الرسول ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل ، فقرأه ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿^(١) .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر - علا شأنه - أمر ابن أبي كبشة ، إنه يخافه ملك بني الأصفر . فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .. وسار هرقل إلى حمص ، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم أطلع فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وإن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ .

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، فلما رأى نفرتهم وأيس من الإيمان ، قال : ردوهم عليّ . وقال : إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيتم . فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل^(١) .

والفضل ما نطقت به الأعداء ، وإن هذا درس لأبناء المسلمين الذين يفضلون قيم ومبادئ الغرب أو الشرق على شريعة محمد ﷺ ولكن العزاء في قوة وصمود هذا الدين ونصرة رب العالمين لدينه وكتابه وسنة نبيه ﷺ فيها هو هرقل كان يتمنى لو أعلن إسلامه بل طلب من قومه ذلك لعلمه بحقيقة وعظمة الإسلام .

حال الخضر عليه السلام :

وهو الذي جاء ذكره في سورة الكهف ، معلماً لموسى عليه السلام ، وأخبر الله أنه عبد صالح عنده علم لدني من الله ، وهذا لا يكون إلا لنبي لأن ذلك يقتضي وحياً ، وعلم الله لا يكون إلا على أيدي أنبيائه ورسله ، ولأنه يقتضي تشريعاً وبيان حلال وحرام . وهذا ما كان حين قتل الغلام وخرق السفينة وبنى جداراً منقضاً من غير أجر ، وقد استدل من قال بنبوته من العلماء على نبوته بما يلي :

أولاً - إنه صاحب علم لدني ، ورحمة من الله .

ثانياً - إن موسى اتبعه وهو نبي معصوم ، فكيف يتبع المعصوم من كان غير معصوم ويتعلم منه ؟ إلا أن يكون نبياً مثله .

ثالثاً - إن الخضر قتل الغلام وأفسد السفينة على قوم مساكين ، وهذا مخالف لما جاءت به الشرائع السماوية إلا أن يكون أمراً من الله سبحانه . وهو ما ذكره الخضر بعد أن أخبر موسى تفسير ما أقدم عليه فقال ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾^(٢) وفي الصحيح عن كعب ((إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأرهب أبويه طغياناً وكفراً))^(٣) .

رابعاً : - قال ابن كثير في تفسير الآية : ((أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ووالدي الغلام

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب بدء الوحي ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٢) سورة الكهف ٨٢ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب القدر ، باب كل مولد يولد على الفطرة ج ١٦ ، ص ٢١١ .

وولدي الرجل الصالح وما فعلته عن أمري أي لكنني أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام ، وقال آخرون كان رسولا .. وذهب كثيرون إلى انه لم يكن نبيا بل كان ولياً فأن الله أعلم^(١) .
خامساً : ورد أن عدد الأنبياء مائة ونيفاً ولم يذكر منهم ويعلم اسمه إلا القليل ، كيف وقد ذكر الله الخضر في عدد من آيات القرآن .

((ومن قال إنه نبي ، قال هو كإلياس نبي لكنه لم يوح إليه في كل الأوقات، وترك الوحي إليه في مدة معينة ليس نفيًا لحقيقة النبوة . وأكثر العلماء على انه لم يكن نبياً ، مع إن نبوة من قبلنا يقرب كثيرا منها من الكرامة والكمال في الأمة . وإن كان كل واحد من النبيين أفضل من كل واحد من الصديقين كما رتبته القرآن))^(٢) .

ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني^(٣) الذين أمتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله تعالى ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا . وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي ، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله جل وعلا . ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر ، وتعيب سفن الناس بخرقها ، لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى . فإن قيل قد يكون ذلك عن طريق الإلهام ؟ فالجواب - إن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء ؛ لعدم العصمة وعدم الدليل على جواز الاستدلال به بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به ، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهم دون غيره ، وما يزعمه بعض الجبرية أيضا من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحي المسموع .. كله باطل لا يعول عليه ؛ لعدم اعتضاده بالدليل ، وغير المعصوم لا ثقة بخواطره ؛ لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان. وقد تضمنت الهداية في اتباع الشرع ،

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٨٨ .

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية ج ٤ ، ص ٣٣٨ .

(٣) العلم اللدني : هو ما علمه الله عبده الخضر من علم الغيب والذي ستأثره به . فتح القدير للشوكاني ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات .

والإلهام هو : هو إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحى ولا نظر في حجة عقلية ، يختص الله به من يشاء من خلقه . أما ما يلهمه الأنبياء مما يلقيه الله في قلوبهم فليس كإلهام غيرهم ؛ لأنهم معصومون بخلاف غيرهم ((^(١)).

وقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن الخضر حي لم يميت ، قال النووي : ((جمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة ، ومواطن الخير أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يستر ، وقال الشيخ عمرو بن الصلاح ؛ هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامّة معهم في ذلك . قال : وإنما شذّب بإنكاره بعض المحدثين))^(٢).

وخالف إن ابن كثير ورد عليهم في تفسيره فقال : ((ذكر النووي وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه وذكروا في ذلك حكايات وأثراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث ، ولا يصح شيء من ذلك ، وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف . ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك ، واحتجوا بقوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾^(٣) . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً .

وقال النبي ﷺ يوم بدر : ((اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض))^(٤) . ولأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه . ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه لأنه عليه الصلاة والسلام

(١) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي ، ج ٤ ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ، ج ١٥ ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٣) سورة الأنبياء ٣٤ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم والقميص في الحرب ، ج ٦ ، ص ٩٩ صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملاتكة في بدر ، ح ١٢ ، ص ٨٤ .

كان مبعوثاً إلى جميع الثقليين الجن والإنس وقد قال ﷺ : ((لو كان موسى وعيسى
حيين لما وسعهما إلا اتباعي)) (١) .

ثم إنه ﷺ أخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى
مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل)) (٢) .

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة
العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال ((أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مئة
سنة لا يبقى مما على ظهر الأرض أحد)) (٣) .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية : ((وتلك العصابة كان تحت لوائها سادة
المسلمين يومئذ وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام كما قال حسان بن ثابت في
قصيدة له في بيت يقال إنه أفخر بيت قالت العرب :

وثبير بدر إذا يرد وجوههم
جبريل تحت لوائنا ومحمد

لو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم
غزواته : قال ابن الجوزي : فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة
الخضر)) (٤) .

وعندما سئل شيخ الإسلام ((عن الخضر وإلياس : هل هما معمران ؟ قال ..
إنهما ليسا في الأحياء ؛ ولا معمران ؛ وقد سأل إبراهيم الحربي أحمد بن حنبل
عن تعمير الخضر وإلياس ، وأنهما باقيان يريان ويروى عنهما ، فقال الإمام أحمد :
من أحال على غائب لم ينصف منه ؛ وما ألقى هذا إلا الشيطان وسئل البخاري عن
الخضر وإلياس : هل هما في الأحياء ؟ فقال : كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ :
لا يبقى على رأس مئة سنة من هو على وجه الأرض أحد .

وقال أبو الفرج بن الجوزي قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ ،

(١) مسند الإمام أحمد ، ح ٣ ، ص ٣٨٧ وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح ج ١ ص ١٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ح ٣ ، ص ٨٨ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب العلم باب السمر في العلم ، ح ١ ، ص ٢١١ .

(٤) البداية و النهاية ، ج ١ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

ليس هما في الأحياء)) (١) .

ويؤيد ما تقدم القول في إثبات عدم حياة الخضر ، قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۚ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ (٢) . فإن الله أخذ العهد على الأنبياء الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه وغير الأنبياء أولى وحيث أن الخضر لم يكن حياً فإنه لم يُذكر إيمانه ومجيئه إلى محمد ﷺ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ((ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لأن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه)) (٣) .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ وسلم قال : ((والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)) (٤) .

قال ابن كثير : ((وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة ، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة فدل على أنه ﷺ الإمام الأعظم والرسول الخاتم المبجل المقدم صلوات الله عليه وسلامه عليه وعليهم أجمعين . فإذا علم هذا وهو معلوم عند كل مؤمن علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك)) (٥) .

((وقد فتح القول بحياته باباً للخرافة والدجل .. ويروون في ذلك حكايات غريبة يأبأها العقل السليم !)) (٦) .

خامساً : بشارات الأنبياء

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ح ٤ ، ص ٣٣٧ .

(٢) سورة آل عمران ٨١ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ، دار الجيل بيروت ، تحقيق طه عبدالرؤف سعد ١٤١١ هـ ، ح ٢ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

؛ الإصابة لأحمد بن حجر العسقلاني ، دار الجيل بيروت تحقيق على محمد البيجاوي ١٤١٢ هـ ، ح ٢ ، ص ٣٠٠ .

(٤) حم ح ٣ ، ص ٣٨٧ وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح ح ١ ص ١٨٠ .

(٥) البداية والنهاية ح ١ ، ص ٣١٢ .

(٦) الرسل والرسالات د - عمر الأشقر ، ص ٢٤ .

أنزل الله تعالى كتابه معجزة لنبيه وخاتم رسله محمد ﷺ ، ثم اخبر سبحانه بتمام الدين وختم الرسالات ، وفي كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل يبين سبحانه بشاره نبيه محمد ﷺ في الكتب المنزلة من قبل ، بل ويلزم الأنبياء وأتباعهم الإيمان بما جاء به محمد ﷺ ، وإن هذا موجود في كتبهم المنزلة فيما جاءهم من الوحي ، بل إن الله أخبر عن التحريف الذي نال تلك الكتب بما فيها التوراة والإنجيل التي أنزلنا على بني إسرائيل يهوداً ونصارى . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۚ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۖ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ ﴾ (١) . ثم يخبر سبحانه وتعالى تكذيب اليهود والنصارى بما جاء به أنبيائهم وما كان يجب أن يؤمنوا به من التصديق والإيمان بمحمد ﷺ وبرسالته . فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ * بئسما أشترُوا به ۖ أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله ۖ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ ﴾ (٢) .

ثم قال سبحانه وتعالى عن المنصفين من النصارى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝ ﴾ (٣) ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ۖ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ۝ ﴾ (٤) وهم الذين يؤتيهم الله أجرهم مرتين .

قال شيخ الإسلام : ((ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشروا به يعلم بوجوه :

(١) سورة آل عمران آية ٨١ .

(٢) سورة البقرة آيات ٨٩ - ٩٠ .

(٣) سورة المائدة آية ٨٣ .

(٤) سورة القصص آية ٥٢ ، ٥٣ .

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب من ذكره . الثاني : إخبار من وقف على تلك الكتب وغيرها ، من كتب أهل الكتاب ممن أسلم ، ومن لم يسلم ، بما وجدوه من ذكره بها.

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب ، كانوا يخبرون بمبعثه ﷺ ، وأنه رسول الله ﷺ وأنه موجود عندهم وكانوا ينتظرونه ، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار وبايعوه من غير رهبة ولا رغبة . ولهذا قيل إن المدينة فتحت بالقرآن لم تفتح بالسيف كما فتح غيرها .

الوجه الثالث :-

نفس إخباره في القرآن بذلك مرة بعد مرة واستشهاده بأهل الكتاب وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل أنه كان موجوداً في كتبهم .
فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم بل علم ذلك ، لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه ..

الوجه الرابع :-

لما قامت الأعلام على صدقه ، فقد أخبر أنه مكتوب في الكتب المتقدمة وأن الأنبياء بشروا به ، علم أن الأمر كذلك وقد أستخرج غير واحد من العلماء من الكتب الموجودة الآن في أيدي أهل الكتاب من البشارات بنبوته مواضع متعددة ، وصنفوا في ذلك مصنفات .

الوجه الخامس :-

أن يقال معلوم أن ظهور دين محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها ، أعظم حادث في الأرض ، فلم يعرف قط دين انتشر ودام كانتشاره ودوامه ((^(١)).

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لأبن تيمية ح ٣ ، ص ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم في القرآن : -

حكى الله أقوال أنبيائه في كتابه العزيز مبشرين وداعين الله بإرسال رسول من أم القرى . كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين رفع القواعد من البيت الحرام ومعه ابنه إسماعيل عليه السلام وهما يدعوان الله في تقبل إسلامهما وأن يرسل رسولاً من ذريتهما يعلمهم القرآن والحكمة النبوية .

قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

بل إن الله سبحانه قد ربط بين منابع آخر الرسالات الثلاث وأقسم بها والله يقسم بما شاء وقوله الحق سبحانه إذ يقول تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (٢) .

فأقسم بالتين والزيتون ، وهي الأرض المقدسة ((وهي فلسطين)) التي ينبت فيها التين والزيتون ، ومنها بعث المسيح وأنزل عليه الإنجيل وأقسم بطور سيناء ، وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى ، وناداه من واديه الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، وأقسم بالبلد الأمين وهي مكة ، البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه فيه ، وهو الذي جعله الله حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حوله ، وجعله آمناً ، خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله ؛ فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

أما موسى عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه في كتابه الكريم ما أخبر به عن نبيه محمد ﷺ في كتبهم المنزلة ، التوراة والزبور والإنجيل وبشر بدينه الإسلام .

(١) سورة البقرة آية ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) سورة البلد آية ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٣٧ .

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

وقال الله تعالى مبينا في كتابه الزبور بالبشارة بدين الإسلام مذكراً بصالح من اتبعه فقال ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٢).

أما عيسى عليه الصلاة والسلام فقد أعزه الله بالقرآن ونبي الهدى والفرقان محمد ﷺ فإن عيسى عليه السلام قد ظلم حياً وميتاً ولم تشوه صورة نبي مثل ما حصل لعيسى من اليهود والنصارى ، فبرأه الله مما قالوا وأظهر حياته وبين منزلته عند ربه ليرفعه مقاماً علياً ، أما النصارى فقد عدوه ثالث ثلاثة بل إنهم قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم غير إن القرآن بين أنه عبد الله ورسوله وأن اليهود لم يقتلوه أو يصلبوه وكونه شبه لهم فهذه تبرئة وإعلاء لنبيه مما ألحقوا به من صفات الألوهية التي تشارك الله في صفاته، وبعد موته في ظنهم السيئ عدوه مصلوباً فعبدوا الصليب ! .

وقد بشر عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٣) :
وقد أخبرنا المصطفى ﷺ أن اسمه أحمد ومحمد ، فعن جبير بن مطعم قال :

(١) سورة الأعراف آية ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٣) سورة الصف ٦ .

سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن لي أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب)) (١)

ثم بين الله وصفاً للمؤمنين وقد ذكرهم في كتابي التوراة والإنجيل فيجمع الله في آية من كتاب الله وصف محمد ﷺ وأمه ، في ثلاثة من كتب الوحي وهي القرآن والتوراة والإنجيل ويضرب الله الأمثال .

قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢).

شهادات الأنبياء في الكتب السابقة.

تتعدد دلائل نبوة المصطفى ﷺ ، حتى إنها لتكون بين أيدي منكري نبوته من أهل الكتاب وإن أصابها التحريف والتأويل ، وعقلها المنصفون على ندرتهم ، ((فمن دلائل نبوته التي استدلت بها أهل الكتاب على صحة نبوته ما وجدوا في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله المنزلة ، من ذكره ونعته وخروجه بأرض العرب ، وإن كان كثير منهم قد حرّفوها عن مواضعها)) (٣)

وإن يطال التحريف تلك الكتب السماوية ، فإن قدرة الله أحكم الحاكمين والعدل العظيم في بيان الحق وأصحابه لقوي مبين .

وهنا يحكي شمعون البشارة بمحمد ﷺ ، فقال : ((جاء الله بالبينات من جبال فاران وامتألت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته)) . فهذا تصريح بنبوة

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب اسمائه ﷺ ح ١٥ ، ص ١٠٤ .

(٢) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٣) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للإمام البيهقي ، صححه كمال يوسف الحوت عالم الكتب ١٤٠٣ هـ ،

ص ١٦٩ .

محمد ﷺ الذي جاء بالنبوة من جبال فاران وامتألت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

ولم يخرج أحد قط ، وامتألت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته ، مما يسمى ((فاران)) سوى محمد ﷺ ، فإن المسيح لم يكن بأرض فاران البتة ، وموسى إنما كلم من الطور ، والطور ليس من أرض فاران ومن ذلك ما في التوراة التي بأيديهم في السفر الأول منها ، وهي خمسة أسفار فيها الفصل التاسع في قصة هاجر ، لما فارقت سارة وخاطبها الملك فقال : ((يا هاجر من أين اقبلت وإلى أين تريد)) .

فلما شرحت له الحال قال : ارجعي فإنني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون ، وها أنت تحلين وتلدن أبناً تسمينه إسماعيل لأن الله قد سمع تذكلك وخضوعك وولدك يكون وحي الناس ، وتكون يده فوق الجميع ويد الكل به ويكون مسكنه على تخوم جميع أخوته)) قال المستخرجون لهذه البشارة : معلوم أن يد بني إسماعيل قبل بعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحق ، بل كان في بني إسحق النبوة والكتاب وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد .. حتى بعث الله محمداً ﷺ الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل : فلما بعث صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع ، فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم ، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين ، فظهر بذلك قوله في التوراة ((وتكون يده فوق الجميع ، ويد الكل به وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر)) (١) .

وفي مزامير داود وهي الزبور يقول داود : ((من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد أيها الجبار بالسيف لأن البهاء لوجهك والحمد الغالب عليك كلمة الحق وسمه التأله ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة لهيبة يمينك وسهامك مسنونة والأمم يخرون تحتك)) قالوا : فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود ، سوى محمد ﷺ ،

(١) الجواب الصحيح لأبن تيمية ، ح ٣ ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

وهو الذي خرت الأمم تحته ، وقرنت شرائعه بالهيبة كما قال ﷺ ((ونصرت
بالرعب مسيرة شهر)) (١) .

وقد أخبر داود أن له ناموساً وشرائع ، وخاطبه بلفظ الجبار ، إشارة إلى قوته
وقهره لأعداء الله ، بخلاف المستضعف المقهور ، وهو ﷺ نبي الرحمة ونبي
الملحمة وأمتة أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أدلة على المؤمنين أعزة على
الكافرين ..

وقال داوود في مزموره : ((لترتاح البوادي وقراها ، ولتصر أرض قياد
مروجاً ، وليسبح سكون الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب ويذيعوا
تسابيحه في الجزائر)) .

قالوا : فلمن البوادي من الأمم سوى أمة محمد ، ومن ((قياد)) سوى ابن
إسماعيل جد رسول الله ﷺ ، ومن سكان الكهوف ، وتلك الجبال سوى العرب ؟ .
وقال داود في مزموره : ((ويحوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار
إلى منقطع الأرض وبحر أهل الجزائر بين يديه ويلحس أعداؤه التراب ، ويسجد له
ملوك الفرس ، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ، ويخلص البائس المضطهد ممن
هو أقوى منه ، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرأف بالمساكين والضعفاء ،
ويصلي عليه ويبارك في كل حين .

وهذه الصفات منطبقة على محمد وأمته ، فإن محمد حاز من البحر الرومي
إلى بحر العرب ومن لدن الأنهار ، كسيحون وجيحون إلى منقطع الأرض بالمغرب ،
كما قال ﷺ : زويت لي الأرض ، مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي
منها) (٢) .

وهو يصلي عليه ويبارك في كل حين . وفي كل صلاة من الصلوات الخمس
وغيرها ، فنقول كل أمتة : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على

(١) من حديث جابر وقد تقدم ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التيمم ، ح ١ ، ص ٤٣٥ .

؛ صحيح مسلم كتاب المساجد ، ح ٥ ، ص ٣ .

(٢) سنن الترمذي . كتاب المناقب ، باب ما جاء في بدء النبوة ح ٥ ص ٥٩٠ وقال أبو عيسى : حديث حسن
غريب .

محمد وعلى آل محمد ، فيصلى عليه ويبارك. وقد خرت أهل الجزائر بين يديه ،
أهل جزيرة العرب ، و أهل الجزيرة التي بين الفرات والنيل ، وأهل جزيرة قبرص
وأهل جزائر الأندلس .

وخضعت له ملوك الفرس فلم يبق منهم إلا من أسلم ، أو أدى الجزية ، فعامة
الأمم التي تعرفه وتعرف أمته ، أما مؤمنة به ، أو مسلمة له منافقة ، أو مهادنة
مصالحة ، أو خائفة منهم ، وأنقذ الضعفاء من الجبارين)) (١) .

ويقول دانيال وهو يهدد اليهود ، ويصف أمة محمد ﷺ : ((وإن الله يظهرهم
عليكم ، وباعث فيهم نبيا ، ومنزل عليهم كتاباً ، ومملكهم رقابكم ، يقهرونكم
ويذلونكم بالحق ، و يخرج رجال قيدار في جماعات الشعوب ، معهم ملائكة على
خيل بيض متسلحين ، فيحيطون بكم ، وتكون عاقبتكم إلى النار نعوذ بالله من
النار)).

ثم قال : تنزل الملائكة على خيل بيض ، وهذا ما تواترت به الآثار أن
الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض ، فإنها نزلت يوم بدر لنصر النبي ﷺ
وأمته ، ونزلت يوم الأحزاب ، وأحاطت ببني قريظة)) (٢) .

وقال دانيال النبي : ((سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لي ما يكون من بني
إسرائيل ، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم ، و يبعث فيهم الأنبياء ، أو يجعل
ذلك في غيرهم ؟ فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه ، فقال : السلام
عليكم يا دانيال ، إن الله يقول : إن بني إسرائيل أغضبوني وتمردوا عليّ ، وعبدوا
من دوني آلهة أخرى ، .. فلا يزالون في سخطي حتى أبعث مسيحي ابن العذراء
البتول ، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط ، فلا يزالون ملعونين ، عليهم الذلة
والمسكنة حتى أبعث نبي بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر ، وأوحى إلى ذلك
النبي ، وأعلمه الأسماء ، وأزينه بالتقوى وأجعل البر شعاره . أخصه بكتاب مصدق

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية ح ٣ ص ٣٢٣ .

(٢) نفس المصدر ح ٣ ص ٣٢٣ .

لما بين يديه من الكتب ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسري به إليّ ، وأرقيه من سماء إلى سماء ، حتى يعلو فأدنيه ، وأسلم عليه وأوحى إليه ، ثم أردّه إلى عبادي بالسرور والغبطة ، حافظاً لما استودع صادقاً فيما أمر ، يدعو إلى توحيدي باللين من القول . والموعظة الحسنه لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، رعوف بمن والاه ، رحيم بمن آمن به ، خشن على من عاداه ، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي ، فيكذبونه ويؤذونه)) .

وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى يقرأونها ويقولون لم يظهر صاحبها بعد ((^(١)).

أما الإنجيل فقد بشر المسيح فيه برسول الله ﷺ .

قال يوحنا الإنجيلي : قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من إنجيله ((إن الفار قليط روح الحق الذي يرسله أبي ، هو يعلمكم كل شيء)) وقال يوحنا التلميذ عن المسيح إنه قال لتلاميذه : ((إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر ، يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقتلوه ، لأنهم لم يعرفوه ، ولست أدعكم أيتاماً لأنني سأأتيكم عن قريب)) وقال يوحنا الحواري : قال المسيح : ((إن أركون العالم سيأتي ، وليس لي شيء)) .

وقال متّى : قال المسيح ((ألم تروا أن الحجر الذي رفضه البنّاءون ، صار رأساً للزاوية من عند الله كان هذا ، هو عجيب في أعيننا ، ومن أجل ذلك أقول لكم إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى ، تأكل ثمرها ، ومن سقط على هذا الحجر ينشرح ، وكل من سقط عليه يمحقه)) .

قال شيخ الإسلام : ((وهذه الصفات لا تنطبق إلا على محمد ﷺ ، وذلك أن الإخبار عن الله بما هو متصف به من الصفات ، وعن ملائكته وعن ملكوته ،

(١) الجواب الصحيح لأبن تيمية ح ٤ ، ص ٤ ، ٥ .

وعن ما أعده الله في الجنة لأوليائه ، وفي النار لأعدائه ، أمر لا يحتمل عقول كثير من الناس معرفته على التفصيل ، ولهذا قال علي رضي الله عنه ((حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟))^(١).

فكذلك كان محمد ﷺ ((قد أرشد الناس إلى جميع الحق ، حتى أكمل الله له الدين ، وأتم به النعمة ، ولهذا كان خاتم الأنبياء فإنه لم يبق شيء ليأتي به غيره))^(٢).

إنجيل برنابا^(٣): إن هذا الإنجيل من الأناجيل التي كانت معروفة قديماً وقد ورد ذكره في كتب القرن الثاني والثالث الميلادي ، ثم عثر على نسخة منه في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ، ولا تزال هذه النسخة في مكتبة بلاط (فينا) . وعند نشر هذا الكتاب أحدث ضجة كبرى في ذلك الوقت في أوروبا في نوادي العلم والدين ، وقد طبعت ترجمة هذا الكتاب باللغة العربية . وهذا الإنجيل مليء بالبشارات الصريحة بالرسول المصطفى ﷺ ، ومما ورد فيه ، قال الله : أصبر يا محمد . . وقال الله : إن اسمه المبارك محمد ، وقال المسيح : يا الله أرسل لنا رسولك يا محمد تعال سريعاً لخلاص العالم))^(٤).

((والمسلمون قد بينوا أن الأمتين قد بدلوا وحرفوا ، وإلا فعيسى عليه السلام كان مقررأ لما جاء به موسى عليه السلام وكلاهما مبشران بمقدم نبينا محمد نبي الرحمة صلوات الله عليهم أجمعين . وقد أمرهم أئمتهم وأنبيأؤهم وكتابهم بذلك ، وإنما بنى أسلافهم الحصون والقلاع بقرب المدينة لنصرة رسول الله ﷺ نبي آخر الزمان . فأمرهم بمهاجرة أوطانهم بالشام إلى تلك القلاع والبقاع ، حتى إذا ظهر وأعلن الحق بفاران وهاجر إلى دار هجرته يثرب هجروه وتركوا نصره ؛ ذلك

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب العلم باب من خص بالعلم قومأ دون قوم كراهية أن لا يفهموا ح ١، ص ٢٢٥ .

(٢) الجواب الصحيح لأبن تيمية، ح ٤، ص ٦، ٧، ١٠، ١٦ .
(٣) إن المطالع في الطبقات الحديثة للكتاب المقدس لا يجد فيه مثل هذه النصوص الصريحة القاطعة في دلالتها على النبي الذي سيبعث ، فقد حذفت كل النصوص التي سبق أن أشار إليها أعلام أئمتنا المحققون سابقا ، وذلك من خلال اللجان الدائمة المشرفة على طبع الكتب المقدسة لدى اليهود أو النصارى ، بخلاف انجيل برنابا.

(٤) الرسل والرسالات د . عمر الأشقر ، ص ١٨٤ .

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ^١ فَلَعَنَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١)﴾^(٢) .

البشارة بمحمد ﷺ في كتب الأسفار العالمية :

قال مؤلف كتاب ((محمد في الأسفار العالمية)) إن اسم أحمد مكتوب بلفظه العربي في السامافيدا من كتب البراهمة وقد ورد في الجزء الثاني فقرة ٦ ؛ ٨ ((إن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس)) .

ثم ذكر المؤلف أنه ﷺ قد ذكر في كتاب اثارفيدا ، وكتب زرادشت المجوسي ككتاب ((زندافستا))^(٣) . وهكذا فإن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله ، ويعلي كلمته ، ويحق الحق ولو كره الكافرون قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا^(٤) ﴾ ثم يتبين الحق على لسان أعدائه من أهل الكتاب وغيرهم ويظهر ذلك في سنة المصطفى ﷺ الصحيحة وما فيها من بشارات لنبوته ﷺ .

بشارات نبوته ﷺ في سنته :

فعن العرياض بن سارية رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((إني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأخبركم بأول أمري ، دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأيت حين وضعتني ، وقد خرج لها نور أضاء لها منه قصور الشام))^(٥) .

وعن ثوبان قال : ﷺ : ((زويت لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيلغ ملك أمتي مازوي لي منها))^(٦) .

وعن عطاء بن يسار رضي الله عنه ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن

(١) سورة البقرة آية ٨٩ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٣) نبوة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين ، د . فاضل السامرائي مكتبة القدس بغداد ، ص ٢٠٤ ؛ وانظر الرسل والرسالات د / عمر الأشقر ، ص ١٨٧ .

(٤) سورة غافر آية ٥١ .

(٥) مشكاة المصابيح للتبريزي ، وقال الشيخ الألباني : حديث صحيح ، كتاب الفضائل ، باب شمائل سيد المرسلين ، ج ٣ ، ص ١٦٠٤ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، ج ١٧ ، ص ١٣ .

العاص، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : ((أجل والله أنه لموصوف ببعض صفته في القرآن ، ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ^(١) وحرزاً للأمينين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً)) ^(٢) .

وعن أنس بن مالك أن غلاماً يهودياً كان يخدم الرسول ﷺ ، فمرض فأتاه رسول الله ﷺ يعوده ، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة فقال له رسول الله ﷺ ((يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي ؟ قال : لا . فقال الفتى : بلا والله يا رسول الله ، إنا لنجد في التوراة نعتك ومخرجك ، وأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .

فقال النبي ﷺ : أقيموا هذا من عند رأسه ولو أخاكم)) ^(٣) . إنه الإسلام والولاء والبراء فيه ، وبه أصبح الابن أخاً للمسلمين ، حياً وميتاً ويصلون عليه ، أما أبوه اليهودي فلا يحق له ذلك .

فراصة راهب

عندما كان رسول الله ﷺ في تجارة مع عمه أبي طالب بالشام ، تعرف على الرسول ﷺ أحد الرهبان ، وكان الرسول ﷺ صغيراً في ذلك الوقت وقد ((خرج مع عمه وأشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكان قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ، قال : فهم يطلون رحالهم ، فجعل يتخللهم الراهب ، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ ، قال : هذا سيد

(١) سورة الأحزاب ٤٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب كراهية الصخب في الأسواق ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ .

(٣) شعب الإيمان للإمام البيهقي ، باب ما جاء في اليهودي الذي اعترف بصفة النبي ﷺ في التوراة وأسلم عند موته ح ٦ ، ص ٢٧٢ ؛ وقال ابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : رواه البيهقي بإسناد صحيح ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .

العالمين ، هذا رسول رب العالمين .

فقال له أشياخ قريش : ما علمك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهاهم به ، فكان هو في رعية الأبل ، فقال أرسلوا إليهِ ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنّا من القوم وجدّهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه ، فقال أنظروا إلى فيء الشجرة مال عليه))^(١) وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب.

وروى أبو زرعة بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة قال : ((خرجت مع رسول الله ﷺ وهو مردفي . ثم أقبل رسول الله ﷺ في يوم حار من أيام مكة ، حتى إذا كنا بأعلى الوادي ، لقيه زيد بن عمرو بن نفيل فقال له رسول الله ﷺ : ((يا ابن عمرو : مالي أرى قومك قد شنئوك ؟ - أي هجروك - قال : أما والله ، إن ذلك لغير مآثرة كانت مني فيهم ، ولكن أراهم على ضلال . فخرجت ابتغي هذا الدين ، فأتيت إلى أحبار يثرب ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : ما هذا بالدين الذي ابتغي فخرجت حتى آتي أحبار خيبر ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : ما هذا بالدين الذي ابتغي . فقال لي حبر من أحبار الشام إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحد يعبد الله به إلا شيخ بالجزيرة . فخرجت فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجت له ، فقال : ((إن كل من رأيت في ضلاله ، ممن أنت ؟ .

قال : قلت : أنا من أهل بيت الله . قال : من أهل الشوك والقرظ ؟ . فقال : إنه قد خرج في بلدك نبي ، أو خارج قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه وأتبعه وآمن به ، فرجعت فلم أحس شيئاً بعد ، قال : فأناخ رسول الله ﷺ بغيره ، فقدمنا إليه السفرة .

(١) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ ، ح ٥ ، ص ٥٩٠ . وقال الشيخ الألباني : قلت . رجاله ثقات ، والحديث صحيح ، مشكاة المصابيح ح ٣ صفحة ١٦٦٣ .

قال زيد : ما أكل شيئاً ذبح لغير الله ، ففترقا ، فجاء رسول الله ﷺ فطاف بالبيت .
قال زيد : وأنا معه ، وكان صنمان من نحاس يقال لهما ((أساف)) و ((نائلة))
مستقبلا الكعبة ، يتمسح بهما الناس إذا طافوا ، فقال رسول الله ﷺ : لا تمسهما ولا
تمسح بهما ، قال زيد : فقلت في نفسي ، وقد طفنا ، لأمسهما حتى أنظر ما يقول ،
فمسستها فقال رسول الله ﷺ : ألم تنهه ؟ فلا والذي أكرمه ، ما مسستها حتى أنزل
الله عليه الكتاب . ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام .
فقال رسول الله ﷺ : أنه يبعث أمة وحده ((^١)).

إن هذه البشارات وغيرها ثابتة صحيحة في رسالة نبينا محمد ﷺ كما جاء
في كتاب الله العزيز الإخبار فيه أن الله قد أخذ على أنبيائه العهد والميثاق في
الإيمان بمحمد ورسالته ﷺ . أو الأخبار عن أنبياء الله وأنهم يبشرون بنبوته محمد ﷺ ،
وبيان غضب الله على أولئك الذين يخبرون عنه ثم يكفرون به وبرسالته ، ثم الأخبار
في كتبهم الدالة على اسمه ﷺ وأخباره ، ثم كان بيان ذلك في سنته ﷺ الصحيحة .
وقد ذكر العلماء حال من حرمة الله الإيمان بنعمة رسالة نبينا محمد ﷺ
وحذروا من حال أولئك وبيان ذلك في :

((أولاً : استحالة الإيمان بنبي من الأنبياء مع جحد نبوة محمد ﷺ ، وأنه من
جحد نبوته فهو لنبوته غيره من الأنبياء أشد جحداً وتبين هذا بوجوه .
الوجه الأول : إن الأنبياء المتقدمين بشروا وأمروا أممهم بالإيمان به ، فمن جحد
نبوته فقد كذب الأنبياء قبله فيما أخبروا به وخالفهم فيما أمروا وتواصوا به
من الإيمان به والتصديق به لازم من لوازم التصديق بهم .

الوجه الثاني : إن دعوة محمد بن عبد الله ﷺ هي دعوة جميع المرسلين قبله من

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، ذكر حديث زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وما في حديثهما من آثار رسول
ﷺ ، ح ٢ ، ص ١٢٥ .

؛ وأخرجه الحاكم في المستدرک ح ٣ ، ص ٤٤٠ وصححه .
؛ وأخرجه البخاري شاهداً عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، كتاب مناقب الأنصار باب حديث زيد بن عمرو
ح ٧ ، ص ١٤٢ .

؛ وأخرجه البخاري شاهداً عن أسماء بنت أبي بكر ، كتاب المناقب ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل ح
٧ ، ص ١٤٣ وقال الذهبي : هذا حديث صحيح . تاريخ الإسلام . - السيرة . للذهبي ص ٨٨ .

أولهم إلى آخرهم ، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم ، فإن جميع الرسل جاءوا بما جاء به ، فإذا كذبه المكذب فقد زعم أن ما جاء به باطل ، وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله ، وكل كتاب أنزله الله ، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق وأنه كاذب مفتر على الله .

الوجه الثالث : إن البراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل ، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلا ولمحمد ﷺ مثلها ، فأيات نبوته أعظم وأكبر وأدل ، والعلم بنقلها قطعي ، لقرب العهد ، وكثرة النقلة ، واختلاف أمصارهم وأعصارهم واستحالة تواطئهم على الكذب ، فالعلم بآيات نبوته كالعلم بنفس وجوده وظهوره وبلده . فإن جاز القدح في ذلك كله ، فالقدح في وجود عيسى وموسى وآيات نبوتهما أولى (١) .

ثانياً : توبيخ الله سبحانه وتعالى لأهل الكتاب على التحريف وكتمان الحق على لسان رسوله ﷺ .

فقال تعالى : ﴿ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : (٢)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّهٖ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ (٣)

وأما التحريف فقد أخبر سبحانه عنهم في مواضع متعددة ، وكذلك لي اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه فهذه خمسة أمور :

أحدها : لبس الحق بالباطل وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل .

الثاني : كتمان الحق .

(١) هداية الحيارى لابن القيم ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ٧١ .

(٣) سورة البقرة آية ١٥٩ .

الثالث : أخفاؤه وهو قريب من كتمانہ .

الرابع : تحريف الكلم عن مواضعه و هو نوعان : تحريف لفظه، وتحريف معناه

الخامس : ليّ اللسان به ليلبس على السامع اللفظ المنزل بغيره .

وهذه الأمور إنما ارتكبوها لأغراض لهم دعتهم إلى ذلك . فإذا عادوا الرسول وجددوا نبوته وكذبوه وقاتلوه فهم إلى أن يجحدوا نعتہ وصفته ويكتموا ذلك ويزيلوه عن مواضعه ويتأولوه على غير تأويله أقرب بكثير . وهكذا فعلوا ولكن لكثرة البشارات وتنوعها غابوا عن كتمانها وإخفائها فصاروا إلى تحريف التأويل^(١) .

ثالثاً : إن الرسول ﷺ في إخباره عن قصص الأنبياء وقصة أهل الكهف وذوي القرنين وغيرهم لم يتعلم ذلك من بشر ، بل إنما كان خبر وحي من الله تعالى . قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ^(٢) . ((أي وما قدروا من قدرتي ، وفيما صنعت من أمر الخلائق ، وما وضعت على العباد من حجتني ما هو أعظم من ذلك وقال ابن عباس : الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف .

قلت - شيخ الإسلام - والأمر على ما ذكره السلف ، فإن قصة أصحاب الكهف هي من آيات الله ، فإن مكثهم نياماً لا يموتون ثلاثمائة سنة آية دالة على قدرة الله ومشيتته ، وأنه يخلق ما يشاء ، وليس كما يقوله أهل الإلحاد ، وهي آية على معاد الأبدان . وكان الناس قد تنازعوا في زمانهم : هل تعاد الأرواح دون الأبدان ، أم الأرواح والأبدان ؟ فجعل الله أمرهم آية لمعاد الأبدان . وإخبار النبي ﷺ بقصتهم من غير أن يعلمه بشر ، آية على نبوته ، فكانت قصتهم آية على أصول الإيمان الثلاثة ، الإيمان بالله ، واليوم الآخر والإيمان برسله ، ومع هذا فليسوا من آيات الله بعجب ، بل من آيات الله ما هو أعجب من ذلك . وقد ذكر الله تعالى

(١) هداية الحيارى لأبن القيم ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) سورة الكهف آية ٩ .

سؤالهم له عن الآيات التي كانوا يسألونه عنها ، ليعلموا : هل هو نبي صادق أم كاذب ؟ .

فقال تعالى : ﴿ وَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ ^(١) والقرآن مملوء من أخباره عن الغيب الماضي الذي لا يعلمه أحد من البشر إلا من جهة الأنبياء الذين أخبرهم الله بذلك . فإذا كان محمد ﷺ قد أخبر من ذلك بما أخبر به موسى وغيره من الأنبياء ، واخبر بما يعلمونه ، مما لا يعلمه أحد إلا بالتعلم منهم ، وقد عرف أن محمداً لم يتعلم هذا من بشر ، كان هذا آية بينة وبرهاناً قاطعاً على نبوته ^(٢) .

رابعاً : المسيح المنتظر عند المسلمين واليهود والنصارى :

فالمسلمون واليهود والنصارى تنتظر مسيحاً يجيء في آخر الزمان ، ((فمسيح اليهود هو الدجال ، ومسيح النصارى لا حقيقة له ، فإنه عندهم إله وابن إله وخالق ، ومميت ومحي ، فمسيحهم الذي ينتظرونه هو المصلوب المسمر المكلل بالشوك ، والمصفوع الذي هو مصفعة اليهود ، وهو عندهم رب العالمين وخالق السموات والأرضين ، ومسيح المسلمين الذي ينتظرونه هو عبدالله ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، عيسى بن مريم ، أخو عبد الله ورسوله محمد بن عبد الله ، فيظهر دين الله و توحيده ، ويقتل أعداءه عباد الصليب الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، وأعداءه اليهود الذين رموه وأمه بالعظام ، فهذا هو الذي ينتظره المسلمون .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً

(١) سورة الكهف آية ٨٣ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ح ٣ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

من الدنيا وما فيها - ثم يقول أبو هريرة : واقرعوا إن شئتم ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۚ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١) ((٢)).

فهذا منتظر المسلمين لا منتظر المغضوب عليهم والضالين ، ولا منتظر إخوانهم من الروافض . ويعلم الضالون أنه ابن البشر ، وأنه عبد الله ورسوله ليس بإله ولا ابن إله ، وأنه بشر بنبوة محمد أخيه أولاً وحكم بشريعته ودينه آخراً ، وأنه عدواً للمغضوب عليهم والضالين ، وولي رسول الله وأتباعه المؤمنين ، وما كان أولياؤه الأرجاس الأنجاس عبدة الصليب والصور المدهونة في الحيطان ، إن أولياؤه إلا الموحدون عباد الرحمن أهل الإسلام والإيمان ((٣)).

خامساً : لو عرض دين النصارى على قوم لم يعرفوا لهم إلها .

وقد لعنهم الله سبحانه على لسان رسوله ﷺ في قوله ﷺ : ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوه)) (٤).

((هذا والكتاب واحد ، والرب واحد ، والنبي واحد ، والدعوى واحدة ، وكلهم يتمسك بالمسيح وإنجيله وتلاميذه ، ثم يختلفون فيه هذا الاختلاف المتباين . فمنهم من يقول إنه إله ، ومنهم من يقول ابن الله ، ومنهم من يقول ثالث ثلاثة ، ومنهم من يقول إنه عبد ، ومنهم من يقول إنه أقنوم وطبيعة ، ومنهم من يقول اقنومان وطبيعتان ، إلى غير ذلك من المقالات التي حكوها عن أسلافهم ، وكل منهم يكفر صاحبه ، فلو أن قوماً لم يعرفوا لهم إلهاً ثم عرض عليهم دين النصرانية هكذا لتوقفوا عنه وامتنعوا من قبوله . فوازن بين هذا وبين ما جاء به خاتم الأنبياء والرسل صلوات الله عليه وسلامه تعلم علماً يضارع المحسوسات أو يزيد عليها ﴿ إِنَّ آدِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَمٌ ﴾ (٥) ((٦)).

(١) سورة النساء آية ١٥٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب نزول عيسى عليه السلام ح ٦ ، ص ٤٩٠ .

(٣) هداية الحيارى لأبن القيم ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ح ٣ ، ص ٢٠٠ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ح ٥ ، ص ١٢ .

(٥) سورة آل عمران ١٩ .

(٦) هداية الحيارى لأبن القيم ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

سادساً : إن محمداً ﷺ برأ المسيح وأمه من افتراء اليهود ، ونزله رب العالمين من افتراء النصارى :

((فأنزل المسيح بالمنزلة التي أنزله الله بها وهي أشرف منازلها ، فأمن به وصدقته ، وشهد له بأنه عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول الطاهرة الصديقة سيدة نساء العالمين في زمانها ، وقرر معجزات المسيح وآياته ، وأخبر عن ربه تعالى بتخليد من كفر بالمسيح في النار ، وأن ربه تعالى أكرم عبده ورسوله ونزهة وصانه أن ينال إخوان القردة منه ما زعمته النصارى أنهم نالوا منه ، بل رفعه إليه مؤيداً منصوراً . لم يشكه أعداؤه بشوكة ولا نالته أيديهم بأذى ، فرفعه إليه وأسكنه سماءه ، وسيعيده إلى الأرض ينتقم من مسيح الضلالة وأتباعه ، ثم يكسر الصليب . ويقتل الخنزير ، ويعلي به الإسلام ، وينصر به ملة أخيه وأولى الناس به محمد عليهما أفضل الصلاة والسلام .

فإذا وضع هذا القول في المسيح في كفة ، وقول عباد الصليب المثلثة في كفة تبين لكل من له أدنى مسكة من عقل ما بينهما من التفاوت ، وأن تفاوتهما كتفاوت ما بينه وبين قول المغضوب عليهم فيه .

فلولا محمد ﷺ لما عرفنا أن المسيح بن مريم الذي هو رسول الله وعبده ، وكلمته وروحه موجود أصلاً ، فإن هذا المسيح الذي أثبتته اليهود من شرار خلق الله ليس بمسيح الهدى ، والمسيح الذي أثبتته النصارى من أبطل الباطل لا يمكن وجوده في عقل ولا فطرة ، ويستحيل أن يدخل في الوجود أعظم استحالة ، ولو صح وجوده لبطلت أدلة العقول ، ولم يبق لأحد ثقة بمعقول أصلاً)) (١) .

سابعاً : وإنما الخلاف بين اليهود والنصارى ما كان يرتفع إلا بحكمه ﷺ : إذ كانت اليهود تقول ﴿ لَيْسَ النَّصْرِيُّ عَلَى شَيْءٍ ﴾ (٢) وكانت النصارى تقول :

(١) هداية الحيارى لابن القيم ، ص ٣٠٨ .

(٢) سورة البقرة ١١٣ .

﴿ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ ^(١) وكان النبي ﷺ يقول لهم :
 ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ^(٢) وما كان يمكنهم إقامتها
 إلا بإقامة القرآن الحكيم ، وبحكم نبي الرحمة رسول آخر الزمان . فلما أبو ذلك
 وكفروا بآيات الله ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ
 بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) .

ثامناً : كل أهل الأرض في ضلال وجهل إلا من أشرق عليه نور النبوة :
 فأهل الأرض كلهم في ظلمات الجهل والغي إلا من أشرق عليه نور النبوة ، كما
 في المسند وغيره من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 ((إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور
 اهتدى ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول جف القلم على علم الله)) ^(٤) .
 تاسعاً : بشارة الأمة من نبيها ﷺ .

تقدم فيما سبق عرض للبشارات بنبي الهدى والرحمة ، وها هو يبشر أمته ممن كان
 على سيرته وسنته من الثقليين الإنس والجن وقد أرسله الله للناس كافة وتبلغت
 واهتدت برسالته الجن .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في
 إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنِّي أَضَلَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ^(٥)

(١) سورة البقرة ١١٣ .

(٢) سورة المائدة ٦٨ .

(٣) سورة البقرة ٦١ .

(٤) مسند الإمام أحمد ، ح ٢ ، ص ١٧٦ .

؛ المستدرك للحاكم ، ح ١ ، ص ٣٠ وقال هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة وقد احتجوا بجميع رواياته
 ثم لم يخرجوا ولا أعلم له علة .

؛ الشريعة للأجري ، ص ١٧٥ .

؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح ٣ ، ص ٦٤ وقال الألباني : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٥) سورة إبراهيم ٣٦ .

وقال عيسى عليه السلام - تلا قول الله عز وجل - ﴿ إِن تَعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(١) ؟ فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل يا جبريل أذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل أذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك ^(٢) .

قال الإمام النووي رحمه الله : ((هذا الحديث مشتمل على أنواع من الفائدة ، منها بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته واعتناؤه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم ، ومنها : استحباب رفع اليدين في الدعاء ، ومنها : البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله تعالى شرفاً بما وعدّها الله تعالى بقوله : سنرضيك في أمتك ولا نسوءك . وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها . ومنها : بيان عظمة منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى ، وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ ، والحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ ، إظهار شرف النبي ﷺ ، وأنه بالمحل الأعلى فيسترضى ويكرم بما يرضيه وهذا الحديث موافق لقول الله عز وجل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ^(٣) ، ^(٤) .

(١) سورة المائدة ١١٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بشارة الأمة ح ٣ ، ص ٧٨ .

(٣) سورة الضحى آية ٥ .

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم ، ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

الفصل الخامس

استدلال السلف بأحاديث الآحاد في

باب الإيمان باليوم الآخر وموقف المخالفين منها والرد عليهم

وفيه :

- تمهيد
- الرد على منكري معاد الأبدان والأرواح .
- أشراف الساعة .
- علامات الساعة الصغرى
- علامات الساعة الكبرى .
- الدخان - المسيح الدجال - خروج المهدي - نزول عيسى عليه الصلاة والسلام - خروج يأجوج ومأجوج - الدابة - طلوع الشمس من مغربها - النار التي تحشر الناس والخسوفات الثلاثة .
- القيامة الصغرى .
- الرد على المخالفين في عذاب القبر ونعيمه .
- النفخ في الصور - الحوض - السراط - الميزان - والحساب - والكتاب - والرد على المخالفين .
- الشفاعة والرد على المخالفين .
- الجنة والنار والرد على المخالفين في دوامهما .



تمهيد :

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، وبعث الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى عبادة الله وحده ، كان ذلك مؤشراً ليوم المعاد والحساب والجزاء ، بل إن الله تعالى قد ربط بين الإيمان به وباليوم الآخر .

فالإيمان بالله يلزم صاحبه الانقياد لأوامر الله وطاعة رسله وذلك يقوده إلى الفوز بنعيم مقيم ، حين يعلم أن مصير الخلائق بين يدي الله الواحد القهار ، ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ^(١) ونظراً لعظمة هذا اليوم فقد أخبر عنه في كتبه وعلى ألسنة رسله بما هو جدير به من الاهتمام وأطلق الله عليه أوصافاً تشعر بالرهبة والفرع والاعتبار فهو يوم البعث ، ويوم القيامة ، والساعة ، وزلزلة الساعة ، والآخرة ويوم الدين ، ويوم الحساب ، ويوم الفتح ، ويوم التلاق ، ويوم الجمع ، والتغابن ، ويوم الخلود ، ويوم الخروج ، ويوم الحسرة ، ويوم التناد ، ويوم الأزفة ، والطامة الكبرى ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية ، والواقعة ، واهتم القرآن باليوم الآخر لعدة أسباب :

أولاً: ((إن المشركين من العرب كانوا ينكرونه أشد إنكار .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ^(٢) .

وهؤلاء هم الدهريون الذين ينكرون البعث ومن تبعهم من الفلاسفة والزنادقة .

ثانياً: إن أهل الكتاب وإن كانوا يؤمنون باليوم الآخر إلا أن تصورهم له قد بلغ غاية الفساد .

فالنصارى: يعتمدون فيه على وجود يسوع الفادي المخلص الذي يفدي الناس بنفسه ، ويخلصهم من عقوبة الخطايا .

وهذا يطابق ما يقوله الهنود في كرشنه ، والصينيون وغيرهم في بوذا ، سواء بسواء .

وعقيدة اليهود في الله وفي اليوم الآخر لا تقل في فسادها وضلالها عن عقيدة

(١) سورة إبراهيم آية ٤٨ .

(٢) سورة الجاثية آية ٢٤ .

النصارى والهنود.

ثالثاً : إن الإيمان باليوم الآخر يجعل لحياتنا غاية سامية ، وهدفاً أعلى ، وهذه الغاية هي فعل الخيرات وترك المنكرات ، والتخلي عن الرذائل الضارة بالأبدان والأديان ، والأعراض والعقل والأموال. أي تحقيق معنى الخلافة. ولا بد من تقوية المواضع النفسية الذي يرغب في الخير ويصد عن الشر ، فيحدد كل إنسان هدفه الأعلى لا يضل الطريق أو تتعثر به الخطا (١).

((والإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة ، والعقل والفطرة السليمة ، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز وأقام الدليل عليه ، وردّ على منكريه في غالب سور القرآن ؛ وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالله فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم ، وهو فطري ، كلهم يقرّ بالرب ، إلا من عاند كفرعون.

بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن منكريه كثيرون ، ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء ، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين ، وكان هو الحاشر المقفي ، بُيّن تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء ، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ ، وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخيل والخطاب الجمهوري.

والقرآن بيّن معاد النفس عند الموت ، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع. وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى ، وينكرون معاد الأبدان ، ويقول من يقول منهم : إنه لم يخبر به إلا محمد ﷺ على طريق التخيل ! وهذا كذب ؛ فإن القيامة الكبرى معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح ، إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام ، وقد أخبر الله بها حين أهبط آدم إلى الأرض ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢). بل إن مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد ، وأنه آمن بموسى ، قال تعالى حكاية عنه :

(١) العقائد الإسلامية السيد سابق ، أنظر ص ٢٦٤.

(٢) سورة الأعراف ٢٤.

﴿ وَيَقَوْمٍ إِتَىٰ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ^(١) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾^(٢). وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٣). وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا ((^(٣)).

((وسمي باليوم الآخر لأنه آخر أيام الدنيا ، فهو متصل بآخر الدنيا وليس منها ، ويسمى يوم القيامة لقيام الناس فيه لرب العالمين من قبورهم ، ومثولهم بين يدي خالقهم ليجزيهم أجر ما عملوا ، ولقيام الحجة على الخلق ، أو لأنه يبدأ بقيام الساعة ، والمراد به فناء هذه العوالم كلها دقيقتها وجليلها ، وانتهاء هذه الحياة بأكملها ، وقد أخفاه الله عن خلقه لمصلحتهم ، كما أخفى عنهم أقدارهم ومنها الموت لنفس الغرض ، ولكنه قد جعل لقيام الساعة علامات ، تسمى بأشراط الساعة ، وهي دالة على قرب قيامها ، كما جعل لكل عظيم إرهابات ، وأمارات الساعة على نوعين صغرى وكبرى تبدأ الصغرى حتى إذا شارفت على النهاية تبتعتها الكبرى ، ثم انفرطت كالخرز انفرط من عقدة))^(٤).

((وإذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة التي يقوم عليها الإيمان ؛ فإن الإيمان به إيماناً تاماً كاملاً لا يتحقق إلا إذا آمن العبد بكل ما أخبر النبي ﷺ من أمور الغيب التي تكون بعد الموت والضابط في ذلك أنها أمور ممكنة أخبر الصادق المصدوق صلوات الله عليه وسلامه وآله ، وكل ممكن أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر ، فإن هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول ، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله))^(٥).

و((اعلم أن الأمم نوعان: نوع لهم كتاب منزل من عند الله كاليهود

(١) سورة غافر آية ٣٢ ، ٣٣.

(٢) سورة الزمر آية ٧١

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥.

(٤) المنهج إلى أصول الدين ، عقيدة الفرقة الناجية ، د. عثمان الصوينع ، مطابع الفرزدق الرياض ١٤١٤ هـ أنظر ص ٤١٩.

(٥) شرح العقيدة الواسطية ، العلامة محمد الهراس ، ص ٢٠٣.

والنصارى. ونوع لا كتاب لهم ، كالهند واليونان والترك ، وكالعرب قبل مبعث محمد ﷺ ، وما من أمة إلا ولا بد لها من علم وعمل ، بحسبهم يقوم به ما يقوم من مصالح دنياهم ، وهذا من الهداية العامة التي جعلها الله لكل إنسان بل لكل إنسان وحيوان ، قال تعالى: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ^(١). وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ^(٢).

ثم الأمم متفاضلون في معرفة الخالق تعالى وفي الإقرار بمعاد بعد الموت ، أما للأرواح فقط ، وإما للأبدان فقط ، وإما لمجموعهما كما هو قول سلف المسلمين وأئمتهم وعامتهم أهل السنة والجماعة ، ومتفاضلون فيما يجدونه ويستحسنونه من الأفعال والصفات وما يذمونهم ويستقبحونه من ذلك. لكن عامة بني آدم على أن العدل خير من الظلم ، والصدق خير من الكذب ، والعلم خير من الجهل ، فإن المحسن إلى الناس خير من الذي لا يحسن إليهم ^(٣).

وإذا كانت الأمم قد اختلفت في المعاد فإن الفرق الإسلامية والفلاسفة قد اختلفوا أيضاً ، بناءً على أنه هل يعلم بالسمع أم بالعقل. قال ابن تيمية: ((أما مسائل ما بعد الموت ونحو ذلك ، فالأشعري وأتباعه ومن وافقهم يسمونها السمعيات بخلاف باب الصفات والقدر وذلك بناءً على أصلين: أحدهما: إن هذه لا تعلم إلا بالسمع.

الثاني: إن ما قبلها يعلم بالعقل وكثير منهم أو أكثرهم يضم إلى ذلك أصلاً آخر وهو أن السمع لا يعلم صحته إلا بتلك الأصول التي يسمونها بالعقليات مثل إثبات حدوث العالم ونحو ذلك. وأما محققوهم فيقولون إن العلم بحدوث العالم ليس من الأصول التي تتوقف صحة السمع عليها ، بل يمكن العلم بصحة السمع ثم يعلم بالسمع خلق السموات والأرض ونحو ذلك.

وأما المعاد فنأزعه في طوائف مثل المعتزلة فقد ذهبوا إلى أنه يعلم بالعقل.

(١) سورة الأعلى آية ١ ، ٢ ، ٣.

(٢) سورة البلد ، آية ١٠.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ، ح ٣ ، ص ٩٧.

والفلاسفة الإلهيون يثبتون معاد النفوس بالعقل ، وإما إنكارهم لمعاد الأبدان فهذا مما
اتفق أهل الملل على إبطاله))^(١) .

(١) العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ، ص ١٦٨ .

الرد على منكري معاد الأبدان والأرواح أو أحدهما :

ونظراً لما يعتقد المتكلمون من تقسيم لفهم أمور العقيدة عن طريق العقل أو السمع والذين يقدمون العقل على السمع منهم ؛ كان لابد من بيان طرق العلم وأقسام العلوم ، فقال شيخ الإسلام : ((طرق العلم ثلاثة عقلية وسمعية ومشتركة ، والعلوم ثلاثة أقسام : منها ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية ، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن ، وأرشد إليها الرسول ، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية أكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ، فإن من الناس من يذهل عن هذا ، فمنهم من يقدح في الدلائل العقلية مطلقاً لأنه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه المتكلمون أي علماء الكلام الذين يبحثون في الجانب الإلهي عن ذات الله وصفاته وأفعاله.

ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية العقلية منه ، لأنه قد صار في ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط ، فلا بد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق الخبر حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه.

ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبياء ، وخبرهم المجرد هو دليل سمعي مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الإلهية والملائكة والعرش والجنة والنار ، وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه ، فأما نفس إثبات الصانع ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيتته وحكمته ورحمته ونحو ذلك ، فهذا لا يعلم بالأدلة العقلية وحدها بل مقترنة بخبر الأنبياء وإن كانت الأدلة والآيات التي يأتي بها الأنبياء هي أكمل الأدلة العقلية ، وإن كان أخبار الأنبياء المجردة تفيد العلم اليقيني أيضاً فيعلم بالأدلة العقلية التي أرشدوا إليها ، ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التي دلت على صدقهم))^(١).

فأهل السنة والجماعة ؛ يستدلون بالكتاب والسنة المتضمنتان الأدلة العقلية.

وأما الأشاعرة فإنهم ؛ يستدلون بالكتاب والسنة في أمر المعاد ، ولكنهم مقيدون بقولهم بالجواهر والجزء الذي لا يتجزأ في أمر معاد الأبدان.

(١) الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية، ص ١٦١ ، ١٦٢.

وأما المعتزلة فإنهم ؛ لا يستدلون بالكتاب والسنة وإنما بمجرد العقل ثم يضطرون إلى إنكار الصراط والشفاعة في أهل الكبائر والحوض والميزان .
وأما الفلاسفة فقولهم بعودة الأرواح ويتناقضون في إثبات ذلك وعدمه ، ويقولون إن أقوال الأنبياء في المعاد إنما هو أمر تخيلي لتقريب ما دعوا إليه .
قال شيخ الإسلام: ((وأما المعاد فهو إما للأرواح أو للأبدان ، وإن الناس بعد الموت يكونون سعداء أو أشقياء ، فيقرّ به كثير من الأمم غير أهل الكتاب ، وإن كان على وجه قاصر ، كحكمااء الهند واليونان والمجوس وغيرهم ؛ وذلك أن أهل الأرض في المعاد على أربعة أقوال:

أحدهما: وهو مذهب سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين المتهتدين وغيرهم من أهل السنة والحديث والفقهاء ، وهو إثبات معاد الروح والبدن جميعاً ، وأن الإنسان إذا مات كانت روحه منعمة أو معذبة ثم تعاد روحه إلى بدنه عند القيامة الكبرى ولهذا يذكر الله في كثير من السور أمر القيامتين، القيامة الصغرى بالموت ، والقيامة الكبرى حين يقوم الناس من قبورهم وتعاد أرواحهم إلى أبدانهم. فقال تعالى في سورة القيامة ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّعْشَعُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ . فذكر القيامة الكبرى ، ثم قال في آخر السورة: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّارُاقِ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَتِ النَّارُاقُ بِالنَّارِاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ فإن ذكر ما تتاله الروح عند فراق البدن من النعيم والعذاب كثير في النصوص النبوية.

وأما وصف القيامة الكبرى في الكتاب والسنة ، فكثير جداً لأن محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، وقد بعث بين يدي الساعة ، فلذلك وصف القيامة بما لم يصفها به غيره .
كما ذكر المسيح في صفته فقال: إنه يخبركم بكل ما يأتي ، ويعرفكم جميع ما للرب .
القول الثاني: قول من يثبت معاد الأبدان فقط ، كما يقول ذلك كثير من المتكلمين الجهمية ، والمعتزلة المبتدعين من هذه الأمة.

القول الثالث: المعاد للنفس الناطقة - الروح - وأن الأبدان لا تعاد. وهذا لم يقله أحد من أهل الملل ، ولا المسلمين ، ولا اليهود ، ولا النصارى. بل هؤلاء متفقون على إعادة الأبدان ، وعلى القيامة الكبرى.

ولكن من تفلسف من هؤلاء فوافق سلفه من الصابئة والفلاسفة المشركين على أن المعاد للروح وحده ، فإنه يزعم أن الأنبياء خاطبوا الجمهور بمعاد الأبدان ، وإن لم يكن له حقيقة ، وحقيقة قولهم إن الأنبياء كذبوا للمصلحة ، وهؤلاء ملاحدة كفار عند المتبعين للأنبياء..

والمتفلسفة اتباع أرسطو^(١) كالفارابي^(٢) وأتباعه ، لهم في معاد الأرواح ثلاثة أقوال:

أولاً وثانياً : قيل بالمعاد للأنفس العالمة ، وقيل بالمعاد للأنفس الجاهلة.

ثالثاً : قيل بإنكار الاثنين ، والفارابي نفسه قد قال الأقوال الثلاثة.

القول الرابع: إنكار المعادين جميعاً ، كما هو قول أهل الكفر من العرب قبل البعثة ، واليونان ، والهند والترك وغيرهم. وعند المسلمين ما ليس عند غيرهم ؛ ذلك جميع المطالب التي تتال بها السعادة والنجاة^(٣).

أما الذين ينفون وينكرون معاد الأبدان فإن ما جاء به السمع حجة عليهم من طريقين: ((أحدهما: بيان الكلام الصريح في إثبات معاد الأبدان وتفاصيل ذلك.

والثاني: إن العلم بأن الرسل جاءت بذلك علم ضروري فإن كل من سمع القرآن والأحاديث النبوية المتواترة وتفسير الصحابة والتابعين لذلك علم بالاضطرار أن

(١) أرسطو أو أرسطوطاليس ، فيلسوف يوناني له مؤلفات كثيرة منها: المقولات ، الجدل ، العبارة ، أو التفسير ، السماء والعالم وغيرها. عاش ما بين ٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.

انظر قصة الحضارة - ول ديورانت ترجمة محمد بدران ٤٩٢/٧ ؛ فقه الفلسفة ترجمة د. فتح الله محمد ص ٦٧ ؛ تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم، ص ١٧٩ ؛ بغية المرتاد لابن تيمية تحقيق د. موسى الدويش ، ص ١٨.

(٢) الفارابي: أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان ، فيلسوف رياضي ، طبيب عارف باللغات، أخذ عن متي بن مونس وسافر إلى حوران فلزم بها يوحنا بن جيلان توفي في دمشق سنة ٣٣٩هـ من تأليفه ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، المدخل إلى علم المنطق.

انظر: البداية والنهاية ٢٢٤/١١ ، شذرات الذهب ٣٥/٢ ، معجم المؤلفين ١٩٤/١١ ، بغية المرتاد ٦٥.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٩٧ - ١٠٠.

الرسول ﷺ أخبر بمعاد الأبدان وأن القدر في ذلك كالقدح في أنه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان وحج البيت العتيق ، والقرامطة الباطنية وهم من الفلاسفة أنكروا هذا وهذا.

وزعموا أن هذه كلها رموز وإشارات إلى علوم باطنة كما يقولون إن الصلاة معرفة أسرارنا ، والصيام كتمان أسرارنا والحج زيارة شيوخنا المقدسين ونحو ذلك مما هو مذكور في الكتب المؤلفة في كشف أسرارهم وهتك أستارهم ، ولهؤلاء القرامطة صنف رسائل أخوان الصفا ((^(١)).

وأما من أنكر المعاد فإن الله سبحانه قد ذكر في كتابه الأدلة العقلية والحجج النقلية ، ومنها: قدرة الله تعالى أن ينشيء من العظام الهامدة خلقاً جديداً ، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ((^(٢).

قال شارح الطحاوية: ((فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل: فإنهم قالوا أولاً: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فقل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم ، فهلا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت ، كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟!.

فإن قلتم: كنا خلقاً على هذه الصفة التي لا تقبل الفناء ، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً؟! وللحجة تقدير آخر ، وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منها ، فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم ، وينقلها من حال إلى حال. ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها؟.

ثم أخبر أنهم يسألون آخراً بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت جسامنا وفنيت؟

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ، ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) سورة الإسراء آية ٤٩ - ٥٢.

فأجابهم بقوله: ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع ، وهو قولهم: متى هو ؟ فأجيبوا بقوله: ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ ..؟ إلى آخر السورة ^(١) . فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان ، أن يأتي بأحسن من هذه الحجة ، أو بمثلها بالفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضوح الأدلة وصحة البرهان لما قدر ، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد ، اقتضى جواباً ، فكان في قوله: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ما وفى بالجواب . وأقام الحجة وأزال الشبهة لما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها ، فقال: ﴿ قُلِ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة . وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى . إذ كل عاقل يعلم أن من قدر على هذه قادر على هذه .

ثم أكد الأمر بحجة قاهرة ، وبرهان ظاهر ، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة ، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث ، ففيه الدليل والجواب معاً فقال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ ^(٢) . فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة ، من الشجر الأخضر الممتليء بالرطوبة والبرودة ، فالذي يخرج الشيء من ضده وتتقاد له المخلوقات وعناصرها لا تستعصي عليه ، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم .

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر ^(٣) . وهناك من الأدلة القرآنية العقلية وما فيها من إقامة الحجة والبرهان ما يفوق المقال وتعدد الأحوال ومنها الاستدلال بخلق الإنسان من نطفة ثم يتدرج في خلق الله له فإذا هو خصيم مبين .

(١) سورة يونس آية ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ .

(٢) سورة يس آية ٨٠ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٠٨ .

الرد على من يثبت المعاد ويقولون بالأجسام المركبة والجواهر الفرد من المتكلمين:

وهم الذين قالوا : ((اجمع أهل الملل عن آخرهم على جوازه ووقوعه ، وأنكرها الفلاسفة. أي الحشر وإعادة المعدوم.

أما الجواز: فلأن جمع الأجزاء على ما كانت عليه وإعادة التأليف المخصوص فيها أمر ممكن ؛ والله عالم بتلك الأجزاء ، قادر على جمعها وتأليفها^(١). ولأنهم يعتقدون أن إثبات الجوهر الفرد والأجزاء المركبة دليل على إثبات وجود الله وأن الجوهر الفرد لا يفنى وأن الأعراض تزول بزوال وقتها ، فكان هذا وغيره ملزماً لهم من قبل مناظريهم الفلاسفة والمتكلمين ، ذلك أنهم أعرضوا عن أخبار الرسول ﷺ ((فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة لهم في المعاد خبط واضطراب ، وهم فيه على قولين: منهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد. ومنهم من يقول: تفرق الأجزاء ثم تجمع. فأورد عليهم: الإنسان الذي يأكله حيوان وذلك الحيوان أكله إنسان ، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا ، لم تعد من هذا ؟ وأورد عليهم: أن الإنسان يتحلل دائماً ، فماذا الذي يعاد ؟ أهو الذي كان وقت الموت ؟ فإن قيل بذلك، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة ، وهو خلاف ما جاءت به النصوص ، وإن كان غير ذلك ، فليس بعض الأبدان بأولى من بعض!

فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني! والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل، ليس فيه شيء باق ، فصار ما ذكروه في المعاد قوى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان^(٢).

الذين قالوا : ((لو حشرت الأجساد فأما لا لغرض وهو عبث ، وأما لغرض . إما عائد إلى الله وهو منزله عنه، أو إلى العبد ، وهو أما الإيلام وهو منتفج إجماعاً لقبحه وعدم ملاءمته للحكمة والعناية ، وإما الإلذاذ وهو أيضاً باطل لأن اللذة

(١) المواقف في علم الكلام للإيجي ، ص ٣٧٢.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٠٩ - ٤١٠.

إنما هي دفع الألم بالاستقراء..

فكان جوابهم :نختار أنه لا لغرض ولا نسلّم أن الغرض إما الإيلاء ، أو الإلذاذ، ولعل فيه غرضاً آخر لا نعلمه . سلّمنا ، لكن لا نسلّم أن اللذة دفع الألم ، ولم لا يجوز أن تكون أمراً آخر ؟ وحقيقة لا مجال للوجدان والاستقراء فيه!!؟))^(١).

إن هذا وغيره من سفسطات القول ، وهذا حالهم في عجزهم عن الدفاع عن مقدماتهم وإنكارهم ما هو معلوم من الضرورة في شرع الله ، وذلك مثل الغاية من حشر الأبدان وهو أما نعيم مقيم وأما عذاب أليم. وهذا معلوم لدى العامة خلاف أهل العلم؛ بل إن هذا وعد الله سبحانه لعباده المؤمنين ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ * أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢).

((وقد توعد الله الكافرين بأن يذوقوا عذاب النار ، فهل بعد هذا شك في إحساسهم بالعذاب وإنه الغرض من حشرهم بخلاف من صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات ((فلهم جنات المأوى)) أي التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ((نزلاً)) أي ضيافة وكرامة.

ثم قال تعالى متوعداً من أعرض عن طاعته: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾^(٣).

قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة وإن الأرجل لمقيدة وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم ، ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً^(٤) . إن هذا وصف لحال من عصى الله فكفر به في حال معادهم إلى الله.

وإذا كانت تلك نظرة المتكلمين القاصرة في حال المعاد ؛ ذلك إنهم أعرضوا

(١) المواقف في علم الكلام للإيجي، ص ٣٧٣.

(٢) سورة السجدة آية ١٧ - ١٨ - ١٩.

(٣) سورة السجدة آية ٢٠.

(٤) تفسير ابن كثير ، ح ٣ ، ص ٣٩٥.

عما جاء به المصطفى ﷺ من ربه تعالى ، فما كان من مناهجهم وطرقهم إلا أن أصابت عقولهم الحيرة والشك وتكافؤ الأدلة عندهم إن كان عندهم من دليل؟!.

أما القول الذي عليه ((السلف وجمهور العقلاء: فإن الأجسام تنقلب من حال إلى حال ، فتستحيل تراباً ، ثم ينشئها الله نشأة أخرى ، كما استحال في النشأة الأولى، فإنه كان نطفة ، ثم صار علقة ، ثم صار مضغة ، ثم صار عظاماً ولحماً ، ثم أنشأه خلقاً سوياً.

كذلك الإعادة: يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ، أنه قال: ((كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ابن آدم ومنه يركب))^(١). فالنشأتان نوعان يتفقان ويتماثلان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه ، والمعاد هو الأول بعينه.. وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة ، حتى قيل إن الصفات هي المغيرة ، لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة آدم))^(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: ((خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك ، تحيتك وتحية ذريتك ، فقال: السلام عليكم ، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. فزادوه، ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن))^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: ((قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بله ما أطلعكم الله عليه ثم قرأ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب ونفخ في الصور ، ح ٨ ، ص ٥٥١.

صحيح مسلم شرح النووي ، كتاب الفتن ، باب النفختين ، ج ١٨ ، ص ٣٠٣.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤١٠.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته ح ٦ ، ص ٣٦٢.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ح ١٧ ، ص ١٧٦.

جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾

قال النووي: ((بله : بفتح الباء الموحدة وإسكان اللام ومعناها دع عنك ما أطلعكم عليه فالذي لم يطلعكم عليه أعظم وكأنه أضرب عنه استقلالاً له في جنب ما لم يطلع عليه ، وقيل معناها غير وقيل كيف)) (٢).

أما الذين يثبتون إعادة الأبدان دون الأرواح ، وهم كما قال ابن تيمية كثير من المتكلمين الجهميه والمعتزلة ، وهو كما قال لأنهم ينكرون بقاء الأعراض بعد زوال الأجسام المصاحبة لها ، قال البغدادي: ((قال شيخنا أبو الحسن الأشعري ، ما عدم بعد وجوده صحت إعادته جسماً كان أو عرضاً.

وقال القلانسي من أصحابنا يصح إعادة الأجسام ولا يصح إعادة الأعراض وأنكر الكعبي من المعتزلة وأتباعه من القدرية إعادة الأعراض. وقال الجبائي منهم ، الأعراض نوعان: باق وغير باق.

وما صح بقاءه منها صحت إعادته بعد الفناء وما لا يصح بقاءه فلا تصح إعادته. وقال الكرامية: ما عدم بعد وجوده فلن يجوز أن يعاد جسماً كان أو عرضاً، وإنما يجوز أن يخلق مثله)) (٣).

ولا شك إن هذا تخبط ! كيف وقد قالوا: إننا نأخذ بالسمعيات في أمر المعاد وقد أعرضوا عنها في الإلهيات والقدر (٤).

وحيث إن الروح من لوازم الجسد ، فلا جسد بلا روح بل إنها المنعمة أو المعذبة.

وقد جاء وصف حالها وتعلقها بالبدن في سنة المصطفى ﷺ ونقله علماء أهل السنة والجماعة ((السلف)) .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، ح ٨ ، ص ٥١٥ ؛ آية ١٧ السجدة .

صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ح ١٧ ، ص ١٦٦ .

(٢) شرح النووي ، ج ١٧ ، ص ١٦٦ .

(٣) أصول الدين لعبد القاهر البغدادي ، ص ٢٣٤ .

(٤) انظر نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص ٤٤٦ .

؛ انظر المواقف في علم الكلام للإيجي ، ص ٣٣٧ .

؛ العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ، ص ١٦٨ .

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام.
أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : ((إن أحدكم ليجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))^(١).

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ : ((مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾)^(٢).

وعن جندب بن سفيان قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال بها حاجة))^(٣). فهي مصاحبة للعبد حتى قبضها يوم وفاته .

الثالث: تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٤).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب في الملائكة ، ٦ ، ص ٣٠٣ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الأدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ج ١٦ ، ١٨٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، ح ٨ ، ص ٥١٣ ؛ سورة لقمان آية ٣٤ .

(٣) المستدرك علي الصحيحين للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ج ١ ، ص ٥٢١ .

(٤) سورة الزمر آية ٤٢ .

قال ابن كثير: ((وفي هذه الآية ذكر الوفاتين القيامة الكبرى ثم الصغرى ، وفيه دلالة على أنها تجتمع في الملاء الأعلى .. وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف فيمسك التي قضى عليها الموت ﴿ وَيُرْسِلُ الْآخَرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾))^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخله إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فأرحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين))^(٢).

الرابع: تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه - حتى إنه ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان فأقعداه ، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً في الجنة. قال النبي ﷺ ، فيراهما جميعاً. وأما الكافر - أو المنافق - فيقول: لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه من الثقلين. - زاد مسلم - قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويملاً عليه خضراً إلى يوم يبعثون))^(٣).

الخامس: تعلقها به يوم يبعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق ، لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً ...

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٥١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب السؤال بأسماء الله الحسنى ، ح ٣٧٨ ص ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، ح ١٧ ، ص ٣٦.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يسمع خفق النعال ، ح ٣ ، ص ٣٠٥ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب عرض مقعد الميت عليه ، ح ١٧ ، ص ٢٠٣.

فإن الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثاً ، دار الدنيا ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافه وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم.

فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية ، ثم قال ابن القيم رحمه الله في ميميته واصفاً ثمانية من الخلق يعمها حكم البقاء ، فقال:

((ثمانية حكم البقاء يعمها من الخلق والباقون في حيز العدم هي العرش والكرسي نار وجنة وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم))^(١).
وبهذا فإن الروح ينالها ما قدر الله من النعيم أو العذاب في البرزخ وفي دار القرار أما ((قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب ، بل لا يكون ذلك حتى تقوم القيامة الكبرى ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ، ونحوهم ، الذين ينكرون عذاب القبر ونيعمه ، بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن ، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب.

فجميع هؤلاء الطائفتين: ضلال في أمر البرزخ ، لكنهم خير من الفلاسفة ؛ لأنهم يقرون بالقيامة الكبرى.

وقول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام ، من المعتزلة وأصحاب أبي الحسن الأشعري كالقاضي أبي بكر وغيرهم ، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن ، وهذا قول باطل ؛ خالفه الأستاذ أبو المعالي الجويني وغيره ؛ بل قد ثبت في الكتاب والسنة ، واتفاق سلف الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن ، وأنها منعمة أو معذبة.

(١) الروح لابن القيم ، دار القلم بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ، ص ٤٠ - ٥٨.

فإذا عرفت هذه الأقوال الثلاثة الباطلة ، فليعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ، فيحصل له معها النعيم والعذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها وقاموا من قبورهم لرب العالمين))^(١) . وإيمان أهل السنة والجماعة باليوم الآخر إيمان متكامل بعيد عن اللبس والشكوك التي تعترى إيمان تلك الفرق الأخرى ، ذلك أن أهل السنة لا يحيدون عن الكتاب والسنة ففيها الدليل والحجة والبرهان نقلاً وعقلاً ، فالإيمان باليوم الآخر يقتضي عندهم ((التصديق الجازم بإتيانه لا محالة ، والعمل بموجب ذلك. ويدخل في ذلك الإيمان بأشراط الساعة ، وأماراتها التي تكون قبلها لا محالة ، وبالموت وما بعده من فتنة القبر وعذابه ونييمه ، وبالنفخ في الصور ، وخروج الخلائق من القبور ، وما في موقف القيامة من الأهوال والأفزع ، وتفصيل المحشر ، ونشر الصحف ، ووضع الموازين ، وبالصرار والحوض ، والشفاعة ، وغيرها وبالجنة ونييمها الذي أعلاه النظر إلى وجه الله عز وجل ، وبالنار وعذابها الذي أشده حجبهم عن رؤية ربهم عز وجل))^(٢) .

وحيث كانت أشراط الساعة متقدمة على قيام الناس لرب العالمين ؛ فكان المناسب أن يكون المبحث القادم متعلقاً بأشراط الساعة .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ح ٤ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٢) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة ، الشيخ حافظ أحمد الحكي ، تحقيق أحمد مدخلي ، مكتبة الرشد ، الرياض ١٤١٨ هـ ، ص ١١٠ .

أشراط الساعة

والشَّرَطُ: ((بالتحريك العلامة ، والجمع أشراط ، وأشراط الساعة: أعلامها))^(١).

قال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾^(٢).
وقيل الأشراط هي الآيات وهي ((الأمارات الدالة على الشيء ، كالأمارات التي تنصب في الصحراء دالة على الطريق ، والعلامات التي ترفع على شواطئ البحر تهدي السفن التي تمخض عباب الماء ، أو تلك التي توضع قريباً من المدن لتدل المسافرين على قرب وصوله إلى الديار التي وضعت بقربها))^(٣). ((والمراد بالأشراط: العلامات التي يعقبها قيام الساعة))^(٤).

ويقول الطيبي: ((الآيات: أمارات للساعة ، إما على قربها ، وإما على حصولها. فمن الأول: الدجال ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والخسف ، ومن الثاني: الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار التي تحشر الناس))^(٥).

قال ابن حجر رحمه الله : ((يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي وينتهي ذلك بقيام الساعة ، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب))^(٦).

والساعة: جزء من أجزاء الليل والنهار والجمع ساعات، والليل والنهار معاً أربع وعشرون ساعة ، والساعة: الوقت الحاضر ، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ

(١) لسان العرب لابن منظور ، ج ٧ ، ص ٣٢٩.

(٢) سورة محمد آية ١٨.

(٣) القيامة الصغرى د. عمر الأشقر، دار النفائس الأردن ، الطبعة ١١ سنة ١٤٢١هـ ، ص ١٢٧.

(٤) فتح الباري صحيح البخاري ، ج ١٣ ، ص ٧٩.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ح ١١ ص ٣٥٢.

(٦) فتح الباري ج ١١ ، ص ٣٥٣.

السَّاعَةُ يُقَسِّمُ الْمَجْرُمُونَ ﴿١﴾ . يعني بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

وقال الزجاج: الساعة اسم للوقت الذي تصعق فيه العباد والوقت الذي يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة ، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التي ذكرها الله عز وجل فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ (٢).

ولقد ذكر الله في كتابه جملة من أشراف الساعة ، كنزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدابة ، وغيرها.

وأما من السنة ، فكما في حديث جبريل في الصحيحين وقد تقدم في باب الإيمان بالله تعالى وفيه.. قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال: فأخبرني عن أمارتها قال أن تلد الأمة ربتها (٣). وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان (٤).

ثم ذكر ﷺ من أشراف الساعة مما جاء في الصحيحين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من الثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهَمَّ ربُّ المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أربَ لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها. فإذا طلعت ورآها

(١) سورة الروم .

(٢) سورة يسن آية ٢٩.

(٣) قال الخطابي: ((معناه اتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشرك وسبي ذراريهم ، فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربتها لأنه ولد سيدها ، قال النووي وغيره: إنه قول الأكثرين. فتح الباري ، ح ١ ، ص ١٢٢.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، ح ١ ، ص ١٤٤.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب تعريف الإسلام والإيمان ، ح ١ ، ص ١٥٧.

الناس آمنوا أجمعين، فذلك حين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ ^(١). ((ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)) ^(٢). وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم فقال: ((اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس ثم موتان ^(٣) يأخذ فيكم كقصاص الغنم ^(٤)، ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مئة دينار فيظل ساخناً ، ثم فتنة لا يبقی بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ^(٥) فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ^(٦)، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً)) ^(٧).

اقتراب موعد الساعة وزوال الدنيا:

وإن كانت تلك بعض أشراطها ؛ فقد أخبرنا رسول الله ﷺ بدنو أجلها وساعة اقتربها ، محذراً الأمة إعراضهم عن عبادة الله ، والإشفاق من أهوالها ، فعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصايبها صاحبها وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانقلوا بخير ما بحضرتكم فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقي من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعر والله لتملأونه أفعببتم والله لقد ذكر لنا أن ما بين

(١) سورة الأنعام آية ١٥٨.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ح ١٣ ص ٨١ - ٨٢.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي يقبل فيه الإيمان ، ح ٢ ، ص ١٩٤.

(٣) موتان : أي وباء ، مرقاة ١٥٨/٥.

(٤) قصاص الغنم: هو داء يأخذ الغنم فلا تلبث أن تموت مرقاة ١٥٨/٥.

(٥) بني الأصفر: هم الروم ١٥٨ / ٥ .

(٦) غاية: أي راية ١٥٨/٥ .

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجزية ، باب ما يحذر من الغدر ، ح ٦ ، ص ٢٧٧.

مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً وليأتين عليه يوم كظيظ الزحام ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر .. فما أصبح منا أحد اليوم إلا أصبح أمير مصر من الأمصار ، وأني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً))^(١) .. قال النووي في شرحه ((أذنت: أي أعلمت. والصرم بالضم أي الانقطاع والذهاب وقوله حذاء أي مسرعة الانقطاع ، والصبابة البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء وقوله يتصائبها أي يشربها وقعر الشيء أسفله ، والكظيظ الممتليء))^(٢).

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أخبر أمته باقتراب الساعة فإنه لم يحدد زمناً معيناً، وإن الذين ظنوا في حديث أنس بن مالك وغيره تحديداً قد أخطأوا في ذلك ؛ وإنما كان رسول الله ﷺ يؤكد ساعة القيامة الصغرى للسائل والسامع.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ((إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة ؟ وعنده غلام من الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة))^(٣).

وفي رواية : قال فسكت رسول الله ﷺ هنيهة ثم نظر إلى غلام من أزد شنوءة فقال : إن عُمِّرَ هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة قال أنس: ذاك الغلام من أترابي يومئذ.

قال النووي: ((قال القاضي عياض: هذه الروايات كلها محمولة على معنى الأولى والمراد بساعتهم موتهم ومعناه يموت ذلك القرن ، أو أولئك المخاطبون ، قال النووي : قلت: ويحتمل أنه علم أن ذلك الغلام لا يبلغ الهرم ولا يعمر ولا يؤخر))^(٤). قال الأشقر: وهذا الجواب من الرسول ﷺ يعرف بجواب الحكيم ، فإنه

(١) مسند الإمام أحمد ، ح ٤ ، ص ١٧٤ ، ح ٥ ، ص ٦١ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزهد ، ج ١٨ ، ص ١٠٢ .

(٢) شرح النووي ، ح ١٧ ، ص ١٠٢ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب قرب الساعة ، ح ١٧ ، ص ٩٠ .

(٤) شرح النووي ، ح ١٧ ، ص ٩٠ .

أرشدتهم إلى الاستعداد للموت والتأهب له ، والموت قريب^(١).

قال شيخ الإسلام: ((فإذا كان النبي ﷺ قد قال عن نفسه: إنه ليس بأعلم بالساعة من إعرابي فكيف يجوز لغيره أن يدعي علم ميقاتها؟! وإنما أخبر الكتاب والسنة بأشراطها ، وهي علاماتها وهي كثيرة .. ومن تكلم في وقتها المعين .. فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم فغالبيتهم كاذبون مفترون ، وقد تبين لهم من وجوه كثيرة أنهم يتكلمون بغير علم ؛ وإن ادّعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار^(٢) . وأشراط الساعة منها ما مضى ومنها ما يزال ، ومنها ما هو في علم الغيب عند الله تعالى .

(١) القيامة الصغرى ، د. عمر الأشقر ص ١٢٦ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ح ٤ ، ص ٣٤١/٣٤٢ .

علامات الساعة الصغرى

أخبر المصطفى ﷺ بعلامات الساعة لتكون الأمة من بعده على نور من هديه ﷺ حيال ما يستجد من سنن الله في كونه الواسع وفي خلقه ومخلوقاته.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: ((كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً ، فمنا من يصلح خبائه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشره ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتن ، فيرقق بعضها بعضاً ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي ، ثم تتكشف ، وتجيء الفتنة ، فيقول المؤمن هذه هذه ، فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً ، فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه ما استطاع))^(١).

قال النووي : قوله: ((ومنا من ينتضل ، من المناضله وهي المراماة بالنشاب ، وقوله: ومنا من هو في جشره هي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها . وتجيء فتن يرقق بعضها بعضاً أي يصير بعضها رقيقاً أي خفيفاً لعظم ما بعده ، فالثاني: يجعل الأول رقيقاً . وقوله ﷺ : وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، هذا من جوامع الكلم الذي أوتيته ﷺ ، وبديع حكمته ، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه))^(٢).

وحيث إن إيمان المسلم هو حصنه الحصين ، ودرعه المكين حتى يلقي الله فإن المصطفى ﷺ يبين لأمته ما ستظهره الليالي والأيام والسنون ، ذلك ليبقى المؤمن على نور من ربه وهدى نبيه ﷺ فلا يضل ولا ينحرف عن الطريق السوي وإن تجددت النوازل والوقائع فإن السعيد من التزم سنة نبيه ﷺ ؛ كيف وقد تركنا على

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الأمارة ، باب وجوب الوفاء في البيعة ، ح ١٢ ، ص ٢٣٢.

(٢) شرح النووي ، ح ١٢ ، ص ٢٣٣.

المحجة البيضاء ليلها كنهارها حتى تقوم الساعة ، وليكن على رضا بأقدار الله ، وعلى علم بأحكام ما يستجد كالصلاة ، حين خروج الدجال وقد أخبر المصطفى ﷺ أن يوماً كسنة ويوماً كشهر ثم قال: اقدروا له قدره ، كأيام الدنيا ، وكذلك بعد نزول عيسى لا يقبل من ذمي جزية فلا يحكم إلا بشريعة محمد ﷺ ، وأخبر ﷺ أن أمور الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى.

هذا ومن المعلوم انقسام علامات الساعة إلى صغرى وكبرى ، أما الصغرى فمنها ما انقضى ومضى ومنها ما لم يأت بعد ويتبين ذلك فيما يلي :

علامات الساعة الصغرى التي انقضت:-

مبعثه صلى الله عليه وسلم :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((بعثت أنا والساعة كهاتين))^(١).

هلاك كسرى وقيصر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((هلك كسرى فلا يكون كسرى بعده ، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده ، ولتقسم كنوزهما في سبيل الله))^(٢).

قال النووي: ((قال الشافعي وسائر العلماء معناه لا يكون كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام ، كما كان في زمنه ﷺ فعلنا ﷺ بانقطاع ملكهما في هذين الإقليمين ، فكان كما قال ﷺ . فأما كسرى فانقطع ملكه بالكلية من جميع الأرض وتمزق كل ممزق واضمحل بدعوة الرسول ﷺ وأما قيصر فانهزم من الشام ودخل أقاصي بلاده فافتتح المسلمون بلادها واستقرت للمسلمين والله الحمد وأنفق المسلمون كنوزهما في

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب قوله ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ، ح ١١ ، ص ٣٤٧.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب قرب الساعة ، ح ١٨ ، ص ٨٩.

(٢) فتح الباري شرح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب الحرب خدعة ، ح ٦ ، ص ١٥٧.

؛ صحيح مسلم شرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، ح ١٨ ، ص ٤٢.

سبيل الله كما أخبر ﷺ وهذه معجزات ظاهرة ((^(١)).

فتن تموج كموج البحر:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال: ((كنا عند عمر رضي الله عنه ، قال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة ؟ فقلت : أنا أحفظ كما قال ، قال: هات ، إنك لجريء وكيف قال ؟ قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. قال: قلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين ؟ إن بينك وبينها باباً مغلقاً. قال فيكسر الباب أو يفتح ؟ قال: قلت: لا بل يكسر ، قال: ذاك أحرى أن لا يخلق أبداً ، قال: فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد الليلة ، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط ، قال: فهبنا نسأل حذيفة من الباب ؟ فقلنا لمسروق: سله ، فسأله فقال: عمر))^(٢).

النار التي أضاعت أعناق الإبل ببصرى وخرجت من أرض الحجاز:

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى))^(٣).

قال ابن حجر: ((قال القرطبي في التذكرة ، قد خرجت نار الحجاز بالمدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء الثالث عشر من جمادي الآخرة سنة ٦٥٤هـ وظهرت النار بطرق الحرة وقال النووي: تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام. وقال أبو شامة في ذيل الروضتين : وردت في أول شعبان سنة ٦٥٤هـ كتب من المدينة الشريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه

(١) شرح النووي ، ح ١٨ ، ص ٤٢.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب الفتن التي تموج كموج البحر ، ح ١٣ ، ص ٤٨ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراف الساعة ، باب في الفتن التي تموج كموج البحر ، ج ١٧ ، ص ١٠٦ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ح ١٣ ، ص ٨٧ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، ح ١٨ ، ص ٣٠ .

تصديق لما في الصحيحين ، فذكر هذا الحديث))^(١).

قال النووي: ((هي آية من أشراط الساعة مستقلة وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وكانت نار عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة ؛ تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان وأخبرني من حضرها من أهل المدينة))^(٢).

دجالون كذابون يدعون النبوة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة. وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله...))^(٣).

قال ابن حجر: ((المراد بالفئتين علي ومن معه ومعاوله ومن معه ، ويؤخذ من قوله دعوتهما واحدة ومن تسميتهم مسلمين الرد على الخوارج ومن تبعهم من تكفيرهم كلا الطائفتين. أما الدجالون فقال ابن حجر: إنه جمع دجّال: وخرج في زمن أبي بكر طليحة بن خويلد وادعى النبوة ثم تاب ورجع إلى الإسلام ، وتنبأت أيضاً سجاح ثم تزوجها مسيلمة وقد اشتهر بادعائه النبوة))^(٤). وقد كثر أمثالهم على مرور العصر الإسلامي ممن أضلهم الله حتى ((ظهر في هذا العصر مدعون للنبوة والمهدي ثم أتوا بدين وتشريع جديد ، فما وجد لها مستمع إلا أصحاب الهوى والأغراض الدنيوية . ومنهم مؤسس الديانة البهائية الذي أعلن أنه المهدي المنتظر وكان في إيران ثم ادعى أنه أفضل من محمد ﷺ صاحب الدعوة الإسلامية ، وأن تعاليمه التي جمعها في بيانه أفضل من تعاليم نبي المسلمين وقرآنه ، وأنه يتحدى الجميع بالإتيان بباب من أبواب بيانه العظيم ، حكم عليه بالإعدام فأعدم سنة

(١) فتح الباري ، ح ١٣ ، ص ٧٩.

(٢) شرح النووي ، ح ١٨ ، ص ٢٨.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ح ١٣ ، ص ٨١ .

صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٤) فتح الباري ، ح ١٣ ، ص ٨٥ - ٨٧.

١٢٢٩ هـ تقريباً..))^(١).

((ثم أتى الدجال الآخر في القارة الهندية: غلام أحمد القادياني ، وقد ادعى أنه المسيح المعهود والمهدي الموعود ، وادعى أن الله وهبه علماً وجعله من المكلمين الملهمين ثم ادعى أنه هو النبي الذي تنبأت بظهوره في آخر الزمان أغلب الديانات العظيمة ، وأنه خاتم النبيين ، صادفت دعوته القاديانية قبولاً من بعض جهات أفريقيا وبيشرون بالإسلام في أوروبا وأمريكا وآسيا))^(٢).

((أما طائفة اليزيدية أو عبدة الشيطان ، وهم الذين ينتمي معظمهم إلى الجنس الكردي، ويقطن أتباعهم مناطق حدود كل من إيران والعراق وتركيا وسوريا وروسيا وهي بلاد الأكراد.

ومنهم من يدعي نسبة دينهم إلى يزيد بن معاوية ويعتقدون أنه إلههم المقدس، وهم مختلفون في نسبة معتقدتهم ومنهم من يعتقد نسبة معتقدتهم إلى مدينة يزد الفارسية.

والحق أن اليزيدية خليط من عناصر وثنية قديمة وعناصر إيرانية وأخرى يهودية ونصرانية وإسلامية ، وهم يؤمنون بوجود إله أكبر خالق لهذا الكون ، وقد فوض تدبيره إلى ملك طاووس ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية. أما نبي هذه الديانة فهو الشيخ عادي ، ويرفعونه فوق درجة النبوة لزيارة لضريحه ، ومن شخصياتهم المقدسة: منصور الحلاج الهالك ويحجون زيارةً لضريحه .

ويجب على كل يزيدي في كل يوم وقت طلوع الشمس أن يقف في موضع شروقها بشرط أن لا يراه مسلم ، وإذا لم يفعل فهو كافر ، ولا يسمع صلاة المسلم ، واليزيدية يؤمنون بالتناسخ والحلول ، ولهم كتابان مقدسان ، ولهم عيد الخضر ، ويحتفلون بليلة القدر ولا ينامون ساهرين إلى الصباح ، وكان دينهم يحرم العلم ، ثم أبيع لهم وأباح رئيسهم دخول المدارس))^(٣). إن هذا الضلال من هؤلاء وغيرهم ناتج عن انحرافهم في عقيدتهم واتباع أهوائهم وترك منهج الوحي من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(١) ذيل الملل والنحل للشهرستاني ، تأليف محمد سيد كيلاني ، ح ٢ ، ص ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) نفس المصدر ح ٢ ، ص ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

انشقاق القمر :

إن انشقاق القمر في عهد رسول الله ﷺ معجزة له ، كان من أعظم الآيات الصغرى ، وقد أخبر الله تعالى بذلك في كتابه الكريم فقال تعالى : ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (١).

أما الأحاديث في بيان انشقاق القمر فقد سبق عرضها في مبحث معجزاته ﷺ، قال الإمام النووي: ((قال القاضي عياض: انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا ﷺ، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها)) (٢).

قتال الترك :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر ، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة)) (٣).

قال النووي في شرحه: ذلف الأنوف أي فطس الأنوف قصارها مع انبطاح أي صغارها .

والمجان المطرقة: تشبيه وجوه الترك في عرضها بالترسة المطرقة وهي التي ألبست العقب وأطرقت به طاقة فوق طاقة.

علامات صغرى للساعة لم تقع:

أخبر رسول الله ﷺ بعلامات لقيام الساعة أو بين يدي قيامها:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((سمعتم بمدينة جانب منها في البحر وجانب منها في البر قالوا : نعم يا رسول الله ، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني اسحق فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم قالوا : لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها ، قال ثور (٤) : لا أعلمه إلا

(١) سورة القمر آية ١ - ٢.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم حـ ١٧ ص ١٤٣

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب قتال الترك ، ح ٦ ، ص ١٠٤.

صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، ح ١٨، ص ٢٧.

(٤) هو ابن زيد الدبلي ، أحد الرواة . شرح النووي ، ج ١٨ ، ص ٤٣ .

قال الذي في البحر ثم يقولوا الثانية لا إله إلا الله والله أكبر فيفرج لهم فيدخلوها فيغنموا فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون^(١). قال النووي: ((يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحق)). قال القاضي: كذا هو في جميع أصول مسلم من بني إسحق قال بعضهم: المعروف المحفوظ من بني إسماعيل وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه لأنه إنما أراد العرب وهذه المدينة هي القسطنطينية^(٢).

وهنا إشكال فإن القسطنطينية قد فتحها محمد الفاتح في القرن التاسع الهجري، وفي الحديث علامة خروج الدجال ، فدل هذا أن المقصود بهذه المدينة هي مدينة روما ، ويدل على ذلك ما رواه أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال: ((كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال: فأخرج منه كتاباً قال: عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ وسلم نكتب ؛ إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولاً: أفسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولاً ، يعني قسطنطينية^(٣))).

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: ((ورومية هي روما عاصمة إيطاليا ومقر الفاتيكان ، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني ؛ كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار الرسول ﷺ بالفتح ، وسيحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد ، ولتعلمن نبأه بعد حين. ولا شك أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة ، وهذا مما ييشرنا به ﷺ^(٤))).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، ح ١٨ ، ص ٤٣.

(٢) شرح النووي ، ح ١٨ ، ص ٤٣.

(٣) مسند أحمد ، ح ٢ ، ص ١٧٦.

؛ مستدرک الحاكم ، وصححه ووافقه الذهبي ، ج ٤ ، ص ٤٦٨ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني ، ح ١ ، ص ٣٢.

تقوم الساعة والروم أكثر الناس:

كان المستورد القرشي عند عمرو بن العاص رضي الله عنهم ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((تقوم الساعة والروم أكثر الناس ، فقال عمرو: أبصر ما تقول: قال أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ ، قال: لئن قلت ذاك فإن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحكم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، وأوشكهم كرة بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ویتيم وضعيف ، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك))^(١).

قال النووي: ((وهذا يدل على أن الروم يسلمون في آخر الزمان ، ولعل فتح القسطنطينية يكون على يد طائفة منهم كما نطق به الحديث المتقدم أنه يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحق بن إبراهيم الخليل .. وهؤلاء الروم قد مدحوا في هذا الحديث فلعلمهم يسلمون على يدي المسيح بن مريم والله أعلم))^(٢).

خلافة على منهاج النبوة:

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ، فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت))^(٣).

أرض العرب مروج وأنهار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل زكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه ،

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس ، ح ١٨ ، ص ٢٢.

(٢) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس . ح ١ ، ص ٧٤.

(٣) مسند أحمد ، ح ٤ ، ص ٢٧٣.

؛ مجمع الزوائد للهيثمي ، ح ٥ ، ص ١٨٩ وقال: رجاله ثقات.

؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ناصر الدين الألباني ، ح ١ ، ص ٣٤.

وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً)) (١).

نهر الفرات يحسر عن جبل من ذهب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى يحسر (٢) الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم أنا الذي أنجو)) (٣).
إذا وسد الأمر إلى غير أهله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: ((بينما كان النبي ﷺ يحدث إذ جاء أعرابي فقال: متى الساعة ؟ قال: إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة قال: كيف إضاعتها ؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة)) (٤).

قتال المسلمين لليهود:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر يهود)) (٥). ورواه بلفظ مقارب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

رجل من قحطان يسوق الناس:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه)) (٦).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ، ح ٧ ، ص ٩٧.

(٢) يحسر: أي ينكشف لذهاب مائه. شرح النووي ، ح ١٨ ، ص ١٨ ، ١٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، ح ١٨ ، ص ١٨.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب من سئل علماً وهو مشغل في حديثه ، ح ١ ، ص ١٤١.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، ح ١٨ ، ص ٤٤.

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري: كتاب المناقب ، باب ذكر قحطان ، ح ٦ ، ص ٥٤٥.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل على قبر الرجل ، ح ١٨ ، ص ٣٦.

قال ابن حجر: لم أقف على اسمه ولكن جوز القرطبي أن يكون جهجاه الذي وقع ذكره في مسلم من طريق أخرى عن أبي هريرة بلفظ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل يقال له: الجهجاه وفي رواية: حتى يملك رجل من الموالي يقال له: الجهجاه))^(١).

فتن كقطع الليل المظلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا))^(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي من تشرف^(٣) لها تستشرفه ، فمن وجد ملجأ أو معاذاً^(٤) فليعذ به))^(٥).

تقارب الزمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يتقارب الزمان ، ويقبض العلم وتظهر الفتن ، ويلقى الشح ويكثر الهرج قالوا: وما الهرج ؟ قال: القتل))^(٦).

تمني الموت من البلاء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان

(١) نفس المصدر، ح ١٨ ، ص ٣٦.

(٢) نفس المصدر ، كتاب الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال ، ح ٢ ، ص ١٣٣.

(٣) تشرف: أي نظر إليها ، مرقاة الصعود ، ح ٥ ، ص ١٣٨.

(٤) معاذاً: أي موضعاً أو شخصاً ملاذاً يعوذ به من الفتن مرقاة ١٣٨/٥.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب نزول الفتن كمواقع القطر ، ح ١٨ ، ص ٨.

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ، ح ٦ ، ص ٦١٢.

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى مكانه ، ح ١٨ ، ص ١٣.

صاحب هذا القبر ، وليس به الدين إلا البلاء))^(١).

ذي الخصلة صنماً تعبد دوس:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخصلة وكان صنماً تعبد دوس في الجاهلية بتبالة))^(٢) . قال النووي في الشرح : ((أما قوله أليات فمعناه أعجازهن يضطربن من الطواف حول ذي الخصلة ، وتبالة موضع باليمن)) .

يبعث الله ريحاً فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من الإيمان:

عن عائشة رضي الله عنها: قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يذهب الليل والنهار - حتى تُعبد اللات والعزى فقلت يا رسول الله : إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾^(٣) أن ذلك تاماً . قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحاً طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم))^(٤) وذلك بعد قتل الدجال ووفاة عيسى عليه الصلاة والسلام والمهدي ..

ذو السويقتين يخرّب الكعبة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((يخرّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة))^(٥).

قال النووي: ((هما تصغير ساقَي الإنسان لرقتهما ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿ حَرَمًا آمِنًا ﴾ لأن معناه آمناً إلى قرب القيامة وخراب الدنيا . ثم بين لنا رسول الله ﷺ كيفية خلاص المسلم أمام هول هذه الأحداث ألا وهو:

(١) نفس المصدر ، ج ١٨ ، ص ٣٤ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١٨ ، ص ٣٢ .

(٣) سورة التوبة آية ٣٣ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل على قبر الرجل ، ج ١٨ ، ص ٣٣ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١٨ ، ص ٣٥ .

لزوم جماعة المسلمين:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ((كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، قال قلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال: نعم ، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال: نعم ، وفيه دخن ، قلت : وما دخنه ؟ قال: قوم يستتون بغير سنتي ، ويهدون بغير هدي ، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت: يا رسول الله صفهم لنا ، قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، قلت فما تأمرني إن أدركني ؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك))^(١). قال النووي: دعاة على أبواب جهنم ؛ قال العلماء: هم من كان من الأمراء يدعون إلى بدعة أو ضلال ، وفي الحديث وجوب لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي ، فيجب طاعته في غير معصية الله .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات في الإسلام ، ح ٦ ، ص ٦١٥ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الأمانة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، ح ١٢ ، ص ٢٢٦ .

علامات الساعة الكبرى

إن عظمة الدين الإسلامي تتجلى للباحث عن الحق والبرهان على مر الدهور والأزمان ، يظهر هذا في حرص المصطفى ﷺ على بيان الطريق الواضح الذي يسلكه المسلم فيلقى ربه عالماً بما يجب عليه لخالقه ، ومن ذلك تلك العلامات التي بينها نبينا ﷺ وتكون في آخر أيام هذه الدنيا ، ليثبت الله الذين آمنوا ، ويكون المؤمن على حذر من الدجال والدابة والدخان وقد أخبر المصطفى ﷺ أن المؤمن الذي يذكر الله كثيراً ويتعوذ بالله كما أخبر ﷺ فإن الله ينجيه منها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يدعو في الصلاة يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات ..)) (١)

ثم بين ﷺ العلامات الكبرى للساعة ، فعن حذيفة بن أسيد الغفاري: قال: أطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال: ما تذكرون ؟ قالوا نذكر الساعة ، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم . وفي رواية : نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر . وفي رواية في العاشرة : وريح تلقى الناس في البحر)) (٢).

ثم حذر أمته ﷺ تلك الآيات العظام أن تخرج وهم لاهون عنها ، مبيناً لهم أن طريق الخلاص هو الأعمال الصالحة وحذر من المعوقات والاشتغال بالعامية أو الخاصة التي تلهي المسلم عن ما يجب لله سبحانه وتعالى .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب الدعاء قبل السلام ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .
صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، ج ٥ ، ص ٨٧ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب الآيات التي تكون قبل الساعة ، ح ١٨ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((بادروا بالأعمال
ستاً ، الدخان ، والدجال ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر
العامّة، وخويصة أحدكم))^(١).

وقد أخبر ﷺ أن تلك الآيات التي أخبرنا بها ﷺ متتابعة ومتسارعة وذلك حكم
تلك الأهوال التي يدبرها الله تعالى ليحكم بين عباده ، وينتهي مسار هذا الكون بأمره
سبحانه وتعالى.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((الأمارات
خرزات منظومات في سلك ، فإن انقطع السلك يتبع بعضه بعضاً))^(٢).

وسيتّم عرض تلك العلامات ترتيباً حسب ذكرها في صحيح مسلم ، مع ذكر
خروج المهدي مواكباً لنزول عيسى عليه السلام للأثر الوارد عن الرسول ﷺ، ولما
أثير حوله من الأقوال المتعارضة بين أهل السنة والشيعة الذين خالفوا الحق . ولما
يكون في زمنه من صلاح الأمة واجتماعهم واقتداء عيسى عليه السلام به في
الصلاة .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن ، باب بقية من أحاديث الدجال ، ح ١٨ ، ص ٨٧ .

(٢) المستدرك للحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . ح ٤ ، ص ٥٨٩ .
؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ناصر الدين الألباني ، ح ٤ ، ص ٣٦١ وقال: وهو كما قالوا .

الدخان:

آية كبرى ذكرها الله في كتابه ، فقال تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

وذكرها المصطفى ﷺ ضمن العشر آيات وقد سبق إيراد الحديث في هذا.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ((كنا نمشي مع النبي ﷺ فمر ابن صياد (٢) فقال له رسول الله ﷺ: قد خبأت لك خبأ، فقال: دُخٌ ، فقال رسول الله ﷺ: أخسأ فلن تعدو قدرك ، فقال عمر يا رسول الله دعني فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ: دعه فإن يكن الذي تخاف لن تستطيع قتله)) (٣) .

قال النووي: والصحيح المشهور أنه ﷺ أضمر له آية الدخان وهي قوله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ وأصح الأقوال أنه لم يهتد من الآية التي أضمر النبي ﷺ إلا لهذا اللفظ الناقص كعادة الكهان إذا ألقى الشيطان إليهم بقدر ما يخطف قبل أن يدركه الشهاب.

وقال ابن كثير: ((وهذا فيه إشعار بأنه المنتظر المرتقب ، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان وهم يقرضون العبارة ولهذا قال هو الدخ يعني الدخان ، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية فقال ﷺ: أخسأ فلن تعدو قدرك .. وقال ابن جرير - بسنده - عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال ﷺ: إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة والثالثة الدجال .

(١) سورة الدخان آية، ٩ ، ١٠ .

(٢) ابن صياد: قال النووي: واسمه صاف ، قال العلماء وقصته مشككة وأمره مشتبّه ، هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره ؟ قال العلماء: لا شك أنه دجال من الدجالّة . فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال، ولهذا قال لعمر رضي الله عنه: إن يكن هو فلن تستطيع قتله . شرح النووي ، ح ١٨ ، ص ٤٩ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب ذكر ابن صياد ، ح ١٨ ، ص ٤٧ .

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي ج ٦ ، ص ١٧١ .

ورواه الطبراني عن هاشم بن يزيد عن محمد بن إسماعيل عن ابن عباس به
وهذا إسناد جيد. ورواه ابن جرير عن ابن عباس ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن
عباس رضي الله عنهما ، حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من
الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح
والحسن وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من
الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي
السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود
رضي الله عنه ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد.
وقوله ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقرّياً وتوبيخاً ، ويحتمل أنهما
دخانان للجمع بين هذه الآثار^(١) .

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

المسيح الدجال:

أعظم علامات الساعة ، خلقه الله لحكمة يعلمها سبحانه ، ووضع بين يديه فتناً ينجي الله الذين آمنوا منها ويضل الله من يشاء.

وسمي دجالاً ((من الدجل وهو التغطية ، وسمي الكذاب دجالاً لأنه يغطي الحق بباطله ، وقال ابن دريد: سمي دجالاً لأنه يغطي الحق بالكذب ، وقيل لضربه نواحي الأرض ، وقال القرطبي في التذكرة : اختلف في تسميته دجالاً على عشرة أقوال وهل هو ابن صياد أو غيره ، وهل كان موجوداً في عهد الرسول ﷺ ؟ ..
أما كونه ابن صياد: فقد أورد النووي رحمه الله أقوال العلماء ؛ وأنه دجال من الدجاجلة وأن الرسول ﷺ لم يقطع بالنفي أو الإثبات.

وأما وجوده ؛ فقد أورد مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهرائي الناس فقال : ((إن الله تعالى ليس بأعور ألا وأن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافئة))^(١).
قال ابن حجر: ولكونه يلقب المسيح كعيسى ؛ لكن الدجال مسيح الضلالة وعيسى مسيح الهدى.

وعند البزار: الدجال أجلى الجبهة عريض النحر ممسوح العين اليسرى))^(٢).
وقد وردت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ في شأن الدجال منها:
ما رواه عمران بن حصين رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
((ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال))^(٣) . أي ليس شيء أعظم من فتنة الدجال .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من نبي إلا قد أئذرت أمته الأعور الكذاب ، ألا أنه أعور ، وأن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه: ك ف ر))^(٤).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال ، ج ١٨ ، ص ٥٩ .
؛ وانظر البحث ص ٥٨٧.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ج ١٣ ، ص ٩١ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب بقية أحاديث الدجال ، ج ١٨ ، ص ٨٦ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، ج ١٣ ، ص ٩١ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته ، ج ١٨ ، ص ٥٩ .

وعن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: ((إن الدجال يخرج وإن معه ماء ونارا ، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق ، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً ، فإنه ماء عذب طيب))^(١).

قال محققا كتاب النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير : ((إن هذا الحديث - حديث حذيفة - حديث خرافة ؟! وقد سبق قولهما وفي نفس الصفحة عن حديث رواه السيوطي وابن أبي شيبه في الدجال ، إنه حديث مرفوض))^(٢).

ولا شك أن هذا قول بلا علم كيف وقد قبلت الأمة أحاديث الصحيحين ، ثم إن الله أمرنا بالإيمان بالغيب ، وقد أخبر المصطفى ﷺ بأن الدجال من أشراط الساعة وأنه آية لما سيحدثه الله بين يديه من الخوارق ، ثم إن كونه يدعي الألوهية وهو عاجز عن إصلاح حاله تلك أيضاً معجزة من المعجزات التي أرادها الله عبرة وتذكرة ، وأنه كاذب ، إرهاباً لما سيحدث من أهوال يوم القيامة وهو الغرض من تلك الآيات التي تسبق ذلك اليوم غير أن هذا الاعتراض من المحققين على صحة الحديث هو نتاج المدرسة العقلية التي أنشأتها حركة الاعتزال وما زالت سارية إلى اليوم !! .

ثم يصف رسول الله ﷺ كيفية خروجه وحاله مع أمته ثم قتله على يد عيسى بن مريم عليه السلام ، وذلك في حديث مسلم الذي رواه النّوَّاس ؛ فعن النّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه قال: ((ذكر رسول الله ﷺ، الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم ؟ قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فأمرؤ حجيجه نفسه والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط^(٣) عينه

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح ٦ ، ص ٤٩٤.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال ، ح ١٨ ، ص ٦١ .
(٢) النهاية في الفتن والملاحم ، ابن كثير ، تحقيق خليل شيحا ، ومحمد حليبي ، دار المعرفة بيروت ط ، الثالثة ، ١٤٢٢هـ ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٣) قطط: أي شديد جعودة الشعر ، مرقاة الصعود ، ح ٥ ، ١٩٣ .

طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ^(١). فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة ^(٢) بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله: وما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا يا رسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال لا ، اقدروا له قدره ، قلنا يا رسول الله وما إسرعه في الأرض ، فقال كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً ^(٣) وأسبغة ^(٤) ضروعا ^(٥) وأمدّه خواصر ^(٦) ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون محلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيغاسيب ^(٧) النحل ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين ^(٨) رمية الغرض ^(٩) ثم يدعوه فيقبل ويتהלّى وجهه ويضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ^(١٠) واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان ^(١١) كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد ^(١٢) فيقتله ، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ^(١٣) .

- (١) عبد العزى بن قطن: هو رجل من خزاعة وقيل إنه يهودي ، مرقاة ١٩٣/٥ .
- (٢) خلة: أي طريقاً واقعاً بين الشام والعراق ، مرقاة ١٩٤/٥ .
- (٣) ذراً: جمع ذروه ، وهي أعلى السنام ، وذروة كل شيء أعلاه وهو كناية عن كثرة السمن . مرقاة ١٩٦/٥ .
- (٤) واسبغة: أي أتم ما كانت . مرقاة ١٩٦/٥ .
- (٥) جمع ضرع وهو الثدي - كناية عن كثرة اللبن ١٩٦/٥ مرقاة .
- (٦) خواصر: جمع خاصرة ، وهي ما تحت الجنب . مرقاة ١٩٦/٥ .
- (٧) كيغاسيب: أي كما يتبع النحل اليعسوب وهو ذكور النحل . مرقاة ١٩٦/٥ .
- (٨) جزلتين: أي قطعتين تتباعدان . مرقاة ١٩٧/٥ .
- (٩) رمية الغرض: أي يجعل بين الجزلتين مقدار رمية السهم إلى الهدف . مرقاة ١٩٧/٥ .
- (١٠) مهرودتين: حلتين مصبوغتين بورد أو زعفران . مرقاة ١٩٧/٥ .
- (١١) جمان: حب يتخذ من الفضة ، مرقاة ١٩٧/٥ .
- (١٢) باب لد: قرية من قرى الشام ، مرقاة ١٩٨/٥ .
- (١٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتنة وأشراف الساعة ، باب ذكر الدجال ح ١٨ ، ص ٦٣ - ٦٨ .

عقيدة أهل السنة والجماعة في الدجال:

قال الإمام النووي رحمه الله : ((قال القاضي عياض رحمه الله : هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدرات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره ونهره واتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تثبت فتثبت فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ويبطل أمره ويقتله عيسى عليه السلام ، ويثبت الله الذين آمنوا ، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء.. خلافاً لمن أنكره وابطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة .. وغيرهم في أنه صحيح الوجود ولكن الذين يدعون مخارف وخيالات لا حقائق لها ، زعموا أنه لو كان حقاً لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له ، وإنما يدعي الإلهية وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ، ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفاً من أذاه ، لأن فتنته عظيمة جداً تدهش العقول وتحير الألباب ، مع سرعة مروره في الأمر فلا يمكث حتى يتبين الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه.. ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه ما ازدت فيك إلا بصيرة - انتهى)) (١).

((كما أنكر الدجال أصحاب المدرسة العقلية الحديثة كمحمد عبده ومن تابعه في هذا النهج وزعموا أن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرار حكمها . والأحاديث الصحيحة الصريحة التي سيذكرها المؤلف رحمه الله هنا ترد على هذا التأويل الباطني المنحرف)) (٢) .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ، ح ١٨ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية ، تحقيق د . سعود الخلف ، ج ٣ ، ص ٨٠٦ .

الدجال لا يدخل مكة و المدينة:

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : ((ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة وليس نقب^(١) من أنقابها إلا عليه الملائكة حافين ، تحرسها ، فينزل بالسبخة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق^(٢))).

أما النجاة من الدجال فقد اخبر المصطفى ﷺ بما يلزم المسلم ليقية الله فتنة الدجال ؛ وذلك بقراءة قوآت صورة الكهف كما في صحيح مسلم في الحديث السابق. وكذلك الالتجاء إلى مكة والمدينة فإن الدجال لا يدخلهما.

ثم الاستعاذة منه كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يدعو اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال^(٣))).

يقول ابن حجر ((وفي الدجال مع ذلك دلالة بينة لمن عقل ، على كذبه لأنه ذو أجزاء مؤلفة وتأثير الصنعة فيه ظاهر مع ظهور الآفة به من عور عينه فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره ويعدله ويحسنه ، ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض صور نفسك وعدلها ، وأزل عنها العاهة المكتوبة بين عينيك^(٤))).

(١) نقب: هو الطريق بين الجبلين . مرقاة الصعود ، ح ٥ ، ص ٢٠٣.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل المدينة الدجال ، ح ٤ ، ص ٩٥.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراف الساعة ، باب بقية أحاديث الدجال ، ح ١٨ ، ص ٨٥.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر ح ٣ ، ص ٢٤١.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الصلاة ، باب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم ، ح ٥ ، ص ٨٧.

(٤) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، ح ١٣ ، ص ١٠٣.

نزل عيسى ﷺ إلى الأرض:

ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام في زمن ابتلاء وفتنة وقد رفعه الله إليه خلاف قول أتباعه الذين قالوا إن اليهود قتلوه ، وذلك بغير علم. قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَٰذَا وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (١). ثم يقول سبحانه راداً مزاعم اليهود والنصارى في نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام: قال تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلُمِ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٢).

وفي حديث مسلم الذي رواه النّوّاس بن سميان ، أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في وقت لم تكن الأمة بحاجة إلى من ينقذها من الدجال وفتنته مثل ما كان عند نزوله عليه السلام ، فبقدره الله يقتل الدجال ، ثم يدعو الله أن يزيل كرب الأمة من يأجوج ومأجوج ، ثم يقيم الله به العدل ويحكم بشريعة الإسلام ولا يقبل الجزية بل إما الإسلام وإما القتل ، ويلقى المهدي ويفيض الخير على الناس.

فعن النّوّاس بن سميان قال : قال رسول الله ﷺ : ((.. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك ، إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرز (٣) عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبريا فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خير من مائة دينار

(١) سورة آل عمران آية ٥٥.

(٢) سورة النساء آية ١٥٧ - ١٥٨.

(٣) فحرز : من التحريز مأخوذ من الحرز أي احفظهم وضمهم. مرقاة ١٩٨/٥.

لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف^(١) في رقابهم فيصبحون فرسى^(٢) كموت نفس واحدة ، ثم يهبط عيسى نبي الله وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم^(٣) وننتهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت^(٤) فتحملهم فتطرحهم حيث شاء ثم يرسل الله مطراً لا يكن^(٥) منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة^(٦) ثم يقال للأرض اثبتي ثمرتك وردي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها^(٧) ويبارك في الرسل^(٨) حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفأم^(٩) من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة^(١٠) .

وهكذا فإن عيسى عليه الصلاة والسلام وهو مسيح الهداية يبارك الله في زمنه للمؤمنين في نعيمهم ، ويقبل الله دعاءه فينجيهم من تلك المهلكات كيأجوج ومأجوج وقتله للدجال ، وتطهير الأرض من رائحة القتلى وننتهم وخطورة ذلك على حياتهم، بل ويرشدنا ﷺ إلى أمور أخرى لا نفل عن سابقتها بما يمنحه الله من المكرمات وكونه حكماً عادلاً ، وكسره للصليب الذي عبده النصارى من دون الله ، وقتله

(١) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم مرقاة ١٩٩/٥ .

(٢) فرسى: كهلكى وزنا ومعنا القتل ، من فرس الذئب الشاة ومن فريسة الأسد. مرقاة ١٩٩/٥ .

(٣) زهمهم: رائحتهم الكريهة المنتنة. مرقاة ١٩٩/٥ .

(٤) البخت: نوع من الإبل ، أي طيراً أعناقها في الطول والكبر كأعناق البخت. مرقاة ١٩٩/٥ .

(٥) لا يكن: أي لا يمنع من نزول الماء بيت . شرح النووي على صحيح مسلم ، ح ١٨ ، ص ٦٩ .

(٦) الزلفة: وهي المرأة ، والمراد أن الماء يعم جميع الأرض بحيث أن الرائي يرى وجهه فيه. مرقاة ٢٠٠/٥ .

(٧) العصابة الجماعة ، والقحف المقعر هو شبه بقحف الرأس وهو الذي فوق الدماغ. شرح النووي، ح ١٨ ، ص ٦٩ .

(٨) الرسل: أي اللبن ، مرقاة ٢٠٠/٥ .

(٩) الفأم: أي الجماعة ، مرقاة ٢٠٠/٥ .

(١٠) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراف الساعة ، باب ذكر الدجال ، ح ١٨ ، ص ٦٨ . قال النووي : ((يتهارجون تهارج الحمر)) أي يجمع الرجال النساء بحضرة الناس كما

يفعل الحمير ولا يكثرثون لذلك ، نفس المصدر ، ح ١٨ ، ص ٧٠ .

للخنزير الذي يستحله النصارى وقد حرمه الله ، ومنعه للجزية فلا يقبل إلا الإسلام من أهل الذمة. ويفيض الخير على الناس . .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم ، حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها: فأقرؤا إن شئتم ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ۖ ﴾ ^(١) ^(٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال: فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم تعال صل لنا ، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله لهذه الأمة)) ^(٣) .

وعلى هذا فإن عيسى بن مريم ﷺ على خلاف ما يدّعيه النصارى بقولهم إنه صلب وقتل من قبل يهود ، ظلماً وبهتاناً وتتجلى هذه الحقيقة في شريعة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم بما يلي :

أولاً: إنه حيٌّ لم يمت وأن الله رفعه مكاناً علياً وأن اليهود عليهم غضب الله لم ينالوا منه كما يدّعيه أتباعه الضالون ، وأنه نازل لا محالة في آخر الزمان.

ثانياً: إن اعتقادهم في الصليب الذي يقدسونه هو اعتقاد مسخ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام يكسره ويهينه بل وينتقم للعقيدة الخالصة في الله سبحانه وتعالى.

ثالثاً: إنه ينزل مقررّاً لشريعة محمد ﷺ متبعاً لها وأنها خاتمة الشرائع وبصلي خلف إمامهم فلا يقبل الله إلا الإسلام.

رابعاً: إنه لا يقبل الجزية من أهل الكتاب فلا يقبل منهم إلا الإسلام وليس هذا ناسخاً لشريعة محمد ﷺ بل مقرر لها فإن محمداً ﷺ أخبر بهذا وأنه في آخر الزمان وقبل

(١) سورة النساء آية ١٥٩.

(٢) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب قتل الخنزير ، ج ٤ ، ص ٤١٤ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة ﷺ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٩٣

قيام الساعة ، وهو الذي أخبرنا بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام.

قال الإمام النووي رحمه الله : ((والصواب ما قدمناه وهو أنه لا يقبل منه إلا الإسلام ، فعلى هذا قد يقال هذا خلاف حكم الشرع اليوم ، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها ولم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام .

وجوابه: أن هذا الحكم ليس بمستمر إلى يوم القيامة ، بل هو مقيد بما قبل عيسى عليه السلام ، وقد أخبرنا النبي ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة بنسخه ، وليس عيسى عليه السلام هو الناسخ ، بل نبينا محمد ﷺ هو المبين للنسخ ، فإن عيسى يحكم بشرعنا ، فدل على أن الامتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد ﷺ))^(١).

خامساً: إن أهل الكتاب يؤمنون به وأنه عبد الله ورسوله ، وليس كما يدّعون أنه الله، أو أنه ابن الله ، وفي هذا تقرير للعبودية لله وأنها عقيدة عيسى عليه السلام وقد ذكر الله في كتابه أن هذا الإيمان به يكون قبل موته وفي هذا دليل على أنه لم يمت وأنه حي عند الله ، أو أن الكتابي يؤمن في حال الوفاة ولات ساعة مندم !.

سادساً: إن الله قد بين أنهم أي أهل الكتاب على الكفر وأن الله لا يقبل منهم حتى يؤمنوا بعيسى كما يريد الله ، لا كما يريدون ويعتقدون بتثليث النصارى وتثنية اليهود وغلوهم في أنبيائهم حتى عبدوهم من دون الله.

سابعاً: ما يجريه الله على يديه بدعائه من السلام ورغد العيش وقناعة الأنفس، وزوال تلك المحن والبلاءات ، والبركة في النتاج والمحصولات ، وذلك بفضل الله.

ثامناً: إنه عليه الصلاة والسلام إذا نزل من السماء يصلي خلف إمام المسلمين مقتدياً به وإنه يعتذر عن الصلاة بهم ويقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله لهذه الأمة . وقد ذكر ابن القيم صلاته خلف المهدي^(٢).

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ، ح ٢ ، ص ١٩٠.

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن قيم الجوزية ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة مكتب المطبوعات الإسلامية / حلب الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣ هـ ص ١٤٢.

الرد على المخالفين في أمر نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام :

كثر الاختلاف في أمر نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام ، لأنه كان معجزة الله سبحانه للأولين والآخرين ، وقد ثبت الله أمة محمد ﷺ حين أخبرها بحقيقة عيسى وأنه عبد الله ورسوله ، فكان ضلال بني إسرائيل في نبيهم أظهر من أن يشهر فالنصارى يؤلهونه ويعبدونه ، واليهود يدعون قتله ويذمونهم .

وكانت عقيدة أهل السنة الإيمان بما أخبر الله ورسوله ﷺ . قال القاضي عياض رحمه الله: ((نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله فوجب إثباته وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن وافقهم وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقوله تعالى ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وبقوله ﷺ : ((لا نبي بعدي)) وبإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا محمد ﷺ وأن شريعته مؤبده إلى يوم القيامة ولا تتسخ. وهذا استدلال فاسد ؛ لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبياً بشرع ينسخ شرعنا ، ولا في هذه الأحاديث ولا في غيرها شيء من هذا ، بل صحت هذه الأحاديث هنا وما سبق في كتاب الإيمان وغيرها أنه ينزل حكماً مقسطاً بحكم شرعنا ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس))^(١).

قال شيخ الإسلام: ((عيسى عليه السلام حي في السماء لم يميت بعد ، وإذا نزل من السماء لم يحكم إلا بالكتاب والسنة لا بشي يخالف ذلك.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، وإماماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية)) وثبت في الصحيح عنه ((أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، وأنه يقتل الدجال)) ومن فارقت روحه جسده لم ينزل جسده من السماء ، وإذا أحيي فإنه يقوم من قبره .
وأما قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ، ح ١٨ ، ص ٧٥ - ٧٦ ؛ وانظر البحث ص ٣٨١ وإن محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فلا نبي بعده .

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ فـهـذا دليـل علـى أنه لم يعن بـذلك الموت ، إذ لو أراد بـذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين ؛ فإن الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء ، فعلم أن ليس في ذلك خاصية ، وكذلك قوله: ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ولو كان قد فارقته روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبـدن سائر الأنبياء.

ولهذا كان في السماء الثانية مع أنه أفضل من يوسف وإدريس لأنه يريد النزول إلى الأرض قبل يوم القيامة ((^(١)).

وقال ابن القيم: ((والأمم الثلاث تنتظر منتظراً يخرج في آخر الزمان ، فإنهم وعدوا به في كل ملة ، والمسلمون ينتظرون نزول المسيح عيسى ابن مريم من السماء ، لكسر الصليب ، وقتل الخنزير ، وقتل أعدائه من اليهود ، وعباده من النصارى ، وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة ، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً))^(٢).

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ، ح ٤ ، ص ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ؛ وانظر البحث ص ٥٩٤ ، ٥٩٦ .

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لابن القيم ، دار الفكر ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .

خروج المهدي:

إن خروج المهدي في آخر الزمان كشرط من أشراف الساعة قد دلت عليه الأدلة من الأحاديث النبوية الصحيحة ، واستدل بها علماء أهل السنة والجماعة ، وإنه يخرج حكماً عدلاً ، ويفيض الخير بين يديه تكرمة لهذه الأمة ، وقد تم عرضها في مبحث الرد على غلو الشيعة في عصمة الأئمة . قال شيخ الإسلام : ((إن الأحاديث التي يُحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة ، رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم من حديث ابن مسعود وغيره ، كقوله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن مسعود : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم ، حتى يخرج فيه رجل مني ، أو من أهل بيتي ، يواطئ اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً)) (١).

وهذه الأحاديث غلط فيها طوائف:

((طائفة أنكروها ، واحتجوا بحديث ابن ماجة أن النبي ﷺ قال : ((لا مهدي إلا عيسى ابن مريم)) (٢). وهذا الحديث ضعيف ، منقطع السند ، وليس في مسند الشافعي.

أما طائفة الاثني عشرية: الذين قالوا برجعة المهدي المنتظر الذي اسمه: محمد بن الحسن ، والمهدي المنعوت الذي وصفه النبي ﷺ اسمه محمد بن عبد الله ، ولهذا حذفت طائفة الرافضة ذكر اسم الأب من لفظ اسم الرسول ﷺ حتى لا يناقض ما كذبت.

وطوائف ادعى كل منهم: أن مهديهم هو المبشر به مثل مهدي القرامطة الباطنية، الذي أقام دعوتهم بالمغرب ، وهم من ولد ميمون القداح..

وممن ادعى أنه المهدي ابن التومرت ، الذي خرج أيضاً بالمغرب وسُمي

(١) سنن الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في المهدي ، ح ٤ ص ٥٠٥ - ٥٠٦ قال أبو عيسى ، هذا حديث حسن صحيح.

؛ سنن أبي داود ، كتاب المهدي ، ح ٤٧٤ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٤ ص ٣٨.

(٢) سنن ابن ماجة كتاب الفتن ، باب شدة الزمان ، ح ٢ ، ص ٤٩٥ وضعفه الألباني سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح ١ ، ص ١٠٣.

أصحابه بالموحدين وكان يقال له في خطبهم ((الإمام المعصوم والمهدي المعلوم)) وبكل حال فهو وأمثاله خير من مهدي الرافضة ، الذي ليس له عين ولا أثر ولا يعرف له حس ولا خبر ، لم ينتفع به أحد لا في الدنيا ولا في الدين ، بل حصل باعتقاد وجوده من الشر والفساد ، ما لا يحصيه إلا رب العباد))^(١).

وقال ابن كثير: ((إن المهدي المبشر به في الأحاديث الصحيحة الواردة بذكره فيملاً الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً ، ليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة من وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء ، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة ، وتوهم الخيالات الضعيفة ، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الأثني عشر الأئمة الأثني عشر الذين يعتقد فيهم الإثنا عشرية من الروافض لجهلهم وقلة عقلهم))^(٢).

مرتبة أحاديث المهدي من الصحة:

وقد سبر غور أحاديث المهدي علماء الحديث في شتى القرون الإسلامية. قال ابن القيم: ((وقد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهدي وأنه من أهل بيته وأنه يملك سبع سنين ، وأنه يملأ الأرض عدلاً))^(٣).

وقال ابن خلدون في مقدمته: ((اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار ، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت ، يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ، ويستولي على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي ، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره ، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ،

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ، ح ٨ ص ٤٥٤ - ٣٥٩ ؛ انظر البحث ص ٤٠٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ح ٢ ، ص ٣١ وقد أورد حديث: ((لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً)) وقال إنه في الصحيحين وهو كما قال رحمه الله .

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الأحكام ، باب ما بعد باب الاستخلاف ، ج ١٣ ، ص ٢١١ .

، صحيح مسلم بشرح النووي. كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش ، ج ١٢ ، ص ٢٠٢ .

(٣) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم ، ص ١٤٢ .

ويأتى بالمهدي في صلاته ، ويحتجون في الشأن بأحاديث خرجها الأئمة .. منهم الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجة والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأم حبيبة وأم سلمة وثوبان وقرة ابن إياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث ..

وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه ، وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية..

فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم - الطالبين - ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها))^(١).

وقد أطال ابن خلدون في تعقب تلك الروايات ثم قال: ((فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهي كما رأيت لم يخلص منها النقد إلا القليل والأقل منه ، وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش عن الحسن البصري عن انس بن مالك عن النبي ﷺ قال : ((لا مهدي إلا عيسى بن مريم)) وهو رواية مجهول عن متروك عن الحسن مرسلاً وهو منقطع.

وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب))^(٢) فلا يعتد به أمام ما صح من أحاديث المهدي ثم إن ابن خلدون قد ذكر شهرة هذا الأمر ، ثم قوله إنه يسلم بهذا مع وجود الشوكة والعصبية من قريش وآل هاشم.

وقال الشيخ الألباني رحمه الله : ((وخروج المهدي حقيقة عند العلماء .

وحديث خروج المهدي عن ابن مسعود رواه أصحاب السنن وكذا الطبراني

(١) مقدمة ابن خلدون دار إحياء التراث العربي بيروت سنة ١٤٠٨هـ، ص ٣١١ - ٣٢٧.

(٢) نفس المصدر ص ٣٢٢.

في الأوسط والكبير ، وصححه الترمذي والحاكم وابن حبان ، ولفظه عند أبي داود ((لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني ، أو من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض ...)) الحديث. وممن صححه شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقال في منهاج السنة : إن الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة ، رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم من حديث ابن مسعود وغيره. وكذا في المنتقى من منهاج الاعتدال للإمام الذهبي.

قال الشيخ الألباني: فهؤلاء خمسة من كبار أئمة الحديث قد صححوا أحاديث خروج المهدي، ومعهم أضعافهم من المتقدمين والمتأخرين، فأذكر أسماء من تيسر لي منهم: أبو داود في ((السنن)) بسكوته على أحاديث المهدي، وما سكت عنه فهو صحيح عنده.

- ابن قيم الجوزية في المنار المنيف في الصحيح والضعيف.

- الحافظ بن حجر في فتح الباري.

- السيوطي في العرف الوردي.

- العلامة المباركفوري في تحفة الأحوذى.

وعدّ إلى ١١ ذكرهم ممن خرّج أحاديث المهدي ثم قال: وغيرهم كثير وكثير جداً^(١).

وقال العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رحمه الله - ما ملخصه : ((أمر المهدي معلوم ، والأحاديث فيه مستفيضة ، بل متواترة متعاضدة، وقد حكى غير واحد من العلماء تواترها ، وتواترها تواتر معنوي ، لكثرة طرقها ، واختلاف مخرجها وصحابتها ورواتها وألفاظها ، فهي بحق تدل على أن هذا الشخص الموعود به أمره ثابت وخروجه حق ، وهو محمد بن عبد الله العلوي الحسني من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهذا الإمام من

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ناصر الدين الألباني ، ج ٤ ، ص ٣٨ - ٤١.

رحمة الله عز وجل بالأمة في آخر الزمان ، يخرج فيقيم العدل والحق ، ويمنع الظلم والجور ، وينشر الله به لواء الخير على الأمة عدلاً وهداية وتوفيقاً وإرشاداً للناس.

وقد اطلعت على كثير من أحاديثه فرأيتها كما قال الشوكاني وغيره ، وكما قال ابن القيم وغيره ، فيها الصحيح ، وفيها الحسن ، وفيها الضعيف المنجبر ، وفيها أخبار موضوعة ، ويكفيها في ذلك ما استقام سنده ، سواء كان صحيحاً لذاته أو لغيره ، وسواء كان حسناً لذاته أو لغيره ، وهكذا الأحاديث الضعيفة إذا انجبرت وشد بعضها بعضاً ، فإنها حجة عند أهل العلم.. ، والحق أن الجمهور من أهل العلم - بل هو كالإتفاق - على ثبوت أمر المهدي ، وأنه حق ، وأنه سيخرج في آخر الزمان ، أما من شذ عن أهل العلم في هذا الباب فلا يلتفت إلى كلامه في ذلك ((^(١)).

وهذا ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية رحمه الله حيث يقول:

((وهذه الأحاديث أربعة أقسام صحاح وحسان وغرائب وموضوعة))^(٢).

أقوال الناس في المهدي:

وقد اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال:

((أحدهما: إن المسيح عيسى ابن مريم هو المهدي على الحقيقة.

واحتمل أصحاب هذا القول بحديث محمد بن خالد الجندي المتقدم وقد بينا حاله وأنه لا يصح فهو رواية مجهول عن متروك وهو مرسل منقطع ، ولو صح لم يكن فيه حجة ، لأن عيسى أعظم مهدي بين يدي الرسول ﷺ وبين قيام الساعة.

وقد دلت النصوص الصحيحة عن النبي ﷺ على نزوله على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، وحكمه بكتاب الله وقتله اليهود والنصارى ووضع الجزية وإهلاك أهل الملل في زمانه ، فيقال في الحقيقة لا مهدي سواه وإن كان غير المهدي.

القول الثاني: إنه المهدي الذي ولي من بني العباس وقد انتهى زمانه.

واحتمل أصحاب هذا القول بحديث في مسند أحمد عن ثوبان ((إذا رأيتم

(١) الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي ، عبد المحسن حمد العباد ، دار الرشيد للطباعة المدينة النبوية ، ص ١٥٧.

(٢) المنار المنيف لابن القيم ، ص ١٤٨.

الرايات السود قد أقبلت من خراسان فائتوها ولو حبواً على الثلج فإن فيها خليفة الله المهدي ((وفيها علي بن زيد ضعيف وله مناكير فلا يحتج به.

القول الثالث: إنه رجل من أهل بيت النبي ﷺ من ولد الحسن بن علي يخرج في آخر الزمان وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملأها قسطاً وعدلاً وأكثر الأحاديث على هذا تدل ، وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف وهو أن الحسن رضي الله تعالى عنه ترك الخلافة لله فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك شيئاً أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه ، وهذا بخلاف الحسين رضي الله عنه فإنه حرص عليها وقاتل عليها فلم يظفر بها والله اعلم. فهذه أقوال أهل السنة.

القول الرابع: الرافضة الإمامية: وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر من ولد الحسين بن علي ، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار الذي يورث العصا ويختم القضاء ، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة فلم تره بعد ذلك عين ولم يحس فيه بخبر ولا أثر ، وهم ينتظرونه كل يوم ، يقفون بالخیل على باب السرداب ، ولقد أحسن من قال ما آن للسرداب أن يلد الذي كلمتموه بجهلكم ما آن على عقولكم العفاء ، فإنكم تلتثم العنقاء والغيلانا ، ولقد أصبح هؤلاء عار على بني آدم ، وضحكة يسخر منها كل عاقل ((^(١).

زمن خروج المهدي:

تضافرت الأدلة من حديث رسول الله ﷺ أن خروج المهدي يكون في زمن نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقبله وأن الدجال يخرج في زمنهما فيتساعدان على قتله.

قال ابن القيم : ((وقال الحارث بن أبي أسامة في مسنده ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثنا إبراهيم بن عقيل عن أبيه عن وهب بن منبه عن جابر قال:

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم ، ص ١٤٨.

قال رسول الله ﷺ ((ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي تعال صل بنا ، فيقول: لا إن بعضكم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة - قال ابن القيم - وهذا إسناده جيد)) (١).

ويؤيد قول الشيخ ابن القيم ما ورد في الصحيحين وقد ذكر في نزول عيسى عليه السلام، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال: فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله لهذه الأمة)) (٢).

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه ، عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: ((وإمامهم رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح فرجع ذلك الإمام ينكص يمضي القهقري ليتقدم عيسى يصلي بالناس فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له تقدم فصل فإنها لك أقيمت ، فيصلي بهم إمامهم فإذا انصرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارباً ويقول عيسى عليه السلام إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله)) (٣).

وإلى هذا ذهب ابن القيم حيث قال: ((وإن عيسى ينزل فيساعده المهدي على قتل الدجال ، وإنه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه)) (٤).

قال ابن كثير: ((هو أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وليس بالمنتظر الذي تزعم الروافض وترتجي ظهوره من سرداب في سامراء فإن ذلك ما لا حقيقة له ولا عين ولا أثر ، وأما ما سنذكره فقد نطقت به الأحاديث المروية ، عن رسول الله ﷺ أنه يكون في آخر الدهر وأظن ظهوره يكون قبل نزول عيسى ابن مريم كما

(١) نفس المصدر ، ص ١٤٢.

(٢) سبق تخريجه في أدلة نزول عيسى عليه الصلاة والسلام ص ٥٦٣ .

(٣) سنن ابن ماجه ، ح ١ ، ص ٥١٤.

(٤) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم ، ص ١٤٢.

دلت على ذلك الأحاديث .. وقد عقد أبو داود السجستاني رحمه الله كتاب المهدي مفرداً في سننه .. وهذا يدل على أن أكبر مدته تسع وأقلها خمس أو سبع سنين ولعله هو الخليفة الذي يحثي المال حثياً والله تعالى أعلم. وفي زمانه تكون الثمار كثيرة والزرع غزيرة والمال وافراً والسلطان قاهراً والدين قائماً والعدو راغماً والخير في أيامه دائماً ((^(١)).

هل المهدي هو عائذ البيت ؟ والذي يحثو المال حثوا ؟ .

وردت أحاديث صحيحة عن أمهات المؤمنين بذكر عائذ بالبيت في آخر الزمان يجتمع الناس حوله وأن الله يهلك ذلك الجيش القادم في طلبه في مكة: فعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : ((يعوذ عائذ بالبيت فإذا كانوا ببیداء من الأرض خسف بهم فقلت يا رسول الله فكيف بمن كان كارهاً قال: يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته))^(٢).

وعن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول: ((ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه حتى إذا كانوا ببیداء من الأرض يخسف بأوسطهم وينادي أولهم آخرهم ثم يخسف بهم فلا يبقى إلا الشريد الذي يخبر عنهم))^(٣).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: عبث رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: ((يا رسول الله صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله فقال: العجب إن ناساً من أمتي يؤمون البيت فإذا برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبیداء خسف بهم ، فقلنا يا رسول الله: إن الطريق قد يجمع الناس ، قال: نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادراً شتاً ليعيثنهم الله على نياتهم))^(٤) قال النووي : عبث رسول الله ﷺ ، معناه اضطراب جسمه وتحريك أطرافه كمن يأخذ أو يدفع شيئاً .

ثم هذا خليفة من أمة محمد ﷺ يحثو المال حثوا ، وأصحاب أصحاب رسول

(١) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير تحقيق خليل شحيا ومحمد حلي ، ح ١ ، ص ٤٠ - ٤٦ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، ح ١٨ ، ص ٤ .

(٣) نفس المصدر ، ح ١٨ ، ص ٥ .

(٤) نفس المصدر ، ح ١٨ ، ص ٦ .

الله ﷺ لا يعتونه عمر بن عبد العزيز ، فيكون هو المهدي تلميحاً لا تصريحاً فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ : ((يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثواً لا يعده عدأً ، قال : قلت لأبي نضرة وأبي العلاء : أترى أن أنه عمر بن عبد العزيز ؟ فقالا : لا))^(١). وقد عده رسول الله ﷺ يكون في آخر الأمة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا لا يعده عدأً))^(٢)

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : ((يكون في آخر أمتي خليفة يقسم المال ولا يعده))^(٣).

وإن القول بأن المهدي هو نفسه الذي وردت به النصوص الصحيحة وأنه العائد بالبيت وأنه الذي يلي الناس ويقيم فيهم العدل والقسط ، فهذا متوافق مع النصوص ويرجحه العلماء عند ذكر المهدي ، وهذا متطابق مع عقيدة أهل السنة والجماعة بعكس الفرق الضالة ، ويكون ظهوره في وقت تكثر فيه الفتن التي يركب بعضها بعضاً فيفقد الناس الأمن والأمانة ، فيبحثون عن رجل من بينهم يكون الأمر له ليبياعوه إماماً لهم ، تهدأ على يديه الفتنة ، وتبرأ به الذمة ، فلا يجدون ذلك بينهم ، فيسمع الناس بوجود رجل في مكة تتوفر فيه هذه الشروط ، فينتشر خبره ، ثم يطلبونه فيحاول الاختفاء عنهم لأنه لا يحب الشهرة ، فهو متواضع ورع ، ثم يعثرون عليه بعد جهد جهيد فيبياعونه رغم أنفه إماماً لهم بين الركن والمقام ، فلا يسمع به أحد من الناس إلا حضر لمبايعته ، ويستتب الأمن ويعم الرخاء في عهده ، ويملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، ويحكم بعدل ينسون فيه الظلم ، ويستمر حكمه حتى نزول عيسى ، فإذا نزل عيسى صلى الله عليه وآله وسلم به وقتاً واحداً وهي صلاة الفجر في بيت المقدس ، ثم يخرج المسيح الدجال ، فيقتله عيسى ،

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراف الساعة، ح ١٨ ، ص ٣٩

(٢) المصدر السابق ج ١٨ ، ص ٣٩ .

(٣) المصدر السابق ج ١٨ ، ص ٣٩ .

ويساعده على قتله المهدي ، ثم ينتهي أمره ، ويسلم الأمر لعيسى بن مريم من بعده ثم يستمر يصلي خلف عيسى بن مريم حتى يموت ، ويصلي عليه عيسى ، ويدفنه في بيت المقدس ، وهو ليس بنبي ، ولا ملك من الملائكة ، والإيمان به واجب تصديقاً للرسول فيما أخبر ، فهو لا يفتن الناس ، ولا يأتي بدين جديد ، ولا شريعة غير شريعة محمد ﷺ فهو رجل مجتهد ، إلا أنه يعدل بين الناس عدلاً لم تعرفه الأمة الإسلامية بعد النبي ﷺ (١).

قال الإمام الشوكاني بعد سوق الأحاديث في المهدي: ((فتقرر بجميع ما سقناه ، أن الأحاديث في المهدي متواتره)) (٢).

وإن الإعراض عن الأحاديث الصحيحة في خروج المهدي ؛ ذلك مما أدى إلى القول بالإفراط والتفريط فيه والصحيح ما أقره مذهب أهل السنة والجماعة .

(١) انظر عقيدة المؤمن ، أبو بكر الجزائري ، دار الكتب السلفية القاهرة ، ص ٢٦٤ .

؛ لوامع الأنوار البهية للسفاريني ، ح ٢ ، ص ٨١ - ٨٦ .

؛ عقيدة الفرقة الناجية ، أهل السنة والجماعة د. عثمان الصوينع ، ص ٤٢٥ .

(٢) منهج الإمام الشوكاني في العقيدة، د. عبد الله نومسوك ، مكتبة دار القلم والكتاب سنة ١٤١٤ هـ ، ص ٧٦٣ .

خروج يأجوج ومأجوج:

وهم خلق من عجائب مخلوقات الله سبحانه وقد ورد وصفهم في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ وآمنت الأمة بوجود هذا الخلق ، إلا من شذ منهم ، وظهر هذا الخلق شرط وعلامة من أشراط الساعة ، وكما ذكر العلماء فإن تلك الأشراف إذا ظهر أحدها فإنها تكون مثل العقد الذي انفرط من نظمه وتتسارع الأحداث ليقضي الله أمراً كان معلوماً عنده سبحانه وهنا تتحقق معجزة أخرى وتكريم من الله تعالى لنبيه عيسى ﷺ ، حيث يهلك الله يأجوج ومأجوج بدعاء عيسى عليه السلام فيصيبهم مرض النغف فيموتون وتمتلئ الأرض أوبئة وروائح ، فيدعو الله عيسى عليه السلام فيرسل طيراً عجيباً في خلقه ليخلصهم من جنث ومخلفات أولئك القوم ، ثم يرسل الله عليهم مطراً . قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ * وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿ (١) .

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ * قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن نَّجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿ (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((يقول الله تعالى: يا آدم ! فيقول: لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، قال: أخرج بعث النار، قال : وما بعث النار ؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير)) ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٣) . قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد ؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ، ومن يأجوج ومأجوج ألف .

ثم قال : والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا فقال : أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة

(١) آية ٩٦ ، وبعض آية ٩٧ سورة الأنبياء.

(٢) آية ٩٣ - ٩٤ سورة الكهف.

(٣) آية ٢ سورة الحج.

فكبرنا ، قال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض ، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود ((^(١)).

وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: ((لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها - فقالت زينب بنت جحش: قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثرت الخبث))^(٢).

وقد أخبر المصطفى ﷺ في صحيح مسلم عن النّوّاس بن سميان ، ﷺ : ((إن الله تعالى يوحى إلى عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتاله الدجال إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها من الماء ، ويمر آخرهم فيقولون كان بهذه ماء، يحصرون عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور خير من مائة دينار))^(٣).

وخروج يأجوج ومأجوج ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، وسموا بهذا الاسم من أجيح النار ، وهو لهبها واستعارها وقيل لشدتها وكثرتها ، أو من الأجاج ، وهو الماء الشديد الملوحة يقال إنهم من ولد يافث بن نوح ، وأنهم معمرين لكل واحد منهم ألف من ولد صلبه أو يزيدون ، ويقدر عددهم بتسعة أعشار بني آدم ، ويروى أنهم عدة قبائل منعهم من الخروج إلينا سد ذي القرنين ، ويحتمل أن يكون الذي بيننا وبينهم مع السد الذي يحصرهم ظلمة تسد الأفق فلا يهتدي إلى ذلك أحد من الناس ،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قصة يأجوج ومأجوج ، ح ٦ ص ٣٨١.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ، ح ٣ ، ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، قصة يأجوج ومأجوج ، ح ٦ ص ٣٨١.

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ، ح ١٨ ، ص ٣.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، ح ١٨ ، ص ٦٨.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝ ﴾ (١). وقد دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام ليلة أسرى به فلم يجيبوا .

وفي صحيح مسلم: ((فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله - يتضرع إلى الله - فيرسل الله تعالى طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله عليهم مطراً فيغسل الأرض منهم)) (٢)(٣).

قال ابن كثير: ((يأجوج ومأجوج طائفتان من الترك من ذرية آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيح ..عندما يقول الله لآدم : أخرج بعث النار فيومئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها ؛ فيقال أبشروا ؛ فإن في يأجوج ومأجوج لكم فداء - وفي رواية- فيقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتهما ، يأجوج ومأجوج)) (٤).

((وهناك أحاديث صحيحة أخرى ذكرت يأجوج ومأجوج ، ومجموع النصوص الواردة بذكرهم يفيد العلم اليقيني بظهور هذه الأمة المفسدة ، في أواخر عمر هذه الدنيا فكان لا بد للمؤمن من تصديق ما ورد به القرآن والخبر الصحيح من أمرهم ، وأما تحديد الزمن الذي تظهر فيه هذه الأمة ، والتفصيلات المتعلقة بأشكالهم وأوصافهم ، ومكان وجودهم قبل ظهورهم ، فكل هذا من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى)) (٥).

(١) سورة الكهف آية ٩٨.

(٢) صحيح مسلم ، ج ٣ ، ص ٩٧.

(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ، ج ٢ ، ص ١٢٢ - ١٢٨.

(٤) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ، ج ١ ، ص ١٥٥؛ وانظر البحث ، ص ٦١٠.

(٥) الإيمان أركانه وحقيقته د. محمد نعيم ياسين ، المطابع التعاونية عمان سنة ١٤٠٠هـ ، ط الثانية ص ١٠٦.

خروج الدابة:

آية من آيات الله وقد وردت في الحديث وأنها من أشراط الساعة وذكر الله في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِغَآيَتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (١).

((وهي دابة لا كالدواب في الدنيا ، ولها أوصاف ، ومن أغرب وأعظم تلك الأوصاف أنها تسم الناس ، فتختم أنف الكافر ، حتى إن أهل الحي يتنادون بينهم يا مؤمن ويا كافر بعد طلوع الشمس من مغربها فتجد إبليس قد خر ساجداً نادماً يوم لا ينفع الندم بعد إغلاق باب التوبة ، وقد جاءه الوقت المعلوم فتقتله الدابة وهو ساجد ولا ينفعه تضرعه وندمه بعد طلوع الشمس من مغربها وقد أغلق باب التوبة وغلب عليه الشقاء ، فلا حول ولا قوة إلا بالله)) (٢).

((وهذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل من مكة وقيل من غيرها)) (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض)) (٤).

قال القاضي عياض: ((هذا الحديث على ظاهره عند أهل الحديث والفقهاء والمتكلمين من أهل السنة خلافاً لما تأولته الباطنية)) (٥).

وقد بين رسول الله ﷺ ، ما قدر الله لهذه الدابة المعجزة في التعرف على المؤمن والكافر فتسم الكافر وقد سموا بالمخطمين ، فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ((تخرج الدابة ، فتسم الناس على خراطيمهم: ثم يعمرهم فيكم

(١) سورة النمل آية ٨٢.

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ، ح ٢ ص ١٤٣ - ١٤٨.

(٣) تفسير ابن كثير ، ح ٣ ص ٣٢٢.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الزمن الذي لا يقبل فيه التوبة ، ح ٢ ، ص ١٩٥ ؛ وانظر البحث ص ٦١٨.

(٥) شرح مسلم للنووي ، ح ٢ ، ص ١٩٥.

حتى يشتري الرجل البعير ، فيقول: ممن اشتريته؟ فيقول: اشتريته من أحد
المخطين^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال: حفظت من رسول الله ﷺ
حديثاً لم أنسه بعد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول الآيات خروجاً طلوع
الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيها ما كانت قبل صاحبها
فالأخرى على أثرها قريباً))^(٢).

الرد على المخالف:

قال الشيخ أحمد شاکر رحمه الله : ((والآية صريحة بالقول العربي أنها دابة،
ومعنى الدابة في لغة العرب معروف واضح لا يحتاج إلى تأويل .. ووردت أحاديث
كثيرة في الصحاح وغيرها بخروج هذه الدابة الآتية ، وأنها تخرج آخر الزمان ،
ووردت آثار أخرى في صفتها لم تنسب إلى رسول الله ﷺ المبلغ عن ربه ، والمبين
آيات كتابه ، فلا علينا أن ندعها ، ولكن بعض أهل عصرنا من المنتسبين للإسلام
الذين فشا فيهم المنكر من القول والباطل من الرأي ، الذين لا يريدون أن يؤمنوا
بالغيب ، ولا يريدون إلا أن يقفوا عند حدود المادة التي رسمها لهم معلموهم
وقدوتهم ؛ ملحدوا أوروبا الوثنيون الإباحيون ، المتحللون من كل خلق ودين ،
هؤلاء لا يستطيعون أن ينكروا إنكاراً صريحاً ، فيحاورون ويداورون ثم يتأولون
فيخرجون بالكلام عن معناه الوضعي الصحيح للألفاظ في لغة العرب ، يجعلونه
أشبه بالرموز ؛ لما وقر في أنفسهم من الإنكار الذي يبتنون))^(٣).

أما قوله ﷺ : ((إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج
الدابة)).

فقال ابن كثير رحمه الله: ((أي أول الآيات التي ليست مألوفة ، وإن كان

(١) مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٦٨ .

؛ شرح السنة للبعوي، ج ٢، ص ١٧٢ ؛ مجمع الزوائد للهيثمى، ج ٦، ص ٨. وقال الهيثمي:
رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ؛ غير عمر بن عبد الرحمن بن عطية ، وهو ثقة .
؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ، ج ١ ص ٦٣٩. والخرطوم : الأنف . لسان العرب
ج ١٢، ص ١٧٣ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي / كتاب الفتن واشراط الساعة ، باب ذكر الدجال ، ج ١٨ ، ص ٧٧ .

(٣) شرح مسند الإمام أحمد للشيخ أحمد شاکر ، أتمه د. الحسيني عبد المجيد هاشم ، دار المعارف
مصر سنة ١٣٣٥هـ، ج ١٥ ، ص ٨٢ .

الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك ، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج ، فكل ذلك أمور مألوفة لأن أمر مشاهدته ومشاهدة أمثاله مألوف ، فأما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف ومخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر ، فأمر خارج عن مجاري العادات ، وذلك أول الآيات الأرضية ، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عاداتها المألوفة أول الآيات السماوية ((^(١)).

((والذي يجب الإيمان به هو أن الله تعالى سيخرج للناس في آخر الزمان دابة من الأرض تكلمهم ، فيكون تكليمها آية لهم دالة على أنهم مستحقون للوعيد بتكذيبهم آيات الله ، فإذا خرجت الدابة ؛ فهم الناس وعلموا أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة ، وقد كانوا قبل ذلك لا يؤمنون بآيات الله ولا يصدقون باليوم الموعود. والذي يؤيد أن هذه الدابة تتطرق وتخطب الناس بكلام يفهمونه هو أنه جاء ذكرها في سورة النمل ، وهذه السورة فيها مشاهد وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطيور والجن وسليمان عليه السلام ، فجاء ذكر الدابة وتكليمها الناس متناسقاً مع مشاهد السورة وجوها العام))^(٢).

بل ((إن هذه الدابة تسم الناس على وجوههم بالكفر والإيمان ، فتجلو وجه المؤمن ، وتخطم أنف الكافر .. وهذا القول يشهد له حديث أبي أمامه رضي الله عنه السابق أن النبي ﷺ قال: ((تخرج الدابة ، فتسم الناس على خراطيمهم))^(٣).

((قال الحاكم أبو عبد الله : الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه))^(٤).

طلوع الشمس من مغربها:

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ اانتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾^(٥).

(١) النهاية في الفتن والملاحم ، لابن كثير ، ح ١ ، ص ١٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ح ٥ ، ص ٢٦٦٧ .

(٣) أشراف الساعة ، يوسف بن عبد الله الوابل ، دار ابن الجوزي الطبعة ١٤ سنة ١٤٢١هـ ، ص ٤١١ ، ٤١٦ .

(٤) فتح الباري ج ١١ ، ص ٣٥٣ .

(٥) سورة الإنعام آية ١٥٨ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها ؛ فذلك حين)) لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)) (١).

قال ابن كثير: ((يقول الله تعالى هذا متوعداً للكافرين به والمخالفين لرسوله والمكذبين بآياته والصادقين عن سبيله .. وذلك كائن قبل يوم القيامة ، وكان يقول ابن مسعود : الآية التي تختتم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراتها كما قال البخاري في تفسير هذه الآية.. قال رسول الله ﷺ : ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)) (٢) وعن حذيفة ابن أسيد أن رسول الله ﷺ قال : ((إنها لن تقوم - الساعة - حتى تروا قبلها عشر آيات : فذكر منها : طلوع الشمس من مغربها)) (٣).

وعن زر بن حبیش قال : أتيت صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه أسأله المسح على الخفين ، فقال ما جاء بك يا زر ؟ فقلت ابتغاء العلم . فقال إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب .. فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قبل المغرب مسيرة سبعين عاماً خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً يعني للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه)) (٤) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

قال ابن كثير رحمه الله : ((فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أحدث إيماناً أو توبة بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل منه ، وإنما كان كذلك والله أعلم لأن ذلك من أكبر أشرار الساعة وعلاماتها الدالة على إقترابها ودنوها ، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة)) (٥).

((وإذا انشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ؛

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير باب ﴿ هَلُمَّ شُهِدَ آءَكُم ﴾ ج ٨ ، ص ٢٩٧ .
صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ح ٢ ص ١٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ح ٢ ، ص ١٦٨ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٨ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٤) سنن الترمذي كتاب الدعوات ، باب فضل التوبة والاستغفار ، ج ٥ ، ص ٥٤٥ .

(٥) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ، ح ١ ، ص ١٧٢ .

فإن كان مصلحاً في عمله ؛ فهو بخير عظيم ، وإن كان مخطئاً فأحدث توبة ؛ حينئذ لم تقبل منه^(١).

قال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: إن رسول الله ﷺ قال: ((إن الهجرة خصلتان إحداهما أن تهجر الشر ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من الغرب فإذا طلعت طُبع على كل قلب بما فيه ، وكُفي الناس العمل^(٢))).

وروى الإمام مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها^(٣))). فجعل رسول الله ﷺ غاية قبول التوبة هو طلوع الشمس من مغربها.

وقد ذكر ابن حجر أحاديث وأثراً كثيرة تدل على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة ثم قال: ((فهذه آثار يشد بعضها بعضاً متفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب ؛ أغلق باب التوبة ، ولم يفتح بعد ذلك ، وأن ذلك لا يختص بيوم الطلوع ، بل يمتد إلى يوم القيامة^(٤)). وهذا إغلاق يعم الخلق في آخر الزمان حين طلوع الشمس من مغربها ، كما أنه لا يغلق باب توبة كل عبد ما لم تغرغر روحه في حلقه كما قال ﷺ : ((إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر^(٥))).

وقد استشكل حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه ((ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة

(١) تفسير ابن كثير تحقيق محمد البنا وعبد العزيز غنيم ومحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ح ٣ ، ص ٣٧١.

(٢) مسند الإمام أحمد ، ح ١ ، ص ١٩٢ ، ح ٤ ، ص ٢٢٥ ، ح ٥ ، ص ٢٧٠ ، ٣٦٣ .
؛ تفسير ابن كثير ح ٢ ص ١٧٠ وقال هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة.

؛ النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ح ١ ، ص ١٧١ . وقال: وهذا إسناد جيد قوي.

(٣) صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ، ح ١٧ ، ص ٧٦.

(٤) فتح الباري ، ح ١١ ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

؛ وانظر أشراف الساعة يوسف الوابل ص ٤٠١ .

(٥) مسند الإمام أحمد تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، ح ٩ ، ص ١٧ - ١٨ . وقال: إسناده صحيح.

(الأرض))^(١) فإن خروج عيسى عليه السلام بعد الدجال عليه اللعنة ، وهو عليه السلام يدعو الناس إلى الإيمان وقبله منهم ، وفي زمنه خير كثير . وأجيب عنه : إن المراد بهذا البعض الذي لا ينفع الإيمان عنده هو طلوع الشمس من مغربها ؛ وإنما لم ينفع الإيمان حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان^(٢) .

قال ابن حجر : ((الذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في الأرض وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي ، وينتهي ذلك بقيام الساعة))^(٣) .

قال الباحث : لقد حذر رسول الله ﷺ أمته من الدجال لما يعرضه من الفتن ولأنه يدعي الألوهية فقال ﷺ : ((ليفرنّ الناس من الدجال في الجبال))^(٤) . و((من سمع بالدجال فليأمنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه ، مما بعث به من الشبهات))^(٥) . وإذا كان الخوف على من آمن فكيف بمن لم يؤمن ، فقطعاً سيتبعه وحينئذ ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ ثم إن رسول الله ﷺ سنّ لأمته أذكراً وأخبرهم بآيات من القرآن وأن مكة والمدينة لا يدخلها الدجال وهذا تحصين لأمة محمد ﷺ من فتنة الدجال . ثم إن الحديث يجيب على ((سؤال اشتهر عن الحكمة في عدم التصريح بذكر الدجال في القرآن مع ما ذكر عنه من الشر وعظم الفتنة به وتحذير الأنبياء منه والأمر بالاستعاذة منه حتى في الصلاة ، وأجيب بأجوبة أحدها أنه وذكر في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا ﴾))^(٦) .

(١) سبق تخريجه ص ٦١٣ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ط ٣ ، ١٤٠٤ هـ ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

(٣) فتح الباري ج ١١ ، ص ٣٥٣ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفتن ، باب بقية أحاديث الدجال ، ج ١٨ ، ص ٨٦ .

(٥) المستدرک للحاكم وصححه ، ج ٤ ، ص ٥٧٦ .

(٦) فتح الباري ، ج ١٣ ، ص ٩١ .

الخشوفات الثلاثة

إحدى أشراف الساعة التي ذكرها المصطفى ﷺ ، حين خرج وصحابته رضوان الله عليهم يتذكرون الساعة ، فقال ﷺ : إن الساعة لن تقوم حتى تروا عشر آيات .. فذكر منها : ثلاث خسوفات : خسف بالمشرف وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب (١) .

قال ابن حجر : ((وقد وجد الخسف في مواضع ، ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدراً زائداً على ما وجد كأن يكون أعظم منه مكاناً أو قدراً)) (٢) .
وإن معتقد أهل السنة والجماعة هو الإيمان بما جاء عن الله سبحانه من هذه الدلائل والأشراط وما صح عن رسوله صلى ﷺ في سنته ، وأن تكون سبباً في زيادة الإيمان والإقبال على الله والحذر والحيلة من تلك الأهوال .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشراف الساعة ، باب الآيات التي تكون قبل الساعة ، ج ١٨ ، ص ٢٧ / ٢٩ .
(٢) فتح الباري لابن حجر ، ج ١٣ ، ص ٨٤ .

النار التي تحشر الناس:

آخر الآيات التي ذكرها المصطفى ﷺ في حديث أشرط الساعة ، ما رواه حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه ، وذكر أنها عشر فقال : ((وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم))^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : ((أول أشرط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب))^(٢).

ولا تعارض بين قولي المصطفى ﷺ فهما حق ولا ينطق عن الهوى ، ومما قال ابن حجر رحمه الله للتوفيق بينهما قوله: ((قلت : وهذا في الظاهر يعارض حديث أنس المشار إليه في أول الباب ، فإن فيه أن أول أشرط الساعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب وفي حديث حذيفة أنها آخر الأشرط ، ويجمع بينهما بأن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً بل يقع بانتهائها النفخ في الصور، بخلاف ما ذكر معها فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا))^(٣).

ثم بين رسول الله ﷺ كيفية حشر الناس ودرجاتهم بناء على ما قدموه في حياتهم الدنيا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين ، وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ويحشر بقيتهم النار ؛ ثقيل معهم حيث قالوا ، وتبیت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا))^(٤).

قال النووي رحمه الله : ((قال العلماء وهذا الحشر في آخر الدنيا قبيل يوم القيامة وقبيل النفخ في الصور بدليل قوله ﷺ وتحشر بقيتهم النار تبیت معهم وتثقل

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب الآيات التي تكون قبل قيام الساعة ، ح ١٨ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج النار ، ح ١٣ ، ص ٧٨ .

(٣) فتح الباري ، ح ١٣ ، ص ٨٢ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، ح ١١ ، ص ٣٧٧ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، ح ١٧ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

وتصبح وتمسي وهذا آخر أشراف الساعة كما ذكر مسلم بعد هذا في آيات الساعة قال وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن ترحل الناس وفي رواية تطرد الناس إلى محشرهم والمراد بثلاث طرائق ثلاث فرق ومنه قوله تعالى إخباراً عن الجن ﴿طَرَائِقُ قِدَدًا﴾^(١) . أي فرقاً مختلفة الأهواء^(٢) .

(١) سورة الجن آية ١١.

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم، ح ١٧، ص ١٩٤ - ١٩٥.

القيامة الصغرى

إن إيمان العبد بالله تعالى ثم باليوم الآخر يقتضي أن يؤمن بما أخبر به المصطفى ﷺ عن ربه تعالى من عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين له ، ذلك هو ما أخبر الله به في كتابه العزيز .

حيث قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٢) . أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً)) (٣) وقد بوب البخاري رحمه الله باباً في كتاب الجنائز ، فقال : باب ما جاء في عذاب القبر ، وقوله تعالى : ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ (٤) .

وقوله جل ذكره : ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (٥) وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ((إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾)) (٦) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن العبد إذا وضع في قبره وتولى وأذهب أصحابه - حتى إنه ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان فأقعداه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة . قال النبي ﷺ : فيراهما جميعاً . وأما الكافر - أو المنافق - فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس . فيقال : لا دريت ولا تليت . ثم يضرب بمطرقة من حديد

(١) سورة إبراهيم آية ٢٧ .

(٢) سورة غافر آية ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

(٤) سورة الأنعام ٩٣ .

(٥) سورة التوبة آية ١٠١ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، ج ٣ ، ص ٢٣١ .

ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعا من يليه إلا الثقلين))^(١) . وهذا الحديث يتضمن سؤال الملكين وفتنة القبر التي أمرنا رسول الله ﷺ بالتعوذ بالله من فتنة وعذاب القبر حيث روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : ((اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات))^(٢) .

بل كان يأمر أصحابه رضي الله عنهم بالاستعاذة في الصلاة بعد التشهد من عذاب وفتنة القبر .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : يقول اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال))^(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ((اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات))^(٤) .

وأما عذاب القبر فقد دلت عليه الأحاديث الصحيحة أيضاً . فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة))^(٥) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : مر النبي ﷺ على قبرين فقال : ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال : بلى ، أما أحدهما فكان يسعى

(١) نفس المصدر ، كتاب الجنائز ، باب الميت الذي يسمع خفق النعال ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، ج ٥ ، ص ٨٧ .

(٤) نفس المصدر ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب عرض مقعد الميت عليه ، ج ١٧ ، ص ٢٠٢ .

بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله (((١) .

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : ((بينما النبي ﷺ في حائط في بني النجار على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال ﷺ : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل أنا : قال : فمتى مات هؤلاء قال : ماتوا في الإشراك ، فقال : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر : قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال . قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال)) (٢) .

وهذه أحاديث صحيحة مثبتة لعذاب القبر ونعيمه وفتنته مؤيدة بآيات من كتاب الله العظيم ذكرها المفسرون للتدليل على عذاب القبر ونعيمه ، قال شارح صحيح مسلم الإمام النووي رحمه الله : ((أعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ (٣) .

وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة ولا يمتنع في العقل أن يعيد الله الحياة في جزء من الجسد ويعذبه وإذا لم يمنعه العقل ، وورد به الشرع وجب قبوله واعتقاده)) (٤) .

وقد أورد ابن تيمية أحاديث عذاب القبر ونعيمه في فتاواه ثم قال : ((وهذا الباب فيه من الأحاديث والآثار ما يضيق هذا الوقت عن استقصائه مما يبين أن الأبدان التي في القبور تتعم وتعذب كما يشاء ، وأن الأرواح باقية بعد مفارقة البدن ، وإن مذهب سلف الأمة وأئمتها ، أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الطهارة ، باب نجاسة البول ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صفة القيامة ، باب إثبات عذاب القبر ونعيمه ، ج ١٧ ، ص ٢٠٢ .

(٣) سورة غافر ٤٦ .

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم ج ١٧ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

ذلك يحصل لروحه ولبدنه ، فإن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة ومعذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ، فيحصل له معها النعيم والعذاب)) (١) .

وبمثل هذا ما أورده ابن القيم حيث قال : ((إن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت يكون في نعيم أو عذاب .. ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين .. ونحن نثبت ما ذكرناه ، فأما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي ﷺ)) (٢) .

قال شارح الطحاوية رحمهما الله : ((وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونيعمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلم في كفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول . فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا . فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام :

أحدهما : تعلقها به في بطن الأم جنيناً .

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث : تعلقها به في حال النوم . فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه النفات البتة ، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم ، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل القيامة .

الخامس : وهو أكمل أنواع تعلقها به يوم البعث للأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق . إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً ، فالنوم أخو الموت ، فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة)) (٣) .

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٤ ، ص ٢٨٤ ، ٢٩٦ .

(٢) الروح لابن القيم تحقيق جمال الدمشقي ، دار الإسراء للنشر - عمان ١٤٢٢هـ ، ص ٧٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٩٩ .

الرد على المخالفين :

وإذا كان عذاب القبر ونعيمه ثابتين عند أهل السنة والجماعة ((السلف)) بالقرآن والسنة ؛ فإن هناك فرقاً قد ضلت الطريق وناعت عن الحق ومنهم من قال : إن ذلك لم يثبت بالقرآن ، فإنما ذلك كان جهلاً منهم وإعراضاً عن سنة المصطفى ﷺ التي بينت ما أجمل في القرآن وفسرت ما أشكل منه .

وهذا ما ذكره ابن القيم حين رد على سؤال من قال : ((ما الحكمة في كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى ؟ .
والجواب من وجهين : مجمل ومفصل .

أما المجمل فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ^(٢) .

والكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة باتفاق سلف الأمة ، وما أخبر به الرسول عن الله فهو واجب تصديقه والإيمان به كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله ، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم .

وأما الجواب المفصل فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن في غير موضع ، فمنها قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ^(٣) .

وهذا الخطاب لهم عند الموت وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون .

(١) سورة النساء ١١٣ .

(٢) سورة الجمعة ٢ .

(٣) سورة الأنعام آية ٩٣ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَوَقَّهٖ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِغَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۚ ۞ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۚ ۞ ﴾ (١) فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُو حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۚ ﴾ (٢) فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر ، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية إذ هي أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام .. ثم قال : وإذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن (٣) .

وقد ردّ ابن تيمية على الفلاسفة الضالين وضلال المتكلمين إنكارهم عذاب القبر ونعيمه فقال : ((إن الروح تبقى بعد مفارقة البدن ؛ خلافاً لضلال المتكلمين ؛ وأنها تصعد وتنزل خلافاً لضلال الفلاسفة ؛ ، وأنها تعاد إلى البدن وأن الميت يسأل ، فينعم أو يعذب ، وفيه أن عمله الصالح أو السيئ يأتيه في صورة حسنة أو قبيحة)) (٤) .

وقال شيخ الشافعية في اليمين ، يحيى العمراني : ((وعند أهل الحديث أن العذاب في القبر حق ، وأن مسألة منكر ونكير في القبر حق على ما جاء في الأخبار وأنكر المعتزلة وأهل الزيغ ذلك كله ، ودليلنا قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ ﴾ (٥) قال أهل التفسير : تثبتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا هو قول لا إله إلا الله ، وفي الآخرة عند المسألة في القبر)) (٦) .

(١) سورة غافر آية ٤٥ ، ٦٤ .

(٢) سورة الواقعة آية ٨٧ - ٩٦ .

(٣) الروح لابن القيم تحقيق جمال الدمشقي ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٤٠ .

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ .

(٥) سورة إبراهيم ٢٧ ..

(٦) الانتصار في الرد على المعتزل القدرية الأشرار ، يحيى العمراني ، تحقيق سعود الخلف ، أضواء السلف ١٤١٩ هـ ، ج ٣ ، ص ٧٠٨ .

وقد أجاب الإمام ابن القيم من سأل عن أولئك الذين أسماهم الزنادقة المنكرين لعذاب القبر ، وسعته ، وضيقه ، وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة ، وكون الميت لا يجلس ولا يقعد في القبر .

فقال : ((الأمر الأول : أن يعلم أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته بل أخبرهم قسمان : أحدهما : ما تشهد به العقول والفطر .

والثاني : ما لا تدركه العقول بمجرد ما كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر . وتفاصيل الثواب والعقاب ، ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً .

الأمر الثاني : أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان . وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله . بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام .

الأمر الثالث : أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثاً ، دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا في الأبدان والأرواح تبعاً لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وأن أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم .

ثم جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيباً ، وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار وذلك من كمال حكمته . وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم . فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريباً منه ويشاهدتهم عياناً ويتحدثون عنده ومعهم الأكفان والحنوط . إما من الجنة وإما من النار ، ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر وقد يسلمون على المحتضر .

فينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونييمه وهو ما بين الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ^(١) وسمي عذاب القبر ونعيمه ، وأنه روضة أو حفرة نار ، باعتبار غالب الخلق فالمصلوب والحريق والغريق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونييمه قسطه الذي تقتضيه أعماله وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتها وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم . وهذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس ، ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك . وأما دار البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضي الحكمة إظهاره ، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما ، فعذاب البرزخ ونييمه أول عذاب الآخرة ونييمها ، وهو مشتق منه وواصل إلى أهل البرزخ كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة ^(٢) .

((وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة ، فينكرون هذه الأمور ؛ من سؤال القبر ، ومن نعيم القبر وعذابه ، والصراط ، والميزان وغير ذلك ؛ بدعوى أنها لم تثبت بالعقل ، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذي لا يجوز الإيمان بشيء إلا عن طريقه ، وهم يردون الأحاديث الواردة في هذه الأمور بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تقبل في باب الاعتقاد ، وأما الآيات فيؤولونها بما يصرفها عن معانيها)) ^(٣) لأنهم قالوا : ((إن الميت لما يدفن لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك فكيف يجوز عليه المسألة والمعاقبة مع الموت .. وأنكر مشايخنا عذاب القبر في كل حال)) ^(٤) .

والحال ((الضابط في ذلك أنها أمور ممكنة أخبر بها الصادق صلوات الله عليه وسلم وآله ، وكل ممكن أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر ،

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٠ .

(٢) الروح لابن القيم ، تحقيق جمال الدمشقي ، ص ٩٠ - ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ . .

(٣) شرح العقيدة الواسطية ، شرح العلامة محمد الهراس ، ص ٢٠١ .

(٤) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، القاضي عبد الجبار ، ص ٢٠٢ .

فإن هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول ﷺ ، فأهل السنة والجماعة يؤمنون
بذلك كله ((^(١)).

(١) شرح العقيدة الواسطية ، ص ٣٠٣ .

النفخ في الصور والحشر

قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ^(١) وقد بَوَّب البخاري رحمه الله باباً فقال : ((باب ونفخ في الصور)) ثم أورد شارح صحيح مسلم الإمام النووي أحاديث النفخ في الصور وقال : ((باب ما بين النفختين)) .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((ما بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة ؟ قال أبيت ، قالوا ، أربعون شهراً ، قال أبيت ، ويلى كل شيء من الإنسان ، إلا عجب الذنب ، فيه يركب الخلق .

زاد مسلم : ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة)) ^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ((إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش ، فلا أدري ، أكنذك كان ، أم بعد النفخة)) ^(٣) .

قال النووي : ((عجب الذنب هو العظم اللطيف الذي أسفل الصلب وهو أول ما يخلق من الآدمي وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه وقوله ﷺ)) كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب ((هذا مخصوص فيخص منه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فإن الله حرم على الأرض أجسادهم)) ^(٤) وقد دل على هذا وعلى النفخ في الصور :

ما رواه أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : ((إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة .

(١) سورة الزمر آية ٦٨ . والصور فرن ينفخ فيه . انظر سنن الترمذي ج ٤ ، ص ٦٢٠

(٢) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب ونفخ في الصور ، ص ٨ ، ٥٥١ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفتن واثبات الساعة ، باب ما بين النفختين ج ١٨ ، ص ٩١ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ج ٨ ، ص ٥٥١ .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ، ج ١٨ ، ص ٩٢ .

فأكثرُوا علي من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي . قالوا يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ - قال : يقولون : بليت - قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)) (١) .

((وذلك أن الله عز وجل إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا ؛ أمر إسرأفيل عليه السلام أن ينفخ في الصور النفخة الأولى . فيصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وتصبح الأرض صعيداً جرزاً ، والجبال كثيباً مهياً ، ويحدث كل ما أخبر الله به في كتابه ، لاسيما في سورتي التكوير والانفطار ؛ وهذا آخر أيام الدنيا.

ثم يأمر الله السماء ، فتمطر مطراً كأنه الطل ، فينبت منه الناس في قبورهم من عجب أذنابهم ، وكل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب . حتى إذا تم خلقهم وتركيبيهم، أمر الله إسرأفيل بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس من الأجداث أحياء، فيقول الكفار والمنافقون حينئذ : ﴿ يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ويقول المؤمنون : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢) ثم تحشرهم الملائكة إلى الموقف حفاة غير منتعلين ، عراة غير مكنتين ، غرلاً غير مختنتين . وعندما سمعت عائشة رضي الله عنها الرسول ﷺ يقول : ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً)) قالت يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعاً ، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)) (٣) . وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : ((إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة ، إبراهيم الخليل)) (٤) .

((وهناك في الموقف تدنوا الشمس من رؤوس الخلائق ، ويلجمهم العرق ، فمنهم من يبلغ كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من يبلغ ثدييه ، ومنهم من

(١) مسند الإمام أحمد ج ٤ ، ص ٨ .

؛ سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة ، ج ١ ، ص ٦٣٥ .
المستدرك للحاكم ، ج ٤ ، ص ٦٠٤ ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٢) سورة يس ٥٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الرقاق باب الحشر ، ج ١١ ، ص ٣٧٧ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ١٧ ، ص ١٩٢ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

يبلغ ترقوته ، كل على قدر عمله ، ويكون أناس في ظل الله عز وجل ، لقوله ﷺ :
((سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله)) (١).

((وقال النبي المصطفى إن سبعة يظلهم الله الكريم بظله
محـب عـفـيـف نـاشـيء مـتـصـدق وباك مصل والإمام بعدله)) (٢)
((فإذا اشتد بهم الأمر ، وعظم الكرب ؛ استشفعوا إلى الله عز وجل بالرسـل
والأنبياء أن ينقذوهم مما هم فيه ، وكل رسول يحيلهم على من بعده ، حتى يأتوا
نبينا ﷺ ، فيقول : أنا لها ، ويشفع فيهم فينصرفون إلى فصل القضاء)) (٣).

(١) شرح العقيدة الواسطية ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، وقد ورد ذكر هؤلاء السبعة فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ
قال : ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل
قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب
وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً
ففاضت عيناه)) فتح الباري ، كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٧ ، ص ١٢٠ .

(٢) فتح الباري ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) شرح العقيدة الواسطية للهراس ، ص ٢٠٧ .

الحوض

صفة الحوض :

وجمع الحوض حياض وهو مجمع الماء والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض ((أنه حوض عظيم ، ومورد كريم ، يمد من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذي هو أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحاً من المسك ، وهو في غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر ، وفي بعض الأحاديث : أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع ، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ، ويثمر ألوان الجواهر ، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شي ، وقد ورد في أحاديث : أن لكل نبي حوضاً ، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً. جعلنا الله منهم بفضلهم وكرمهم)) (١) .

ومن الأحاديث ما رواه :

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : قال : قال النبي ﷺ : ((حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبداً)) (٢) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : ((أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رسول الله ﷺ رأسه مبتسماً إما قال هو ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنه أنزلت علي أنفاً سورة ، فقرأ حتى ختمها ثم قال : هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول: يا رب ! إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٢٨ وانظر فتح الباري ج ١١ ، ص ٤٦٦ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض وقول الله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ . ج ١١ ، ص ٤٦٣ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ، ج ١٥ ، ص ٥٥ .

ولفظ مسلم : ((هو نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير هو حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة)) (١) . وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : ((إني فرطكم على الحوض وإن بعدما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة ، كأن الأباريق فيها النجوم)) (٢) .

الحوض المورد قبل الصراط الممدود :

قل ابن كثير : ((إن قال قائل : فهل يكون الحوض قبل الجواز على الصراط أو بعده ؟ قلت : إن ظاهر ما تقدم من الأحاديث يقتضي كونه قبل الصراط ، لأنه يذاد عنه أقوام يقال عنهم أنهم لم يزلوا يرتدون على أعقابهم منذ فارقتهم ، فإن كان هؤلاء كفاراً فالكافر لا يجاوز الصراط ، بل يكب على وجهه في النار قبل أن يجاوزه ، وإن كانوا عصاة فهم من المسلمين فيبعد حجبهم عن الحوض لاسيما وعليهم سيما الوضوء ، وقد قال ﷺ : ((أعرفكم غراً محجلين من آثار الوضوء)) (٣) . ثم من جاوز لا يكون إلا ناجياً مسلماً فمثل هذا لا يحجب من الحوض فالأشبه والله أعلم أن الحوض قبل الصراط)) (٤) .

قال شارح الطحاوية : ((والأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً .. والحوض في العرصات قبل الصراط ، لأنه يختلج عنه ، ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط .

الحوض قبل الميزان :

قال العلامة القرطبي في التذكرة : واختلف في الميزان والحوض : أيهما يكون قبل الآخر ؟ فقيل الميزان ، وقيل : الحوض والصحيح أن الحوض قبل .. ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض ، بل في الأرض المبدلة ، أرض بيضاء كالفضة ،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق باب في الحوض وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، ج ١١ ، ص ٤٦٤ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ ، ج ١٥ ، ص ٦٤ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١٥ ، ص ٦٥ .

(٣) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، كتاب الوضوء ، باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثاره ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الطهارة ، باب استحباب إطالة الغرة والتججيل في الوضوء ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٤) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

لم يسفك فيها دم ، ولم يظلم على ظهرها أحد قط ، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء - انتهى - فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض ، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر)) ^(١) . بل قد أخبر ﷺ أنه يحال بينه وبينهم فلا يشربون من حوضه ﷺ فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ((لأذودن عن حوضي رجالاً كما تزداد الغريبة من الإبل)) . قال النووي : ((معناه كما يذود الساقى الناقة الغريبة عن إبله إذا أرادت الشرب مع إبله)) ^(٢) .

الرد على المخالفين :

قال القرطبي : قال علماؤنا : كل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض ، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين ، كالخوارج ، والروافض والمعتزلة على اختلاف فرقهم ، فهؤلاء كلهم مبدلون ، وكذا الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وإذلال أهله ، والمعلنون بكبائر الذنوب المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ والبدع ، ثم الطرد قد يكون في حال ، ثم يقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد . انتهى .

- قال صاحب الإرشاد - وقد خالفت المعتزلة فلم تقل بإثبات الحوض مع ثبوته بالسنة الصحيحة الصريحة ، فكل من خالف في إثباته فهو مبتدع وأحرى أن يطرد)) ^(٣) . وقال أبو محمد بن حزم : ((وأما الحوض فقد صحت الآثار فيه وهو كرامة للنبي ﷺ ولمن ورد عليه من أمته ولا ندري لمن أنكره متعلقاً ولا يجوز مخالفة ما صح عن النبي ﷺ في هذا وغيره)) ^(٤) .

((وعند أهل الحديث أن الحسنات والسيئات للموحدين توزن بميزان يوم القيامة ، وأن الصراط حق ، وأن حوض النبي ﷺ حق . وأنكرت المعتزلة القدرية وأهل الزيغ ذلك كله)) ^(٥) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل ، باب حوض نبينا ﷺ وصفته ، ج ١٥ ، ص ٦٤ .

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ، صالح الفوزان ، ص ٢٦٧ . .

(٤) الملل والنحل لابن حزم ، ج ٤ ، ص ٥٥ . .

(٥) الانتصار في الرد على المعتزلة ، يحيى العمراني ، ج ٣ ، ص ٧٢٠ .

((وأجمع أهل السنة السلف على ثبوته . وقد أنكر المعتزلة ثبوت الحوض ،
ونرد عليهم بأمرين :

١ - الأحاديث المتواترة عن الرسول ﷺ .

٢ - إجماع أهل السنة على ذلك .

وهو موجود الآن لقوله ﷺ : ((والله إني لأنظر إلى حوضي الآن .
واستمداده من الكوثر ، ولكل نبي حوض ولكن حوض نبينا ﷺ أكبرها وأعظمها
وأكثرها وارداً))^(١) .

٣ - إن رسول الله ﷺ أخبر أن من أمته من لا يشرب من حوضه ﷺ لعدم اتباعه في
الحياة الدنيا ومخالفتهم ما جاء به ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول
الله ﷺ قال : ((ليردنَّ علي ناس من أصيحابي ، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني
فأقول : أصحابي ؟ فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك))^(٢) .

قال النووي : ((اختلجوا معناه اقتطعوا وأما أصيحابي فوق في الروايات
مصغراً ، قال القاضي : هذا دليل أنهم أهل الردة ولهذا قال فيهم سحقاً سحقاً ، ولا
يقول ذلك في مذنب الأمة بل يشفع لهم ويهتم لأمرهم ، وقيل هؤلاء صنفان أحدهما
عصاة مرتدون عن الاستقامة لا عن الإسلام والثاني: مرتدون إلى الكفر حقيقة))^(٣) .

(١) شرح لمعة الاعتقاد والهادي إلى سبيل الرشاد ، لموفق الدين بن قدامة المقدسي ، للشيخ محمد بن صالح

العثيمين ، دار ابن خزيمة ١٤١٧هـ ، الرياض ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ . وانظر فتح الباري ج ١١ ، ص ٤٦٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض وقول الله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ

الْكَوْثَرَ ﴾ ، ج ١١ ، ص ٤٦٤ .

(٣) شرح النووي ، ج ١٥ ، ص ٦٤ .

الميزان والحساب والكتاب

الميزان وجمعه الموازين : وهو لغة ما تقدر به الأشياء خفة وثقلاً . وشرعاً : ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد . وقد دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف .

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ^(١) ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ^(٢) .
ومن السنة :

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم)) ^(٣) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسولا الله ﷺ ((إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أنتكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتني الحافظون ؟ فيقول : لا ، يا رب ! فيقول : أفلك عذر ؟ قال : لا يا رب ، فيقول : بلى ؟ إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، فيقول : احضر وزنك . فيقول : يا رب ! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء)) ^(٤) .

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٤٧ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأيمان ، باب إذا قال : والله لا أتكلم ، ج ١١ ، ص ٥٦٦ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر ، باب فضل التهليل ، ج ١٧ ، ص ١٨ .
سنن الترمذي كتاب الإيمان ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ج ٥ ، ص ٢٣ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، وقال في حديث الباب الذي قبله والذي رواه عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار)) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . قال أبو عيسى : ووجه هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن أهل التوحيد سيدخلون الجنة ، وإن عذبوا بالنار بذنوبهم فإنهم لا يدخلون في النار . قال =

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :
((الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله وبحمده تملأ ما بين
السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة
لك أو عليك . كل الناس يغدو : فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها))^(١) . وأجمع السلف
على ثبوت ذلك ، وهو ميزان حقيقي له كفتان ، واختلف العلماء هل هو ميزان واحد
أو متعدد؟

فقال بعضهم : متعدد بحسب الأمم والأفراد أو الأعمال ؛ لأنه لم يرد في
القرآن إلا مجموعاً وأما إفراده في الحديث فباعتبار الجنس .

وقال بعضهم : هو ميزان واحد ، لأنه ورد في الحديث مفرداً ، وأما جمعه
في القرآن فباعتبار الموزون وكلا الأمرين محتمل .

والذي يوزن العمل لظاهر الآية والحديث وقيل : صحائف العمل لحديث
صاحب البطاقة . وقيل : العامل نفسه ، وجمع بعض العلماء بين هذه النصوص بأن
الجميع يوزن^(٢) .

قال القرطبي : ((قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن
الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير
الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ
الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾^(٣) يحتتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها
الأعمال ، ويحتتمل أن يكون المراد الموزونات ، فجمع باعتبار تنوع الأعمال
الموزونة أ.هـ .

= الباحث : وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وما يندن حوله المرجئة والصوفية وغيرهم حول حديث
البطاقة وترك الأعمال والتكاليف فليس مما أمرنا به أو أخبرنا به رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله تعالى .
؛ مسند الإمام أحمد ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .
؛ سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ما جاء من رحمة الله يوم القيامة ، ج ٢ ، ص ٥٧٨ .
؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ناصر الدين الألباني ، ج ١ ، ص ٢٦٢ . وقال الألباني : صحيح ، وصححه
الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وحسنه الترمذي .
؛ المستدرک للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ج ١ ، ص ٤٦ .
(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء ، ج ٣ ، ص ٩٩ .
(٢) شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة شرح الشيخ محمد بن عثيمين ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ،
١٤٤ .
(٣) سورة الأنبياء ٤٧ .

والذي دلت عليه السنة : أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان))
(١). وأما الحساب والكتاب فهما ثابتان بالكتاب والسنة والإجماع :

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا *
وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا *
وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ (٢) .

والحساب لغة : العدد ، وشرعاً : اطلاع الله عباده على أعمالهم .
قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (٣) . ((وكان النبي ﷺ يقول في بعض صلاته : اللهم حاسبني حساباً يسيراً فقالت عائشة رضي الله عنها :
ما الحساب اليسير ؟ قال ، أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه ، إنه من نوقش الحساب
يومئذ يا عائشة هلك)) (٤) .

وأما الكتاب والحساب فإن الله يقرر بها عباده وذلك لكمال عدله سبحانه والله
لا يظلم أحداً قال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ
يَوَيْلَئَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٥) . أما الكفار فإنهم يحاسبون وتوزن أعمالهم حابطة
مردودة لأمر :
الأول : إقامة الحجة عليهم ، وإظهار عدل الله فيهم ، ولا أحد أحب إليه
العدر من الله ، وهو صاحب العدل المطلق .

قال القرطبي : ((والباري سبحانه وتعالى يسأل الخلق في الدنيا والآخرة
تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة)) (٦) .

الثاني : إن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم . قال شيخ الإسلام : ((إن

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤١٧ .

(٢) سورة الانشقاق آية ٧ - ١٢ .

(٣) سورة الغاشية آية ٢٥ - ٢٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد ، ج ٦ ، ص ٤٨ .

؛ مشكاة المصابيح للتبريزي ، تحقيق الألباني ج ٣ ، ص ١٥٥٥ وقال : وإسناده جيد وصححه الحاكم
ووافقه الذهبي ؛ وانظر المستدرک للحاكم ج ٤ ، ص ٢٧٨ ، ٦٢٣ .

(٥) سورة الكهف آية ٤٩ .

(٦) التذكرة في أحوال الدنيا والآخرة للقرطبي ص ٢٢٥ .

الحساب يراد به عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها ، وموازنة الحسنات بالسيئات ، فإن أريد بالحساب المعنى الأول ، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الاعتبار ، وإن أريد به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر)) (١) .

ثالثاً : ((إن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم ، ويحلون في النار بمقدار عقاب من قلت سيئاته ، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب ، كما أن أبا طالب أخف عذاباً من أبي لهب فكان الحساب لبيان مراتب العذاب لا لأجل دخولهم الجنة)) (٢) .

وأما المؤمنون فقد أخبر رسول الله ﷺ برحمة الله بعباده المؤمنين عند الحساب فيخلوا سبحانه بعبد المؤمن ويقرره بذنوبه ويستتر عليه ، قيل لابن عمر رضي الله عنهما : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال سمعته يقول : ((يدنو أحدكم من ربه ، حتى يضع كنفه عليه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ، فيقول : نعم . فيقرره ثم يقول : إني سترت عليك في الدنيا ، وأني أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى صحيفة حسناته . وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله ألا لعنة الله على الظالمين)) (٣) .

((وأخذ الكتاب باليمين أو الشمال أو من وراء الظهر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ويجب الإيمان به ، وأنه واقع لا محالة ولا جدال)) (٤)

وأجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة .. وأول ما يحاسب هذه الأمة ، لقول النبي ﷺ : ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضي بينهم قبل الخلائق)) (٥) .

-
- (١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ ، وانظر اليوم الآخر د . عمر الأشقر ، ص ٢٧٦ .
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، ج ١٣ ، ص ٤٧٣ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب التوبة باب سعة رحمة الله تعالى على المؤمنين ، ج ١٧ ، ص ٨٦ .
(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب فرض الجمعة ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ، ج ٦ ، ص ١٤٤ .

وأول ما يحاسب عليه العبد الصلاة ، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء ؛
لقول النبي ﷺ : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
((أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة الدماء))^(١) . والحساب عام لجميع الناس إلا
من استثناهم النبي ﷺ))^(٢) .

الرد على المخالفين في الصراط والميزان والحساب :

قال الإيجي : ((واعلم أن الصراط جسر ممدود على ظهر جهنم يعبر عليه
المؤمن وغير المؤمن ، وأنكره أكثر المعتزلة ، وتردد قول الجبائي فيه نفياً وإثباتاً..
وأما الميزان فأنكره المعتزلة عن آخرهم ، لأن الأعمال أعراض وإن أمكن
إعادتها فلا يمكن وزنها إذ لا توصف بالخفة والثقل ، وأيضاً فالوزن للعمل بمقدارها
وهي معلومة لله تعالى فلا فائدة فيه فيكون قبيحاً . والجواب : أنه ورد في الحديث
أن كتب الأعمال هي التي توزن))^(٣) . وهذا جواب المتكلمين فإنهم يتفقون في أن
الأعراض لا تبقى زمانين وبهذا يكون الأشاعرة قد وافقوا المعتزلة في عدم القول
بوزن الأعمال لأنها أعراض . قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله . ((ووزن الأعمال
بالميزان يوم القيامة حق)) وقال الشارح : ((وقد أنكر المعتزلة الميزان والحساب
والكتاب بعقولهم الناقصة مع وجود الأدلة القاطعة في كل من هذه الأبواب))^(٤) .

((وقد أنكر الصراط والمرور عليه أهل البدعة والهوى من الخوارج ومن
تابعهم من المعتزلة ، وتأولوا الورود برؤية النار لأنه الدخول والمرور على
ظهرها ، وذلك لاعتقادهم أن من دخل النار لا يخرج منها ولو بالأصرار على
صغيرة ، فخالفوا الكتاب والسنة والجماعة وردوا الآيات والأحاديث الواردة في
الورود والمقام المحمود والشفاعة))^(٥) . ((وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة
والمعتزلة ؛ فينكرون هذه الأمور من سؤال القبر ، ومن نعيم القبر ، وعذابه ،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا ﴾ ، ج ١٢ ، ص ١٨٧ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب القسامة ، باب المجازاة بالدماء ، ج ١١ ، ص ١٦٦ .

(٢) شرح لمعة الاعتقاد لابن قدامة شرح الشيخ محمد بن عثيمين ، ص ١٤٠ .

(٣) المواقف في علم الكلام للإيجي ص ٣٨٤ .

(٤) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة شرح علي القاري ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٥) معارج القبول بشرح سلم الوصول ، حافظ الحكمي ، ج ٢ ، ص ٨٥٦ .

والصراط والميزان وغير ذلك ؛ بدعوى أنها لم تثبت بالعقل ، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذي لا يجوز الإيمان بشيء إلا عن طريقه ، وهم يردون الأحاديث الواردة في هذه الأمور بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تقبل في باب الاعتقاد وأما الآيات فيؤولونها بما يصرفها عن معانيها)) (١) .

قال شارح الطحاوية ، ((والذي دلت عليه السنة : أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان .. فعلينا الإيمان بالغيب ، كما أخبرنا الصادق عليه السلام ، من غير زيادة ولا نقصان . ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع ، لخفاء الحكمة عليه ، ويقدر في النصوص بقوله : لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوأل !! وما أحرأه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا . ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده ، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين .. وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله ، أن الحوض قبل الميزان ، والصراط بعد الميزان ففي الصحيحين ؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ((إذا خلس المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمسكنه كان في الدنيا)) (٢) (٣) .

((وعند أهل الحديث أن الحسنات والسيئات للموحدين توزن بميزان يوم القيامة ، وأن الصراط حق .. وأنكرت المعتزلة والقدرية وأهل الزيغ ذلك كله .. وقال محقق الانتصار: وقد أثبت القاضي عبد الجبار المعتزلي الإيمان بالميزان في الآخرة فقال : ((أما وضع الموازين فقد صرح به الله تعالى في محكم كتابه ، ثم ذكر الآيات الدالة على ذلك وقال : ولم يرد الله تعالى بالميزان إلا المعقول المتعارف

(١) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد الهراس ، ص ٢٠٣ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم ، ج ٥ ، ص ٩٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

فيما بيننا))^(١) . فهذا يدل على إثباته للميزان ، إلا أن مفهوم الموازنة بين الحسنات والسيئات عند المعتزلة يختلف عما هو عليه عند أهل السنة ، بل الميزان في الواقع لا فائدة منه .. لأن في أصل مذهبهم أن الحسنات تحبطها السيئات الكبيرة ، فمن فعل كبيرة ولم يتب فإن حسناته كلها تحبط في مقابلها ولا أمل له بالنجاة يوم القيامة^(٢) .. وهذا كله باطل وأقرب للظلم منه للعدل ، فأين ثواب الإيمان وثواب الصلاة والطاعات .. وما ذكروه في الواقع لا معنى له في الموازنة لأن كفة السيئات راجحة وكذلك في حالة الطاعات كفتها راجحة . قال أبو الحسن الأشعري : ((وحقيقة قول المعتزلة في الموازنة أن الحسنات تكون محبطة بالسيئات ، وأن السيئات تكون محبطة للحسنات وتكون أعظم منها))^(٣) .

((أما الصراط ، فلم يذكر الأشعري خلافاً في إثباته إنما اختلف في وصفه ، وعزا الإيجي إنكاره إلى أكثر المعتزلة وأن الجبائي تردد فيه نفيًا وإثباتًا .

وذكره القاضي عبد الجبار المعتزلي وقال : هو طريق بين الجنة والنار يتسع على أهل الجنة ويضيق على أهل النار إذا راموا المرور عليه ، وأنكر أن يكون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ، كما أنكر أن يجوزه المكلفون فيكون من مرّ عليه من أهل الجنة ومن لم يتمكن فهو من أهل النار^(٤) وهذا المعتزلي وإن كان أثبت الصراط في الجملة إلا أنه أنكر الصفات الواردة في الأحاديث عن صفته^(٥) .

قال السفاريني رحمه الله : ((اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة ، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسراً ممدوداً على متن جهنم ، أحد من السيف وأدق من الشعر ، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي وكثير من أتباعه زعماً منهم أنه لا يمكن عبوره ، وأن أمكن ففيه تعذيب ، ولا عذاب على

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ، ص ٧٣٥ وانظر الانتصار في الرد على المعتزلة للعمرائي ، ج ٣ ، ص ٧٢٠ .

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص ٦٤٣ ، ٦٤٤ .

(٣) مقالات الإسلاميين أبي الحسن الأشعري تحقيق محمد عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط الثانية ١٣٨٩ هـ ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

(٤) شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ٧٣٧ .

(٥) الانتصار في الرد على المعتزلة الأشرار ، يحيى العمراني ، تحقيق د . سعود الخلف ، ج ٣ ، ص ٧٢٠ ، ٧٢١ .

المؤمنين والصلحاء يوم القيامة ، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ^(١) وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ ﴾ ^(٢) .

والحق أن الصراط وردت به الأخبار الصحيحة وهو محمول على ظاهره بغير تأويل كما ثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن والصحاح ومما لا يحصى إلا بكلفة من أنه جسر مضروب على متن جهنم يمر عليه جميع الخلائق ، وهم في جوازه متفاوتون)) ^(٣) .

وقال القرطبي : ((إن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن ، فيجريه أو يمشيه ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة ولا استحالة في ذلك للآثار المروية)) ^(٤) .

(١) سورة محمد آية ٥ .

(٢) سورة الصافات آية ٦ .

(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٤) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، ص ٣٣٣ .

الصراط

والصراط لغةً : ((الطريق . وشرعاً : الجسر الممدود على جهنم ليعبر الناس عليه إلى الجنة .. وهو ثابت بالكتاب والسنة وقول السلف .. والصراط حق يجوزه الأبرار ويزل عنه الفجار)) (١) .

قال شيخ الإسلام : ((والصراط منصوب على متن جهنم ، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار ، يمر عليه الناس على قدر أعمالهم فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الإبل ، ومنهم من يعدو عدواً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم من يخطف خطفاً ويلقى في جهنم ، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم . فمن مرّ على الصراط دخل الجنة .

فإذا عبروا عليه ؛ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم في دخول الجنة)) (٢) .

وقد دل عليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴾ (٣) .

قال ابن كثير في التفسير : ((قوله ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق والثانية كالريح والثالثة كأجود الخيل والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون اللهم سلم سلم ، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم)) (٤) . وقد ترجم الإمام البخاري في صحيحه ، فقال : ((باب الصراط جسر جهنم)) قال ابن حجر في شرحه : ((أي الجسر المنصوب على جهنم لعبور المسلمين عليه إلى الجنة)) (٥) .

وقال شارح الطحاوية : ((واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في

(١) شرح لمعة الاعتقاد لابن قدامة للشيخ محمد العثيمين ، ص ١٤٩ .

(٢) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية للشيخ محمد الهراس ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٣) سورة مريم آية ٧١ ، ٧٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

(٥) فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٤٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ما هو ؟ .

والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴾ وفي الصحيح أنه ﷺ قال : ((والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة قالت : حفصة فقلت : يا رسول الله ، أليس الله يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال : ألم تسمعيه قال : ﴿ ثُمَّ نُنجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴾)) (١) .

((أشار رسول الله ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه ، يقال : نجاه الله منهم ..

وكذلك حال الوارد في النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جيثاً)) (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه أخبر أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول ﷺ : ((هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه . فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر . ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت . وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها . فيأتيتهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه . فيأتيتهم الله تعالى في صورته التي يعرفونها فيقول : أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم . وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم المؤمن بقي بعمله ومنهم المجازي

(١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل ، باب فضائل أصحاب الشجرة ، ج ١٦ ، ص ٥٧ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤١٥ ، ٤١٦ .

حتى يُنَجَّى)) (١) .

قال النووي : ((وفي هذا إثبات الصراط ومذهب أهل الحق إثباته وقد أجمع السلف على أثباته وهو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم فالمؤمنون ينجون على حسب حالهم أي منازلهم ، والآخرون يسقطون فيها أعاننا الله الكريم منها .. أما الكلابيب فجمع كُلوب وهو حديدة معقوفة الرأس يعلق فيها اللحم وترسل في التتور ، وأما السعدان وهو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل جانب)) (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من حديثه الطويل في ذلك مرفوعاً وفيه : ((ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم . قلنا يا رسول الله وما الجسر ؟ قال مدحضة مزلة ، عليه خطاطيف وكلاتيب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان ، يمر المؤمن عليها كالطرف والبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً)) (٣) .

وعن أنس عن ابن مسعود رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ((آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتلسه النار مرة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذي نجاني منك ، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين)) (٤) .

وعن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما في حديث استفتاح الجنة عن النبي ﷺ مطولاً .. وفيه ((وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : فقلت بأبي أنت وأمي أي شيء كالبرق ؟ . قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ، ثم كمر الطير ، وشد الرحال

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب صفة الصراط ، ج ٣ ، ص ١٧ .

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الصراط جسر جهنم ، ج ١١ ، ص ٤٤٤ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم كتاب الإيمان باب صفة الصراط ، ج ٣ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ ، ج ١٣ ، ص ٤١٩ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

(٤) نفس المصدر كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجاً ، ج ٣ ، ص ٤٢ .

تجري بهم أعمالهم ، قال ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجئ الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً . قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس في النار ، والذي نفس أبي هريرة بيده إن جهنم لسبعون خريفاً ((^(١)).

وبهذا يكون هناك ورودان للنار : ورود الكفار أهل النار فهذا ورود لا شك فيه كما قال تعالى في شأن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾^(٢) والورود الثاني : ورود الموحدين أي مرورهم على الصراط .

قال ابن رجب : ((واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، ومشرك يعبد مع الله غيره ، فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط ، وإنما يقعون في النار قبل نصب الصراط .. تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا . فتزد النار مع معبودها أولاً .. وأما من كان يعبد المسيح والعزير من أهل الكتاب فإنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء ، ثم يردون النار بعد ذلك .

ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر سواء كان صادقاً أو منافقاً من هذه الأمة وغيرها ، ثم يتميز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم عن السجود ، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين))^(٣) .

ومما دل على هذا التقسيم حديث أبي سعيد الخدري في الرؤية :

فعنه رضي الله عنه قال : ((.. ثم قال ﷺ : ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر وغبرات من أهل الكتاب ، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب ، فيقال لليهود ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال كذبتكم لم يكن لله صاحبه ولا ولد

(١) نفس المصدر ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلاً ، ج ٣ ، ص ٧٠ .

(٢) سورة هود آية ٩٨ .

(٣) التخويف من النار ، للحافظ أبي الفرج ابن الجوزي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .
وانظر اليوم الآخر د . عمر الأشقر دار النفائس عمان ، ط العاشرة ١٤٢١ هـ ص ٢٧٦ .

فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تسقينا . فيقال اشربوا فيتساقطون في جهنم ، ثم يقال للنصارى ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال كذبتُم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون نريد أن تسقينا ، فيقال اشربوا ، فيتساقطون حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، فيقال لهم ما يحبسكم وقد ذهب الناس فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم ، وإنا سمعنا منادياً ينادي : ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا . قال : فيأيتهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا ؟ فلا يكلمه إلا الأنبياء ، فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه ؟ فيقولون : الساق فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جنهم ^(١) .

قال النووي رحمه الله : ((أما البر فهو المطيع ، أما غُبر وغُبرات فبضم الغين وفتح الباء ومعناه بقاياهم جمع غابر)) ^(٢) .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ ج ١٣ ، ص ٤٢١ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب رؤية الله سبحانه ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

الشفاعة

و((الشفاعة هي الطلب وسؤال الخير للغير)) (١) . وهي ثابتة في الكتاب والسنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (٣) .

وقد اختص نبينا محمد ﷺ بالشفاعة العظمى حيث قال تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ (٤) . كما في الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)) (٥) .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((لكل نبي دعوة قد دعا بها في أمته ، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)) (٦) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً)) (٧) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : ((إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له

(١) فتح القدير للشوكاني ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٨ .

(٣) سورة البقرة ٢٥٥ .

(٤) سورة الإسراء ٧٩ .

(٥) سبق تخريجه ص ٣٦٢ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ أنا أول الناس يشفع في الجنة ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب لكل نبي دعوة مستجابة ، ج ١١ ، ص ٩٦ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ وأنا أول الناس يشفع في الجنة ج ٣ ، ص ٧٥ .

الشفاعة^(١) .

((وتلك الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذن الله عز وجل ، سواء في ذلك شفاعة نبينا ﷺ وشفاعة من دونه ، وذلك الإذن يتعلق بالشافع والمشفوع فيه ، وبوقت الشفاعة ، فليس يشفع إلا من أذن الله له في الشفاعة ، وليس له أن يشفع إلا بعد أن يأذن الله له ، وليس له أن يشفع إلا فيمن أذن الله تعالى له أن يشفع فيه))^(٢) .
وقد بين النبي ﷺ أن شفاعته لا تكون إلا لمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ : ((لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ، أو نفسه))^(٣) .

والشفاعة أنواع : منها ما هو متفق عليه بين الأمة ، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع :
النوع الأول : الشفاعة العظمي .

هذه هي الشفاعة الأولى لنبينا محمد ﷺ ، وهي أعظم الشفاعات ، وهي المقام المحمود الذي ذكر الله عز وجل له ووعد إياه وأمرنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله إياه له ﷺ بعد كل أذان ، وقال البخاري رحمه الله تعالى : باب قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾^(٤) .

عن آدم بن علي قال سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول : ((إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود))^(٥) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ، ثم يصلى على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٢) معارج القبول بشرح سلم الوصول ، حافظ الحكمي ، ج ٢ ، ص ٨٨٨ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب الحرص على الحديث ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٤) سورة الإسراء ٧٩ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ ، ج ٨ ، ص ٣٩٩ .

نفس المصدر كتاب الطب ، باب من لم يرق ، ج ١٠ ، ص ٢١١ عن ابن عباس رضي الله عنهما .

النوع الثاني والثالث من الشفاعة : شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم يشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها .

النوع الرابع : شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم ، وقد وافقت المعتزلة هذه الشفاعة خاصة ، وخالفوا فيما عداها من المقامات ، مع تواتر الأحاديث فيها .

النوع الخامس : الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب ، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن ((حين دعا له الرسول ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب)) (١) .

النوع السادس : الشفاعة في تخفيف العذاب عن يستحق كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه .

النوع السابع : شفاعته في جميع المؤمنين أن يؤذن لهم في دخول الجنة .

النوع الثامن : شفاعته في أهل الكبائر من أمته ، ممن دخل النار فيخرجون منها ، وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة ، وقد تواترت الأحاديث بهذا النوع . وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً (٢) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)) (٣) .

الراد على المخالفين :

ذهب كثير من المبتدعة إلى مضاهاة أوليائهم بخالقهم في طلب الشفاعة منهم،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، ج ١١ ، ص ٤٠٥ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ج ٣ ، ص ٩٢ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في الشفاعة ، ج ٥ ، ص ١٠٦ .
؛ سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء في الشفاعة وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، ج ٤ ، ص ٦٢٥ .

؛ مسند الإمام أحمد ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .
؛ المستدرک للحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ج ١ ، ص ٦٩ .

؛ وصححه الألباني ، شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٣٣ .

وقد سُمُوا بالقبوريين وذلك غالب حالهم من ترك المساجد وتعظيم المشاهد وما ينسبونه ((إلى أهل القبور ويضيفونه لهم من التصرفات التي هي ملك لله عز وجل لا يقدر عليها غيره تعالى ولا شريك له فيها ، ورتبوا على ذلك صرف العبادات إلى الأموات ودعاءهم إياهم والذبح والنذر لهم دون جبار الأرض والسموات ، وسؤالهم منهم قضاء الحاجات ودفع الملمات ، وكشف الكربات والمكروهات معتقدين فيهم أنهم يسمعون دعاءهم ويستطيعون إجابتهم)) (١) .

وهذا حال الصوفية والشيعة والباطنية واعتقادهم إجابة السؤال والشفاعة من أوليائهم أحياء وأمواتاً .

((ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال : فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ غيرهم : يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا .

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر . وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر ، وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حداً)) (٢) . وقال القاضي عياض : ((مذهب أهل السنة والجماعة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح القرآن والسنة .. والشفاعة أقسام . أولها مختصة بنبينا ﷺ وهي الإراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب .. والخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وهذه لا ينكرها المعتزلة ولا ينكرون أيضاً شفاعة الحشر الأول ..)) (٣)

المعتزلة وإنكارهم الشفاعة لأهل الكبائر :

حين أصل المعتزلة لأنفسهم أصولاً عقلية لا تعتمد على الوحي قرآناً وسنة ؛ كان ذلك مؤدياً إلى مخالفة أهل السنة والجماعة وسلف الأمة وخلاف ما أمرنا الله به . ومن ذلك قولهم بأصل الوعد والوعيد وبوجوب تحقق وعيده لمن عصاه ، فأنكروا شفاعة نبي الأمة ﷺ في أهل الكبائر وغيره من الأنبياء وصالحى أممهم .

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول ، حافظ الحكمي ، ج ٢ ، ص ٨٨٩ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٣٥ ..

(٣) شرح النووي ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

فقال الجبائي وهو أحد منظريهم : ((إن أهل النار إذا دخلوا النار ، لم يصح خروجهم منها ، لأنهم من أهل العقاب ، ولا يجوز مع ذلك أن يكونوا من أهل الثواب ، لأن ذلك كالمetzاد لو تخلصوا بالشفاعة لم يخل حالهم إذا أدخلهم الله الجنة، من أن يكونوا من أهل الثواب أو التفضل ، والعقل قد دل على أن لا ثواب لهم، والسمع قد دل على أن المكلف في الجنة لا يجوز أن يكون بمنزلة أهل التفضل وأن يكون من خدم أهل الجنة ، فهذا أيضاً يمنع مما قالوه في الشفاعة)) (١) .

ثم قال عبد الجبار : ((فالشفاعة للفساق الذين ماتوا على فسوقهم ولم يتوبوا لا تجوز ، بل مثلها مثال الشفاعة لمن قتل ولد الغير وظل يتربص للآخر حتى يقتله فكما أن هذا قبيح فهي قبيحة أيضاً)) (٢) . ((فالنبي ﷺ لا يشفع لصاحب الكبيرة ، ولا يجوز له ذلك لأن إثابة من لا يستحق الثواب قبيحة، والفساق إنما يستحق العقوبة على الدوام ، فكيف يخرج من النار بشفاعته ﷺ)) (٣) .

ثم حصروا الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة ، ممن قال بها منهم فقال عبد الجبار : ((لا خلاف بين الأمة في أن شفاعة النبي ﷺ ثابتة للأمة ، وإنما الخلاف في أنها تثبت لمن ؟

فعدنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين ، وعند المرجئة أنها للفساق من أهل الصلاة)) (٤) .

وقال الزمخشري : ((الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل ، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب)) (٥) .

وقد ردّ عليهم الباقلاني في الإنصاف فقال :

((واعلم أن المعتزلة افترقت فرقتين : فقوم منهم أنكروا الشفاعة أصلاً ورأساً وردوا الأخبار الصحيحة الواردة فيها وما دل عليه القرآن من ذلك . والفرقة الثانية قالوا : إن للأنبياء شفاعة وللملائكة لكن لثلاث فرق من المؤمنين .

(١) فضل الاعتزال ، ص ٢٠٩ .

(٢) شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ، ص ٦٨٨ . .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٨٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٦٨٨ .

(٥) سورة المؤمنون آية ١٠٠ .

- فرقة منهم : أصحاب صغائر وليست لهم كبيرة من الذنوب .
والفرقة الثانية : قوم عملوا الكبائر وتابوا منها وندموا عليها .
والفرقة الثالثة : قوم من المؤمنين لم يعملوا ذنباً أصلاً .

فأما صاحب الكبيرة الذي مات من غير توبة فلا شفاعة له عندهم وكلا القولين باطل :

أما الفرقة الأولى فجحدت صحة الأخبار الصحاح .

وأما الفرقة الثانية : فذهبت إلى محال من القول لأن الشفاعة عندهم فيمن لم يعمل كبيرة أو عمل وتاب ، ولا معنى لها .. فلم يبق إلا أنهم عاندوا الحق وضلوا السبيل واستحوذ عليهم مرادة الشياطين حتى ردوا القرآن والسنة وإجماع الأمة فنعوذ بالله منهم ومن خبث معتقدهم ((^(١)).

قال شيخ الإسلام : ((أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأل الناس ذلك ، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة . ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، واستفاضت به السنن من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته ، ويشفع أيضاً لعموم الخلق ، فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد ، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء ، والصالحين ، ولكن ما له فيها أفضل مما لغيره فإنه ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عز وجل وله الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين))^(٢) .

وقال القرطبي في تفسيره في أثبات الشفاعة والرد على من نفاها وقد تمسك عليهم في الرد بشيئين أحدهما ، الأخبار الكثيرة التي تواترت في المعنى .
والثاني : الإجماع من السلف على تلقي هذه الأخبار بالقبول ولم يبد أحد منهم في عصر من الإعصار نكير ، فظهور رواياتهم واطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

(١) الإنصاف للباقلاني ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ^(١) . ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ ﴾ ^(٢) قلنا ليست هذه آية عامة في كل ظالم والعموم لا صيغة له فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوء أو كل نفس ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك . وأيضاً فإن الله تعالى أثبت شفاعته لأقوام ونفاها عن أقوام فقال في صفة الكافرين ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ ^(٣) ، وقال ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ^(٥) فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعه إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ ^(٦) النفس الكافرة ^(٧) .

((وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة ، فخالفوا في ذلك ، جهلاً منهم بصحة الأحاديث ، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته)) ^(٨) .

الجنة والنار

خلق الله الخلق وأمرهم بعبادته فمن أحسن فله الجنة ومن أساء فله النار ، ((والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان أبداً ولا تبددان ، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له ، وصائر إلى ما خلق له ، والخير والشر مقدران على العباد)) ^(٩) .

قال الشارح رحمهما الله : ((إن الجنة والنار مخلوقتان ، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل أهل السنة على ذلك ،

(١) سورة غافر ١٨ .

(٢) سورة البقرة ٤٨ .

(٣) سورة المدير آية ٤٨ .

(٤) سورة الأنبياء ٢٨ .

(٥) سورة سبأ ٢٣ .

(٦) سورة البقرة آية ٤٨ .

(٧) تفسير القرطبي ج ١ ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

؛ وانظر الشرح والإبانة للعكبري ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٨) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

(٩) العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي ، ص ٤٣٠ .

حتى نبغت نابغة المعتزلة والقدرية ، فأنكرت ذلك. وقالت : بل ينشئهما الله يوم القيامة !! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد ، وأنه ينبغي أن يفعل الله كذا ، ولا ينبغي أن يفعل كذا ، وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الأفعال .. وحرفوا النصوص عن مواضعها ، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم)) (١) .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ (٣) وقال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ((لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه ، قال : فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : أرجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها)) .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح (٥) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((حفت الجنة

(١) نفس المصدر بشرحه للإمام ابن أبي العز ص ٤٢٠ .

(٢) سورة الدخان آية ٥١ ، ٥٢ .

(٣) سورة ق آية ٣١ ، ٣٢ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٣٣ .

(٥) سنن الترمذي ، كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ج ٤ ، ص ٦٩٣ .

؛ سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب خلق الجنة والنار ، ج ٥ ، ص ١٠٨ .

؛ سنن النسائي ، كتاب الإيمان والنذور ، باب الحلف بعزة الله ، ج ٧ ، ص ٣ .

؛ مسند الإمام أحمد ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، ٣٣٣ ، ج ٣ ، ص ١٥٣ ، ٣٥٤ .

بالمكاره وحفت النار بالشهوات)) (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((يقول الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعكم الله عليه ثم قرأ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾)) (٢) قال الشارح : ((فأما بله فبفتح الباء الموحدة وإسكان اللام ومعناها دع عنك ما أطلعكم عليه فالذي لم يطلعكم عليه أعظم ، وكأنه أضرب عنه استقلالاً له في جنب ما لم يطلع عليه ، وقيل معناها غير وقيل معناها كيف !)) (٤) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ((إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف (٥) من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق ، من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)) (٦) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلهم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً)) (٧) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ج ١٧ ، ص ١٦٥ .

؛ سنن الدرامي ، كتاب الرقاق ، باب حفت الجنة بالمكاره ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

؛ مسند الإمام أحمد ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ ، ٣٨٠ ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٢) سورة السجدة ١٧ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ ، ج ١٣ ، ص ٤٦٤ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ج ١٧ ، ص ١٦٦ .

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم ، ج ١٧ ، ص ١٦٦ .

(٥) الغرف : جمع غرفة ، والمراد القصور العالية في الجنة . مرقاة الصعود ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، ج ٦ ، ص ٣٢٠ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة ، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف ، ج ١٧ ، ص ١٦٩ .

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب في سوق الجنة ، ج ١٧ ، ص ١٧٠ .

وقال الإمام البخاري في صحيحه : ((باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة)) ثم ذكر حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا مات أحدكم فإنه يعرض عليه مقعده بالغدأة والعشي ، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار)) (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال : ((بينما أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فذكرت غيرته فوليت مدبراً ، فبكى عمر ، وقال عليك أغار يا رسول الله)) (٢) .

والنار هي الدار التي أعدها الله في الآخرة للكافرين .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ (٣) وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ (٤) وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ (٥) وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (٦) وقال الإمام البخاري : ((باب صفة النار ، وأنها مخلوقة)) فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((اشتكت النار إلي ربها ، فقالت : رب أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف ، فأشد ما تجدون في الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير)) (٧) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ن كتاب في الجنة وصفة نعيمها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، ج ١٧ ، ص ٢٠٠ .

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صوف الجنة ، أنها مخلوقة ، ج ٦ ، ص ٣١٧ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب الغيرة ، ج ٩ ، ص ٣٢٠ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر رضي الله عنه ، ج ١٥ ، ص ١٦٠ .

(٣) سورة النساء آية ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٦٤ ، ٦٥ .

(٥) سورة الجن آية ٢٣ .

(٦) سورة الزخرف آية ٤ ، ٧٥ .

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قيل يا رسول الله ! إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرها)) (١) .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار ، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وأنه لأهونهم عذاباً)) (٢) .

وقد أخبر المصطفى ﷺ أنه أرى الجنة والنار ثم أخبر أصحابه أنه لم ير من قبل كما رأى ذلك اليوم :

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال صلى لنا يوماً الصلاة، ثم رقى المنبر ، فأشار بيده قبل قبلة المسجد ، فقال : ((قد أريت الآن مذ صليت لكم الصلاة الجنة والنار ممثلتين في قبل هذا الجدار ، فلم أر كالיום في الخير والشر)) (٣) .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن الموت يؤتى به في هيئة كبش ثم يذبح . فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ؛ أن النبي ﷺ قال : ((يؤتى بالموت كهية كبش أملح، فينادي مناد : يا أهل الجنة ! فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ؛ هذا الموت . وكلهم قد رآه . ثم ينادي : يا أهل النار! هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ؛ هذا الموت . وكلهم قد رآه ، فيذبح . ثم يقول يا أهل الجنة ! خلود فلا موت ، ويا أهل النار ! خلود فلا موت ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) ((٥) .

((فتثبت من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الجنة فيها خلوداً

(١) نفس المصدر كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها باب شدة حر جهنم ، ج ١٧ ، ص ١٧٩ .

(٢) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، ج ١١ ، ص ٤١٧ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان صفة ، باب أهون أهل النار عذاباً ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب رفع البصر إلى الأمام في الصلاة ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

(٤) سورة مريم آية ٣٩ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صفة الجنة ونعيمها ، باب جهنم أعاذنا الله منها ، ج ١٧ ، ص ١٨٤ .

؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة مريم ، ج ٨ ، ص ٤٢٨ .

مؤبداً ولا حول عنه ولا زوال . وخلود أهل النار فيها خلوداً مؤبداً لا يفتر عنهم وهم فيه مبسلون إلا ما شاء الله إن ربك فعال لما يريد ، فأهل الجنة ينعمون بنعيم لا ينفد ، وأهل النار يعذبون بعذاب لا ينقطع ..

فيجب الإيمان بهما داري جزاء ومجازاة ، وأنهما مصير الثقلين الجن والإنس . والملائكة في الجنة ، والشياطين في الجحيم ، وقد أعدت النار وأضرمت للشياطين ، والكفار الملحدين ، وجميع من أشرك بالله غيره في العبادة وفي الربوبية، وأن الجنة والنار خالدتان باقيتان أبد الآباد)) (١) .

دوام الجنة لأهلها وأبديتها :

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن الكريم . وأخبر أنهم : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (٣) .

((ويتبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود ، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت ، فهذه تقدمت على حياتهم الأبدية ، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها . والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة)) (٤) .

فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ((ينادي مناد أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وأن لكم أن تنعموا فلا تبئسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥))) وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية الخلود لأهل الجنة في سورة هود : يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ ((وهم أتباع الرسل)) ﴿ فِي الْجَنَّةِ ﴾ أي فمأواهم الجنة

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) سورة الدخان آية ٥٦ .

(٣) سورة هود آية ١٠٨ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٢٦ .

(٥) سورة الأعراف ٤٣ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة ونعيمها ، ج ١٧ ، ص ١٧٥ .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكل إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائماً ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس . ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع .. لئلا يتوهم بعد ذكر المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم .. وهنا طيب القلوب وثبت المقصود ((١) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : ((إن قوله تعالى ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أراد بها سماء الجنة وأرض الجنة كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ((إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، وسقفه عرش الرحمن)) (٢) .

وعلى هذا فلا منافاة بين انطواء هذه السماء وبقاء السماء التي هي سقف الجنة ؛ إذ كل ما علا فإنه يسمى سماء في اللغة ، كما يسمى السحاب سماء والسقف سماء)) (٣) . وقال ابن القيم رحمه الله في أبدية الجنة وأنها لا تفتنى ولا تبديد : ((هذا مما يعلم بالاضطرار ، أن الرسول ﷺ أخبر به قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع . ولا تنافي بين هذا وبين قوله ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ واختلاف السلف في هذا الاستثناء .. ويمكن الجمع بأن يقال : أخبر سبحانه عن خلودهم في الجنة كل وقت ، إلا وقتاً يشاء أن لا يكونون فيها ، وذلك يتناول وقت كونهم في الدنيا ، وفي البرزخ ، وفي موقف القيامة ، وعلى الصراط ، وكون بعضهم في النار مدة ، وعلى كل تقدير فهذه الآية من المتشابه وقوله فيها : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ محكم . وقد أكد الله سبحانه خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وقد تقدم قول النبي ﷺ ((٤) .

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ، ج ١٣ ، ص ٤٠٤ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٥ ، ص ١٠٩ .

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم حققه علي الشرجبي وقاسم النوري ، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٤١٨ هـ ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٨ .

أبدية النار ودوامها :

قال شارح الطحاوية : ((وأما أبدية النار ودوامها فللناس في ذلك ثمانية أقوال :

أحدها : أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد ، وهذا قول الخوارج والمعتزلة .

الثاني : أن أهلها يعذبون فيها ، ثم تتقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النار يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم ! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي .

الثالث : أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ويخلفهم فيها قوم آخرون وهذا القول لليهود ، وأكذبهم الله حيث قال : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتُخَذَتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدُهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١)

الرابع : يخرجون منها وتبقى على حالها ليس فيها أحد .

الخامس : أنها تفنى بنفسها ، لأنها حادثة ، وما ثبت حدوثه استحالة بقاؤه وهذا قول الجهم وشيعته .

السادس : تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً . وهذا قول أبي الهذيل العلاف .

السابع : أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ، ثم يبقيها شيئاً ثم يفنيها ، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه .

الثامن : أن الله تعالى يخرج منها من شاء كما ورد في السنة ، ويبقي فيها الكفار ، بقاء لا انقضاء له ، كما قال الشيخ - ابن تيمية - رحمه الله ((٢) .

وقد دل على القول الثامن وهو قول أهل السنة والجماعة ، القرآن والسنة والإجماع . فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (٣) .

(١) سورة البقرة آية ٨٠ ، ٨١ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٢٧ .

(٣) سورة هود آية ١٠٦ ، ١٠٧ .

قال ابن كثير : ((وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال.. واختار ابن جرير الطبري : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين ، من الملائكة والنبیین والمؤمنين حين يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ)) (١) .

وقد أخبر سبحانه أن الكفار لا يدخلون الجنة فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (٢) . قال ابن القيم : ((وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة)) (٣) . و((أن القرآن دل على ذلك دلالة قطعية، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أنه عذاب مقيم ، وأنه لا يفتر عنهم ، وأنه لن يزيدهم إلا عذاباً ، وأنهم خالدين فيها أبداً ، وما هم بخارجين من النار ، وما هم منها بمخرجين ، وأن الله حرم الجنة على الكافرين ، وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، وأنهم لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها، وأن عذابها كان غراماً، أي مقيماً ملازماً ، وهذا يفيد القطع بدوامه واستمراره والسنة المستفيضة أخبرت بخروج من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان دون الكفار ، وأحاديث الشفاعاة من أولها إلى آخرها صريحة بخروج عصاة الموحدين من النار ، وأن هذا حكم مختص بهم ، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان .

واعتماد الإجماع ، فكثير من الناس يعتقد أن هذا مجمع عليه بين الصحابة والتابعين لا يختلفون فيه ، وأن الاختلاف فيه حادث ، وهو من أقوال أهل البدع)) (٤) .

((واعلم أن النار في الآخرة ناران : نار تنفى ، ونار تبقى أبداً لا تنفى ، فالأولى هي نار العصاة المذنبين من المسلمين ، والأخرى نار الكفار والمشركين ،

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ .

(٢) سورة الأعراف ٤٠ .

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص ٤٣٥ .

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ، ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

هذا خلاصة ما حرره ابن القيم في ((الوابل الصيب)) وهو الحق الذي لا ريب فيه وبه تجتمع الأدلة))^(١).

((فالقرآن شاهد : أن أهل الجنة خالدون فيها أبداً في جوار الله عز وجل في النعيم يتقلبون .. وأن أهل النار الذين هم أهلها في العذاب الشديد أبداً ﴿ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾))^(٢).

وقد أخبر الله سبحانه بأن الجنة في السماء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾^(٣).

((وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء وسميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها ، وما يصعد إليه فيقبض منها))^(٤) ((والأصح أن الجنة في السماء ، وجهنم في الأرض))^(٥).

الرد على المخالفين :

وقد أنكر قوم من أهل البدع أن النار والجنة مخلوقتان الآن قال البغدادي في أصول الدين : ((وهما عندنا مخلوقتان . وزعمت الضرارية والجهمية وطائفة من القدرية أنهما غير مخلوقتين ، وقال الكعبي من المعتزلة ، يجوز أن تكونا مخلوقتين ويجوز أن تكونا غير مخلوقتين ، وإن كانتا مخلوقتين جاز فناؤهما وإعادتهما في القيامة))^(٦).

قال صاحب الانتصار في الرد على المعتزلة : ((وعندنا أن الجنة والنار مخلوقتان ، وأن الجنة في السماء والنار تحت الأرض ، وأنكرت المعتزلة أنهما مخلوقتان))^(٧).

وقال ابن حزم : ((ذهب طائفة من المعتزلة والخوارج إلى أن الجنة والنار لم يخلقا بعد))^(٨).

(١) شرح العقيدة الطحاوية وتعليق الشيخ الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت سنة ١٣٩٨ هـ ، ص ٥١ .

(٢) الشريعة للأجري . ص ٤٠٠ .

(٣) النجم آية ١٣ - ١٥ .

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص ٩٦ .

(٥) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر ، محمد صديق الغوجي تحقيق ، عاصم القريوتي ص ١٢٧ .

(٦) أصول الدين للبغدادي ص ٢٣٨ .

(٧) الانتصار في الرد على المعتزلة يحيى العمراني ، ج ٣ ، ص ٦٥٨ .

(٨) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج ٤ ، ص ٦٨ .

وقال ابن القيم في بيان وجود الجنة الآن : ((لم يزل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة ، وفقهاء الإسلام .. على اعتقاد ذلك وإثباته مستنديين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة ، وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم ، فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن نبغت نابغة من القدرية - الذين أنكروا القدر ونفوا علم الله بالأشياء قبل وقوعها أما المعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن بل الله ينشئها يوم المعاد وأنكرت تقدير الله لأعمال العباد قبل وقوعها .

وحملهم أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله ، وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ، ولا ينبغي له أن يفعل كذا ، وقاسوه على خلقه في أفعالهم .. وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث ، فإنها تصير معطلة مدداً متطاوله ليس فيها سكانها . فحجروا على الرب تبارك وتعالى بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الباطلة وشبهوها أفعاله بأفعالهم ، وردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب .

ولهذا يذكر السلف في عقائدهم : أن الجنة والنار مخلوقتان ، ويذكر من صنف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث ((^(١))). ((ويقررون أن الجنة والنار مخلوقتان)) ((^(٢))).

((والجنة دار أوليائه ، والنار عقابه لأعدائه ، وأهل الجنة فيها مخلدون ، والمجرمون في عذاب جهنم .. وقد خلقت الجنة وما فيها ، وخلقت النار وما فيها خلقهما الله عز وجل قبل القيامة)) ((^(٣))).

وأنكرت طائفة من أهل البدع دوام الجنة والنار ، وأنهما تفتيان قال ابن حزم: ((اتفقت فرق الأمة كلها على أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها ولا للنار ولا لعذابها ، إلا جهنم بن صفوان وأبا الهذيل العلاف وقوماً من الروافض ، فأما جهنم فقال إن الجنة ولنار يفتيان ويفنى أهلها ، وقال أبو الهذيل : إن الجنة والنار لا يفتيان ولا يفنى أهلها إلا إن حركاتهم تفتي ويبقون بمنزل الجماد لا يتحركون وهم

(١) حادي الرواح لابن القيم ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، ص ٢٩٦ ..

(٣) عقيدة أهل الأثر ، محمد صديق حسن خان ، حققه د . عاصم القريوتي ، ص ١٢٧ .

في ذلك أحياء مثلذنون أو معذبون ، وقالت تلك الطائفة من الروافض : إن أهل الجنة يخرجون من الجنة وكذا أهل النار من النار إلى حيث شاء الله .. قال أبو محمد : والبرهان على بقاء الجنة والنار بلا نهاية قول الله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وقوله تعالى في غير موضع من القرآن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

وقال أبو محمد : وروينا عن عبد الله بن عمرو بن العاص ((لو أقام أهل النار في النار ما شاء الله أن يبقوا لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه منها)) . وهذا إنما هو في أهل الإسلام الداخلين في النار بكبائرهم ثم يخرجون منها بالشفاعة ويبقى ذلك المكان خالياً ولا يحل لأحد أن يظن في الصالحين الفاضلين خلاف القرآن وحاشا لهما من ذلك)) (١) .

وقال البغدادي : ((أجمع أهل السنة وكل من سلف من خيار الأمة على دوام بقاء الجنة والنار وعلى دوام نعيم أهل الجنة ودوام عذاب الكفرة في النار . وزعم قوم من الجهمية أن الجنة والنار تفنيان . وزعم أبو الهذيل العلاف أن أهل الجنة والنار ينتهون إلى حال يبقون فيها خموداً ساكنين سكوناً دائماً)) (٢) .

((فإن احتج مبتدع أو زنديق ، بقوله عز وجل : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٣) أو نحو هذا من متشابه القرآن ، قيل له : كل شيء مما كتب عليه الفناء والهلاك هالك ، والجنة والنار خلقنا للبقاء لا للفناء والهلاك .. فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع ، ضل عن سواء السبيل)) (٤) .

وقالت المعتزلة والخوارج بخلود أهل الكبائر في النار إذا ماتوا ولم يتوبوا وهذا أصل المعتزلة الذي ((أطبقوا عليه من إخراج المرء عن الإسلام جملة بذنوب واحد عمله يصرُّ عليه وإيجابهم الخلود في النار عليه بذلك الذنب وحده)) (٥) .

((وزعمت الخوارج إن مخالفيهم كفرة مخلدون في النار ، وقالوا في أصحاب الذنوب من موافقيهم أنهم قد كفروا واستحقوا الخلود في النار . وزعمت

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) أصول الدين للبغدادي ، ص ٢٣٨ .

(٣) سورة القصص ٨٨ .

(٤) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر ، محمد صديق القنوجي تحقيق ، د. عاصم القريوتي ، ص ١٢٧ .

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج ٤ ، ص ١٥٣ .

القدرية أن مخالفهم كفره وأن أهل الذنوب من موافقيهم يخلدون في النار)) (١) .

((ثم إن المعتزلة بعد أن قرروا أن الله لا يغفر لمن خرج من الدنيا على معصية بدون توبة لأن ذلك يتنافى مع عدله وبالتالي مع وعده ووعيده ، بل ومع نظريتهم في الصلاح والأصلح ، وضعوا صاحب الكبيرة في المنزلة بين المنزلتين في الحياة الدنيا وأنزلوه جهنم في الآخرة خالداً فيها غير أن عذابه أخف من عذاب الكافر)) (٢) .

((ذلك أن أهل النار إذا دخلوها لم يصح خروجهم منها لأن في خروجهم ثواباً ، فيصبح الواحد منهم من أهل الثواب ، ومن أهل العقاب معاً وهذا كالمضاد.. فكما ثبت خلود أهل الكفر في النار ثبت أيضاً تخليد قاتل النفس والفار من الزحف وآكل ما اليتيم وغير ذلك ..)) (٣) .

((وحين يجابهون بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٤) وهو صريح في أن الله يغفر لمن يشاء من المذنبين والعصاة يلجؤون إلى التأويل وإن كان متعسفاً)) (٥) .

فيقول الزمخشري لتطويع هذه الآية لمذهبيهم الضال : ((الوجه أن يكون الفعل المنفي لا ((يغفر)) والمثبت ((يغفر)) جميعاً موجهين إلى قوله تعالى : لمن يشاء : كأنه قيل : أن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أن المراد بالأول من لم يتب وبالتالي من تاب . ونظيره قولك . إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ويبذل القنطار لمن يستأهله)) (٦) .

((فقد سوى بين المسلم والمشرک في وجوب التوبة مطوعاً الآية لخدمة هذه التسوية ، لأن الشرك غير مغفور البتة وما دونه من الكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له ، هذا مع عدم التوبة ، وأما مع التوبة فكلاهما مغفور)) (٧) وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة .

(١) أصول الدين للبغدادى ، ص ٢٤٢ .

(٢) المال والنحل للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٣) فضل الاعتزال للقاضي عبد الجبار المعتزلي ، ص ٢٠٩ .

(٤) سورة النساء ٤٨ .

(٥) موقف المعتزلة من السنة النبوية لأبي لبابة حسين ، ص ١٤٢ .

(٦) الكشاف للزمخشري ، ج ١ ، ص ٥٣٢ .

(٧) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - بهامشه - ج ١ ، ص ٥٣٢ .